

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة قسنطينة - 1

رقم التسجيل

قسم الآداب واللغة العربية

كلية الآداب واللغات

عيد الزّاهري

أطروحة مقدمة لنيل دكتوراه علوم في الأدب العربي الحديث والمعاصر

الأستاذ الدكتور محمد العيد تاورته

عبد الكريم طيبش

رئيسا

جامعة قسنطينة - 1

قسنطينة - 1

قسنطينة - 1

قسنطينة - 1

الدكتور محمد العيد تاورته

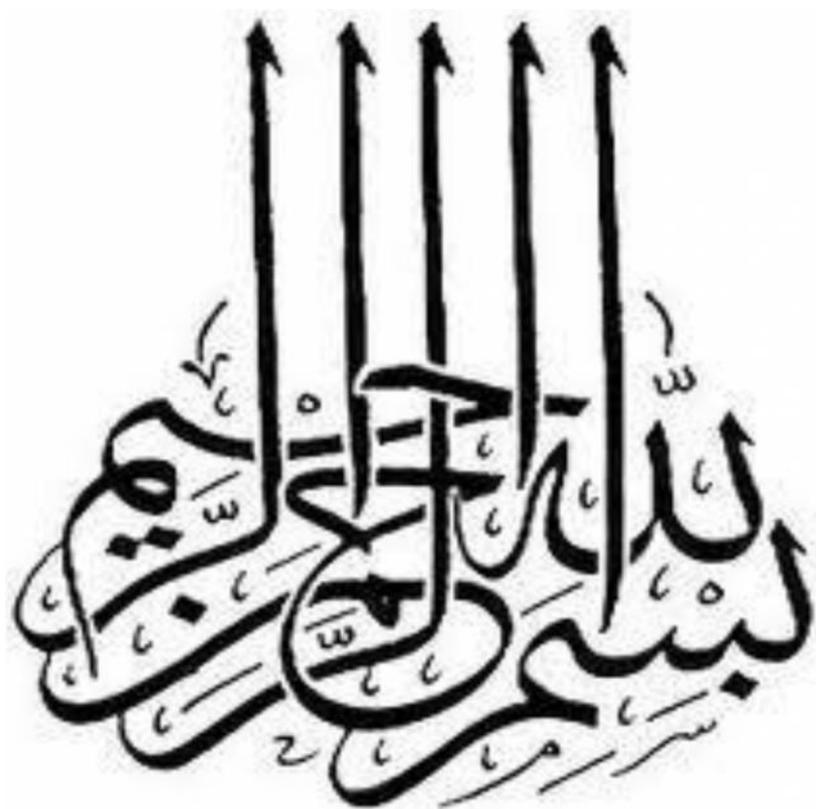
الدكتور عزيز ي

دياب قديد

الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

محمد بوضياف - المسيلة -

ضيف



إهداء

إلى الذي بلغ الرّسالة وأدّى الأمانة
ونصح الأمة.

محمد بن عبد الله
صلّى الله عليه وسلم

شكر واعتراف بالجميل

من أخلاق الكرام الاعتراف بالجميل، ومن لا يشكر الناس لا يشكر الله.
قبيقة، أتقدم بكل عبارات الشكر والتقدير للذي
وقف بجانبى طيلة إنجاز بحثين كاملين؛ الماجستير، و
:

الإسلام الدكتور محمد العيد تاورته.

بذل ه هذا العمل المتواضع على الصورة
وفصوله ومباحثه، وضحي بغالي وقته
التي هو عليها الآن، وكذلك طبعه مع طلبته.

بكفاءته النادرة في تأطير طلبته والصبر عليهم، وبإخلاصه في
غيرته على الوطن وتراثه.

أتقدم بفائق التقدير والاحترام إلى أعضاء لجنة المناقشة الذين ضحوا بأوقاتهم
في سبيل تصحيح رسالتي وتقويمها والكشف عن عيوبها.

الشكر - أيضا - موصول لكل أساتذتي في جميع مراحل مسيرتي التعليمية ومنهم
الدكاترة في المرحلة الجامعية دون استثناء.

أنسى في هذا المقام العاملين بإدارة كلية الآداب وخاصة طاقمها بقسم الأدب
واللغة العربية وفي مقدمتهم
عبد السلام فجاتي.

وامتناني الخالص للذين سعدت بصحبتهم في المركز الجامعي ميلة من أساتذة
وإداريين وطلبة، ومنهم الأستاذ **إبراهيم لقان.**

وأشكر أخيرا أسرتي الصغيرة:
وآسيا وهاجر ونور الهدى والألاء دعمهم ، وتهيئة مناخ البحث والتنقيب.
لي يد المساعدة من قريب أو من بعيد أمثال: كبير المهندسين
حسين ساحلي و مقراني هدى والأستاذ جمال عمورة والطالبة أنسام قديدة.

لم يستكمل هذا البحث الموسوم بـ (الإبداع الأدبي والفكر النقدي عند محمد السعيد الزاهري) صورته التي هو عليه الآن إلا بعد جهد متواضع بذلناه في التنقيب عن المادة الأدبية والتقديّة لهذا الأديب، وهي المادة التي كانت أرضية انطلاق الدراسة. ونشير في مطلع هذه المقدمة إلى أننا كنا قد قمنا بدراسة حول هذا الأديب في مرحلة الماجستير جعلناها حول صحيفة (البرق) لهذا الأديب.

وعلى الرغم من اهتمام بعض الباحثين بأدب الحركة الوطنية الجزائرية إلا أن هذا الأدب ما زال في حاجة ماسة للتعريف به لكي يصبح في متناول أيدي طلبة العلم من الباحثين والدارسين. ولاشك أن الأديب والشاعر والناقد محمد السعيد الزاهري يبقى من بين الأدباء في الحركة الوطنية الجزائرية الذين لم تدرس آثارهم الأدبية والفكرية بشكل كلي منذ الاستقلال إلى الآن، مع أن آثاره الواسعة ونشاطه الفكري يحتاج - في نظرنا - إلى أطروحات وفق أكثر من دراسة.

ومادامت مهمّة الأديب لا تنحصر وفق كثير من الآراء في خدمة المجتمع فحسب، بل هي أيضا؛ في سبيل تحريك الرواكد واختراق حجب تراكمت في أزمنة متوالية، وكذلك لإبراز ما يمكن إبرازه في مجال الإبداع والابتكار وهذا لا يتمّ إلا بتغيير ما يمكن تغييره، وترقيّة ما يجب ترقّيته، وتجديد ما يمكن تجديده، وإحياء ما يمكن إحيائه، وهكذا. ذلك ما أردنا أن نبرزه في دراستنا لإبداع الزاهري في شعره ونثره ونقده على حدّ سواء. وهو موضوع مهمّ - في نظرنا - وقفنا من خلال قسميه وفصوله ومباحثه على الكثير من المسائل. والواقع - في نظرنا أن جيل الزاهري وحقبته الزمنية - لا تزال في حاجة ماسّة إلى دراسات الباحثين لمعرفة جديد هذه الفئة المسمّاة بأدباء الحركة الوطنية الجزائرية، وكذا مواطن الإبداع عندهم شعرا ونثرا.

ولعلّ ذلك كان أوّل الدوافع في سبب اختيارنا لهذا الموضوع. أمّا الدافع الثّاني: فكون هذه الدّراسة جاءت استجابة لما كنا قد طرحناه من

إشكالات في دراستنا السابقة حول أدب محمد السعيد الزاهري من خلال إحدى جرائده*.

والسبب الثالث هو أنّ هذه الدراسة - في حدود علمنا - جديدة في طرحها حول الإبداعات الأدبية والتّقدية عند الزّاهري، لكون كتاباته في مثل هذا المجال لم تُتناول بالتّخصيص في بحث مستقل وفق ما هو عليه في هذا البحث. ومن الموضوعات التي نعتقد أنّ آثار الزّاهري لم تستكمل عند الدّارسين الذين سبقونا تلك التي وجدناها من قضايا وطنية مازالت تستحقّ الدراسة والعناية حتّى الآن. وما عناية هذا الأديب بموضع سكّان أقصى الجنوب الجزائري - مثلاً - في ذلك الوقت من الربع الثاني من القرن العشرين إلا بادرة ذكيّة منه. فقد وجدنا له في هذا المجال مقالا مهما بعنوان: (بحث طريف في التّوارج الملتئميين مقام المرأة السّامي في اجتماعهم وأديبهم - بلادهم وطبقاتهم، أبجديتهم وأديبهم، حياتهم ومعيشتهم). وقد ثبتناه في ملحق الأطروحة.

* لقد سبق لصاحب هذه الأطروحة أن درس (جريدة البرق) للزاهري دراسة أدبية أكاديمية في رسالته لدرجة الماجستير التي نوقشت في قسم اللغة العربية وآدابها، كلية الآداب واللغات بجامعة منتوري، فسنطينة، عام 2006 - 2007 م، الموافق لـ 1427هـ - 1428هـ.

في هذا السياق لابد من طرح بعض الأسئلة حول هذا الموضوع
بغية الوصول إلى تحقيق الهدف المنشود، وهي كما يلي:
ما المكانة التي حظي بها الزاهري بين أقرانه في المغرب العربي
أولا وفي المشرق ثانيا؟ إلى أي مدى كان أدبه معبرا عن المستوى
الذي بلغه الأدب العربي في الجزائر قبل الاستقلال؟ ما المسائل الأدبية
والثقافية التي كانت محل اهتمام الأديب الجزائري في تلك الفترة؟ ما
وجه المقاربة بين كتابات أدباء الجزائر ونظرائهم في المشرق؟ تلك
أسئلة وغيرها حاولت هذه الأطروحة الإجابة عنها ما أمكن، وهي
جديرة بالطرح في هذه الدراسة التي تناولت الإبداع الأدبي والفكر
الثقافي عند ركن من أركان الأدب الجزائري منذ انتهاء الحرب
العالمية الأولى وإلى منتصف القرن العشرين.

ومن الدراسات التي عثرنا عليها حول هذا الأديب، والتي لم تكن وقفا
على أدب الزاهري وحده، فضلا عن أنها اقتصرت على النشر دون غيره.

- (المقالة الصحفية نشأها، تطورها، أعلامها، من 1903م إلى 1931م)
لمحمد ناصر. وهي دراسة ركزت حول مقالات أعلام الأدب الجزائري لتلك
الفترة، وقد أشارت هذه الدراسة إلى كتابات الزاهري الثرية، وذكرت مالها

وما عليها، لكنّها لم تخصّص جوانب الإبداع عند الزاهري دراسة وتحليلاً. ثمّ إنّ الزّاهري ظلّ ينشر مقالات نثرية وقصائد شعرية بعد تاريخ 1931م الذي انتهت إليه دراسة محمد ناصر.

- (فصول في النقد الأدبي الجزائري الحديث)؛ وهي دراسة لمحمد مصايف، وكما تبدو من عنوانها فهي فصول نقدية عامّة لم تخصّص أديبا بعينه، فضلا عن كونها ركّزت على الجانب النّقدي، وهكذا أيضا كتاب (فنون النثر الأدبي في الجزائر 1931م - 1954م)، لصاحبه عبد الملك مرتاض، الذي ذكر الأديب الزّاهري عند حديثه عن المحاولات القصصية الأولى في الأدب الجزائري، وكذلك عن الاتجاه الأدبي لهذا الأديب وعن إصداره لبعض الجرائد الوطنية المكتوبة بالعربية، والشأن نفسه مع كتاب عبد الملك مرتاض أيضا: (نهضة الأدب العربي المعاصر في الجزائر 1925 - 1954م)، ففيه حديث عام عن الزّاهري وأدبه.

- (شعر المقاومة الجزائرية) لصالح خرفي، صحيح أن هذه الدّراسة تناولت قصائد الزّاهري بالدراسة غير أنّها ركّزت على ملامح المقاومة فيها، متّسمة - في مجمل طرحها لأفكار شعراء المقاومة في الجزائر- بالعرض التاريخي. ونظرا إلى طبيعة تلك الدّراسة وأهدافها الكلية حول تلك

المقاومة، فإنّ جوانب الإبداع الفنّي في شعر الزّاهري بقيت غائبة عن الطرح التّفصيلي؛ انتقادا وتحليلا. وكذلك كان الأمر في كتابات صالح خرفي الأخرى سواء حول الزّاهري أو حول غيره من الأدباء الذين اهتمّت بدراسة أديهم (سلسلة الأدب الجزائري الحديث)، ويعد كتابه حول محمّد السعيد الزّاهري، ضمن تلك السلسلة - في نظرنا - انشطارا لكتاب صالح خرفي (الشعر الجزائري الحديث) الذي يُصنّف أيضا - حسب رأينا - من الدّراسات العامة، لأنّ صالح خرفي تحدّث في هذا الكتاب عن مضامين الشعر الجزائري الحديث وطرائق تعبيره عن تلك المقاومة وأهدافها من ذلك، ثم شرح مقاطع من قصائد الشعراء التي رآها أكثر التصاقا بمفهوم الوطنية والنّضال القومي، إلى جانب تلك التي ضمّها الشعر الديني والعاطفي. وكذلك أظهر صالح خرفي من خلال تلك النّماذج جهود رواد أدباء الحركة الوطنية والإصلاحية في الدّفاع عن ثوابت الأمتّة الجزائرية وما حقّقته من إذكاء للمشاعر الديّنية وبناء للروح الوطنيّة.

أمّا عن الزّاهري وشعره فإنّ هذه الدراسة لم تفرد جزءا خاصا تعالج من خلاله قصائده معالجة عميقة تبين فيها مختلف المضامين وترصد المواطن الفنيّة في أسلوب هذا الشّاعر، وإنّما اكتفت - فيما بدا لنا - بذكر مقطوعات

من قصائده كدليل عما تميّزت به الجزائر من وعي تاريخي وتعبئة سياسية وإصلاح اجتماعي فترة احتلالها من طرف المستعمر الفرنسي. ولا بدّ من القول هنا بأنّ هذه الدّراسة حقّقت هدفها الذي سَطّرت من أجله، وهو رصد المقاومة الجزائرية للمحتل من خلال نماذج من قصائد شعراء الجزائر، غير أنّها كانت عامّة في تناولها لأدب الزّاهري وخصائصه الفنيّة، ولعلّ هذا هو الهدف الذي من أجلها أنجزنا هذا البحث المتواضع.

ولعلّ من أهمّ الدّراسات السّابقة - أيضا - في موضوعنا والتي استفدنا منها غاية الاستفادة تلك التي تقدّم بها الباحث عبد السّلام ضيف - لنيل شهادة الماجستير في الأدب الحديث خلال السنة الجامعية 1993م - 1994م بمعهد اللّغة العربيّة وآدابها لجامعة باتنة، والموسومة بـ: (محمد السّعيد الزّاهري كاتبا)، والتي ضمّت مقدّمة وخمسة فصول ثمّ خاتمة وأخيرا توجّحت بملحق صغير.

وقد أشار الفصل الأول من دراسة ضيف إلى حياة الزّاهري وآثاره؛ تحدّث عن مولده وتعلّمه ورحلته إلى تونس والعودة منها ثمّ عن مساره الصحفي. أمّا الفصول الأربعة الموالية له فقد تناول الباحث فيها اتجاهات الزّاهري الإصلاحية منها الدّينية والاجتماعية والسياسية، ثمّ ختمها بالحديث

عن الاتجاه الأدبي. ومن خلال كل ذلك حاول هذا الباحث أن يبرز مواقف هذا الزاهري من قضايا عصره التي شغلت الرأي العام الجزائري، كالطريقة والإلحاد والاندماج والوحدة الوطنية والأصالة والنقد الأدبي. أما الفصل الأخير فقد خصصه لدراسة الخصائص الفنية لنثر الزاهري.

وبقليل من التأمل ندرك من خلال هذا العرض الوجيز لمحتوى فصول ومباحث رسالة عبد السلام ضيف المتعلقة بـ (محمد السعيد الزاهري كاتباً)، أنها دراسة حول نثر الزاهري دون شعره، ورغم أن هناك تقاطعاً مع بعض ما تناولته في أجزاء قليلة من بحثي خاصة فيما يتعلق بالجانب النقدي في كتابات الزاهري، إلا أن دراسة ضيف لم تستوف - في نظرنا - جوانب جهود الزاهري فيما يتعلق بجانب التحليل والعمق في الدراسة. ثم إن ما تقدم به عبد السلام ضيف من طرح في هذه الدراسة عن أدب محمد السعيد الزاهري ونقده يبقى في حاجة إلى دراسات أخرى تعضدها وتتكامل معها، خاصة وأن هذه الدراسة قد اقتصرت في فصولها ومباحثها - كما أشرنا قبل قليل - على نثر الزاهري وخصائصه الفنية، لتبقى بعد ذلك دراسة شعره وجوانبه الإبداعية غائبة كلياً. ولذلك رأيت أن أستكمل ما أعتقد أنه تقصير في حق العناية الفنية

بشعر الزّاهري، فضلا عن أنّ الزّاهري يحتاج إلى أكثر من أطروحة دكتوراه لأنّ لهذا الأديب أكثر من مجال، فهو شاعر وناقد وكاتب وصحفي ومصلح.

رغم فضل الأسبقية التي نالتها دراسة عبد السلام ضيف الموسومة بـ(محمد السعيد الزّاهري كاتباً) إلا أنّنا أحسنا بضرورة إضافات أخرى يستحقّها أدب الزّاهري، من أهمّها: التعمّق في دراسة شعره، ومن أهمّها أيضا محاولة استكمال جمع آثاره وجعلها على شكل موسوعة تشمل كلّ آثاره مثلما قام به بعض الدّارسين مع آثار أعلام الحركة الوطنيّة والإصلاحية ومنهم الدكتور عمار طالبی؛ فقد جمع آثار ابن باديس، ومحمد العيد تاورته الذي جمع آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي التي كتبها قبل الحرب العالمية الثانية، وكذلك أحمد طالب الإبراهيمي الذي استكمل جمع آثار محمد البشير الإبراهيمي في خمسة مجلدات ضخمة، وأحمد شرفي الرفاعي الذي جمع آثار العربي التّبسي، وقد حاول كمال عجالي جمع ودراسة آثار الطيب العقبی، ونحن نريد هنا أن نقوم بجمع آثار الأديب محمد السعيد الزّاهري على هامش هذه الأطروحة.

ولا شكّ أيضا أن الأديب والشّاعر محمد السعيد الزّاهري الذي هو أحد أدباء الحركة الإصلاحية في حاجة إلى دراسات متعدّدة وعميقة - نظرا

لانتساع إنتاجه في أكثر من مجال - وعلى الرغم من أن هناك بعض الدراسات حوله إلا أن أدبه وإنتاجه بشكل عام ما زال في حاجة إلى دراسة وإلى جمع تلك الآثار فضلا عن دراستها.

ثم إننا في هذه الأطروحة ارتأينا أن يكون ملحقها هو محاولة استكمال جمع آثار السعيد الزاهري شعرا ونثرا، فضلا عن جهوده الصحفية التي واجهتنا صعوبات كثيرة للوصول إلى بعض تلك الجهود، كما هو الحال مثلا مع جهده في جريدة (عصا موسى)

ولا بد من القول بكل أمانة إنَّ جلَّ ما أُلِّفَ عن أدب الحركة الوطنيَّة والإصلاحية كان لنا متكئا في هذه المحاولة المتواضعة حول إبداعات محمد السعيد الزاهري الشعريَّة والنثرية والتقدية، فلقد اعتمدنا على كثير من آراء هؤلاء الباحثين من كتاباتهم مباشرة، واستفدت منها الشيء الكثير، وجعلناها قاعدة انطلقنا منها لدراسة الإشكالية المطروحة في الدراسة، بحيث حاولنا أن نستوفي - قدر الاستطاعة - ما نقص لدى من سبقنا من الدارسين حول السعيد الزاهري خدمة للتراث الجزائري عموما ولتراث محمد السعيد الزاهري تحديدا.

ومع علمنا بأنّ البحوث الأكاديمية لا تخلو ميادينها من صعوبات في جميع مراحل الإنجاز، ومع علمنا المسبق أيضا بأنّ الباحث يتعرّض للكثير من العوائق المتنوّعة، فإنّه - بعد توفيق الله - بفضل العزيمة والإرادة التي مصدرهما نصائح المشرف الأستاذ الدكتور محمد العيد تاورته الذي ما فتى يلاحقنا من حين لآخر في منرجات مراحل الإنجاز بإرشاداته وتصويباته القيّمة والتي أفضت في النهاية إلى الصّورة التي أصبح عليها البحث الآن والحمد لله أولا وأخيرا -

ومن الصّعوبات الحادّة: تناثر المادّة الشعريّة منها والثّرية - التي اعتمدت في الدّراسة - في جرائد ومجلات داخل الجزائر وخارجها، ووجودها كان ضروريًا لخدمة البحث في جميع مفاصله، إذ من خلالها يتمكن القارئ من التّعرف عن كثب على الصّورة الحقيقيّة للإبداع الأدبي والفكر النّقدي للأديب الزّاهري خاصّة، وأدباء الحركة الوطنيّة في الجزائر عامّة.

إن جمع مادّة البحث ودراستها وتحليلها يجعل التّقيد بمنهج واحد أمرا في غاية الصّعوبة، لذلك فقد وجدنا أنّ المنهج الفنيّ والتّاريخيّ هما اللذان اقتضتهما الضّرورة، سواء في تتبع أفكار الأديب الزّاهري

واستقراء مضامين قصائده وتحليلها، أو في رصد الأدوات الفنية التي ميّزت صياغته لتلك الأعمال أثناء دفاعه عن مبادئ وقيم أمته العربية والإسلامية، أو تراث وطنه الصغير الجزائر وتقاليده.

غير أن منعرجات الدراسة اضطررتنا للاستعانة بمناهج أخرى منها المنهج النفسي والاجتماعي والإحصائي وبخاصة في معالجة ترتيب نصوص الملحق أو في تحليل بعض القصائد.

ليست هذه الدراسات وحدها هي التي أنارت زوايا بحثنا أو كانت خير دليل لنا في إضاءة بعض الإشكالات المطرحة، وإنما هناك الكثير من الوثائق والكتب العامة التي قدّمت لنا العون، بل كانت من أفضل الزاد في هذا المجال، أذكر منها:

– وثائق جمعية العلماء، وتتمثل في صحف وجرائد هذه الجمعية.

أمّا الكتب فمنها:

– الحركة الوطنية الجزائرية 1900م – 1930م، ج 2، دار الغرب الإسلامي، 1992م، لأبي القاسم سعد الله.

- محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث (بداية الاحتلال)، ط3، لأبي القاسم سعد الله ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر1982م.
- نظرية الإبداع في النقد العربي القديم لعبد القادر هني، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1999م .
- النقد الأدبي الجزائري الحديث لعمار بن زايد، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1990م.
- مجلات عربية.

وبعد اطلاعنا على ما جاءت به هذه المراجع القيمة، والتي مهّدت طريق البحث وذلّت صعوباته، وبعد الاستفادة الكبيرة منها لا بدّ من التّنويه هنا بجهود أصحابها ودورهم الرّائد في نفض الغبار عن الأدب الجزائري وقضاياها، ثمّ وضع مادته الخام بين أيدي الباحثين، غير أنّها كانت في حاجة إلى الكثير من الدّراسات الأكاديمية، وإلى تضافر الجهود وتكاتف الباحثين لترقى إلى المستوى الأمثل.

ولتحقيق الأهداف المتوخّاة من هذه الدّراسة المتواضعة رأينا أنّ نقسمها إلى قسمين وملاحق وفهارس:

القسم الأول بعنوان: (الإبداع الأدبي عند محمد السعيد الزاهري) ويشتمل على ثلاث فصول.

والقسم الثاني بعنوان: (الفكر النقدي عند محمد السعيد الزاهري). ويتكون من فصلين اثنين.
وأخيرا الملاحق والفهارس.

يسبق هذه الأقسام مقدمة فمدخل، ثم خاتمة البحث في نهاية القسمين الأول والثاني يتلوها ملاحق بنصوص شعرية ونثرية رأينا أنها تعبر بصدق عن أدب الزاهري وفكره النقدي، وأخيرا فهارس الأطروحة ويحتوي على قائمة المصادر والمراجع وملخصات الأطروحة بثلاث لغات ثم محتوياتها.

أما المدخل فتحدثت فيه عن الإبداع الأدبي فكان: الإبداع لغة واصطلاحاً، ثم كيف كان ينظر أدباء العرب في العصر الحديث إلى عملية الإبداع الأدبي ومنهم محمد السعيد الزاهري.

لقد رأينا من المفيد أن يضم القسم الأول الذي عنوانه: (الإبداع الأدبي عند محمد السعيد الزاهري)، ثلاثة فصول:

الفصل الأول: الإبداع النثري عند الزاهري

الفصل الثاني: الإبداع الشعري عند الزاهري

الفصل الثالث: الدراسة الفنية (الشعر خاصة)

تناولت في الفصل الأول - بعد نبذة موجزة عن حياة الزاهري - مفهوم الصحافة لدى أدباء الحركة الوطنية الجزائرية. ولأربط ذلك بمباحث الدراسة رأينا أنه لا بد من الكشف عن الأصول الفكرية لتجربة الزاهري الصحفية مع ذكر بعض أشهر الجرائد والمجلات الداخلية والخارجية التي احتوت كتاباته، ثم إدراج بعض الفقرات من نماذج نثرية وشعرية لهذا الأديب رأيناها تخدم جوانب البحث، مستنتجين من حين لآخر ما يمكن استنتاجه.

وفي الفصل الثاني الذي كان بعنوان: الإبداع الشعري عند محمد السعيد الزاهري تحدثنا بشيء من التفصيل عن الزاهري الشاعر ومضامين بعض النماذج من قصائده. ركّزنا عليها لأنها - في نظرنا - تمثل أهم إبداعه الشعري. ثم توّجنا كل نموذج درسناه بملاحظة أشرنا فيها إلى أهم المواطن التي كان الزاهري فيها أسيرا للتراث العربي القديم أو مبدعا ومجددا فيه.

أما الفصل الثالث الذي كان بعنوان: (الدراسة الفنية - الشعر خاصة-) فقد تناولنا فيها الجانب الموسيقي في شعر محمد السعيد الزاهري؛ حددنا من خلال نماذج من قصائده بحور الشعر التي كان ينسج عليها قصائده، وكذا

القافية وحروفها المفضلة لديه. ومن خلال دراسة تلك النماذج أشرنا إلى خصائص شعر رواد الحركة الأدبية والإصلاحية في الجزائر بصفة عامة ومحمد السعيد الزاهري على وجه الخصوص.

أما القسم الثاني الذي كان بعنوان: (الفكر النقدي عند محمد السعيد الزاهري)، فقد قسمناه إلى فصلين هما:

الفصل الأول: (الفكر النقدي عند محمد السعيد الزاهري)

الفصل الثاني: (اللغة والأسلوب في فكر محمد السعيد

الزاهري)

لقد ركزنا في الفصل الأول على النزعة النقدية لأدباء الحركة الأدبية والإصلاحية الوطنية فترة ما بعد الحرب العالمية الأولى، وخاصة عند رجالات الحركة الإصلاحية. وقد تبين من البحث أن الزاهري - في نظرنا - مُميّز في طرحه لأفكار رائدة تعدت حدود المحلية الضيقة سواء في المجال الأدبي أو المجال السياسي أو مجال الأفكار المطروحة على الساحة العالمية خاصة تلك التي لها علاقة بوطنه الجزائر.

أما الفصل الثاني من هذا القسم فكان لتحديد مواطن الاقتباس والتّضمين في أدب الزّاهري شعرا ونثرا، ولمعالجة أدبه لغة وأسلوبا، وكذلك للبحث في الصّورة الأدبية عنده بشكل عام.

وكانت خاتمة البحث رصدًا لأهمّ النّائج الأساسيّة التي توصلت إليها الدراسة من خلال محطة كل فصل من فصول القسمين.

وبخصوص ملاحق الأطروحة وفهارسها فكانت للنصوص الشعرية أولا ثم للنصوص النثرية ثانيا. أما الفهارس فضمت ملخصات الأطروحة باللغات الثلاث: العربية والفرنسية والانجليزية، ثم فهرس محتويات البحث.

وإذا كان لا بدّ في الختام من كلمة فإنّه من الوفاء - بل من الواجب - أن نتقدّم بجزيل الشّكر وأصدق مشاعر التّقدير والمحبّة والاحترام إلى كلّ من كان لنا عوناً - في عملية إنجاز هذا البحث المتواضع - من قريب أو من بعيد؛ من عائلة مقربّة أو أصدقاء وأحبّة أو من أساتذة أفاضل وعلى رأسهم أستاذي المشرف الأستاذ الدكتور محمد العيد تاورته الذي لا أحسبه إلاّ واحداً من الأساتذة الجادين في التدريس والإشراف.

ولا تفوتنا فرصة إسداء عبارات الشّكر والامتنان الخالصة إلى كلّ أعضاء لجنة المناقشة الموقّرة الذين قبلوا بقراءة هذا البحث المتواضع وصبروا على

ما فيه من هنات، والذين ستكون - بلا شك - ملاحظاتهم القيمة حول أقسامه وفصوله بمثابة أوامر يستوجب تنفيذها. دون أن ننسى في هذا المقام هيئة قسم اللغة العربية والكلية والجامعة وجنود الخفاء من وراء الستار العاملين من أجل رفع صرح العلم في ربوع الجزائر.

إن التراخي في الامتثال لنصائح الأستاذ المشرف وتوجيهاته جعلتنا نشعر بالتقصير في حق هذا البحث، ونرى ذلك التقصير ماثلا بين أعيننا كلما راجعنا فصلا منه أو مبحثا، ومن هنا فلا ندعي الكمال لهذه الدراسة المتواضعة، أو استيفائها حق الموضوع كما ينبغي، وإنما يكفينا أننا تعلمنا من هذا الجهد - المتواضع - من الأساتذة الأفاضل أشياء كثيرة عن أدب الحركة الوطنية، وفتحنا ببحثنا الطريق أمام غيرنا من الباحثين بغية إخراج الجهود الأدبية والفكرية والنقدية لأدباء الجيل السابق إلى بساط البحث والتنقيب.

نرجو في الختام أن نكون قد وفّقنا من خلال هذا العمل المتواضع في خدمة تراث بلدنا ولو بالثر قليل، ونسأل الله التوفيق في العمل والسداد في الرأي.

عبد الكريم طبيش، فرجوة، (ماي) 2013م

مدخل

1- تمهيد

قبل التعريف بالجرائد الجزائرية وغير الجزائرية التي نشرت الأعمال الأدبية الشعرية منها والنثرية للأديب محمد السعيد الزاهري، ثم التذكير بأهم هذه الأعمال الإبداعية، ومحاولة إبراز مكانته بين أقرانه من شعراء الأمة العربية في ذلك الوقت، يستحسن الوقوف عند تعريفات ومفاهيم لمصطلح الإبداع في القواميس العربية وكيف فهم معناها المحدثون من أدباء العرب المعاصرين.

2- مفهوم الإبداع لدى القدامى في التراث العربي

احتضنت القواميس القديمة الكثير من الأقاويل حول مدلول كلمة إبداع، وحاولت هذه القواميس جاهدة إزاحة الغموض عنها ووضعها في إطارها، وبخاصة ما تعلق منها بالدراسات حول علوم القرآن الكريم، وهو العمل نفسه الذي قامت به الكتب الدينية من تفاسير وشرح في مجال الشريعة الإسلامية، إذ أوردت معاني تناسبت الفهم الصحيح للإسلام.

أما القواميس العربية القديمة مثل لسان العرب لابن منظور فلم تتخلف عن الركب، فقد أدلت هي الأخرى بدلوها في الموضوع.

والوقوف بالتفصيل في هذه الدراسة (الإبداع الأدبي والفكر النقدي عند محمد السعيد الزاهري) عند التطور الدلالي لمفردة الإبداع ووجوه استعمالاتها قديما

وحديثاً ليس ضرورياً، لذلك سنكتفي هنا بالإشارة إلى ذلك - قدر ما يخدم بحثنا - من خلال تعريفات نوردتها في سياقها الآتي.

لقد عالجتُ قواميس اللغة العربية لفظة إبداع، وبينت أن معناها لا يخرج عن مفهوم الخلق والاختراع، أو الإيجاد من العدم، والأمر المستحدث.

أورد ابن منظور في قاموسه المعروف بلسان العرب لفظة إبداع بمعنى: (بدع، بدع الشيء يبدعه وابتدعه أنشأه وبدأه، وبدع الرمية استنبطها وأحدثها، وركي بديع حديثه الحفر، والبديع والبدع الشيء الذي يكون أولاً. وفي القرآن الكريم: { قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنِ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ }¹ أي ما كنت أول مرسل، قد سبق قبلي كثيرون منهم فكيف تكذبونني؟.

قال الشاطبي في الباب الأول من كتابه الاعتصام في تعريف البدع وبيان معناها وما اشتق منها: (وأصل مادة بدع للاختراع على غير مثال سابق، ومنه

قوله تعالى: (بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)² أي مخترعها من غير مثال سابق متقدم، وقوله تعالى: (قل ما كنت بدعا من الرسل)³ أي: ما كنت أول من جاء بالرسالة من الله إلى العباد، بل تقدمني كثير من الرسل، ويقال: ابتدع فلان بدعة، يعني ابتداء طريقة لم يسبقه إليها سابق. وهذا أمر بديع، يقال في الشيء

¹. سورة الأحقاف، آية 9.

². سورة البقرة، آية 117.

³. سورة الأحقاف، آية 9.

المستحسن الذي لا مثال له في الحسن، فكأنه لم يتقدمه ما هو مثله ولا ما يشبهه.¹

ولعلنا نجد المعنى نفسه عند الزمخشري إذ يقول: (أبداع الشيء وابتدعه: اخترعه، وابتدع فلان هذه الركيّة. وسقاءً بديع: جديد. ويقال: أبداعت الركب إذا كئت. وحقيقته أنها جاءت بأمر حادثٍ بديع)². ولو استعرضنا شرح هذه المفردة إبداع لدى بقية واضعي القواميس العربية القديمة والحديثة لوجدنا المعنى تقريبا ثابتا، وفي مربع واحد وهو: الاختراع والابتكار والجدة، وتأسيس الشيء عن الشيء، وهي - أيضا - قريبة جدا من معنى الخلق الذي هو في تقدير الجرجاني (إيجاد شيء من شيء)³. غير أنه في إيراد الفرق بين مصطلحي الإبداع والخلق ذهب إلى أن الأول أعم من الثاني.

إنّ المعنى المعجمي السابق هو الذي كان في أذهان شعراء العصر الجاهلي والإسلامي وما تلاه.

فهذا عدي بن يزيد يقول:

فلا أنا بدع من الحوادث تعتري رجالا من بعد بؤس بأسعد

¹ الشاطبي: الاعتصام، ضبطه وصححه أحمد عبد الشافي، ج 1، دار شريفة، الجزائر، د ت، ص 27.

² الزمخشري: أساس البلاغة، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 2004م، ص 32.

³ الجرجاني: التعريفات، الدار التونسية للنشر، تونس، 1971م، ص 7.

وكذا المعنى عند حسان بن ثابت:

قوم إذا حاربوا ضرّوا عدوّهم أو حاولوا النفع في أشياعهم نفعوا

وقال الشماخ بن ضرار:

أطار عقيقه عنه نسالاً وأدمج دمج ذي شطر بديع

3- مفهوم الإبداع لدى العرب والمعاصرين المتأثرين بالغرب (خاصة)

تنسب الشاعرة نازك الملائكة في ديوانها: - ديوان نازك الملائكة - اختراع تقاليد الشعر المعروف لدى سائر العرب إلى رجل من عرب الجاهلية، الذي من أشهر صفاته: الأمية، لكنه أدرك ما يناسب زمانه. كما اعترفت الشاعرة بكون هذا الرجل أحد المبتكرين والمبدعين، ثم نبّهت إلى أن الجمود والتحنّط والتقلّب على اختراع السابقين معرّة ومنقصة، وهذا الذي أدّى بشعراء العصر الحديث إلى الوقوع في الأسر، لأنهم أصبحوا تسيرهم قواعد الماضين منذ الجاهلية. ولهذا دعت نازك الملائكة شعراء جيلها إلى التخلّص من قيود الماضين والتمثّلة في الأوزان الخليلية الممجوجة - حسب رأيها - والتي لم يعد لها طعم ولا لون، وبهذا تكون هي سعيدة إن استطاع أقرانها من الشعراء تحطيم صنم الصورة النمطية في نتاجاتهم، وهووا بمعاول الهدم على كلّ ما له علاقة بالماضي، فلا قفا نبك - كما قالت - ولا بانّت سعاد، ولا هل غادر الشعراء، ولا لخولة أطلال، ولا تلك الألفاظ الجاهزة مثل: كافور، والسيف، والهلال والنجس، و...و...

ثم وجهت نازك في حديثها كل من يريد أن يكون من المبدعين من الأدباء إلى خرق القواعد التليدة للشعر العربي، وكذلك الصور الجاهزة فيه، والتحلي بصفة الأديب مرهف الحسّ الذي (لابد له من ثقافة عميقة تمتد جذورها في صميم الأدب المحلي قديمه وحديثه، مع إطلاع واسع على أدب أمة أجنبية واحدة على الأقل، بحيث يتهيا له حسن لغوي قوي لا يستطيع معه إن هو خلق، إلا أن يكون ما خلق جمالا وسُموًا. فإذا خرق قاعدة، أو أضاف لونا إلى لفظة، أو صنع تعبيراً جديداً أحسنا أنه أحسن صنعا، وأمكن لنا أن نعدّ ما أبدع وخرق قاعدةً ذهبية)¹.

وليس هذا فقط بل تتعدى مهمة الأديب - في رأي نازك الملائكة - خرق القواعد، وتحطيم القيود، والانعتاق من أغلال القدامى إلى واجبات أخرى أدق، سيكون لها الشاعر أسيرا من أجل الإبداع والابتكار، هذه المهمة هي ضرورة تغيير منظومة الألفاظ البالية الصدئة الميتة، واستبدالها بأخرى حية موحية تحرك وتضحك وتبكي وتعصف، (ذلك أن الألفاظ تخلق كما يخلق كل شيء يمر عليه إصبع الاستعمال في هذه الحياة المتغيرة، وهي تكتسب بمرور السنين جمودا، يسبغه عليها التكرار، فتفقد معانيها الفرعية شيئا فشيئا، ويصبح لها معنى واحد محدود، يشل عاطفة الأديب، ويحول دون حرية التعبير)².

ونخلص من فكرة الشاعرة التي حاولت توضيحها إلى النتائج الآتية:

¹ - نازك، الملائكة: ديوان نازك الملائكة، المجلد الثاني، ط 2، دار العودة، بيروت، لبنان، 1979، ص 10.

² المرجع نفسه، ص 11.

- الشعر صنعة قديمة وهي ابتكار أهل زمانها.

- شعراء اليوم جامدون.

- الجمود نتيجة تقليد قواعد وقوالب الشعر القديم.

- الإبداع اليوم يكمن في الخروج عن قواعد الشعر القديم.

وليس الأديب الشاعر **جبران خليل جبران** ببعيد عن الشاعرة نازك الملائكة حيال عملية الإبداع، إذ أنه يرى أنّ الأمة العربية متقهرة متخلفة بسبب تقليدها لأسلافها، وقد كانت في يوم ما في صدارة الأمم بإبداعاتها واختراعاتها، وأنّ الغرب يعد الآن متطوراً ومبدعاً بسبب تخليه عن كلّ قديم أبقاه قروناً متخلفاً. وقوة الإبداع والابتكار عنده تدفع باللّغة إلى الحياة، فاللّغة العربية في نظره (مظهر من مظاهر قوّة الابتكار في مجموع الأمة أو ذاتها، فإذا هجعت قوّة الابتكار توقّفت عن مسيرها، وفي الوقوف التّقهقر، وفي التّقهقر الموت والاندثار)¹.

وعناصر الإبداع والابتكار عند **جبران** هي: العزم الذي يدفع بالأمة إلى الأمام، وكذلك الجوع والعطش والشوق إلى غير المعروف، وتلك السلسلة من الأحلام التي تسعى هذه الأمة لتحقيقها ليلاً ونهاراً، ثمّ النّبوغ في الأفراد، والحماسة في الجماعة. هذا ما أجاب به مجلة الهلال عن مفهوم الابتكار. حيث قال: (وما هذه القوّة التي ندعوها بقوّة الابتكار؟ هي في الأمة عزم دافع إلى الأمام، هي في قلبها

² جبران، خليل جبران: بلاغة العرب في القرن العشرين، المكتبة الثقافية، بيروت، لبنان، دت، ص 40.

جوع وعطش وشوق إلى غير المعروف، وهي في روحها سلسلة أحلام تسعى إلى تحقيقها ليلا نهارا، ولكنها لا تحقق حلقة من أحد أطرافها إلا إذا أضافت إلى الحياة حلقة جديدة في الطرف الآخر. هي في الأفراد النبوغ وفي الجماعة الحماسة...¹.

وهنا لابد أن نلاحظ أن جبران تأثر بالمذهب الرومانسي القوي في توظيفه للمفردات والصور والمعاني المفعمة بتلك الروح المتعبة الغارقة في التشاؤم، متخذا من الطبيعة ملاذا، حتى في حديثه عن المستقبل. وعند إجابته عن السؤال: وما عسى أن يكون تأثير التمدن الأوربي والروح الغربية في اللغة العربية؟ صور هذه اللغة التي هي مظهر الإبداع والابتكار إزاء تأثرها بالتمدن والروح الأوروبية بالشجرة، والتمدن وروحه بالطعام، فإذا (تناولته اللغة من خارجها فتمضغه وتبلعه وتحول الصالح منه إلى كيانها الحي، كما تحول الشجرة النور

والهواء وعناصر التراب إلى أفنان فأوراق فثمار، ولكن إذا كانت اللغة بدون أضراس تقضم، ولا معدة تهضم، فالطعام يذهب سدى، بل ينقلب سما قاتلا)².

والمدلول هنا هو الدعوة إلى ضرورة الإطلاع الواسع على الآداب الأجنبية، والانفتاح عليها، والاحتكاك بأدبائها، وهو كذلك شرط الإبداع عند نازك.

¹. المرجع نفسه، ص 40.

². المرجع السابق، ص 41.

لكنّ جبران يشترط لصنع الإبداع والابتكار ذوبان شخصية الأمة وانحلالها في غيرها، ولا بدّ أن تكون في حالة تأهب وتمددّ وتشعبّ كما كان الأسلاف (ولكن إذا كانت اللّغة بدون أضرار تقضم، ولا معدّة تهضم، فالطعام يذهب سدى بل ينقلب سمّاً قاتلاً: وكم من شجرة تحتال على الحياة وهي في الظلّ فإذا ما نقلت إلى نور الشّمس ذبلت وماتت)¹.

ويتجلّى في القول المقتضب مفهوم الإبداع الذي يريده جبران من خلال تنويهه بما قامت به طوائف من الشعراء الموهوبين في أوروبا وأمريكا. كما وصفهم - حيث ابتكروا لأنفسهم طريقة جاءت قصائدهم وموشحاتهم من خلالها بليغة من ناحية، وجديدة من ناحية أخرى. فلا سبيل - إذا - إلى الإبداع في فنّ الشعر عنده إلا بالتوفيق بين عامي اللّغة وفصيحتها. وفي ذلك يقول اقتداء بما سنّه شعراء أوروبا وأمريكا في سبيل الإبداع (وعندي أنّ في الموالى والزّجل والعتابا والمعنى من الكتابات المستجدة، والاستعارات المستملحة، والتّعبيرات الرّشيقة المستنبطة، ما لو وضعناه بجانب تلك القصائد المنظومة بلغة فصيحة، والتي تملأ جرائدنا

ومجلّاتنا، لبانت كباقة من الرّياحين بقرب رابية من الحطب، أو كسرب من الصّبايا الرّاقصات المترنّمات قبالة مجموعة من الجثث المحنّطة)².

إنّ الشّاعر المقلّد عند جبران (ناسج كفنّها (اللّغة) وحفّار قبرها)³، أمّا المبدع فهو ذلك العابد الزّاهد) الذي يدخل هيكل نفسه، فيجثو باكيا فرحا نادبا

¹ . المرجع نفسه، ص ن.

² . جبران، خليل جبران: بلاغة العرب في القرن العشرين، ص 46.

³ . المرجع نفسه، ص 47.

مصغيا مناجيا، ثم يخرج وبين شفثيه ولسانه أسماء وأفعال وحروف واشتقاقات جديدة لأشكال عبادته التي تتجدد في كل يوم، وأنواع انجذاباتة التي تتغير في كل ليلة، فيضيف بعمله هذا وترا فصيّا إلى قيتارة اللّغة، وعودا طيبا إلى مواقدها¹.

ويتفق كل من: جبران ونازك في مفهوم المقلد من الشعراء، إذ يرى الاثنان أنّ كل من يعبر عن أحاسيسه وخلجات نفسه وأحلامه بما يشبه ما جسد به الأقدمون حلهم وترحالهم وعشقهم، لاشكّ هو شاعر مقلد، ولا خير في قريضه. يقول جبران: (أما المقلد فمقلد حتى في حبه وغزله وتشبيهه، فإن ذكر وجه حبيبته قال: بدر وغزال، وإن شكا قال: جفن ساهر، وفجر بعيد، وعذول قريب. وإن شاء أن يأتي بمعجزة بيانه، قال: حبيبي تستمطر لؤلؤ الدمع من نرجس العيون لتسقي وردة الخدود، وتعضّ على عتاب أناملها ببرد أسنانها. يترنم

صاحبنا ترنم الببغاء بهذه الأغنية العتيقة، فهو لا يدري أنه يسمم ببلادته دسم اللّغة، ويمتهن بسخافته وابتذاله شرفها ونبالتها)².

إن الإبداع لدى الكثير من أدباء ونقاد العصر الحديث حلم يتمنونه في عملية دفن الماضي كما يقول جبران (وحبذا اليوم الذي ندفن فيه الطائيات

¹. م ن، ص 48.

². المرجع السابق، ص 48.

واللّاميات والعينيّات والخياليّات في غبار التّاريخ، ونفتح لشعرنا مجالا للخيال والتّعبير، لا تحصره قافيّة، ولا يقيدّه روي¹.

مشكلة المحدثين من الشعراء في مسألة الإبداع مع الأوزان الخليليّة والعروض والقوافي، إنّها السّد المنيع، والصّور الحديدي الحائل دون إبداع الشعراء المعاصرين.

لقد أشار كل من جبران ونازك إلى ذلك فعداً هذه المسائل هي التي أفقدت الشعراء القدرة على الإتيان بمثل ما جادت به قرائح اليونانيين والرومانيين (لقد دفعنا حتّى هذا اليوم جزية باهظة للقواعد والتّقاليد ولا نزال ندفع ضريبة فاحشة من الأفكار الجميلة والخيالات السّحرية والصّور الفنيّة لتلك التّقاليد عينها - ويخال لي - وأنا مؤكّد تقريبا حقيقة خيالي أنّ تلك التّقاليد هي أكبر الأسباب، بل السّبب الوحيد الذي حرّمتنا من شاعر روائي كبير كهوميروس ومن شاكلة من

القدامي، وقضى على أبناء الضّاد أن لا تكون لهم آثار فنيّة شعريّة كالليونان والهنود والعجم وغيرهم)².

لاشك أنّ الذي ذهب إليه جبران هو عينه الذي صرّحت به نازك وكأنّ نظرتهما إلى الإبداع تخرج من مشكاة واحدة. فهي تتحدّث عن القافيّة، وتصفها

¹. م ن ، ص 86.

². المرجع السابق، ص 84.

بالحجر الذي يجب أن تلقم به الطريقة القديمة في كل بيت شعري، وتبين أن ذلك كان واحدا من الأسباب التي حالت دون وجود الملحمة في الأدب العربي، مع أنها وجدت في آداب الأمم المجاورة، كالفرس واليونان)¹.

4- مفهوم الإبداع لدى محمد السعيد الزاهري

أما المقصود بالإبداع لدى أدباء الحركة الإصلاحية ومنهم محمد السعيد الزاهري في البيئة الجزائرية مطلع النهضة فلا يعدو أن يكون خروجاً من السجن الذي وضعه المستعمر فيه الأمة الجزائرية بكل مقوماتها، وبخاصة (اللغة) التي أداة الإبداع والفكر.

ومن هنا فإن ما قام به السعيد الزاهري من كتابات (شعرا ونثرا وجرائد صحفية) باللغة العربية التي أصبحت لديه ولدى جيله مرنة بالنسبة للقرن الزمني الذي سبقها (1830م - 1930م) يعد إبداعاً حقيقياً بمقاييس الظروف التي عاشتها الجزائر وأجيالها في ظل الحكم الاستعماري الفرنسي.

¹. نازك الملائكة: ديوان نازك الملائكة، م 2، ص 18.

الإبداع الأدبي عند محمد السعيد الزاهري

1. تمهيد

2. الفصل الأول: الإبداع النثري عند الزاهري

3. الفصل الثاني: الإبداع الشعري عند الزاهري

4. الفصل الثالث: الدراسة الفنية

(التشكيل الموسيقي خاصة)

1- تمهيد

يعدّ محمد السعيد الزاهري في الأصل ناثرًا من الطراز الأوّل - في اعتقادنا - ودليلنا على هذا الحكم كثرة الصّحف التي أسّسها في الوطن، أو تلك التي كتب فيها عدّة مقالات متنوعة بالخارج، وعلى ذلك سنبدأ هذا الفصل ببيان الصّحف والأماكن التي كتب فيها أو تجلّت فيها آثاره على النحو الآتي:

الإبداع النثري عند محمد السعيد الزاهري، ومباحثه:

- 1- تمهيد حول حياة الزاهري
- 2- مفهوم الصحافة عند أدباء الحركة الوطنية في الجزائر
- 3- الأصول الفكرية لصحافة الأديب محمد السعيد الزاهري
- 4- الجرائد والمجلات التي تضمنت كتابات الزاهري

أ- المغرب العربي

ب- المشرق العربي

أمّا الفصل الثاني فإنّ الحديث فيه جاء عن:

الإبداع الشعري عند محمد السعيد الزاهري.

تحدثنا أولاً عن الزاهري الشاعر، ثم انتقلنا إلى انتقاء أربعة نماذج من قصائد الشاعر من بحر الطويل إشارة إلى أن معظم إنتاجه الشعري جاء على هذا البحر، والقصائد المختارة تعالج مختلف الأحداث لذلك حاولنا دراستها والتعليق عليها. وأما مباحث هذا الفصل على النحو الآتي:

- الزاهري الشاعر

- مضامين قصائد الزاهري

أ. القصيدة الأولى: "الجزائر تحيي الجزائر"

ب. القصيدة الثانية: "الجزائر تحيي المتطوعين"

ج. القصيدة الثالثة: "إلى الزعيم الجزائري بالإسكندرية"

د. القصيدة الرابعة: "ليت قومي يعلمون"

أما الفصل الثالث فقد خصصناه لـ :

الدراسة الفنيّة تناولنا فيها بصورة أساسية :

- التشكيل الموسيقي لقصائد الزاهري، وذلك أن كنا تناولنا المضامين

الشعرية لدى السعيد الزاهري في الفصل الثاني من هذا القسم الأول.

1 تمهيد

محمد السعيد الزاهري في حياته

اسمه الكامل: محمد السعيد الزاهري بن البشير بن علي بن ناجي، أصبح عمره عام 1344هـ ستة وعشرين عاما، كما جاء في سيرته الذاتية التي بعث بها تلبية لطلب محمد الهادي الزاهري الذي ثبتها في كتابه: (شعراء الجزائر في العصر الحاضر) الجزء الأول بالصفحة 63، حيث قال: (في 25 شعبان نفضت يدي من ستة وعشرين عاما تمت لي من عمري)¹.

ومن تصريح الشاعر نفسه تكون عام ولادته هو 1318هـ بخلاف ما ذكر الدكتور محمد بن سمينة في جريدة البصائر من أن ولادة الزاهري كانت عام 1317هـ².

و (ليانة) مسقط رأس الزاهري، وهي منطقة واسعة تقع بين ثلاث مدن هي بسكرة وباتنة وخنشلة وبها قضى الزاهري حياته الأولى؛ حيث حفظ القرآن وتلقى معارفه الأولى في العلوم الدينية واللغوية. وقد أخذ الزاهري تلك العلوم الأولى على يد كل من :

¹ محمد الهادي الزاهري: شعراء الجزائر في اتلعر الحاضر، ج1، ط1، المطبعة التونسية، تونس 1962م، ص 63.

² - محمد بن سمينة: (من أعلام الجزائر، محمد السعيد الزاهري)، البصائر عهد الاستقلال، ع 408، من 8 إلى 14 سبتمبر 2008م، ص 21.

- جده لأبيه (الشيخ على بن ناجي) الذي كان يحثه على طلب العلم ولو

كان بالصين

- عمه (الشيخ عبد الرحيم) الذي كان يلازمه عامة النهار وقسطا من

الليل

- (الشيخ محمد بن ناجي) الذي تعلم منه علم الفرائض

- (الشيخ علي بن العابد التونسي الزاهري) الذي كان يراجع معه معلوماته

ويصححها

ونلاحظ أن هذه الكوكبة من الشيوخ تكوّن عائلة الزاهري، وهي التي أشرفت

على تعليمه وتربيته إلى أن بعثت به إلى معهد عبد الحميد ابن باديس بقسنطينة
وإلى جامع الزيتونة بتونس.

تاقت نفس محمد السعيد الزاهري إلى المزيد من العلم، فطلبه بقسنطينة الذي

مكث به أربعة عشرة شهرا يزاول الدروس ويغرف من علوم الدين واللغة. وبعدها

انتقل إلى تونس، أين حط رحاله بجامعها المشهور (جامع الزيتونة) لمدة أربع

سنوات توجت في النهاية بشهادة التطبيع.

أساتذته بتونس

. يذكر الزاهري أنه تعلم على يد العديد من علماء جامع الزيتونة بتونس ثم وعدّ

منهم ثلاثة هم:

. محمد النخلى وعثمان بن الخوجة ومعاوية التميمي.

عودته الى الجزائر

بعد أن تحصل الزاهري على شهادة التطويق عاد إلى الجزائر عام 1925م واستقر بالعاصمة وأخذ مكانه بين علماء الإصلاح، وسار على نهجهم في الوعظ والإرشاد والتربية والتعليم.

وكان الزاهري من بين المؤسسين لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين عام 1933م، وأحد أعضائها الفاعلين، ثم أصبح يمثلها في كل من مدينة وهران وتلمسان، لكنه في أواخر الثلاثينيات من القرن العشرين قلل من نشاطه تحت مظلة هذه الجمعية التي اختلف معها في بعض الآراء الخاصة بالإصلاح، وأخيرا أصبح من الذين يجاهرونها بالعداء.

استمر نشاط الزاهري في إطار الحركة الوطنية الإصلاحية الواسعة كأديب ومفكر وناقد إلى أن قتل عام 1956م بالجزائر العاصمة.

نشاطه الصحفي

لمحمد السعيد الزاهري نشاط صحفي مميز بدأه بعد عودته من تونس إلى الجزائر عام 1925م بإصدار جريدة سماها (الجزائر)، وجعل شعارها الجزائر (للجزائريين) غير أن المحتل الفرنسي قام بتعطيلها بعد صدور ثلاثة أعداد منها. وفي عام 1927م أصدر مرة أخرى جريدة بمدينة قسنطينة سماها (البرق) اشتهر من خلالها بمصارعته للطرفية وشيوخها.

وفي عام 1933م استندت إليه جمعية العلماء رئاسة تحرير ثلاث جرائد بجمعية الطيب العقبي وهي: السنة النبوية المحمدية، والشريعة النبوية المحمدية، والصراف السوي.

وفي عام 1938م استقل عن جمعية العلماء المسلمين الجزائريين بجريدة في الغرب الجزائري سماها (الوفاق)، طرح من خلالها فكرة محاولة التقريب بين أجنحة الصراع من علماء وساسة وشيوخ وخاصة بين جمعية العلماء وشيوخ الطرق الصوفية.

وفي سنة 1949م أصدر جريدة بعنوان (المغرب العربي)، غير أنها لم تعمر طويلا فأصدر جريدة (عصا موسى)، وهي جريدة نصف شهرية صدر العدد الأول منها في 20 جويلية 1950م، وكان الهدف منها هو الرد على جريدة الشعلة. وفي عام 1956م وبعد خروجه من السجن عاد النشاط الصحفي للزاهري إلى الواجهة متمثلا في إصدار جريدة جديدة سماها (المغرب العربي الجديد).

يقول محمد بن سمينة: (استمر الزاهري حاملا راية النضال في مختلف ميادين الكفاح الوطني مصلحا ومربيا وصحفيا وسياسيا وأديبا طوال عقود النهضة الوطنية، والأعوام الأولى من ثورة نوفمبر المجيدة، إلى أن لقي مصرعه - رحمه الله - في ساحتها في الفاتح من جانفي 1956)¹.

¹ - محمد بن سمينة: (من أعلام الجزائر، محمد السعيد الزاهري)، البصائر عهد الاستقلال، ع 408، من 8 إلى 14 سبتمبر 2008م، ص 22.

آثاره

جاء في صفحة الغلاف الداخلي لكتاب (الإسلام في حاجة إلى دعاية وتبشير) أن للزاهري أربعة كتب تتوي دار الكتب بالجزائر طبعها. ويبقى الكتاب الوحيد الذي عرف طريقه في حياته ثلاث مرات إلى النشر هو (الإسلام في حاجة إلى دعاية وتبشير)، كانت الطبعة الأولى بـ (المطبعة السلفية) بالقاهرة 1926 ، والثانية بـ (مطبعة الاعتدال) بدمشق 1933، والثالثة بـ (دار الكتب) بالجزائر 1983م¹

¹ - المرجع السابق، ص ن.

2 مفهوم الصحافة عند أدباء الحركة الوطنية في الجزائر

من الطبيعي أن يختلف الأدباء والعلماء في وجهات النظر حول مفهوم قضية ما، وقد يعود ذلك إلى اختلاف أوطانهم وتباعد أزمتهم، ومن الضروري أن ترى لأفكارهم حول المسألة نفسها قواسم مشتركة، وهذا ما لمسناه من تصريحات بعض رجال الفكر والأدب والسياسة في الجزائر حول مفهوم الصحافة.

قال مفدي زكرياء* (الصحافة في كلّ شعب ترجع لكلّ الأصداء المختلفة التي تتجاوب في كلّ ميادينها، ومرآة صقيلة تنعكس فيها الأحداث السياسية والاجتماعية التي تضرب بها آفاق البلاد في مختلف مراحل نموها وانبعاثها)¹.

ويرى عمر راسم* بـ(أنّ الصّحف هي ترجمان الأمم، وأنّها أعظم واسطة يبلغ

نفعها مصادر الخدمة العمومية، ووظيفتها أكبر وظيفة في الإسلام)².

* من شعراء الثورة الجزائرية، ولد عام 1912م، وتوفي بتونس عام 1976م، من دواوينه: تحت ظلال الزيتون، اللهب المقدس.

¹ - مفدي، زكرياء: تاريخ الصحافة العربية في الجزائر. جمع وتحقيق أحمد حمدي، منشورات مؤسسة مفدي زكرياء، 2003م، ص11.

* عمر راسم بن علي بن سعيد بن محمد من بجاية، من الرعيل الأول في الكفاح بالجزائر، صحفي وخطاط، ولد عام 1883م وتوفي عام 1959م، من أشهر جرائده جريدة (الجزائر) و(ذو الفقار)، ومن آثاره: (تفسير القرآن) كتبه في السجن و(تراجم علماء الجزائر).

2. الزبير، سيف الإسلام: تاريخ الصحافة في الجزائر. ج 4، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1971م. ص 216.

وأما الطيب العقبي فيرى الصحافة على أنها (مهنة شريفة، وصناعة تعالی قدرها، وعز شأنها عن أن يقوم بها سوقة الناس، أو عوام الأمم وبسطاء الشعوب)¹. وأدلى محمد السعيد الزاهري برأيه في هذه المهنة قائلاً: (وأنا أعتقد أنّ الصحافة مهمة شريفة جداً، وأنّه ليس كمثّلها من سبيل إلى نفع الأمة، وأنّه ليس كمثّل أقلام الكتاب من رافع لشأن الشعوب)². وصور الباحث عبد الملك مرتاض الصحافة بقوله: (الصحافة منذ كانت مرآة ناصعة تنعكس عليها اتجاهات الشعب السياسيّة، وأحداثه اليومية، ومذهبه في الحياة، وآراؤه في المشاكل العالمية من استعمار وتسلب وتحرر)³.

ويراها محمد مصايف من زاوية أخرى على أنّها (المنبر الذي من فوقه تُعلن الجماهير الشعبيّة عن آمالها، وتعبّر عن وجهات نظرها بكلّ صراحة ووضوح، وهي الوسيلة الحقيقيّة بين المتطلّبات الثورية ومخطّطاتها للشعب في أسلوب واقعيّ كفيل بجعل هذا الأخير يتجاوب مع الأهداف العامّة والخاصّة للثورة، وهي

☆ الطيب العقبي بن محمد، شاعر ونائر، ولد بسيدي عقبة، استقر بالحجاز والمدينة المنورة ثم عاد إلى الجزائر وانضم إلى صفوف الحركة الإصلاحية.

¹ - العقبي الطيب الصحافة ومن هم رجالها، البرق، عدد 2، 10 رمضان 1345هـ الموافق لـ 14 مارس 1927م، ص 1.

² - التحرير (الفاحة)، البرق، عدد 1، 3 رمضان 1345هـ الموافق لـ 7 مارس 1927م، ص 1.

³ - عبد الملك، مرتاض: نهضة الأدب العربي المعاصر في الجزائر، 1925م . 1954م، ط2، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1983، ص 95.

التي تتحمل مسؤولية توعية الجماهير، ورفع مستواها السياسي والوطني والاجتماعي...¹.

وعبر عنها الشاعر أحمد كاتب بن الغزالي* في قصيدة له بعنوان الصحافة بقوله:

ترقي الشعوب له غاية وحبّ العلا فيهم عادة

(وآية هذا الزمن الصحف)

فنعم السبيل لنيل المراد وأيقظ شعب دهاه الرقاد

ومهما استقامت البلاد لسان البلاد ونبض العباد

(وكهف الحقوق وحرب الجنف)².

وإذا كانت الصحافة عند أحمد الكاتب بن الغزال هي آية هذا الزمن، ولسان البلاد ونبض العباد، فهي عند الشاعر أبي اليقظان حياة للشعوب، ووسيلة للسعادة، ومعرض للأعمال والدواء والمرهم، جاءت هذه المعاني في قصيدة له تحت عنوان الصحافة، فيقول:

¹ محمد مصايف: فصول في النقد الأدبي الجزائري الحديث. دراسات ووثائق، ط2، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1972، ص179.

* شاعر جزائري ولد عام 1873م بنواحي قالمة أنشأ جريدة بعنوان الكواكب، له ثلاث قصائد بكتاب شعراء الجزائر في العصر الحاضر لمحمد الهادي الزاهري الجزء الأول

² محمد الهادي الزاهري: شعراء الجزائر في العصر الحاضر، ج 1، ط1، بالمطبعة التونسية، تونس، 1926م. ص 162.

إن الصحافة للشعوب حياة والشعب من غير اللسان مواء
فهي اللسان المفصح الذّلق ببيانه تتدّارك الغايات
فهي الوسيلة للسعادة والهنا وإلى الفضائل والعلا مرقاة
فبها إلى الأمم الضعيفة ترفع الرّ غبات من وتبلغ الأصوات
هي معرض الأعمال برهان على مقداره بل إنها المرآة
الشعب طفل وهي والده يرى لحياته و لا يراه رعاة
الشعب تلميذ وهي مثقف ومهذب إذا تخلص النيات
فهي دواء ومـرهم الأخلاق كانت لديها نحو النظرات¹

وفي تقديرنا أنّ هذه الآراء تصبّ في مفهوم واحد وإن اتسع مربّعه وهو أنّ الصحافة منبر، ومرآة، وأعظم واسطة، ومهنة، ومهمة شريفة، وترجمان، وترجيح للأصدا، وقياس حرارة المعرفة، وحياة للشعوب، ووالدة الأطفال، ومتقّفة الشعوب، ورفي الشعوب. وربما لا نجد عند غير هؤلاء آراء تخرج عن هذا المفهوم الذي تختلف ألفاظه وتتحدّ معانيه.

3- الأصول الفكرية لصحافة الأديب محمد السعيد الزاهري

لكل صحيفة من صحف الناس قديما وحديثا سياسة تحريرية تسير على ضوئها، وغايات تسعى لتحقيقها، وأصول فكرية ترتكز عليها ومنها تنطلق. وإذا

¹. المرجع السابق، ص 115.

فرضنا أننا أمام صحف متعددة وأردنا أن نعرف الفرق بينها فإننا بعد قراءة مادتها نلحظ بقليل من التأمل أن أفكارها ومرتكزاتها مختلفة تماما لا يشبه بعضها بعضا إلا في عناصر قليلة، فإذا أكثرنا صحيفة واحدة من المقال اختارت الأخرى القصة، وهكذا الأمر بالنسبة لباقي الفنون الأدبية مثلا.

وقد يكون الأمر أكثر وضوحا إذا ضربنا المثل بالصحافة السياسية، تلك الصحف الحزبية بمختلف أطرافها وألوانها تعتمد وترتكز على أصول الحزب الذي تنتمي إليه، وهي بذلك خير معبر عن أفكاره. فالصحف الاشتراكية تملأ الصفحات بأصول الفكر الاشتراكي، وهكذا الرأسمالية والليبرالية والإسلامية.

تلك المرتكزات تسمى الأصول الفكرية الصحفية، وهي الموجهة والمحرّكة، وهي المقياس الذي تقيس بها مادتها. وإذا ما تمعنا في الخطوط العريضة لصحافة الأديب الزاهري ابتداء من صحيفته الجزائر (1925م) وانتهاء بصحيفة المغرب العربي الجديد (1956م) نرى بكل وضوح هذه المنطلقات. ويمكن إجمال بعضها فيما يلي:

- نشر الثقافة الإسلامية.

- معالجة المسائل الاجتماعية والأسرية والتربوية.

- الاعتناء بأحوال المسلمين عامة والجزائريين خاصة.

- تزويد الناس بالأخبار السياسية والدينية والقومية.

- اعتماد مبدأ الدعاية للمنتجات المحلية.

- الدعوة لنشر مبادئ الإسلام الصحيح، والدفاع عنه وعن اللغة العربية.
- محاولة جمع كلمة الجزائريين.
- ربط الدين بالحياة في جميع شؤونه.
- توضيح الأحكام التشريعية للإسلام، وتحبيب الناس فيها عن طريق بعض الفتاوى والقصص.
- انتقاد المحتلّ وأذنبه ومن يدور في فلكه كالطرق الصوفية.
- دعوة الشعب الجزائري إلى التحلي بالأخلاق الفاضلة.
- دعوة النشء الجزائري إلى التعلّم ومحاربة الكسل من أجل تخليص الوطن من سيطرة المحتل.
- كشف مخطط المحتل سياسياً واقتصادياً.
- دعم الروابط بين الجمعيات الدينية والأحزاب السياسية الموجودة على أرض الواقع.

نماذج موضحة لذلك

نورد هنا بعض النماذج الصحفية لنقف من خلالها على تلك المرتكزات التي تحدثنا عنها.

صرّح الزاهري في العدد الأول من جريدة البرق ببعض من الأصول الفكرية لجريدته الجديدة. وتحت عنوان: (الفاتحة) ظهرت تلك المرتكزات بكل

وضوح. فمن أجل خدمة الشعب، ونفع الأمة، أصدر السعيد الزاهري هذه الجريدة اعتقاداً منه أنه يؤدي واجباً وطنياً ودينياً معاً، لذلك نجد كل الأنماط الأدبية والسياسية تصبّ مضامينها في هذا المعنى.

يقول مثلاً:

(على أننا نلخص خطتنا فيما يلي: تلخيصاً ليس علينا من سبيل إذا نحن لم نلتزمه بوجه أخصّ:

- 1- نشغل بالتجارة وأسعار السوق والبورصة متى رأينا في ذلك فائدة.
- 2- نجتهد أن تكون هذه الجريدة صوت الأمة، فهي تعتنى بالحوادث الأليمة بالخصوص التي تقع على الأهالي.
- 3- ننتقد بعض الأشخاص البارزة التي نراها لها ضرر بالهيئة العامة، انتقاداً عفيفاً لا يقصد منه غير التهذيب.
- 4- نعتنى بالأدب العربي اعتناء خاصاً. وفي الأخير نقول إن البرق لا يلتزم غير المصلحة العامة أينما كانت)¹

أما في جريدته الموسومة بـ "الوفاق" (1938م) فالمرتکز عنده الدعوة إلى توحيد كلمة الجزائريين، وجمع جهودهم، والوقوف ككتلة شعبية واحدة في وجه سياسة المحتل وأذنابه في الوطن العربي، وذلك من خلال تقريب المسافة بين

¹ - (الفاتحة)، البرق، عدد 1، قسنطينة يوم الاثنين 3 رمضان سنة 1345هـ، الموافق ل 7 مارس 1927، ص1.

مختلف الطوائف الشعبية (العربية والإسلامية)، ونبذ الشقاق، وتناسى الأحقاد الشخصية والخلافات الداخلية¹.

وتستمر أهداف الزاهري المسطرة في العدد الخامس من الجريدة نفسها، فيصرح بأنه يعمل من أجل صدّ الفتن التي تظهر هنا وهناك بين أبناء الحركة الوطنية، والتّقريب بين أفراد الشعب الجزائري بمختلف شرائحه. وبيّثت الزاهري على مبدئه هذا فيورد في العدد السادس تحت عنوان: (بيت القصيد) - ربما تذكيرا أو رداً على خصومه - بقوله: (أعداء الإسلام يحملون على الطّرقين والإصلاحيين معا، فلماذا نحن لا نوحّد جهودنا لدفع الخطر، ماذا يقول الاصلاحيون والطّرقيون في هذا؟)².

4- تي تضمّنت كتابات الزاهري

من خلال تتبّعنا لنشاط رواد الحركة الوطنية في الجزائر، لاحظنا أنّ تصريحات جنرالات الدولة الفرنسية وساساتها، أدّت إلى ردّ فعل قويّ للعاملين في حقل الحركة الوطنية في شتّى الميادين، وقد تجسّد ذلك في نشاطهم المتعدّد المتنوّع، الذي لم ينحصر في ميدان واحد، بل توسّع ليشمل الميدان السياسي والأدبي معا، بعدما كان يعرف بالوطني والإصلاحي. سياسة احتقار الجزائري في عقر داره بمختلف أشكالها السياسية والأخلاقية وحتى تلك الأفكار التي اعتقدوها مثل (إذا رأيت في طريقك عربيا وأفعى فبادر بقتل العربي قبل الأفعى)³. من شأن

¹. ينظر محمد السعيد، الزاهري: (الوفاق)، العدد الأول، 3 محرم 1357 هـ، 23 مارس 1938، ص 1.

². المصدر نفسه، العدد 6، أبريل 1938 م، ص ن.

³. أحمد توفيق المدني: هذه هي الجزائر، مكتبة النهضة المصرية، 1956م، ص 38.

هذا التصريح أن أشعل في نفوس علماء الجزائر والعاملين في ساحتها السياسية والدينية فتيل المقاومة الطبيعية بشتى وسائلها، لحماية مما قد عزم المحتل على تحقيق المصرح به على الأقل.

وبعد عودة العقبي وابن باديس والزاهري ومحمد البشير الإبراهيمي وغيرهم من المشرق، تجلت بذور نهضة فكرية شاملة، أدت في البداية إلى ظهور جمعية العلماء المسلمين الجزائريين؛ اهتمت هذه الأخيرة في ظاهرها بإصلاح عقيدة الجزائريين، وذلك من خلال نشاطات كثيرة ومتنوعة، منها: التعليم وإصدار الجرائد، وإنشاء المراكز الثقافية والنوادي العلمية (ففي سنة 1934م كتبت جريدة (لالاوت سوسيال) في عددها الأول تقول: إنه لا يوجد مكان في الجزائر لم ينشئ فيه العلماء منظمة بطريقة أو بأخرى)¹.

لقد أدرك هؤلاء الرواد أن الصحافة مثلا (مدرسة كبرى للوطنية، ومصلح عظيم للمجتمع، ومنتقف كفاء للشعب، ومنبر للأدباء والخطباء، وقد لعبت دورا كبيرا في إحياء اللغة وإعطائها المرونة والحيوية)². ومن هؤلاء الرواد محمد السعيد الزاهري الذي لمع اسمه وتألق نجمه داخل الوطن وخارجه على صفحات العديد من الجرائد الشهيرة ذات الانتشار الواسع، وأهمها جريدة الفتح المصرية والنهضة التونسية والشهاب الجزائري، ويكفي أن شهرة هذا الأديب بلغت شهرة حسن الزيات، وشكيب أرسلان، ومحب الدين الخطيب، ومحمد البشير

1 - أبو القاسم، سعد الله: الحركة الوطنية الجزائرية، 1900م - 1930م، ج2، ط 4، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1992م، ص423.

2. محمد، الطمار: تاريخ الأدب الجزائري، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981، ص 432.

الإبراهيمي. فمجلة الفتح) اتخذت أكثر من مقال له افتتاحية لها، مع العلم أنّها كانت مجلة راقية، ولا يكتب افتتاحيتها إلاّ أمثال شبيب أرسلان، ومحّب الدين الخطيب، ومصطفى الرافعي وغيرهم من العظماء)¹.

كما يشهد بمكانة هذا الأديب العديد من الأدباء الكبار والمفكرين بأنّه: (من العمالقة الذين يمتازون ببعد النظر، والفكر النير، والأسلوب الأخاذ، والقدرة على الجمع بين صفتي الصحفي الناجح، والكاتب المبدع)². فالزاهري إذا كان أديبا بارعا إلى كونه مفكرا وطنيا آنذاك وصحفي مشهور. (وكانت الصحف المشرقية كالمقتطف والرسالة، تحتضن إنتاجه، وتعزّ به، ولما بعث بمقالاته الدفاعية إلى مجلة الفتح حيث وجدت من محب الدين الخطيب رئيس تحرير المجلة المذكورة كل إعجاب وتقدير، عبّر عنها عندما قام بجمع تلك المقالات في كتاب تحت عنوان: "الإسلام في حاجة إلى دعاية وتبشير" وكان ذلك سنة 1929م)³.

سنبين فيما يأتي جهود الأديب الزاهري من خلال عرضنا لتلك الصحف التي احتضنت كتاباته الشعرية والنثرية على حدّ سواء في الصحف الداخلية كالشهاب والبرق والخارجية كالفتح والرسالة.

¹ محمد العربي الزبيري: المثقفون والثورة، د ط، منشورات المتحف الوطني للمجاهد، المؤسسة الوطنية

للنشر والإشهار، وحدة الطباعة، الرغاية، الجزائر، 1995م، ص45.

² المرجع السابق، ص ن.

³ محمد، ناصر: المقالة الصحفية نشأتها. تطورها. أعلامها من 1903 إلى 1931، ج1، الشركة

الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1978م، ص48.

أ_ صحف المغرب العربي

أسهم السعيد الزاهري في بناء صرح صحافة المغرب العربي ومنها الصحافة الوطنية الجزائرية بعد الحرب العالمية الأولى، خاصة بعد عودته من تونس عام 1925م؛ فقد احتضنت جريدة **المنتقد والشهاب** والجزائر والبرق والإصلاح وغيرها العديد من مقالاته الأدبية والسياسية والنقدية، في حين احتضنت قليلا من القصائد. وقد وصف **عبد الملك مرتاض** أسلوب الزاهري الذي كان يكتب به تلك المقالات المنشورة في هذه الصحف والجرائد بقوله: (وأحسب أن الزاهري من أسبق الكتاب الجزائريين إلى اصطناع أسلوب مبسط، يعالج به موضوعات مختلفة بطريقة قصصية مشوقة)¹. كما تميزت كتاباته في أغلب الأحيان بالحرارة والعنف) أما الكتاب الاصلاحيون الذين اختاروا هذا الأسلوب المقالات الحارة فيجيء على رأسهم محمد السعيد الزاهري، ومحمد الأمين العمودي)².

وسنحاول تتبع الصحف والجرائد الوطنية الجزائرية التي احتضنت إسهامات الزاهري حتى تتبين لنا مكانته بين أدباء عصره، وسنرتب هذه الصحف ترتيبا زمنيا حسب صدورها من القديم إلى الحديث.

1 عبد الملك، مرتاض: فنون الأدب الجزائري الحديث، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1982م، ص509.

2- محمد، ناصر: المقالة الصحفية، نشأتها، تطورها، أعلامها، (1903م - 1931م)، ج1، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ص129.

وسنقوم بتعريف هذه الصحف من حيث تاريخ صدورها وشعارها الذي ميّز خطّها الوطني معرّجين على ذكر الأسماء المشهورة من كتابها، وسنختم كل تعريف بالجريدة أو المجلّة بنموذج من كتابات محمد السعيد الزاهري.

أما جريدة النهضة التونسية فإننا لم نعرفها كما فعلنا مع بقية الجرائد الأخرى، لسبب واحد هو أننا لم نعثر على أعدادها، ولذلك اكتفينا بمقال واحد منها بعنوان: (تزييف رد)، في خمس مقالات تحصلنا عليه من رسالة ماجستير في الأدب الحديث، لصاحبها عبد السلام ضيف، معهد اللغة والأدب العربي جامعة باتنة، الجزائر لعام 1993م - 1994م.

صحيفة جزائرية صدرت بمدينة قسنطينة كل يوم خميس باسم مديرها بوشمال أحمد (ويوجهها الإمام عبد الحميد بن باديس)¹، وتحرر مواضيعها نخبة من الشبيبة الجزائرية. كُتبت تحت عنوانها مباشرة: جريدة سياسية تهذيبيّة انتقادية شعارها: (الحق فوق كل أحد، والوطن قبل كل شيء). أمّا فوق العنوان فتوجد العبارة الآتية: **المنتقد** جريدة حرة، تعمل لسعادة الأمة الجزائرية، بمساعدة فرنسا الديمقراطية. أمّا عددها الأول، فقد صدر يوم الخميس 11 ذي الحجة 1343هـ، الموافق لـ 2 جويلية 1925م، كما أنها تعتبر أول صحف العهد الإصلاحية، أمّا عن خطّها في العمل فـ (كانت تشدّد الحملات على أنصار البدعة والضلال، وتنتقد تصرفات الحكومة الاستعمارية بشكل متزن رصين، إلا أنه قويّ وصريح)².

استمرت جريدة **المنتقد** في الصدور رغم ما لحقها من أذى الإدارة الفرنسية تحت إدارة **ميرانط**، حتى جاءها الأمر بالتوقف، في عددها الثامن عشر، بتاريخ يوم الخميس 10 ربيع الثاني 1343هـ، 29 أوتبر 1925م.

أبرز كتابها:

- 1- مفدي، زكرياء: تاريخ الصحافة العربية في الجزائر، جمع وتحقيق أحمد حمدي، منشورات مؤسسة مفدي زكرياء، 2003م، ص 86.
- 2- المرجع نفسه، ص ن.

عبد الحميد بن باديس ومبارك الملي، ومحمد الهادي السنوسي
الزاهري والمولود بن الصديق ومحمد صالح خبشاش والطيب العقبي ومحمد بن
العابد الجيلالي ومحمد العزوي حوحو وأبو اليقظان وعبد الحق والسلفي وأبو
هلال.

ومما يدل على تعلق أدباء الحركة الوطنية لهذه الفترة بالنهضة الأدبية
العربية ومسايرتهم لما يحدث في المشرق، احتواء أعداد هذه الجريدة على مقالات
وقصائد لأدباء مشرقين معروفين كأحمد شوقي ومنصور فهمي ومحمد الخضر
حسين وجبران خليل جبران ومعروف الرصافي...

أما عن نصيب محمد السعيد الزاهري في هذه الجريدة، فكان موضوعا
واحدا تحت عنوان: (بل هو جزائري صميم) في العدد السابع عشر، يبدأ في
الصفحة الأولى، وينتهي في الثانية، ويدور موضوعه حول قضية وطنية وهي:
تجنس بعض الجزائريين بالجنسية الفرنسية لأسباب مختلفة، وقد دافع صاحب
المقال عن شخصية جزائرية تدعى محمد طيطوش اتهمته جريدة المنتقد بالتجنس
بالجنسية الفرنسية، ولهذا السبب رضيت عنه السلطات الاستعمارية فبواته مشيخة
مدينة أم نايل. وهذا جزء من المقال:

(جاء في العدد الرابع عشر من جريدة المنتقد الحرة، سطر ونصف،
معنون (ليس جزائرياً). قال فيه: إنّ الوطني الحر السيد طيطوش، متجنس
بالجنسية الفرنسية، ولذلك كان شيخ مدينة أم نايل.

أكبر هذا الوهم من المنتقد الحرّ، ولم أدر من أين تلقى هذا الخبر (تلقيناه من إنسان حسبناه عارفاً، وقبح الله التقليد) وبما ثبت عنده تجنّس ذلك الشّهم الوطني؟ لا، لا وربك ما تجنّس، بل هو أكفر النّاس بالتجنّيس.

محمدّ طيطوش، وما أدراك ما محمدّ طيطوش، محمدّ طيطوش رجل متغال في حبّ الوطن، وحبّ الجنس. أمّا شجاعته فقد بلغت المنتهى، وأمّا دهاؤه فيكفي برهاناً عليه أنّه دخل بين صفوف المعمرين (النواب البلديين) بحكمة ومهارة، حتّى فرّق شملهم، وكان عليهم شيخ مدينة أم نايل، وهو فوق هذا، أمّي لا يقرأ ولا يكتب. هذا السّبب في استيائه على مشيخة تلك المدينة، ولم يتسوّل عليها بالتجنّس كما قال المنتقد...¹.

الشّهاب

جريدة خلفت جريدة المنتقد، رعاها ابن باديس، وأصدرتها نخبة من الشّبيبة الجزائرية، ومدير شؤونها وصاحب امتيازها: أحمد بوشمال. تبرز صبيحة كلّ يوم خميس، وقد افتتحت عددها الأوّل بمقال طويل، تضمّن بيان تعطيل جريدة المنتقد، وإنشاء خلف لها هي جريدة الشّهاب، ثم صارت تصدر مرّتين في الأسبوع، يوم الاثنين ويوم الخميس، وذلك من العدد الثّاني والثلاثين الصادر يوم 11 ذي الحجة من سنة 1344هـ، الموافق لـ 21 جوان 1926م، وتحولت بعد ذلك إلى مجلّة شهرية. ورغم ذلك فقد حافظت على شعارها: مجلّة إسلامية جزائرية،

¹ - محمد السعيد، الزاهري: (بل هو جزائري صميم)، المنتقد، ع 17، 22 أكتوبر 1923م، ص 1.

تبحث في كل ما يرقى المسلم الجزائري. وكذلك حافظت على مبدئها القائل: مبدؤنا في الإصلاح الديني والديني: (لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها)، كما كانت لهجة الشهاب في (غاية الاتزان والليونة والدعوة بالحسنى)¹.
أما عن أبرز كتابها، فإلى جانب الذين ذكرنا في المنتقد، هناك أيضا: محمد السعيد الزاهري، الذي كان له باع طويل. فقد تضمنت صفحاتها إلى جانب قصائده، مقالات سياسية، وأدبية، وإصلاحية، تميزت كلها بالحرارة، والدفاع عن الوطن والدين.

وهذه بعض عناوين مقالات الزاهري في الشهاب:

- إلى بني الأغواط

- كيف يؤذوننا

- تكذيب إشاعة البلاغ الجزائري

- مقالات في عمود النقوض والردود للنشر الحر 1، 2 في العدد 154، 155

- بين العمودي والحافظي.

- في النيابة المالية.

- مساجدنا تباع، ونوابنا سكوت.

ومن القصائد:

¹ - مفدي زكرياء: تاريخ الصحافة العربية في الجزائر، ص 88.

إلى زعيم المصلحين.

ويح الجزائر.

ليتني ما قرأت حرفا.

التحية الصادقة.

وها نحن نورد مقتظفا من مقال له نشر بجريدة الشّهاب؛ يقول فيه:

(... وبعد فإنّ المصلحين لا يعمرّون عوض المساجد المقاهي الإفرنجية، بل الذين يعمرّونها هم سادتنا أشياخ الطّرق، وإنّي أحيل الطرقي العليوي على أن يسافر إلى قسنطينة أو الجزائر أو وهران أو تونس أو باريس أو غيرها من المدن الكبرى وليراقب هناك أشياخ الزّوايا الذين يؤمّون تلك المدن فإنّه يرى منهم في مجالسهم وفي مضاجعهم وفي غدواتهم وروحاتهم وسهراتهم ما لا شرف فيه ولا عفاف، لأنّهم هناك لا يخشون وازعا ولا رقيبا، وما الرّقيب الذي يخافونه عند عامة النّاس الذين يعيشون على حسابهم هذا هو المانع الذي يمنع بعضهم من الجلوس في المقاهي الإفرنجية في البلدان والقرى التي يسكنونها ومع ذلك فإنّ كثيرا منهم قد اتّخذوا في ديارهم وزواياهم مقاهي إفرنجية لأنفسهم ولضيوفهم الإفرنج الأجانب، ولأهل الخصوصيّة من الأتباع المقربين. وإذا شككت يا حضرة الطّريقي فهيا بنا رجلي برجلك لندنو من بعض الزّوايا فهناك ترى من مصرع الدّين والفضيلة ما يدمي فؤاد كلّ مؤمن بالله واليوم الآخر.

يا ابن الكرام ألا تدنو فتبصر ما قد حدثوك فما رأى كمن سمعا¹

البرق

جريدة البرق من الجرائد الوطنية الأسبوعية، أصدرها محمد السعيد الزاهري عام 1927م، بمدينة قسنطينة، بدءا من العدد الأول المؤرخ ليوم الاثنين 3 رمضان 1345هـ، الموافق لـ 7 مارس 1927م، وانتهاء بآخر عدد منها ليوم الاثنين 1 صفر الخير 1345هـ، الموافق ليوم 15 أوت 1927م.

كان شعار الجريدة: (تسامحوا فيما بينكم فإنه لا سبيل إلى الإتحاد كالتسامح). أما مديرها وصاحب امتيازها فهو رحموني عبد الحميد.

أما عن كتاب جريدة البرق فأشهرهم: محمد السعيد الزاهري ومحمد مبارك الملي والطيب العقبي والأمين العمودي وعباسة الأخضرى وزهير الزاهري والعزوزي حوحو وابن أدهم القسنطيني ومحمد العابد الجلاي وأبو حفص الحمادي.

وجريدة البرق - كمثلاتها من شهيدات الصحافة الجزائرية - في عهد الاحتلال - عطلت قبل أن تحتفل بعيد ميلادها الأول؛ أوقفها المحتل بعد صدور العدد الثالث والعشرين منها، بعد أن كانت (منبرا يدوي منه صوت المصلحين عاليا، بعد أن طلبت الشهاب من الشباب أن يخففوا من لهجتهم ضد الطرقية)².

كتابات الزاهري في الجريدة:

1 محمد السعيد، الزاهري: (للنشر الحر)، الشهاب، ع 155، 1928م، ص 6.

2- محمد، ناصر: المقالة الصحفية نشأتها. تطورها. أعلامها من 1903 إلى 1931، ج1، ص129.

من الغريب أن لا تتضمن جريدة البرق من أدب الزاهري إلا نثره، حيث لم نجد قصيدة واحدة لهذا الشاعر المنعوت في مجلة الشهاب بالشاعر الكبير. لهذا فكتابات السعيد الزاهري في هذه الجريدة كلها نثرية، لكنها متعددة المضامين والأنواع، ممضاة في أغلبها بأسماء مستعارة، بمثل هذه الأسماء: جساس وتأبط شراً وطلّاع الثنايا. وقد حمله على التّخفي وراء هذه الأسماء دفاعه عن شرف المصلحين الجزائريين من العلماء كما يقول في الجريدة نفسها، وذلك خلافا لخصومه وخصوم خطّ المصلحين من الشباب النّاهض الذين ينشرون على صفحات جرائدهم ما يخدش المروءة، ويجرح الشّعور؛ من سبّ وشتّم بلا حياء، (ذلك أنّك لا تقرأ مقالا من مقالاتهم إلاّ وتجد صاحبه لا يستحي ولا يحتشم أن يضع إمضاءه الصّريح تحت ذلك المقال الفاحش، على خلاف جماعة الشباب. فالكاتب منهم يبرأ بنفسه، ويعفّ أن يضع اسمه الصّريح على مقال، فيه إقذاع، اضطره إلى كتابته الدّفاع عن أعراض المؤمنين، وعن شرف المصلحين)¹.

هذا مقتطف من مقال له في جريدة البرق بعنوان: (رسالة مفتوحة إلى الراهب الكبير فريدمان رئيس الطائفة اليهودية في شمال إفريقيا)، يقول فيه:

(أيها الراهب ما زلت متذكرا بلا شك ما أحسن به المسلمون إلى الطائفة الإسرائيلية، حينما كان يذيقها المسيحيون أشدّ العذاب، فمهما شرعت الأمم العيسوية في تطهير بلادهم من اليهود إلاّ وجدوا في بلاد المحمديين صدرا رحبا، وحنانا ومروءة وراحة وسلامة، وهذا ما شهد به التاريخ، وما لا يوجد منكم من

¹. (بيان للناس)، البرق، ع 13، 1927م، ص 2.

ينكره، ولكن هناك شيء آخر لا يمكنك إنكاره، وهو احتقار أمتك للأمة الجزائرية في هذا العصر، وسخريتها منها... تنبه واعتبر...¹

صحف جمعية العلماء المسلمين الجزائريين

(كان الزاهري من بين مؤسسي جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، وأحد أعضائها الفاعلين في مجلسها الإداري، وقد انتظم في هذا المضمار نشاطه وازدادت فعاليته وأصبح يمثل هذه الجمعية في مدينتي تلمسان ووهران في الغرب الجزائري)²، وقد أسندت إليه رئاسة تحرير ثلاث جرائد لعام 1933م، بجمعية الأديب الطيب العقبي، وهي على التوالي:

السنة النبوية المحمدية

جريدة أسبوعية، تصدر كل اثنين، بإشراف الأستاذ عبد الحميد بن باديس، وشعارها: في الجهة اليمنى (ولكم في رسول الله أسوة حسنة) وأما من الجهة اليسرى (من رغب عن سنتي فليس مني)، وقد توسّطت هذا الشعار عبارة: السنة النبوية المحمدية لسان حال جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، كما تصدر الصفحات الأولى من عددها الأول - الذي ظهر إلى الوجود يوم الاثنين 8 ذي الحجة 1351هـ - مقال لرئيس الجمعية بعنوان: بواعثنا - عملنا - خطتنا - غايتنا.

¹. ابن الجزائر: (رسالة مفتوحة إلى الراهب الكبير المعلم فريدمان رئيس الطائفة اليهودية في شمال إفريقيا)، البرق، ع 18، 1927م، ص 2.

². محمد، ابن سميحة: (من أعلام الجزائر: محمد السعيد الزاهري 1899-1956م)، البصائر بعد الاستقلال، ع 408، سبتمبر 2008م.

لم تدم هذه الجريدة طويلا، حتى عطّلتها السلّطات الاستعماريّة، فكان عددها الأوّل في الأسبوع الأوّل من شهر أفريل 1933م. أمّا العدد الأخير منها فكان في الأسبوع الأوّل من شهر جويلية من العام نفسه. استطاعت جمعية العلماء بعد ثلاثة أشهر كاملة من عمر الجريدة ومن خلال صفحاتها أن تعرف بنفسها، وبفكرها، وبرسالتها في الجزائر، وبالذّور المنوط بها مستقبلا.

كتاب الجريدة

لعلّ من أبرز كتّاب هذه الجريدة: الأمين العمودي ومحمد السعيد الزاهري والطيب العقبي وأبو يعلى الزواوي وأبو العباس أحمد بن الهاشمي والعربي التبسي وعبد الحميد بن باديس والفتى القبائلي.

ونورد في هذه العجالة بعضا من عناوين المقالات التي تمّ نشرها بمجلة السنة النبوية المحمّدية، مع ملاحظة أنّ هذه الجريدة لم تحتو على أشعار للزاهري.

عناوين بعض المقالات

- السنة عند النساء الجزائريات.
- بين العرب واليهود.
- الغيث النافع.
- ملكة جمال تركيا.
- مهزلة الصّح.
- إلى أهالي زواوة.

وهذا مقتطف من مقال له بهذه الجريدة بعنوان: (بين العرب واليهود).

يقول فيه:

(اجتمعت ذات يوم من أيام الصيف الماضي، بجماعة من اليهود في وهران، وأخذنا نتجاذب أطراف الحديث حتى وصلنا إلى موضوع اضطهاد اليهود. وأنت إذا طال بك الحديث مع أيّ يهوديٍّ، لا بد أن يصل بك إلى هذا الموضوع. والحديث عن اضطهاد اليهود أصبح من شعار الدين عند اليهود، فهم يحفظون جميع المصائب والنكبات التي حلتّ بهم وبآبائهم الأولين، وهم يعرفون هذه المحن، ويعرفون أيامها، وتواريخها، ويلقّونها أطفالهم الصغار. وفي الحقّ أنّ جميع أعياد اليهود ومواسمهم هي كلّها حزن وحداد، وليست أيام فرح وسرور. ويعجبني من هذا أنّ اليهود لا ينسون ما حلّ بهم من رزء أو مصاب، ولا من يعاملهم باليسر والقسوة والأذى، ولعلّ هذا هو سبب احتفاظهم بكيانهم إلى الآن، والعرب على خلاف ذلك ينسون كثيرا، فكم من محن ونكبات نزلت بهم فنسوها لحينها، ولم يعودوا يذكرونها...) ¹

جريدة الشريعة النبوية المحمدية

بعد أسبوع واحد من توقيف السلطات الاستعمارية الجريدة الأولى لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين، جاءت الجريدة الثانية تحمل اسم الشريعة النبوية المحمدية، فقد صدر العدد الأول منها يوم 17 جويلية 1933م. وقد تصدر

¹. محمد السعيد الزاهري: (بين العرب واليهود)، السنة النبوية المحمدية، ع 12، 24 أبريل 1933م، ص4.

صفحة العدد الأول منها مقال لابن باديس بعنوان: (تعطيل السنة وإصدار الشريعة).

وما نلاحظه هنا هو أنَّ الجريدة حافظت على الجزء الثاني من شعار جريدة السنة، وتخلَّت عن الجزء الأول منه، واستبدلته بالآية التالية: (ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا). ولم تعمّر هي الأخرى طويلا، حيث لم يصدر منها إلاّ سبعة أعداد، كان آخرها يوم 28 أوت من عام 1933م، ورغم ذلك فقد تمكّن الناس من الاطلاع أكثر على فكر الجمعية الفتيّة، وعلى مواقفها الجريئة من الأحداث الداخليّة والخارجية.

كتاب الجريدة

من أبرز كتابها: محمد السعيد الزاهري وابن باديس والطيب العقبي والفتى الزواوي والفتى القبائلي ومحمد العيد آل خليفة.

وقبل ذكرنا لعناوين بعض مقالات الزاهري في هذه الجريدة نورد ملاحظة هي: أن الزاهري كما لم تعرفه جريدة السنة النبوية المحمدية شاعرا فكذلك كان الأمر مع هذه جريدة الشريعة النبوية المحمدية.

ومن عناوين مقالات الزاهري في جريدة: الشريعة النبوية المحمدية

- اعترافات طريقي قديم

- في مجلس حجاج

- ألف وسبعمائة مسلم يرتدون

- يوم 23 ماي 1932م

- الاجتماع العام لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين.

وهذا مقتطف من مقال له بعنوان: (ألف وسبعمئة مسلم يرتدون).

(كان يوم 23 ماي الأخير يوم حزن، وحداد على المسلمين في عاصمة الجزائر، وكان يوما من أشد أيام هذا الوطن شوّما، وسوادا، فقد رأينا فيه ما يذوب له القلب كمداء، وغما، لمن كان يحمل ذرة من الإيمان، ورأينا فيه ما يبعث في النفس الكريمة كل معاني الألم، والحسرة، والأسى؛ رأينا الآباء البيض ورجال الكاثوليك يقيمون في هذا اليوم في عاصمة الجزائر الولائم والاحتفالات، احتفاء بألف وسبعمئة من المسلمين الجزائريين قد وقعوا فيما نصبوه لهم من الإشراف والأحابيل، فارتدوا عن دينهم القيم الحنيف، واعتنقوا النصرانية على المذهب الكاثوليكي طوعا أو كرها...)¹.

الصراط السوي

لم تختلف هذه الجريدة عن سابقتها؛ فقد حافظت على اليوم الذي تصدر فيه، وهو يوم الاثنين من كل أسبوع، كما حافظت أيضا على شعار جريدة الشريعة النبوية المحمدية وهو: (ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها) وشعار ثان هو (من رغب عن سنتي فليس مني). كما حافظت أيضا على محرريها: السعيد الزاهري والطيب العقبي. وقد صدر العدد الأول منها بعد توقّف

¹ محمد السعيد، الزاهري: (ألف وسبعمئة مسلم يرتدون)، الشريعة النبوية المحمدية، ع 2، 24 جويلية

جريدة الشريعة النبوية المحمدية بأسبوع واحد، وذلك يوم 11 سبتمبر 1933م، واستمرت في كشف الحقائق، وإطلاع الجزائريين على الأحداث والأخبار الداخلية والخارجية حتى العدد السابع عشر، الموافق ليوم 8 جانفي 1934م.

كتاب الصراط السوي

من أشهر كتبها بعد الطيب العقبي والسعيد الزاهري أبو يعلى الزواوي ومحمد العابد الجيلالي ومحمد تقي الدين الهلالي والأمين العمودي.

من أشهر عناوين مقالات الزاهري في هذه الجريدة:

- إلى زيارة سيدي عابد 1،2،3،4،5

- شؤون وشجون

- الوهابيون سنيون حنابلة

- اعترافات طريقي قديم

- الدكتور طه حسين شعوبي ماكر

- هل كان الشيخ التيجاني وهابيا؟

- تعليق على الجمعة الثانية

- تعليق على هذا المؤتمر

وهذا مقتطف من مقال له بعنوان: الدكتور طه حسين شعوبي ماكر

يقول فيه:

(قرأنا في جريدة النداء البيروتية الغراء، أن الأستاذ طه حسين كتب في جريدة كوكب الشرق المصرية فصلا، جاء فيه: لقد خضع المصريون لضروب من البغي والعدوان جاءتهم من الفرس واليونان، وجاءتهم من العرب (كذا)، والفرنسيين، وجاءتهم من الانجليز أخيرا، فحشر الدكتور طه العرب في جملة الظالمين، الذين ظلموا مصر وحكموها بالبغي والعدوان، ولم يكد ينشر طعنه هذا على العرب حتى قام شباب العرب في سوريا (بلبنانها وفلسطينها)، وفي العراق وفي سائر بلاد العرب يستنكرون على طه، ويدعون إلى تحريق كتبه، وتظاهروا ضده في الأسواق والطرق. وكان لهذه الحوادث رد فعل في مصر بقلم بعض الأحداث من الذين يدينون بالوثنية الفرعونية، يدافعون عن طه حسين، بحجة أنه من دعاة الفراعنة أيضا...)¹

تعليق:

من استعراضنا السابق للمجلات والجرائد الوطنية التي ضمت كتابات الزاهري، يمكن استنتاج ما يلي:

1- يعتبر الأديب محمد السعيد الزاهري أحد أشهر كتاب مجلة الشهاب التي (لم ير الناس في الجزائر مجلة أو صحيفة يومية، أو أسبوعية، مما غير ومضى من المجلات والصحف الكثيرة استأثرت بقلوب المفكرين الجزائريين، وأشدهم حرصهم على اقتنائها، أو الإلمام بها، مثل مجلة الشهاب)². وفي مجلة

¹ - محمد السعيد، الزاهري: (طه حسين شعوبي ماكر)، الصراط السوي، ع 4، 9، أكتوبر 1933، ص4.

¹ - عبد الملك، مرتاض: نهضة الأدب العربي المعاصر في الجزائر، 1925م. 1954م، ط2، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1983م، ص106.

الشَّهاب شاركَ الأديب الزَّاهري بمقالات يمكن تسميتها بالمقالات النَّزالية، لما تميزت به من جرأة في الطَّرح، وعمق في التَّفكير، ومواجهة قويَّة للخصم، نازل من خلال مادتها كِتَاب الطَّرِيقَة، ومن كان يدور في فلك المحتلِّ الفرنسيِّ.

2- من الواضح أنَّ جمعية العلماء المسلمين الجزائريين أسندت رئاسة تحرير ثلاث جرائد إلى الأديب الزَّاهري، بمعِية الطَّيب العقبي، لمكانتهما القلمية على السَّاحة الأدبية في الجزائر آنذاك، وكذلك لشهرتهما الصحفية؛ فقد كان لكل منهما قبل ذلك، جرائد تدافع عن الاتجاه الوطني والإسلامي في الجزائر.

3- والصَّبغة التي كانت تطبع كتابات الزَّاهري في هذه الجرائد الثلاث: السنة والشريعة والصراط هي الصبغة الدينية الإصلاحية، حارب من خلالها الفكر الطَّرقي، الذي كانت تعاني منه الجزائر، خاصة في جزئها الغربي. ففي جريدة الصَّراط السَّوي أبدع الزَّاهري بأسلوبه القصصي الشَّيق في كشف حجب الأعياب الطَّرِيقَة ومشايخها في تحريف أفكار العامة من النَّاس عن الفهم الصحيح للدين والحياة، ومن أشهر هذه المقالات: خمس مقالات قصصية بعنوان: إلى زيارة سيدي عابد.

4- نعتقد أنَّ مجلة الشَّهاب وصحف جمعية العلماء من أقوى العوامل التي دفعت بالزَّاهري إلى الخوض في مسائل الأدب والنَّقد والصحافة، فأغلب قصائده نشرت بـ الشَّهاب، وجلَّ مقالاته الدينية والصحفية والنقدية، بـ الصَّراط والسنة النبوية المحمدية والشريعة النبوية المحمدية.

5- عرف قراء مجلة الشَّهاب الزَّاهري مبدعا في الشَّعر والنَّثر كما تعرفوا على إبداعاته في مجال النثر فقط في جريدة السنة والشريعة والصراط.

ب- صحف المشرق العربي

تابع السَّعيد الزَّاهري الحركة الفكرية والدينية، داخل الجزائر وخارجها. ولم يكتف بذلك بل أسهم فيها كاتباً مبدعاً، ومناقشاً أصيلاً، وصاحب رأي ناضج. ومن المجالات ذات الشهرة الكبيرة التي احتضنت كتابات الزَّاهري خارج الوطن: الفتح والرسالة والمقتطف.

الفتح

جريدة الفتح من أشهر الصحف المصرية، وأوسعها انتشاراً في الوطن العربي، وأقدرها على طرح الموضوعات السياسية والاجتماعية والثقافية، وأجرئها على المناقشة بأقلام كبار كتَّاب العالم العربي والإسلامي في تلك الفترة.

كان شعار جريدة الفتح الذي تحمله في أعلى صفحاتها الأولى، يدلّ بوضوح على تلك الأعباء التي تحمَّلتها مدةً صدورها وهو: (من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم). وكذلك مبادئها التي دونها القائمون عليها في أعلى صفحاتها الأولى، تحت عنوان مبادئ الفتح، وهي: الفتح لأهل القبلة جميعاً، العالم الإسلامي وطن واحد، المسلمون إلى خير ولكن الضعيف في القيادة، أنت على ثغرة من ثغور الإسلام فلا يوتين من قبلك، اعمل ليراك الله وحده وتوار عن أنظار الناس، الفتح رسالة الأقطار الإسلامية بعضها إلى بعض، الفتح رابطة روحية بين قرائه.

وجريدة **الفتح** صحيفة إسلامية أسبوعية، لصاحبها ومحررها العالم محب الدين الخطيب، وهو من أبرز علماء المسلمين في مصر خصوصا والعالم الإسلامي عموما.

من أبرز كتّاب جريدة **الفتح**:

محب الدين الخطيب وشكيب أرسلان وأحمد باكثير وعبد الباقي سرور ومحمد الخضر حسين ومحمد السيد الطويل ومصطفى السباعي وأحمد محرم وأمين الخولي وحسن البنا وأحمد تيمور وعمر الدسوقي ومصطفى صادق الرافعي وعلي مظهر وأحمد شوقي والمنفلوطي ومحمود ياسين.

وللزاهري إبداعات نثرية قليلة إذا ما قورنت بنتاجه في مجلة الشهاب مثلا. لقد أوجد الزاهري لنفسه من خلالها مكانة مرموقة بين كتّاب العالم العربي وفي جريدة واسعة الانتشار، رغم قلة مواضيعه - إذا ما قورنت بأعداد الجريدة، فيعتبر الزاهري من بين الكتّاب المشهورين في الوطن العربي الذين أشير إلى مواضيعهم بالتقدير والاحترام؛ فهذه مقالاته (الإسلام في حاجة إلى دعاية وتبشير) تحظى باهتمام كتاب مجلة الفتح فيكتبون عنها معلقين بالرضا والاستحسان، بل يجمعها محرر الجريدة نفسه محب الدين الخطيب، ثم يطبعها في كتاب مستقل، لتطلع عليه شعوب العالم العربي والإسلامي، وكذلك فعل كتاب مجلة المعرفة القاهرية¹.

مقالات الزاهري في جريدة **الفتح**

¹- ينظر مقدمة الطبعة الثانية، كتاب: الإسلام في حاجة إلى دعاية وتبشير، لمحمد السعيد الزاهري، 1933م.

عنوان المقال	العدد	تاريخ النشر
1- بيان حديث	168	7 جمادى 1348هـ.
2- الإسلام في حاجة إلى دعاية وتبشير	176،168،178، 228،227،18	3 رجب 1384هـ، 5 ديسمبر 1929م
3- حديث مع الشيخ راسم	159	31 ربيع الأول 1348هـ.
4- المغاربة في المنطقة الإسبانية، يوشكو أن ينقرضوا ويمحو من الوجود	538	1 ذي الحجة 1355هـ.

من المقالات السياسية التي عالجت أوضاع المغاربة في ديار الأسبان مقالته المعنون بـ: المغاربة في المنطقة الإسبانية، يوشكو أن ينقرضوا ويمحو من الوجود، نقتطف منه هذا الجزء

(...لم يبق عندنا شك في أن الجنرال فرانكو قد أمر أخيراً بوقف كل الأعمال الزراعيّة، في جميع المزارع والحقول والبساتين، في كافة أنحاء المنطقة الإسبانية عن المغرب الأقصى، ثم ساق هؤلاء العملة جميعاً) وكلهم من العرب والمسلمين) إلى جبهة القتال، وقذف بهم إلى جهنم الحمراء وهم كارهون، وكان فرانكو - قبل الحرب هذه التعبئة الجديدة- قد أخذ إخواننا المغاربة سبعين ألفاً، يقاتلون في سبيله وتاكلهم هذه الحرب التي عليه وزرها.

يكاد يزيد سكان هذه المنطقة الإسبانية عن نصف المليون نفس، أخذ الثَّوار الأسبان منها سبعين ألفاً، ثم أخذوا هذه التَّعبئة الجديدة الأخرى. فماذا عسى أن يكون قد بقي فيها من الرِّجال؟ أليس صحيحاً أن هؤلاء المغاربة يبذلون أنفسهم لفرانك وابتغاء مرضاة الله، ولكن أصحاب القمصان السَّواد والسَّمراء يدعوهم إلى خوض الحرب دفاعاً، يضربون وجوههم وأدبارهم، ويرغمونهم عليها بالحديد والنَّار...¹.

مجلة الرسالة

جاء في كلمة إعادة طبع مجلة الرسالة، قول الدكتورة سعاد الصباح، بعنوان: الرسالة مؤسسة لا مجلة (مجلة الرسالة ليست كأية مجلة، ظهرت في العالم العربي، ولكنها مؤسسة ثقافية كبرى لا تقل من حيث الأهمية والتأثير عن منظمة اليونسكو، وجامعة الأزهر، وكامبريدج، وهارفورد، والأكاديمية الفرنسية؛ إنها تراث بكل ما تحمله كلمة التراث من أصولية وارتباط بالأرض، والتزام بالقيم الفكرية الكبرى)².

من هنا تأتي أهمية ما تركته تلك المؤسسة، وإبداع كتابها على مرَّ عشرين سنة من العمل الإعلامي، لقد غطت خلالها الخريطة الثقافية للعالم العربي والإسلامي، تغطية شاملة.

1. محمد السعيد، الزاهري: (المغاربة في المنطقة الإسبانية)، الفتح، ع 538، 14 ذي الحجة 1355هـ، القاهرة، مصر، ص 15.

1. سعاد، الصباح: (الرسالة... مؤسسة لا مجلة)، الرسالة، ع 1، 18 رمضان 1351هـ، القاهرة، مصر، ص 7.

صدر أول عدد لمجلة الرسالة، يوم 15 يناير 1933م، وآخر عدد يوم 23 فبراير 1953م. وهي مجلة أسبوعية، مصرية الموطن، ومجالاتها الآداب والعلوم والفنون. صاحبها ومديرها ورئيس تحريرها: الأديب أحمد حسن الزيات، الذي عدّه الناقدون مدرسة في الكتابة، بأسلوبه المميز، وطريقته الخاصة في الصياغة والتعبير، إلى جانب مصطفى صادق الرافعي، وطه حسين، والعقاد، إلا أنه أقوام أسلوبا، وأوضحهم بيانا، وأحرزهم مقالة، وأنقاهم لفظا.

أما عن رسالة هذه المجلة، عبر عشرين سنة، فيمكن استخلاصها من قول الزيات نفسه، في مقاله الأخير من المجلة، حيث يقول: (ولكنها) (الوزارة) - واعجبا - لم تدرك إلى اليوم أن المجلة الأدبية الجدية مدرسة متنقلة، تدخل كل مكان، في أي بيئة، وتعلم كل إنسان، في أي سن، وتفعل ما لا تستطيع أن تفعله الوزارة نفسها من إحياء اللغة، وإنهاض الأدب، وتبسيط العلم، وتعميم الثقافة، وتوجيه الرأي، وتأليف القلوب، وتوحيد العرب، والسفارة بين مصر وأقطار العروبة، والتمكين لزعامتها في بلاد الشرق...)¹.

أقلام مجلة الرسالة

من أشهر كتّابها: أحمد أمين وعبد الوهاب عزّام ومحمد مندور وأحمد زكي وطه حسين وجميل صدقي والزهاوي ومحمود تيمور وحافظ طوقان ومصطفى كامل وإيليا أبو ماضي وسيد قطب وعلي الطنطاوي وأنور الجندي وأنور العطار والطاهر بن عاشور وثروت إباضة وعبد المنعم خفّاجة وأحمد

¹ أحمد حسن، الزيات: (الرسالة تحتجب)، الرسالة، ع 1052، 23 فبراير 1953م، القاهرة، مصر، ص

بدوي ومحمد بهجت وعبد القادر القط وعبد القادر المازني وعلي أحمد باكثير
وأحمد تيمور وشوقي ضيف وأحمد حسن الزيات ومحمد السعيد الزاهري.

حظ قلم الزاهري من هذه المجلة

وهذا مقتطف من مقال الزاهري بعنوان: (إني أرى في المنام)* أوجع به
الطريقة في الجزائر، وعالج من خلاله ظاهرة تحايل بعض مشايخ الطرق الصوفية
- المنتشرة في الغرب الجزائري خاصة - على عقول وقلوب العامة من الناس؛ يقول
فيه:

(...خرج من السوق خائبا مكتئبا، ملامحه عليها غبرة ترهقها قفرة،
تدل على ما يأكل في نفسه من الهم القاتل، والحزن العميق، يحمل في يديه قفة
فارغة لا شيء فيها، وفي الأخرى مسبحة غليظة جدا، وهو يقول بصوت واضح
مسموع: هذا ما يريد لي فلان، وهذا ما يريد لي فلان... وذكر ناسا بأسمائهم
من رجال الإصلاح الإسلامي في الجزائر، ومضى يردد ما يقول إلى مسافة بعيدة
من السوق.

هو شيخ لإحدى الطرق الصوفية في هذه البلاد، قد وهن منه العظم
واشتعل الرأس شيبا، تراه فترى وجها كالحا مسنونا، ولحية قذرة صفراء، كأنها
دخانا كثيفا. لا يزال يتعهددها ويغشاها من حين إلى آخر، كان يعتنق طريقة
صوفية، فلما لم يجد فيها معاشا تحول عنها إلى طريقة أخرى يعيش فيها

* المقال مثبت في ملحق هذه الأطروحة

حميله على أحبائها ومعتنقيها، فلا يدع وليمة ولا جنازة لأحدهم إلا هرولا معترضاً لما قد يكون فيها من صدقات ونفحات).

تعليق:

يفيدنا هذا الاستعراض البسيط لكتابات الزاهري في مجلات وصحف المشرق العربي في عدة ملاحظات أهمها:

1- في أن أولى الجرائد التي احتضنت مقالات الزاهري، وأول مقال تم نشره. فبعد الفحص، تبين أن المجلة الأولى التي فتحت صدرها لمقالات الأديب محمد السعيد الزاهري هي مجلة الزهراء*، وهي مجلة يديرها العالم محب الدين الخطيب. وبالتالي فأول موضوع للزاهري كان قصيدة بعنوان: الإفراط، وهي مؤلفة من أحد عشر بيتاً.

وتم نشرها بالجزء العاشر، من المجلد الثاني، صفحة 625 في سؤال من عام 1344هـ، والقصيدة معروفة لدى الجزائريين، لأنها نشرت في كتاب شعراء الجزائر في العصر الحاضر لمحمد الهادي الزاهري الجزء الأول الذي طبع بتونس عام 1926م.

ونلاحظ أن هناك إشارات من الزاهري تدلّ على أنه - وهو طالب في الزيتونة - كان يبعث بمقالات إلى جريدة الوزير التونسية، الجريدة التي لم نعثر بعد على أعدادها وبالتالي يمكن أن تكون لهذه الجريدة سبق في نشر شعر الزاهري ونثره.

* لم نجد بها سوى قصيدة واحدة بعنوان: (الإفراط) لذلك لم نعرف بها.

أما المجلة المشرقية الثانية التي نشر بها الزاهري مقالاته فهي مجلة الرسالة، وكان ذلك عام 1347هـ بعنوان: الإسلام في حاجة إلى دعاية وتبشير، جمعها الأديب محب الدين الخطيب، ثم نشرها في كتاب لاقى استحسانا من طرف الكثير من الأدباء والعلماء ممن عاصروا الزاهري ومنهم العلامة الجزائري عبد الحميد بن باديس.

والمجلة الثالثة هي الفتح التي أعادت نشر مقالات الإسلام في حاجة إلى دعاية وتبشير على صفحاتها.

أما المقتطف، فتأتي في المرتبة الرابعة. وكان المقال القيم فيها بعنوان: (هل البربر عرب؟ وهل لغتهم لغة ضاد أخرى؟) تم نشره يوم 17 صفر 1353هـ، في الجزء السادس من المجلد الرابع والثمانين.

2- في تقديرنا أن مجلة الفتح المصرية رأت في مقالات الزاهري أنها ترقى إلى مصاف ومراتب مقالات الأدباء والعلماء أمثال محب الدين الخطيب، وشكيب أرسلان، وأحمد محرم... وكذلك الذين احتضنت كتاباتهم، الشيء الذي جعلها تعيد نشر مقالات الإسلام في حاجة إلى دعاية وتبشير على صفحاتها. كما نعتقد أن محمد الزاهري لم يرسل بهذه المقالات إلى مجلة الفتح، ودليلنا على ذلك إعجاب محب الدين الخطيب بها، ثم جمعها ونشرها. وهذا يدل على مستوى قلم الزاهري بين أقرانه في الوطن العربي والإسلامي، إذ هو في مستوى أولئك الأدباء الذين خلدوا أسماءهم في هذه المجلة بمقالاتهم القيمة في شتى المسائل الاجتماعية والسياسية والدينية.. ولعل ما قالتها الدكتورة سعاد الصباح في هؤلاء الأدباء الذين

كتبوا في مجلة الرسالة، ومنهم محمد السعيد الزاهري دليلاً على مكانة الزاهري بين أدباء تلك المرحلة من كتاب العربية؛ قالت: (لقد غطت مجلة الرسالة الخريطة الثقافية للعالم العربي تغطية شاملة على مدى عشرين عاماً، وكانت المدرسة التي تخرج منها أعلام الأدب والشعر والنقد، في مصر والعالم العربي. فمن ظهر اسمه على صفحاتها كان من المبشرين بالدخول إلى جنة المشاهير في عالم الأدب، ومن لم ينشر اسمه بقي خارج أسوار الجنة)¹.

3- أما عن المجلة المشرقية المفضلة لدى الزاهري هي المقتطف، وذلك واضح من خلال تصريح الزاهري نفسه لمحمد بن أبي شنب حينما التقى به وهو في طريقه من تلمسان إلى وهران قال: (...فقطعنا الطريق في محادثة، وحوار وكان بيدي جزءاً من أجزاء المقتطف، فتناوله الشيخ من يدي، وقال: عهدي بك تحب الأدب ولا تحب العلم، فما بال المقتطف وهو مجلة علمية؟ فقلت: كلا يا سيدي إنني لا أحب من العلم ما كان صلباً يابساً، ولا من الأدب ما كان وهماً وخيالاً، وإنما أحب الحقيقة تكون في صورة رائعة من صور الأدب والجمال، والمقتطف يصف لنا حقائق الحياة، ويعلمنا العلم والحكمة في أسلوب من الأدب ساحر لذيذ، وللمقتطف عليّ يد لا أنساها أبد الدهر، فقال: وما هي؟ فذكرتها له فقال، لقد أحببت خير المجلات)².

¹. سعاد، الصباح: (الرسالة... مؤسسة لا مجلة)، الرسالة، ع 1، 18 رمضان 1351هـ، القاهرة، مصر، ص 7.

¹. محمد السعيد، الزاهري: (صفحة مجيدة من حال العلم والأدب في الجزائر، الدكتور محمد أبو شنب)، المقتطف، ج 6، م 84، 17 صفر، 1353هـ، ص 426. جاء عنوان المقال هكذا: (محمد أبو شنب)، والصحيح هو: (محمد بن أبي شنب).

وحسب قول الزاهري فإنّ ما يميز مجلّة المقتطف عن غيرها من المجالات هو جمعها بين العلم والأدب، الشّيء الذي دفع بالأديب الزاهري إلى محبة هذه المجلّة، بالإضافة إلى فضلها عليه. ونشير هنا إلى أنّ مجلّة المقتطف لم تحتو إلاّ على موضوعين: الأول بعنوان: (هل البربر عرب؟ وهل لغتهم لغة ضاد أخرى؟) وقد نُشر هذا المقال بالجزء السادس من المجلد الرابع والثمانين، 17 يوم صفر 1353هـ. أمّا الثاني فبعنوان: (بحث طريف في التواريخ المثلثين ، مقام المرأة السامي في اجتماعاتهم، بلادهم وطبقاتهم، وأبجديتهم وأدبهم، حياتهم ومعيشتهم.) وسننشر المقالين في ملاحق البحث.

5- مجلة الزهراء مجلة علمية أدبية اجتماعية شهرية أصدرها محب الدين الخطيب، بين عام 1343هـ و1349هـ بمصر، وتحتوي على خمسة مجلدات كل مجلد به عشرة أعداد، أشهر كتابها محب الدين الخطيب وأحمد شوقي وأحمد تيمور وأحمد زكي أبو شادي وشكيب أرسلان وعبد القادر المازني.

أما عن أسماء أدباء الجزائر الذين نشرت لهم المجلة مقالاتهم: إبراهيم اطفيش الذي شارك بسبع مقالات دارت كلها حول تاريخ الإباضية.

وبخصوص الأديب الثاني فهو محمد السعيد الزاهري الذي هو موضوع بحثنا، ولكون المجلة لم تحتو إلا على قصيدة واحدة لهذا الأديب الجزائري بعنوان: الإفراط، نشرت في الصفحة 625 من المجلد الثاني الجزء العاشر، رأينا أن لا نعرف بها كما فعلنا مع الرسالة والفتح.

6- المعرفة مجلة مصرية جامعة، لصاحبها وناشرها ومحررها المسئول: عبد العزيز الأسلامبولي، شعارها: (أعرف نفسك بنفسك)، لم نجد في المجلة من نثر الأديب محمد السعيد الزاهري أو شعره إلا مقالا واحدا بعنوان: (في المغرب الأقصى) نشر بالمجلد 7، العدد 11، السنة الأولى، شوال 1350هـ، مارس 1932م، القاهرة، مصر، ص1377. وقد وضعناه في الملحق. لهذا السبب لم نعرف بهذه المجلة ولم ندرجها مع غيرها من الصحف والمجلات.

7- مما تقدم يمكن تصنيف الأديب الزاهري في مرتبة مشاهير أدباء الوطن العربي في الربع الثاني من القرن العشرين، فقد فتحت أشهر مجلات تلك الفترة وهي المقتطف والرسالة والفتح والزهراء صدرها لكتاباته، كما فتحت لغيره من أعمدة وأركان الأدب العربي الحديث أمثال: طه حسين والعقاد وصادق الرافعي... وغيرهم.

1 تمهيد

لقد تناولنا في الفصل الأول الإبداع النثري وذكرنا هنالك أن الزاهري يُعدّ ناثراً من الطراز الأول، ولكن ذلك لا يعني أنه ليس شاعراً. ولهذا الشاعر حجم من الشعر يمكن أن يكون من الحجم المتوسط ويتمثل في مجموعة من القصائد التي عثرنا عليها إلى الآن والتي تبين مكانته الشعرية. لذلك جعلنا الفصل الثاني من القسم الأول على النحو الآتي:

2 الزاهري الشاعر

3- مضامين قصائد الزاهري (نماذج)

أ. القصيدة الأولى: "الجزائر تحيي الجزائر"

ب. القصيدة الثانية: "الجزائر تحيي المتطوعين"

ج. القصيدة الثالثة: "إلى الزعيم الجزائري بالإسكندرية"

د. القصيدة الرابعة: "ليت قومي يعلمون"

2 الزاهري الشاعر

يُحكي الزاهري عن نفسه حينما ركب لأول مرة مركب الأوزان، وشقَّ طريقه في بحر القوافي ليبلغ مرتبة دعاة تغيير الأوضاع الاجتماعية والسياسية والثقافية لبلاده المحتلة، فيقول: (أما إذا سألتني عن شأني في الشعر، فإني كنت أول مرة أفتش عن الكلمات الغريبة أينما كانت لأصور بها ما أريد من المعاني)¹. لكن الغرابة أصبحت بعد ربح من الزمن أبغض الأشياء إلى نفسه. وبدون تدرج من السيئ إلى الحسن، ومن الحسن إلى الأحسن راحت شاعريته تتألق مع المتألقين تسبح في علياء الصدارة مع السابحين من شعراء عصره. هكذا طفرة واحدة أصبح الزاهري شاعرا مجيدا، وأصبح بعد سن السادسة والعشرين من الشعراء الجزائريين الذين يرصعون صفحات جريدة الشهاب بالقصائد.

والحق أن للزاهري قصائد يصل عددها - إلى كتابة هذا البحث - إلى العشرين قصيدة، أستطاع الزاهري عام 1926م تلبية لطلب محمد الهادي الزاهري أن يجمع بعضها ويبعث بها إلى صاحب كتاب: شعراء الجزائر في العصر الحاضر لتكون بعد ذلك جزءا أساسيا منه، أما البعض الآخر فقد ضاع منه حسب ما أورد الشاعر نفسه حينما تحدّث عن حياته في كتاب شعراء الجزائر في العصر الحاضر.

¹ - محمد السعيد، الزاهري: شعراء الجزائر في العصر الحاضر، ج1، ص 67.

يعتبر شعر محمد السعيد الزاهري مرآة حقيقية لما يجول ويختمر بخلده، ويغلي بصدرة. إنه الأداة التي أفصح - من خلالها - عن حبه لوطنه وذويانه فيه، فإذا بكى فبكاؤه لوطنه، وإذا فرح فله، ومن أين يأتيه الفرح ويدخله السرور وهو يرى بلاده بين أنياب البؤس يمضغها مضغاً، وفي فقر يأكلها أكلاً؟ إن الشعر بالنسبة إليه هو الشعور بالألم والغم والكمد والأسى والتيه والعمى والضلال. وكلها مفردات لا يحس بها الجزائري فحسب بل تعصر قلبه عصراً، ومن ثمة يتعجب الزاهري من أبناء الجزائر كيف لا يتأثرون بالواقع المرّ فيندفعون للتعبير قائلاً: (وأبناء الجزائر يشعرون بهذه الآلام ، فما لهم لا يكونون شعراء؟)¹.

ومن هنا ندرك أنّ أشعار الزاهري تجسّد بصدق معاناته الكبيرة التي مرّ بها وهو يرى بلاده تتخبّط في جهالة عمياء، ويعمّها ضلال مبين، ويحوطها بؤس أليم، ويذوب فؤاده رقة وحزناً، وتذهب نفسه حسرات عليها، ويمتلئ فؤاده همّاً وغمّاً كلما تذكر ما كانت عليه حال بلاده من العزّة والشرف، وما كان لها من السيادة على قسم كبير من دول أوروبا، ثم يراها تصير بعد ذلك كلّها إلى الذلّة والهوان.

هكذا تفيض قصائده حباً وحناناً وشفقة ورحمة بالوطن الجزائري، وتزخر بوعوده على أنه سيبعث في قومه الحياة بأعماله الصالحة، وأقواله الصادقة، وأنه سيلهث وراء الحقّ الضائع لبلاده ولو كان بين أنياب الوحوش الكاسرة؛ يقول:

سأبعث في قومي حياة إذ أنا حبيبت بأعمالي وصادق أقوالي

¹. محمد السعيد، الزاهري: شعراء الجزائر في العصر الحاضر، ج 1، ص 62.

وأطلب حقا للجزائر ضائعا ولو كان محميا بأنياب أغوال¹

وإذا أردنا أن نلخص مضامين أشعار وأفكار الزاهري فإننا نجدتها تتمحور حول ثلاثة أسس هي:

- تذكير الفرد الجزائري بما كان عليه - في القديم - من مجد وعزة وشرف

- تجسيد حياة الشقاوة والمكانة الوضيعة التي صارت إليها الجزائر بعد

احتلالها

- الدعوة الصريحة إلى رد الاعتبار للأمة الجزائرية

والأمر الذي لا يجب أن يغيب عن الأذهان هو أن الزاهري يُعدّ من الشعراء المقلّين وهو ناثر أكثر منه شاعرا لقلّة قصائده التي عثرنا عليها

3- مضامين قصائد الزاهري (نماذج)

فتح الشاعر محمد السعيد الزاهري عينيه في مدينة ليانة ببسكرة ليجد

بلادته تحت سلطة احتلال بغيض، هذه السلّطة لا ترى الجزائر إلاّ (بنت روما

البكر)². وهي وارث شرعيّ للحضارة الرومانية القديمة. أمّا الشعب الجزائري كلّ

ومنهم الزاهري، أبله معتوه، باطن الأرض أولى له من ظاهرها، والفرق بينه وبين

¹- المصدر السابق، ص 67،

² مولود قاسم، نايت بلقاسم: إنية وأصالة، وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية، مطبعة البعث، قسنطينة، الجزائر، 1975م، ص223.

المواطن الفرنسيّ كالفرق بين العلم والجهل، والتّقدّم والتّأخّر، واللّيل والنّهار، وهذا ما أقرّه الباحث الفرنسيّ (بيرمولان) في أطروحته التي أعدّها لنيل شهادة الدكتوراه بقوله: (يجب أن لا ننظر إلى المواطن الجزائري وكأنّه ذو عقل شبيه بعقولنا)¹.

إذا لا فائدة تجنى من الفرد الجزائري، حتّى وإن أنفقت الأموال الطائلة في سبيل إسعافه؛ بتعليمه أو تربيته، لأنّ الصّفات السّابقة طبيعيّة ومتأصّلة فيه، (وإذا فكّرنا في أنّ التّعليم يستطيع أن يغيّره تغييرا كاملا، فإنّنا نخالف ذلك، بل نتجاهل قانون التّطور والثّابت)².

ترعرع الأديب الزّاهري وسط بيئة سياسية واجتماعية وثقافية شهدت حربا ضروسا، شنّها المحتل الفرنسيّ على كافّة فئات الشّعب الجزائريّ، وشارك فيها المعلّم الفرنسيّ، والكاتب السياسيّ، والإداري، والضّابط والمستوطن، ورجال الدّين، والكنيسة والمدرسة، من أجل هدف كبير طويل المدى هو تحطيم حصون اللّغة الوطنيّة، والتراث الشّعبيّ والدّينيّ والقضائيّ للأمة الجزائرية، وتشويه تاريخها واستبداله بتاريخ مصنوع وجاهز. ولم يتورّع هؤلاء جميعا عن المشاركة في هذه الحملة فأعلنوا جميعا أنّ المواطن الجزائري بحكم تكوينه الجسدي والعقلي (هو

1 بسام العسلي: ابن باديس وبناء قاعدة الثورة في الجزائر، ط2، دار النفائس، بيروت، لبنان، 1982م، ص54.

2 المرجع نفسه، ص ن.

إنسان غير قابل للحضارة، لأنّه إنسان عنيف متعصّب، ولا يعرف الخضوع للقانون، بل للقوة فقط¹.

وبتمعنّ قرأ الزّاهري هذا الواقع المرير لوطنه، فوجد المحتلّ قد أقام سياسة حاقدة، تقضي أولاً بطرد الطبقة المثقّفة و (لعلّ أول نخبة جزائريّة مثقّفة طردها الاستعمار كانت سنة 1833م، عندما قامت سلّطات الاحتلال بنفي كلّ من حمدان بن عثمان خوجة، وأحمد بوضربة. وهما من المثقّفين الذين قضوا حياتهم في المنفى)².

أمّا التّعليم فيراه الزّاهري بالنّسبة للشّعب الجزائري فظيعاً؛ لا توجد مدارس حرّة يرتادها الأبناء، ولا مدرّسون يحاربون الجهل. وقد لخصّ توفيق المدني الوضعية التّعليميّة في الجزائر أثناء الاحتلال بقوله: (فمأساة التّعليم في بلادنا الجزائريّة تساوي في هولها وفي فظاعتها مأساة الأرض، فهذه حرّمت على أبنائها حياتهم الماديّة، وتلك حالت بينهم وبين النّور والحياة الفاضلة)³.

هكذا عاش الزّاهري وهو يرى كيف يَجِدُّ المحتلّ ويجتهد في إخضاع الجزائر لسيّطرتها في شتى الميادين، ومنها تنصير أبناء الجزائر والحيلولة دونهم

¹ عبد الله، شريط: المشكلة الأيديولوجية وقضايا التنمية، ديوان المطبوعات الجامعي، الجزائر، 1981م، ص52.

² عبد الكريم، بوصفصاف: جمعية العلماء المسلمين ودورها في تطور الحركة الوطنية، 1931م-1954م، ط1، دار البعث، قسنطينة، الجزائر، 1981م، ص43.

³ أحمد، توفيق المدني: هذه هي الجزائر، مكتب النهضة المصرية، 1956م، ص 141.

ودرس القرآن، والمحتل يعتبر ذلك من واجباته المقدسة، وإن عجز بالطرق المباشرة فهناك حركات هدامة، صوفية دينية. (وكان لهذه الطرق الصوفية الرئيسية نواد في الأسواق، يأوي إليها الأشياع، فيشربون الشاي، ويذكرون الله، ويتلقون بعض المبادئ المشوية بالجهل والقصور لضحالة ثقافة المقدمين، وإغراقهم في الأمية الفكرية)¹.

إن الواقع الثقافي والسياسي والاجتماعي والديني المرير للشعب الجزائري حول اهتمامات الأدباء الجزائريين - ومنهم الزاهري - من سفاسف الأمور إلى عظامها، وجعلهم يفكرون بجد في استرداد حق بلادهم المسلوب، ويمضون في أنجع السبل من أجل نفع أمتهم. تلك أهداف صرح به الزاهري بعد أن اجتاز عقده الثاني بقليل في قصيدته اللامية قائلا:

سأبعث في قومي حياة إن أنا حبيت بأعمال وصادق أقوالي

وأطلب حقل للجزائر ضائعا ولو كان بأنياب أغوال

وأفعل ما أقوى على نفع أمتي إذا لم يكن غيري عليه بفعال

ألا في سبيل إصلاح الشعب أصرف مهجتي وفي الشيب والفتيان والصحب والآل

استطاع الزاهري أن يلتزم بهذا الفكر القومي الوطني طيلة حياته ولم يجد

عنه، مدافعا عن بلاده بقلمه حتى قضى نحبه عام 1956م. وإنك لا تقرأ قصيدة

1- المرجع السابق، ص 39.

من قصائده إلاّ وتجد حبه للجزائر يغمرها. وتشيعه لها واضح رغم مسحة الكآبة التي تكتنف قصائده وتسيطر على أبياتها، وانطلاقاً من قول الزاهري:

كيف الخلاص من الجزائر بعدما ملكت عليّ مشاعري وصوابي؟¹

فإنّ موقع الجزائر من قلبه كما وصفها صالح خرفي قائلاً: (نقطة انطلاق، ومطار الجناح المحلّق، وملاذ القلب المعذب، ومهوى الريشة النازفة).²

ومن أجل معرفة محتوى قصائد الشاعر محمد السعيد الزاهري، والمعاني التي دارت حولها أفكاره، لا بدّ من الوقوف عليها بتمعن وتركيز.

وحتى يتبين فكر هذا الشاعر على حقيقته يجب أن نقف عند شعره، نستتق بعض قصائده.

القصيدة الأولى³

عنوان القصيدة: الجزائر تحيي الجزائر

عدد أبياتها: 52 بيتاً

¹ - محمد السعيد الزاهري: (تحية الإصلاح) الشهاب، السنة الرابعة، العدد 161، ص 17.

² - صالح خرفي: محمد السعيد الزاهري، سلسلة في الأدب الجزائري الحديث، رقم 5، المؤسسة الوطنية

للكتابالجزائر، 1986م، ص 13.

³ - هذه القصيدة موجودة بكتاب شعراء الجزائر في العصر الحاضر، ج1، صفحة 68، وهناك تعليق في هامش الصفحة يقول: نشرت هاته القصيدة في العدد الأول من جريدة (الجزائر) تحت العنوان أعلاه، فالجزائر الأولى: الجريدة، والثانية: الشعب الجزائر، وقد جعلنا القصيدة بملحق الرسالة.

رويها: حرف اللّام

بحرها: بحر الطّويل

فكرتها العامّة: استشراف الشّاعر لمستقبل الجزائر على أيدي وسواعد النّشء

مناسبتها: أرجح أن يكون الشاعر قد قال هذه القصيدة بمناسبة إصداره لجريدته الأولى في مساره الصحفيّ التي سماها الجزائر، وجعل شعارها: الجزائر للجزائريين. أصدر منها ثلاثة أعداد فقط بسبب تعطيل سلطات الاحتلال لها، وتعني كلمة الجزائر الأولى في عنوان القصيدة: جريدة الجزائر، أمّا لفظة الجزائر الثّانية فتعني الشعب الجزائري كما بيّنا ذلك في الهامش.

القصيدة

قال الزّاهري:

ألا في سبيل المجد حلّي و ترحال
فإن نلت ما أبغى فذاك وان أمت فكم
أأرجو بأن يبقى الزمان مساعدي
إذن أنا مغتر بأن لا يخونني
ومسعاي في العلياء والشرف العلي
مات من دون المنى قبل أمثالي
ومن طبعه أن لا يدوم على حال
إذا كنت منه في حظوظ وإقبال
بدهري يلقاني بأجمل سريال¹
بلى إنّي من ليس يغتر لبّه

¹ - سريال: القميص أو كل ما يلبس، ج سربيل.

أرى الدهر لا ينفك تأتي صروفه
ولولا خطوب الدهر ما كنت شاعرا
فيا ويح قومي كم يعرض عليهم
على أنهم لا يقطعون نهـارهم
كأنهم لم يشعروا أن جهلهم
ويا ويح أحرار الجزائر كم و كم
لقد كسر الناس القيود و حطموا
بقينا بأغلال من الفقر لم يكن
وقد لبس الناس العلوم جديدة
وقد لبس الناس الفخار مطارفا
وأصبح هذا الناس أحياء كلهم
فما أحد منا يحرك ساكنا
ما لم يكن يوما يمر على بال
بما فت في أعضادنا في أوصال
من الفقر أنياب وأنياب إقلال
ولا ليلهم إلا على القيل والقال
لدى الناس طرا سار سيرة أمال
يهيج عليهم من هموم و بلبال
ونحن بقينا في قيود وأغلال
ليكسرها إلا تكسب أموال
ونحن لبسناها من الخلق البالي
ونحن بقينا في جرود وأسمال
ونحن بقينا اليوم في زي تمثال
لدى نوب تغشى البلاد وأهوال

سأبعث في قومي حياة إذا إنا
ورب امرئ أحيى العشيرة كلها
وأطلب حقا للجزائر ضائعا
فليست حقوق جد فيهن طالب
حييت بأعمالي وصادق أقوالي
بما هوات من جلائل أعمال
ولو كان محميا يا نيباب أغوال
تفوت ولو صينت بيباب وأفقال

وأركب متن الجد واللين، إنني
وأُنشر فيهم ما انطوى من مفاخر
سيعلم مني القوم صدقا وعفة
وأعرض عما قال في حواسدي
وما كنت ممن يحفلون بمن له
وأمضي بما توحى إليّ خواطري
وأفعل ما أقوى على نفع أمتي
وأندب شبان الجزائر عليهم
فإن كان منهم من يجيب فإننا
وإن لم يكن من يفعل المجد منهم
وأقفو سبيل المصلحين فإنه
واثبت فيما ابتغيه وإنني
وانصح فتیان الجزائر كلهم
وليس يفيد النصح في المرء لم يكن له
ألا في صلاح الشعب أصرف مهجتي
فان كان لي قومي سمونا بشعبنا

رأيت ركوب الجد واللين أولى لي
وفضل للأجداد أوائل أقيال¹
وأن لست من قوم زعانف جهال
فما كان أمر الحاسدين بذى بال
آلائم من عم لئيم ومن خال
لشأنى لا ألوي على غير أشغالي
إذا لم يكن غيري عليه بفعال
يجيبونني يوما على حمل أثقال
سنحظى بما ننوي و نحظى بآمال
فإنني على فعل العلا غير مكسال
لأوضح منهجـاج وأحسن منوال
لأجمل فيما ابتغى أي إجمال
ولا اذكر الأشيـاخ إلا بإجلال
وازع من نفسه كل ما حال
وفي الشيب والفتيان والصحب والآل
إلى منزل بالفضل والمجد محلال

¹ - جاء في شرح هذه الكلمة في كتاب شعراء الجزائر في العصر الحاضر، ج1، ص70: الأقيال جمع قيل: الملوك من حمير.

لنا نشئ شم بعيد مرادهم ستدريهم الأشبال في زي أطفال
فأهلا بهم نشأ جديدا ومرحبا بمن اتخذوا الأفلاك مسحب أذيال
فيا وطني إن كنت من قبل ذا عنا ومالك من صرف الحوادث من وال
فها قد أتاك اليوم عصر مذهب وها قد أنتك اليوم أيام إقبال
وان كنت يا شعب الجزائر ذا ضنا فها أنت تدنو من شفاء وإبلال
ويا وطني إن كان قد عضك الأسي قديما فسوف تفتدي ناعم البال
سيكفيك فتیان الجزائر ما به شقيت زمانا من زهول وإهمال
أحييك بالنشء الجديد فإنه ليفديك ذاك النشء بالنفس والمال
يرى كل ما قد أنفق الناس قيمة الـ فداء لشعب ليس بالثمن الغالي
فما منهم إلا أخو هممة له جوانح لا تنفك كالمرجل الغالي
ويا وطني إن كان لم يبق للأولى خلوا بك من آبائنا غير إطلال
فكن هانئا بالنشء يجهد نفسه ليجديك نفعا بالغدو والأصال
ويبذل في تخفيف بؤسك جهده فيكفيك ما لاقيت في الزمن الخالي
شباب نو وجد مكان جدودهم ليرقوا بك العلياء والمنزل العالي
وما المرء إلا من يسود بنفسه فيبقى مع الأيام ذكرى لأجيال

وبما أن القصيدة احتوت على أبيات كثيرة بلغ عددها اثنين وخمسين بيتا،
فقد تحدث الشاعر في ثلاثة وعشرين بيتا منها عن نفسه، صرح عن ذلك

بالضمير المنفصل أنا تارة، وكنى عن ذلك بالضمير المستتر الذي يعود عليه تارة أخرى، واصفا هذه الذات بأنها تتألم للوضع المتردي والمأساوي الذي آلت إليه الجزائر وشعبها في ظل احتلال بغيض؛ ونفسه الأبية تعلم يقينا أن للجزائر ماضيا مجيدا مشرفا لكن أبناءها في غفلة منهم، أضاعوه بتكاسلهم وقعودهم عن العلم والأخلاق، لذلك فالشاعر مصمم على أن يطلب هذا المجد - وهو حق ضائع - بركوبه للجد، ونشره لمفاخر الأجداد، وصدقه للنية، وعفته للمطلب، وإعراضه عن الحاسدين، ومضيه في تحقيق الأحلام وما توحى به الخواطر. وبما أنه شاب قوي العزيمة فإنه يدعو مثله من الشباب الجزائري ليحملوا معه أمانة الوطن، ويتقاسموا معه العبء الثقيل، مقتفين في ذلك أثر الصالحين والعلماء في الوطن العربي والإسلامي، بثبات وروية، ناصحا النشء الجديد ومذكرا إياه بمنزلة الشيخ العلماء والأجداد الكرام.

وبكل ثقة فإن الشاعر يرى أنه: ما ضاع حق وراءه طالب، وما أكثر الطلاب في الجزائر! وأجمل بسواعد الشباب في تحقيق هذا الهدف الكبير!

يقول الزاهري:

لنا نشء شم مرادهم ستريهم الأشبــــــــــــــــال في زي أطفال

فأهلا بهم نشأ جديدا ومرحبا بمن اتخذوا الأفلاك مسح أنيال

إن أمل الشاعر قائم في إخراج وطنه من هذه المأساة بفضل سواعد النشء، وهذا ما نلحظه في نهاية القصيدة حينما نادى وطنه ثم طمأنه بالخروج من المأزق والتعاسة والشقاء إلى بر الأمان والعيش الرغيد. قائلًا:

فيا وطني إن كنت من قبل ذا عنا وما لك من صروف الحوادث من وال

فها قد أتاك اليوم عصر مذهب وها قد أتتك اليوم أيام إقبال

لم يكن أمل الشاعر في مستقبل زاهر للجزائر - بعدما طوّقها الجهل - بدعة بين شعراء زمانه، فقد شاركه الكثير منهم، حيث كانوا يرون خلاص وطنهم على سواعد النشء الجديد. فهذا الشاعر محمد اللقاني بن السايح* يعنون قصيدة له بـ إلى رجال العمل، إلى الشباب الناهض. يقول فيها:

يسوقهم النبوغ إلى نزوع آباء مضوا في النابهينا

وهذا ابن باديس يصرح فيقول:

يا نشء أنت رجائنا وبك الصباح قد اقترب

خذ للحياة سلاحها وخذ الخطوب ولا تهب

وهذا محمد العيد آل خليفة يقول:

يا شباب العلا اعتصم بالتآخي زانك الله في العلا من شباب

* شاعر جزائري ولد عام 1313هـ، تخرج من جامع الزيتونة بشهادة التطويع، واشتغل معلما ونشر قصائده في الشهاب. لمزيد من المعلومات يراجع كتاب شعراء الجزائر في العصر الحاضر، ص 30.

انشر السنة الكريمة واعمل بهداك وخذ بحد الكتاب

ومحمد بن الموهوب يقول في قصيدة بعنوان نشيد الصغار:

يا أيها الأبناء الصغار أنتم لنا نعم الثمار

جدوا لتدركوا الفخار فعاشق العلم سعيد

وبالعودة إلى قصيدة الزاهري: الجزائر تحيي الجزائر فإننا نجدها تحمل في

طيّاتها ثلاث أفكار أساسية هي:

1- ضياع مجد الجزائر بين الجهل والفقر والقيـل والقال.

2- أمل الشاعر في بعث المجد الضائع.

3- دور النشء في استرداد المجد.

كل هذه المعاني تصبّ في مفهوم واحد هو أمل الشاعر في استرداد

الجزائر لمجدها الضائع على سواعد شبابها الناهض.

ومن أجل تقريب هذه المعاني من القارئ وتوصيلها له واضحة ميسرة،

استخدم الشاعر الجملة الفعلية؛ أفعالها مضارعة مناسبة لجو القصيدة العام، وهو

المستقبل القريب أو البعيد الذي تتحقّق فيه الأماني، وقد وردت هذه الجمل الفعلية

في بدايات أشطر الأولى للأبيات. ومثال هذه الأفعال:

سأبعث في قومي حياة...

وأطلب حقاً للجزائر...

وأركب متن الجدّ واللّين...

وأنشر فيهم ما انطوى من مفاخر...

سيعلم منّي القوم...

وأعرض عما قال في حواسدي...

وأمضي بما توحى إليّ خواطري...

وأفعل ما أقوى على نفع أمّتي...

وأندب شبّان الجزائر...

وأقفو سبيل المصلحين...

وأثبت فيما أبتغيه...

وأنصح فتیان الجزائر...

وإذا تمعنا في هذه الجمل الفعلية وجدنا أسلوبها مباشرا، ذا نبرة خطابية مناسبة للوضعية العامة التي يعيشها الشعب الجزائري، من ركود ونوم عميق، ولا مبالاة بما يحدث، فأسلوب الوخز والحضّ هو الذي من شأنه أن يبعث في القلوب

والعقول الشّهامة والفتنة، وذلك ما يرمي إليه الزّاهري وشعراء تلك الفترة من حوله، ولو كان الوضع الثقافي للشّعب الجزائريّ في تلك الفترة يرقى إلى مستوى الشّعوب العربيّة في المشرق كمصر ولبنان لأخفى الشّاعر مراده، وألبس معانيه وأخفاها في استعارات وكنائيات وتشبيهات، وهذا ما يفسر خلوّ القصيدة - تقريبا - من الصّور البيانيّة وطغيان الأسلوب المباشر، وكثرة حروف العطف، وأدوات التّوكيد والنّفي والنداء.

القصيدة الثّانية¹

عنوان القصيدة: الجزائر تحيي المتطوّعين.

رويها: حرف الرّاء.

بحرها: بحر الطّويل.

فكرتها العامّة: دعوة النّشء لإنقاذ الوطن.

مناسبتها: قال الزّاهري هذه القصيدة في مجموعة من الشّباب الجزائريّ النّاهض، تخرجوا من جامع الزيتونة وسيعودون إلى بلادهم محمّلين بشهادات تؤهّلهم لنشر العلم النّافع في أوساط الشّعب الجزائريّ. وتلك رسالة نبيلة.

1- القصيدة مثبتة في كتاب شعراء الجزائر في العصر الحاضر لمحمد الهادي الزاهري، ج1، ط1، تونس، ص 72،

«الجزائر» تحي المتطوعين*

يحلّق ناس كالصقور الكواسر ويبقى أناس تحت دق الحوافر
فسبحان قسام الحظوظ فإنه لا قدر بالأشياء من كل قادر

توفر حظّ النَّاس في العلم والهدى وما زال منقوصا نصيب الجزائر
فيا ليتها تحظى من العلم بالذي يرد عليها ما مضى من مفاخر
وما فات من مجد وعزّ أوائل وما كان من فضل وطيب مآثر

ويا ليتنا يوما نبهر جدودنا ففي بر أسلاف فخار الأواخر
وما البهر إلا أن نقص ونقتفي طريق جدود حافرا فوق حافر
وما كان برّ الوالدين بممانع لنا أن نجاري في السرى¹ كل سائر

* محمد السعيد، الزاهري: شعراء الجزائر في العصر الحاضر، ج1، ط1، بالمطبعة التونسية، تونس، 1926م، ص72.

القصيدة من بحر الطويل، عدد أبياتها أربعون بيتا، وجاء في التعليق عليها في حاشية صفحة 72، من كتاب: "شعراء الجزائر في العصر الحاضر" الآتي: المتطوعون هم الحاملون للشهادة العلمية من جامع الزيتونة وقد تخرج من الجامعة المذكورة في آخر عام 1343هـ السادة المشايخ: محمد الصالح بن الطاهر الجيلالي التبسي. محمد بن علي عز الدين. محمد خير الدين الفرفاوي. الطيب بن الهاشمي السوفي = محمد الشريف بن عمار المدكالي. علي بن عمار من طولقة. محمد بن الطيب الدراجي. وهم المعنيون بالمتطوعين الذين نظمت هاته القصيدة في حقهم ولما فيها من الدعوة غلى العمل في إحياءها اندثر من مفاخر الجزائر ومن الدعوة إلى النهضة بالوطن وأبنائه آثرت نشرها.

نسابق أهل العصر في كل غاية فما الفخر إلا في سباق المعاصر
لقد سبقت أسلافنا أهل عصرهم إلى كل شيء في المكارم فاخر
فكم ركبوا للمجد يبغيون شأوه على من يجاريهم متون المخاطر
فكانوا هم القوم الأكابر في الورى وما كان قوم غيرهم بالأكابر
ولو أنهم كانوا في ذا العصر حضرا لكانوا على المنطاد أول طائر
ولاصطنعوا ما يعجز الطير في السما مداه، وكانوا فيه أمهر ماهر
وغاصوا ببطن البحر حوتا وخرجوا من القعر قعر البحر أغلى الجواهر
وساروا يشقون البحار مسخرا لهم ما بها من منشئات البواخر
سلوا "شركانا"² كم رأى من جدودنا فليس له الأهم من زواجر
فجهز أسطولا وجيشا عرمرما لكنه قد آب أوبة خاسر
هم القوم لا هم الزمان كهمهم ولا باعهم عما أرادوا بقاصر

طوى الدهر قومي غير أن حديثهم سيبق مع الأيام رغم المكابر
سيحييهم النشء الجديد فانه يغار على أجداده في المقابر
ولا خير في نشء إذا لم يكن له ولوع بآثار الجدود الغوابر¹

¹ - السرى: السير ليلا

² - جاء في حاشية الصفحة 74 من كتاب شعراء الجزائر في العصر الحاضر، ج1، في تعريف "شارلكان" الآتي: هو ملك أسبانيا قدمت جنوده الجزائر في القرن العاشر الهجري لقصد الاستيلاء عليها فخاب وانهم شر هزيمة بما لاقاه من بطولة الجزائريين الذين شهد لهم الأعداء والفضل ما شهدت به.

فيا نشأنا هذي بلادك تشتكى إلى الله من شؤم الجدود العواثر
وتشكو من الأخلاق لما فسادها فشا حتى ما بين البنين الأصاغر
وتشكو من الجهل الذي لم يزل بها يعرض عليها بالنيوب الكواثر
وتشكو من القوم الذين قضوا بها زمانا ولكن في قبيح التنافر
فلا تك أشتاتا إذا جد حادث فما ضرنا إلا انحلال الأواصر
وكن في ابتغاء المجد يا نشء صابرا فما انقادت الآمال إلا لصابر
ولا مجدد إلا العلم يطلبه أخوا عزائم تزري بالسيوف البواتر
مضى نفر يبغى المعارف من بني الـ جزائر حتى أب أوبة ظافر
فأهلا وسهلا بالذين تطوعوا لخدمة هذا الشعب شعب الجزائر
شباب لعمر الحق لم يك فيهم سوى حازم عف الطوية طاهر
تجلوا على هذي الجزائر بعدما سجي الجهل أشباه البدور الزواهر
فقر بهم شعب الجزائر مثلما تقر لدى الإياب عين المسافر
هم النشء لا نشء أضاع شبابه وأمواله بين الخنا والمخامر
شباب يرى تفريطه في بلاده وتضييعه للقوم إحدى الكبائر
شباب أبوا أن يألفوا قط سبة فلا خير فيمن يرتضي بالمعاير
ليهناً بهم شعب الجزائر أنهم هداة ذوو خبر بوعر المعابر
فلا زال أبناء الجزائر طالعا عليها فتى منهم جميل المظاهر

¹ - الغواير: جمع مفردة غابر وهو الماضي.

ولا زال هذا الشعب في الناس دائما على الدهر والأيام أظهر ظاهر

بدأ الشاعر قصيدته ببيتين من الحكمة البالغة، وهي أن الناس قسمان:

من الناس من يخلق في السماء مثل الكواسر والصقور، ومنهم من يرضى بالخنوع والنّوبان في الآخر، والعيش النكد. وهذه المقابلة في المعنى تكشف بوضوح رغبة شعراء الجزائر في العصر الحديث في نقل مستوى الشعب من الرّكود إلى الحركة والنّهوض، أو أملهم الكبير في تغيير المستوى السياسي والثقافي والاجتماعي لبلدانهم.

ثم أردف الشاعر مقدمته الحكمية بتصوير الهوة بين الشعب الجزائري - وهو تحت سلطة الاحتلال - ومآثر الأجداد والأمجاد. حيث كان الأجداد من الأكابر، عملوا لعصرهم، وأدوا ما عليهم، حيث حافظوا على مستواهم العلمي والحضاري، ولو أنّهم عاشوا زمان الشاعر لكانوا السباقين إلى اختراع المنطاد والغواصة والباخرة والأساطيل.

يقول:

فكانوا هم الأكابر في الوري وما كان قوم غيرهم بالأكـابـر

ولو أنّهم في ذا العصر حضرا لكانوا على المنطاد أول طـائـر

ولاصطنعوا ما يعجز الطائر في السّما مداه، وكانوا فيه أمهر مـاهـر

وغاصوا ببطن البحر حوتا وخرجوا من القعر قعر البحر أعلى الجواهر

وساروا يشقون البحار مسخرا لهم، ما بها من منشآت البواخر

غير أن هذا المجد العالي الغالي - في نظر الشاعر - وتلك المفاخر ضاعت وأفل نجمها، وتلاشت بيت أيادي مرتعشة، لكن شعب الجزائر اليوم في حاجة إلى استرجاع وعودة هذا المجد الزاهر. والشاعر لا يرى ذلك من المستحيلات، فكله أمل في رؤية شعب بلاده يتحدى الصعاب.

طوى الدهر قومي غير أن حديثهم سيبقى مع الأيام رغم المكابر

سيحييهم النشء الجديد فإنه يغار على أجداده في المقابر

يختم الشاعر قصيدته بأمل منه في تلك الطائفة العائدة من الزيتونة، والتي تطوّعت لتحصيل العلم والمعرفة حتى تتمكن بعد عودتها إلى الوطن من إرساء قواعد الفكر والثقافة، وطرد الجهل ومحاربة الخرافات والبدع والفساد. يقول:

مضى نفر يبغي المعارف من بني الـ جزائر حتى أب أوبة ظـافر

فأهلا وسهلا بالذين تطـوعوا لخدمة هذا الشعب شعب الجزائر

شباب لعمر الحق لم يكن فيهم سوى حازم عف الطوية طاهر

تجلوا على الجزائر بعدما سجي الجهل أشباه البذور الزواهر

شباب يرى تفريطه في بلاد وتضييعه للقوم إحدى الكبائر

ومن قراءة القصيدتين: الأولى والثانية يتجلى بوضوح التشابه الكبير بينهما من حيث الأفكار، وأن نقاط التشابه كثيرة، إذ تركز الحديث فيهما على ذكر ضياع مجد الجزائر ومفاخر الأجداد من ناحية، وضرورة استرجاعهما من ناحية أخرى، ولن يكون ذلك إلا على سواعد الشباب الناهض بسلاح العلم ومحاربة الجهل والخرافات. وقد تجلّى هذا المعنى بقوة في القصيدتين. ولعلّ السبب في ذلك يعود إلى أنّ الهاجس الوحيد للشاعر هو حرقة الشديدة على تخلف الشعب الجزائري، وجهله بحقوقه المهضومة، وعوده عن الجدّ في المطالبة به، وعليه فإنّ نفسية الشاعر التي كانت وراء معاني القصيدة الأولى هي نفسها التي دفعته إلى قول القصيدة الثانية.

ومن أجل توضيح المعاني وتقريبها من القارئ، وظّف الشاعر منظومة ألفاظ في غاية السهولة، بعيدة عن التّكلف والغموض. فالمفردات سهلة بسيطة لا يحتاج القارئ في فهمها إلى إحضار قاموس، وتلك ميزة من ميزات الشعر العربي الحديث.

الذي حاول بها الشاعر أن يبتعد قدر المستطاع عن فضاضة القول، وغموض المعنى.

القصيدة الثالثة¹

عنوان القصيدة: إلى الزعيم الجزائري بالإسكندرية.

عدد أبياتها: واحد وثلاثون بيتا.

رويها: حرف الباء.

بحرها: بحر الطويل.

فكرتها العامة: التتويه بجهود العاملين في الجزائر من أجل تخليصها من الظلم والاضطهاد.

مناسبتها: قال الشاعر هذه القصيدة في الأمير خالد - حفيد الأمير عبد القادر- الزعيم الجزائري يودعه، يوم أن أبعده السلطات الفرنسية إلى المدينة المصرية الإسكندرية.

القصيدة

إلى الزعيم الجزائري بالإسكندرية*

1- القصيدة مثبتة في كتاب شعراء الجزائر في العصر الحاضر، ج1، ط1، ص76، مع تعليق حولها في الهامش يقول: قال هذه القصيدة في الأمير خالد الزعيم الحر المقدم الجزائري يودعه بها أيام أبعده الحكومة الفرنسية إلى الإسكندرية، وشاعرنا آنذاك لا يزال يزاول دروسه العلمية بالمعهد الزيتوني المعمور. والحر مهما نشأت به الدار وطوحت به الأسفار لا يزال يغرد عن وطنه تغريد الحمامة أقرانها وكيف يهدأ بال من وضع حب الوطن في حزن صباح.

قضيت حياتي مدلجا ومؤوباً
تود الليالي لو تثنتي عن المنى
ولكن كأنّي رُمت عنقاء مغرباً
ومن يبتغي الأمر الجليل فانه
وعزمي يأبى حتى أدرك مطلباً
بلوت مراس الحادثات فلم أجد
يكابد فيه متعباً ثم متعباً
خبيراً بعقبي الدهر إلا مجرباً
فأهلاً بصرف الحادثات ومرحبا
تركت وراءي بالجزائر من إذا
تذكرتهم زاد الفؤاد تلهباً
وما همّني خطب سوى أنني أرى
هلال بلادي للأفول مصوباً

ألا يا بني شعب الجزائر بدرنا
فهل في أناس يحسدون علاه
تبلج ثم لم يدم إن تغيباً
همام بنا يزجي إلى المجد مركباً
نعم ثم قوالون أهل بطالة
وشتان ما بين الأمير معارفاً
فما سلكوا يوماً إلى العز مذهباً
وما بين من لم يعرف الدهر مكتباً

* محمد السعيد، الزاهري: شعراء الجزائر في العصر الحاضر، ج1، ط1، بالمطبعة التونسية، تونس، 1926م، ص76. والقصيدة من بحر الطويل، وعدد أبياتها واحد وثلاثون بيتاً.
القصيدة من بحر الطويل، عدد أبياتها واحد وثلاثون بيتاً، وقد علّق عليها صاحب كتاب "شعراء الجزائر في العصر الحاضر" في الصفحة 76، قائلاً: قال هذه القصيدة في الأمير خال الزعيم الحر المقدم الجزائري يودعه بها أيام أبعده الحكومة الإفريقية إلى الإسكندرية، وشاعرنا آنذاك لا يزال يزاول دروسه العلمية بالمعهد الزيتوني المعمور. والحر مهما نشأت به الدار وطوحت به الأسفار لا يزال يغرد عن وطنه تغريد الحمامة عن أفراخها، وكيف يهدأ بال من وضع حب الوطن في حضن صباه.

وليس عزيزا أن ينال مراده
ومن أين يلقي غافل ما يوَدّه
عجبت لمن يقضي الليالي ساهرا
يباري لفرط الحمق من بات كادحا
كذلك ذو (الإقدام) كان بشعبه
رعى الله شعبا بالجزائر كلما
ولولا رعا ع يخذلون هداته
له الله من شعب تحير رشده
سلام على شعب الجزائر بعد ما
سلام عليه بعد ما بان خالد
تنأى ولكن ليس يبرح "خالدا"

ألا في ذمام الله يا خير مرشد
لئن كنت في أفق الجزائر كوكبا
أما كان قرن الشمس عند شروقها
شبيها بقرن الشمس تقصد مغربا
إلى حيث خيم الفخار وطنبا
فقد لحت في الإسكندرية كوكبا
يعز علينا أن نضيعها هبا
لعمري لقد خلفت فينا مآثرا

وعلمت نشأ كيف يسعى إلى العلى فأمسى على طرق المعالي مدريا

فديناك ذا جاش قوي ثباته إذا ما خطوب الدهر تتشب مخلبا

إلى الآن لم تلق السلاح ولم تكن لتلقى يا مقدم من بعد ذا الظبا

فأنت أخو العلياء والبطل الذي إذا جد جد زاد منه تقريا

لئن كنت في أهل النيابة مفردا كأنك كنت بينهم متغريا¹

إذا كان غرض الشاعر من هذه القصيدة هو الإشادة بأعمال علم من أعلام السياسة في الجزائر وهو الأمير خالد، فإنه قد تعرض في بدايتها وعبر سبعة أبيات إلى ما يشبه مدح النفس، فقد ذكر أنه قضى حياته ليلا ونهارا يطلب العلا والرّفعة، واللّيالي تنهاه عن ذلك، غير أنه أبي مغرياتها واستمر يتحدّاه، لأنّ

المطلوب - في نظره - جليل تتعب في مراده الأجساد. ومن خلال إشادة الشاعر بحياته الفاتنة يذكر أنه ترك الجزائر، وابتعد عن أحبابه وأهله، واتّجه صوب بلاد تونس من أجل تحصيل العلم المعرفة وما ينفع وطنه، وهمّه الوحيد أولا وأخيرا هو أن يرى بلاده حرةً أبيةً.

¹ - علق محمد الهادي الزاهري على شخصية "الأمير خالد" من خلال هذا البيت بهامش صفحة 79، في كتابه (شعراء الجزائر في العصر الحاضر، ج1، قائلا: (كان مفردا بين النواب بصراحته وإخلاصه وتفانيه في مصلحة أمته ليس له من شعار غير ذلك الشعار الذي تسربل به فتى مصر مصطفى كامل رحمة الله عليه " من تساهل في حقوق بلاده ولو مرة واحدة عاش مزروع العقيدة سقيم الوجدان" ليس له من خاذل قوم تقدموا للنيابة عن الأمة فخرس بهم الوطن وتمادى في كبوته. رحماك يا رياه).

لم يكن النهج الذي سار عليه الشاعر نهجا تقليدياً للقصيدة العربية في عصورها الأولى أين كان الشاعر يذكر الأطلال والديار أو يتغزل بالمحبة مثلما هو معروف عند عمر بن أبي ربيعة أو عنتر بن شداد أو كعب بن زهير، ولكنه سار سير المجددين من شعراء العصر العباسي أمثال أبي نواس وأبي الطيب المتنبى، متمسكا في الوقت نفسه بما فرضه فحول شعراء العرب من تصريح في البيت الأول والقول على بحر الطويل.

قال:

قضيت حياتي مدلجا ومؤوبا ولكن كأنني رمت عنقاء مغربا¹

وبعد المقدمة التي ضمتها سبعة أبيات، بسط الشاعر الكلام في الأمير خالد، فذكر أنه بدر غاب عن سماء الجزائر، كما غاب عنها الكثير من العلماء والأبطال - وهي إشارة إلى حمدان خوجة والكبابي وغيرهما من المقاومين الجزائريين الذين نفاهم المحتل الفرنسي - وبعد ذلك أكثر الزاهري من الحديث عن شعب الجزائر في ظل افتقاده لهذا البطل وأمثاله. قال:

رعى الله شعبا بالجزائر كلما بدا شارق يهديه تغربا

سلام على شعب الجزائر بعدما نأى عنه من كان العذيق² المرجبا

سلام عليه بعدما بان خالدا سلام عليه بعدما انحلت الحبا¹

¹ - محمد السعيد الزاهري: شعراء الجزائر في العصر الحاضر، ج1، ط1، مطبعة تونس، 1926م، ص

² - النخلة بما تحمله من ثمار

أما عن الجزء الأخير من القصيدة، فشبّه فيه الشاعر البطل خالدا بالكوكب الذي يبرز ثم لا بد له من غروب، غير أنّ الغروب صفة لا تحطّ ولا تنقص من قيمة الشيء. ثم مثّل ذلك بقرن الشّمس عند شروقها وغروبها. وطبعاً، جمال الغروب لا يقل شأنًا عن شروقها، فخالد البطل وهو في الجزائر كوكب منير، هو بطل أيضا في مدينة الإسكندرية.

قال:

لئن كنت في الجزائر كوكبا فقد لحت في الإسكندرية كوكبا²

وبعد كلّ هذا يبقى الأمير خالد خير مرشد للجزائريين في حياتهم السياسية، ونفيه قد خلف جراحا كبيرة لهم، لأنّ مآثره الجمّة عزّ على الجزائريين - الذين علّمهم كيفية السعي إلى المعالي - تضييعها. وبالنفّي لا يعدّ الأمير قد ألقى السّلاح؛ سلاح المقاومة بالسيف والقلم. قال:

إلى الآن لم تلق السلاح ولم تكن تلقي يا مقدم من بع ذا الضبا

لئن كنت في أهل النيابة مفردا كأنك كنت بينهم متغربا³

القصيدة الرابعة⁴

¹ - المصدر السابق، ص78.

² - المصدر السابق، ص ن.

³ - م ن، ص79.

⁴ - القصيدة مثبتة في كتاب شعراء الجزائر في العصر الحاضر، ج1، ط1، بالمطبعة التونسية، تونس، 1926م، ص79. وهي موجودة في ملحق البحث.

عنوان القصيدة: ليت قومي يعلمون

عدد أبياتها: ثمانية وعشرون بيتا

رويها: حرف الهاء

بحرها: بحر الطويل

فكرتها العامة: استنهاض همم الأحرار لاسترجاع المجد الضائع.

القصيدة

ليت قومي يعلمون!*

فؤادي أسير عند من ليس يرعاه فيأمره كيما يشاء وينهاه
ولا تسألوه أن يُحلّ وثاقه فإنّي لأرضى بالذي هو يرضاه
إذا أنا لم أقدر على رد مدمع أكفكفه يوم النوى فلي الله

رعى الله دهرا في (الغيب)¹ لهوته بمن تفضح الدر النضيد ثناياه
ليالي يسقيني رحيق رضابه² وتفعل بي - ما يفعل السحر- عيناه

* محمد السعيد، الزاهري: شعراء الجزائر في العصر الحاضر، ج1، ط1، بالمطبعة التونسية، تونس، 1926م، ص79.

قصيدة من بحر الطويل. عدد أبياتها ثمانية وعشرون بيتا.

¹ - الغيب هي مساحة واسعة بين الصحراء وجبال الأوراس، ومنطقة صالحة للزراعة، وغنية جدا وموجودة على حدود كل من بسكرة وباتنة وخنشلة.

² - الرضاب: الريق

ولولا عفاف في طباعي يصدني لما كنت ممن تغلب الحب تقواه
ولكنه سلطان نفسي عافها فيمنعها من شر ما تتمناه
ذكرت على بعد المزار وذو الهوى تهيج له الشوق المكتّم نكراه
وفتية أنس كنت أجمع شملهم على منزّه يسترجع الطرف مرآه
تراهم نجومًا أو مصابيح في الدجى فهم والدراري¹ والمصابيح أشباه
وساق كأنّ الشمس تجري بوجهه يبيت يساقينا الذي بات يسقاه
سلام على عهد الخلاعة إنّه لعهد لعمرى لست ما عشت أنساه

وما كنت أقوى بالفراق وإنما دعا المجد ذا هم بعيد فلّباه
كذلك ذو النفس الطّموح إلى العلا يعاف على الضيم البقاء ويأباه
أريد من الأيـام ما لا تطيقه وأقصد منها ما لا يقصده (الشاه)²
ومن يركب العزم الجديد فإنّه يهون عليه أن يحصل مرمّاه
ومن كان في أعماله متكاسلا فسرعان ما يكدي ويخفق مسعاه
سعى معشر يبغون عيشا وإنني لأسعى، ولكن بغيتي العزّ والجاه
وأندب حظًا لـ (لجزائر) ضائعا به طـارت العنقاء علي ألقاه

¹ - الدراري: الكواكب

⁴ - الشاه: ملك العجم

واستهض الأحرار لا متأوه فماذا
عسى يجدي (الجزائر) أواه؟
ولم يجدها إلا العلوم وهكذا أخو
العلم يحظى بالذي يترجأه
فهل شيد فيها للمعارف معهد؟
وكل وليد في (الجزائر) يغشاه
ولو كان شعبي يقدر العلم قدره
لأصبح من فوق السماكين¹ مثواه
ولكنه اختار الجهالة موطننا
فيا ليت قومي يعلمون بما سما
إليه الوري حتى ننتيه كما تاهوا!
وهذي سبيل المجد بيضاء بيننا
فمن حاد عنها فالهنا يتخطاه
فان كان قومي سالكيها فتلكم
مناي وإلا فالذي كنت أخشاه
ألا فاجعلوا العلم الصحيح وسيلة
فلم يرق إلا جاعل العلم مرقاه

استهل الشاعر قصيدته بمقدمة طويلة، مضمونها تلخيص لسيرة الشاعر الأولى، قبل أن يعزم على السفر لطلب العلم، حيث كان يلهو فيها مع فتية أنس له، يتجمعون في أماكن خاصة لا يرتادها إلا أصحاب الخلاعة والمجون. وهكذا مرت أيام الطفولة سريعا في غير الجد والاجتهاد، ثم انتقل الشاعر إلى ذكر فترة أخرى من حياته حيث شمر فيها عن ساعد الجد، فسافر يطلب المجد الذي كانت تتوق إليه نفسه، لقد ركب العزم راغبا في استعادة المجد الضائع لبلاده، مستتهضا هم الأحرار فيها، دون تدمر وتأفف، لأن الجزائر لا تفيدنا إلا تلك العلوم التي تجعل الشعوب في الطليعة، لا تطأ الثرى بل الثريا.

¹ - السماكين: كوكبان منيران

يتمنى الشاعر بعد ذلك أن لو تعلم الشعب الجزائري ما تدرك به النهضة العلمية، ثم يسير بها يطلب الهناء والأكل الرغيد والعيش السعيد، أما في الأبيات الأخيرة من القصيدة فإن الشاعر يطلب بجرأة وصراحة من الشعب الجزائري أن يتخذ العلم الصحيح وسيلة لبلوغ الهدف المنشود، قائلاً:

ألا فاجعلوا العلم الصحيح وسيلة فلم يرق إلا جاعل العلم مرقاة¹

من خلال هذا العرض السريع لأربع قصائد يمكن حصر المضمون الذي تدور حوله أفكار الشاعر فما يلي:

1_ الأمل في إصلاح الفرد والمجتمع قائم من أجل عودة مجد الجزائر الضائع وفي القريب العاجل، ولن يكون ذلك إلا بسواعد الشباب الناهض الذي بات يطلب العلا بالأسباب الحقيقية للتقدم والحضارة.

2- التنويه بجهود أعلام الفكر والسياسة والأدب والصالحين، منهم من أفنى عمره في خدمة بلاده، ومنهم من عقد العزم وسافر يطلب أسباب النصر، ومنهم من أبعد عنوة من بلاده، والكل لا يرغب إلا في رؤية بلاده حرة عزيزة، وفي قائمة لا تضم إلا أسماء الدول المتقدمة.

¹ - محمد السعيد، الزاهري: شعراء الجزائر في العصر الحاضر، ج1، ط1، ص 81.

3- استنهاض همم الأحرار من الجزائريين ليرفعوا عن بلادهم الغبن والجهل والفقر، حتى لو كان بالغبية عن الوطن الأم. وبداية السير في هذا الطريق لا يكون إلا بترك حياة الخلاعة والمجون والتّرف.

والخلاصة

بعد وقوفنا على مضامين نماذج من شعر الزاهري والتي عناوينها كالتالي:

1- الجزائر تحيي الجزائريين.

2- الجزائر تحيي المتطوعين.

3- إلى الزعيم الجزائري.

4- أيت قومي يعلمون.

وبعد بسطنا الكلام في مضامين هذه القصائد الداعية إلى النهوض من الغفلة من ناحية، ومحاربة الطرق الصوفية الفاسدة، وأساليبها الداعية إلى إطالة عمر الاستعمار الفرنسي في الجزائر من ناحية أخرى، وكذلك استنهاض همم الأحرار في الجزائر لأجل إنقاذ الوطن واستعادة مجده الضائع، وجدنا أن للحركة الإصلاحية في الجزائر دورا كبيرا وفعّالا ومهما جدا في بعث النهضة الأدبية

الجديدة، فهي التي أدت بشكل واضح إلى بعث الروح في اللغة العربية، وإذا كان من أبرز جوانبها الجانب القومي والوطني في أبناء الجزائر عموما وآدابها خصوصا، وذلك بعد أن أصبحت على حافة الاندثار، لأنّ المحتل ضيق عليها الخناق في المساجد والمدارس القرآنية، ومن ثمّة كان من الطبيعي أن يرتبط الشّعور في الجزائر بالفكر الإصلاحي، لأنّ الذين على رأس الدعاة إلى الإصلاح

هم الذين أرجع الباحثون إليهم الفضل في احتضان مقومات الحضارة العربية الإسلامية، (لأنّ الذين دعوا إلى الإصلاح احتضنوا التراث والأدب واللغة العربية في الجزائر، ومن ثمّ ازدهر الشعر في رحاب هذا الفكر، وعبر عن أهدافه ومراميه. فارتباط الشعر بالفكر الإصلاحي جاء لظروف أحاطت بالأدب والثقافة، وبسبب عوامل أحاطت بالفكر والمجتمع والسياسة فأثرت في الشعر ووجهته لخدمة هذا الفكر)¹. وما من شكّ في أنّ رجال المدرسة الإصلاحية في الجزائر تأثروا بخطاب المدرسة الإصلاحية في الوطن العربي الكبير، وفي مقدمتها مصر، وذلك بسبب الصلة الوثيقة التي كانت تربط الأدباء الجزائريين بالمراكز النهضوية في تلك البلدان. ومن هؤلاء الذين تزودوا بالمدد الروحي من النهضة المصرية، ويُعدّ من أبرز رجالات الإصلاح في الجزائر الأديب محمد السعيد الزاهري، إذ يقول في هذا الإطار: (وما من شأن له أثر في حياة المغرب العقلية والاجتماعية إلاّ وهو مصريّ غالباً، وكلّ حركة دينية أو أدبية في مصر لها صداها القويّ في المغرب العربي؛ فلأستاذ المرحوم الشيخ محمد عبده المصريّ أنصار ومريدون. وفكرة الإصلاح الإسلامي التي كان يدعو إليها أصبحت اليوم في الجزائر مذهباً اجتماعياً يعتنقه الكثرة الكثيفة من الناس)².

وليس الزاهري وحده الذي كان شغوفاً بما تشعّ به جرائد ومجلات الوطن العربي الكبير من أدب يشدّ الهمم ويدفع بها إلى الارتقاء واستعادة الصدارة. فهذه السنة كتاب جزائريين تقرض ديوان أغاني الحياة بعبارة مفعمة بمعاني الإعجاب والتقدير، وهذا يدل على مدى ارتباط أدباء الحركة الوطنية في الجزائر لتلك الفترة

¹ - عبد الله الركيبي: الشعر الديني الجزائري الحديث، ط1، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981م، ص ص 559، 560.

² - محمد السعيد الزاهري: (مكانة مصر في المغرب العربي)، الرسالة، ع 135، ص 178.

بأفكار غيرهم من أدباء الأمة العربية. والأمثلة كثيرة في هذا المجال إذ يكفي أن يتصفح الدّارس أعداد مجلاتّ وجرائد القطر الجزائريّ - لتلك الفترة - مثل الشّهاب والبصائر ليرى تلك الجاذبية الكبيرة لأفكار الحركات النهضويّة في الوطن العربيّ. وهذا التّناغم مع ما جاء في أدب أولئك الشعراء أدّى بأدباء الجزائر إلى الإفصاح عن شديد إعجابهم وتقديرهم لجميع الأحداث المرتبطة بأدب الأمة العربيّة والإسلامية. فهذا ابن باديس يعرض أفكار وآراء الشّابي في ديوان أغاني الحياة، وهذا عبد المجيد حيرش يعتبر موت مصطفى صادق الرّافعي رزيةً العربيّة والإسلام، ثمّ يصف أدبه بقوله: (كان الرّافعي رحمه الله أديبا لا بالمعنى الذي نفهمه اليوم، ولكن بمعنى آخر أكبر من التّصوير)¹.

ولعلّ ظاهرة تعلق الأدباء الجزائريين بالتراث الأدبيّ القديم للأمة العربية والإسلامية هي البوتقة الكبيرة التي انصهرت فيها الأفكار والآراء، ومن ثمّة في القوالب والأغراض، وهي التي جعلت أفكارهم وآراءهم تتجمع في دائرة واحدة، وتلتقي في مربع واحد، فكأنّها المشكاة التي تُصدر أغاني أوطانهم وترسم تغريداتها، وقد استمرت هذه الظاهرة تدفع بالشعراء إلى البوح بما اختلجت به أنفسهم وتاقت له نحو مجتمعاتهم حتّى بعد استقلال الأوطان والأمصار. ففي الجزائر بدت واضحة في نتاجهم بقوة ومثانة (إنّ التّعلق بالتراث الأدبيّ القديم لم يكن خصيصة من خصائص اللّغة الشعريّة عند جيل الإصلاح وحدهم، بل إنّنا لنجد هذه الظاهرة في شعر جيل الثّورة أيضا، فثمّة من الشعراء من يبدو تأثرهم بالأدب العربيّ القديم قويا، قد يصل عند بعضهم أحيانا حدّا يفوق ما وصل إليه عند بعض الشعراء من جيل الإصلاح)².

¹ - عبد المجيد حيرش: (الرافعي)، الشّهاب، م13، عد5، عام 1356هـ، ص248.

² - محمد ناصر: الشعر الجزائري الحديث، اتجاهاته وخصائصه الفنيّة، 1925- 1975م، ط2، دار الغرب الإسلامي بيروت، لبنان، 2006م، ص 300.

مما سبق، يُدرج جُلّ الباحثين شعراء الإصلاح في الجزائر ضمن المدرسة الاتباعية، لأنهم أعجبوا بالنماذج الأدبية القديمة التي ميزت النتاج الأدبي لعرب الجاهلية والإسلام وبنو أمية وبنو العباس، ثم شعراء الأمة العربية في العصر الحديث، خاصة شعراء مصر وعلى رأسهم شوقي وحافظ إبراهيم وصادق الرافعي. واعتقاداً منهم أيضاً أن كل ما هو قديم جميل، جدير بالمحاكاة. وتلك مدعاة للحفاظ على تراثهم، وللوقوف سداً منيعاً في وجه غزو الثقافة الغازية، ومن هنا تمسكوا بعمود الشعر، وأجهدوا أنفسهم في تطبيق فقهه في أعمالهم الفنية لتكون شاملة لشرف المعنى وصحته، وجزالة اللفظ واستقامته، والإجادة في الوصف. ثم وجهوا الشعر وجهة تستلهم الموضوعات من الأحداث الكبرى، والقضايا الوطنية الجليلة. أما من الناحية الأسلوبية فقد حرص هؤلاء الشعراء ومنهم الزاهري على الصياغة المتقنة، والتراكيب الفخمة الواردة في قوالب التعبير القديم، وتقيدوا بأوزان الخليل، ونظّموا القصائد الطويلة على بحر واحد، وقافية واحدة، وروي واحد، وبدءوها بالتصريح اقتداءً بهم وتقليداً لهم، وحاكوهم حتى في الصور البيانية والمحسنات البديعية، واقتبسوا منهم في الشعر الديني والوطني، وسنقف عند كل ذلك في نهاية القسم الأول والثاني من أقسام الدراسة.

وبلخص محمد ناصر مميزات شعراء النهضة في الجزائر على النحو الآتي:

- الالتزام بقضايا وطنهم
- توظيف الشعر لأداء وظيفة التبليغ والتقرير
- ظاهرة السهولة الوضوح
- المتانة والجزالة والقوة¹

¹ - ينظر، محمد ناصر: الشعر الجزائري، ص 275 وما يليها.

لذلك نجد الصورة الشعرية لا ترقى عندهم إلى ما ارتقت إليه عند أصحاب الاتجاه الوجداني، فهي في الغالب ضعيفة إلى حد ما لعوامل كثيرة، منها نظرتهم إلى وظيفة الشعر السياسية والوطنية والاجتماعية.

إن محيط الزاهري الموبوء بالهموم والأحزان والبؤس، هو الذي كان يدفعه لتذكير قرّائه بما آلت إليه الجزائر بعدما كانت في الماضي تنعم بالشرف الرفيع بين الشعوب، وفي هذا المعنى يقول: (وأشعر بعد ذلك بما صارت إليه هذه الأمة من البؤس الأليم فينفطر قلبي انفطاراً، ويغلي صدري هموماً وأحزناً، فأتنفّس الصعداء أروح ما بين جوانحي، فأقول:

فيا ويح أحرار الجزائر، فكم وكم يهيج عليهم من هموم وبلبال
لقد كسرّ الناس القيود وحطّموا ونحن بقينا في قيود وأغلال
ثم مازلت كذلك أنفث من صدر موتور وقلب محزون نفثات¹.

وحينها يستغرب الزاهري الذي يشارك أبناء الجزائر الآمهم وأحزانهم كيف لا يكون الشعب كلّه مثله شاعراً (إنّ الشعر هو الشّعور، وأبناء الجزائر يشعرون

جميعاً بهذا الألم، فما بالهم لا يكونون شعراء أجمعين؟ أشعر بمجد الجزائر القديم فيخيّل إليّ كما يخيّل إلى كلّ شاعر - أنّي أرى بعيني آبائي بناء ذلك المجد الأثيل، والشرف الرفيع، يمشون مشية الزهو والخيلاء على العالمين، فأندفع أذكرهم، فأقول:

هم القوم، لا هم الزّمان كههم ولا باعهم عمّا أرادوا بقاصر²

وانطلاقاً من وظيفة الشعر التي يتفق فيها الاصلاحيون، واعتباراً من أنّ الشاعر روح شعبه، فالزاهري مدرك تماماً رسالته الحضارية المتمثلة في التوجيه

¹ - محمد السعيد الزاهري: شعراء الجزائر في العصر الحاضر، ج1، مرجع سابق، ص63.

² - المصدر السابق، ص 62.

والتوعية والدِّفاع عن الشَّرَف والتَّعْني بالأُمجاد والتفريس في حال واقع شعبه ونقده نقدا بناءً، واعتباراً للتقاليد والقيم الدينية السّميحة. من هنا نجد الزَّاهري يوظف قاموساً لغويًا غنيًا بمعاني المجد والدِّفاع عنه، والتَّعْني ببطولات الشَّعب الجزائريِّ قديماً وحديثاً، وبضرورة الالتزام بالمورث الثَّقافي والأخلاقيِّ، وعدم التَّقريط به، أو التَّهاون في حقّه. كان ذلك كلّهُ من أجل رد الاعتبار للحياة الكريمة والشريفة للجزائريين.

هكذا رأينا الزَّاهري يسعى دائماً في وضع الوصفة العلاجية النَّمونجية لمختلف الأرزاء والهموم والنكبات والأزمات الثَّقافية والسياسية والاقتصادية، ويشارك بحيويةٍ ويقدر ما يستطيع في إيصال شعبه إلى الرِّقيِّ وبكل ما قد يصنع له مستقبلاً زاهراً.

وإذا تتبعنا مسيرة الزَّاهري في الشَّعر والنثر فإننا لا نجد أهم أحداثها تخرج عمّا ذكرنا، فحينما نفي الأمير خالد إلى الإسكندرية أطرب الزَّاهري الجزائريين بقصيدة كلاسيكية من جميع جوانبها. عنوانها: إلى الزَّعيم الجزائري بالإسكندرية ثمّ لما دعا الداعي إلى منازلة الطرقيّة لبيّ النداء وكان فارس حلبة الصِّراع من خلال جريدته الثانية البرق عام 1927م. كما وقف مدافعاً بقصيدته عن الشَّيخ عبد الحميد بن باديس عندما نالت منه أيدي المناهضين لأفكار الإصلاحيين، كما أعلّ صوت هؤلاء في المحافل بقصائده؛ في نادي التَّرقّي وغيره احتفاءً بموقف وتحركات جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، ودفاعاً عن الإسلام والعروبة.

إذا: فالزَّاهري شاعر محافظ حاول من خلال المناسبات المتعددة التأثير في النّشاط الجمعي للمجتمع الجزائري قصد تفجير طاقته الإيجابية. حيث كانت قصائده ومقالاته شكلاً ومضموناً تدلّ صراحةً على ذلك الاتجاه الذي ساد فترة تاريخية هامةً في الجزائر، فترة ما بعد الحرب العالمية الأولى.

وخلص القول في ذلك أنّ الزاهري شاعر مبدع، ناقد، محافظ، مُعجب بالتراث العربي القديم، وبالمدرسة الإحيائية، وشغوف بقراءة آدابها، الشيء الذي ميّز بصمته في الشعر والنثر من حيث القاموس اللغوي، والصورة الأدبية، ووظيفة الشعر الاجتماعية والوطنية والسياسية.

1- تمهيد

أتضح من خلال إحصاء لأعمال الأديب محمد السعيد الزاهري - التي أمل إن شاء الله - أن أجمعها في المستقبل القريب في شكل أعمال كاملة¹، أن مسيرة هذا الأديب نثرية في جُلّها، فقد استقبلت الجرائد المحلية والخارجية الشهيرة الكثير من فنونه النثرية كالمقال والقصة القصيرة والحكاية، في حين لم تعرف من الشعر إلا بعض القصائد، سجل من خلالها أهم الأحداث التي مرت بها الجزائر المحتلة، وهذا باعتبار شهرته أديبا أولا، ثم شاعرا داخل الجزائر وخارجها ثانيا؛ لهذا السبب رأيت من الأحسن أن تكون الدراسة الموسيقية لقصائد الزاهري بعدما تعرضنا في الفصل السابق لمضامين لنماذج من شعره.

وقد تضمن هذا الفصل - بعد إحصاء لقصائد الشاعر- توضيحا للمنظومة الموسيقية المشكلة لها، وهي في حدود علمنا لم تسبق بدراسة بهذا الشكل.

2- الحجم الشعري للزاهري

المشكلة الرئيسيّة التي ربّما تواجه الباحث أثناء دراسته لشعر محمد السعيد الزاهري هي: ضياع الكثير من أشعاره، وعدم الوصول إلى أيدي الباحثين الذين اهتموا بجمع آثار شعراء الجزائر في العصر الحديث، واكتفوا بالإشارة إلى

¹ - لقد شرعت في ذلك من خلال ملاحق رسالة الماجستير الموسومة أدب المقاومة عند محمد السعيد الزاهري من خلال جريدة البرق، التي نوقشت عام 2006-200م، بجامعة قسنطينة، الجزائر. وكذلك من خلال ملحق هذه الأطروحة.

وجودها مبنوثة في الصّحف والمجلات داخل الجزائر كالشّهاب والإصلاح ووادي ميزاب وخارجها كالوزير والنديم التونسيّين والفتح والمقتطف القاهريّتين.

والأديب الزّاهري واحد من هؤلاء الذين نجد في كثير من الأحيان إشارات من الباحثين حول وجود أشعار له لم يصل إليها أيديهم، كما جاء في قول الطّاهر بن عيشة أثناء حديثه عن جريدة (عصا موسى) التي كانت (تهتمّ بالنّقد والسياسة والاجتماع، وفي هذا النّقد يهتمّ (الزّاهري) بالشّعر الهجائي، والقصص القصيرة المحبوكة فنّيًا)¹.

إن مؤلّفات الزّاهري التي أشار إليها الباحثون خمسة لم تلق طريقها إلى الطّبّع عدا كتابه الذي طبع في حياته: الإسلام في حاجة إلى دعاية وتبشير، وبقاها وهي:

- حاضر تلمسان.

- بين النّخيل والرمال.

- حديث خرافة.

- شؤون وشجون.

ومن يدري لعلّ هذه الكتب تحتوي على أشعار في شتّى الأغراض.

ولعلّ الأسباب التي أدّت إلى ضياع تراث الزّاهري الشعري خاصة تعود إلى اتّجاهه السياسيّ، ومواقفه من أحداث ثورة التحرير الكبرى، أو لجرأته في

¹- الطاهر بن عيشة: (شيخ الأدباء والصحفيين)، جريدة المحقق، 8 2006 32.

الكتابة عن أهم الموضوعات التي أثّرت على صفحات جرائد الحركة الوطنية، ابتداء من المنتقد ووصولاً إلى المغرب العربي.

والزّاهري مشبوه بالخيانة في رأي توفيق المدني، الشيء الذي أدى - في رأيه - إلى تصفيته جسدياً عام 1956م، حيث قال: (كان في سلوكه وسياسته قوس قزح، يتحلّى كلّ حين بلون جديد، إلى أن جاءت الثورة الكبرى - وكان يصدر بالعاصمة صحيفة من الحكومة مالها وفكرها - فحكمت عليه الثورة المطهرة بإعدامه، وأردته قتيلاً غرب ساحة الحكومة)¹.

وهناك إشارة أيضاً إلى مقال يمكن أن يكون السبب المباشر في اغتياله، نُشر هذا المقال في جريدة المغرب العربي الجديد التي أسندت رئاسة تحريرها إلى الزّاهري نفسه، تحت عنوان: (رحلة مريبة لمهمة مريبة)، علّق فيه عن زيارة فرحات عباس لسويسرا ومصر، ومضمون تصريحه كان عن ضرورة مفاوضة فرنسا لجبهة التحرير الوطني (وبعد أيام من نشر هذا المقال الجريء تعرض الأديب محمد السعيد الزّاهري حين كان ماراً بشوارع (لالير) رفقة الهاشمي العربي لعملية اغتيال، حيث تقدّم منه أحد المسلّحين فأرداه قتيلاً)².

إنّ قصائد الزّاهري التي أشار إليها الباحثون أمثال صالح خرفي تدلّ بوضوح أنّ هذا الشّاعر له مكانة مرموقة بين شعراء الجزائر في العصر الحديث، نظراً لما كان قد طرحه من أفكار جديدة، ومواضيع مهمة لها مكانتها في مجال

¹- توفيق المدني: حياة كفاح، مذكرات،

الوطنية للكتاب، الجزائر، 1985، 129.

²- الطاهر بن عيشة: (شيخ الأدباء والصدّيقين)، جريدة المحقق، 8 2006 32.

الدراسة بسبب مضامينها الداعية إلى إذكاء مشاعر التصدي والمقاومة ضد المسخ الثقافي والعقدي اللذين مورسا ضد الشعب الجزائري بشتى الأساليب المادية والمعنوية.

كما تدل أيضا على توجهات الأديب السياسية والأدبية بعد تخليه عن العمل بين صفوف جمعية العلماء المسلمين الجزائريين بعد انتهاء مؤتمر 1936م، حيث نجده يبحر إلى أفكار حزب الشعب الجزائري والعمل على نشرها في جرائده، وعن طريق كتاباته الفنية خاصة المقال السياسي منها.

وباستنطاق جلّ جرائد الحركة الوطنية ومنها جرائد الزاهري نفسه، ولفترة ما بعد الحرب العالمية الثانية، لم نجدها تضم شعرا للزاهري، وهذا دليل على أن الزاهري الشاعر قد اختفى تماما عن الساحة كشاعر، عدا ما أشار إليه الطاهر بن عيشه في جريدة عصا موسى كما سبق وأن أشرنا إلى ذلك.

ونعزو اهتمام الزاهري بالنثر أكثر من الشعر بعد الحرب العالمية الثانية إلى طبيعة حياة الزاهري واهتماماته السياسية، ومحاولاته لتبني أفكار حزب الشعب الجزائري، وربما وجد الزاهري في النثر ما لم يجده في الشعر، حيث وجد في النثر ما يناسب عرض أفكاره الجديدة على الساحتين السياسية والأدبية. وهناك احتمال آخر وهو أن الزاهري شاعر بامتياز، له المقدرة الكبيرة على التعبير في شتى الموضوعات التي تشده إلى القديم بحبال فلاذية، إلا أن الأحداث المتسارعة والهامة في العالم عموما، والعالم العربي والإسلامي خصوصا، وتنامي الحركات الوطنية التحررية بمختلف أطيافها حتمت عليه أن يكون ناثرا لا شاعرا، لأن

الشعر لا يمكن احتواء كل المتغيرات والمستجدات، في حين نجد النثر بفنونه المختلفة له طاقة الاستيعاب أكبر.

3- البنية الموسيقية الخارجية

يعرف ابن خلدون الشعر بقوله: (هو الكلام البليغ المبني على الاستعارة والأوصاف المفصل بأجزاء متفقة في الوزن والروي مستقل كل جزء منها في غرضه ومقصده عما قبله وبعده الجاري على أساليب العرب المخصوصة به)¹، أما القرطاجني فيرى أن (الشعر كلام موزون مقفى من شأنه تحبيبه إليها، ويكره إليها ما قصد تكريهه، لتحمل بذلك على طلبه أو الهرب منه بما يتضمن من حسن تخيل له، ومحاكاة مستقلة بنفسها أو مقصورة بحسن تأليف هيئة الكلام أو قوة صدقه)². ومن التعريفين تتجلى ارتباطات أوزان البحور بالقوافي، مما يجعلها من أبرز خصائص البنية الفنية الشكلية للشعر العربي.

تحدث الموسيقى في الأبيات الشعرية فتستحسنها آذان السامع فتطرب نفسه فيتأثر بها، وذلك من الجمال (وإذا كان الجمال إحدى الغايات التي يسعى إليها الأديب لتحقيقها في فنّه، وكان أخص خصائص تعبيره، فإنّ عملية المفاضلة أو عملية الاختيار أو الانتقاء من أهمّ الجهود التي يبذلها في تصوير تجربته، وهو فوق اندفاعه في طلب الموسيقى مدفوعاً بحاسيته الفنية يتبع

¹ عبد الرحمن بن خلدون: المقدمة، ط 1، دار الفكر، للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 2003م،

ص 649.

² : منهاج البلغاء وسراج الأدباء، ت محمد الحبيب بن الخوجة، 1966، 71.

أعمال الذين سبقوه من الأدباء الذين اعتبروا أئمة للفن الأدبي، وأصبحت اتجاهاتهم تقاليد ينظر فيها الذين يجيئون بعدهم)¹.

وسواء توصل الباحثون إلى منشأ تلك الموسيقى من كونها عفوية لدى الأوائل وُقِّفوا في بعثها واختراعها، ثم وقفوا عليها برعاية التحسين نحو الصورة الكاملة للفن الأدبي، أم وقعت منهم قصداً فقلدوا ما أبهر سمعهم من موسيقى الطبيعة، فإن شعراء العرب في العصر الحديث تابعون مقلدون مشدودون إلى قديم من سبقوهم في مختلف العصور، بدءاً من العصر الجاهلي وانتهاء بعصر الضعف ومروراً بالعصرين: الأموي والعباسي.

لا تهمنا الآن مواقف شعراء هذه العصور من اللغة الموظفة في قصائدهم، هل هي أفقهم أم طريق إلى ذلك؟ لأنهم لا محالة قد تباينوا تبايناً واضحاً؛ فكما بلغ البعض منهم في عنايته بلغته حدّ الهوس بها حيناً، والذوبان فيها حيناً آخر، ومن هنا قيل إن الشاعر (خالق كلمات، وليس خالق أفكار، وترجع عبقريته كلها إلى الإبداع اللغوي)²، فقد رأى البعض أن اللغة ما هي إلا وسيلة فقط. وكما يمكننا التمييز بين اللغة الشعرية لمعلقتي عبيد بن الأبرص وامرئ القيس مثلاً، وما وظفه بشار بن برد وأبو العتاهية من لغة سهلة نزلاً من خلالها إلى دنيا الواقع، والحياة اليومية للفرد البسيط، يمكننا أيضاً أن ندرك دون عناء تباين اللغة الشعرية لدى شعراء العصر الحديث في الجزائر، وكمثال على ذلك لغة

¹ - بدوي طبانة: (موسيقى الأدب)، مجلة أقلام العراقية، السنة الأولى، الجزء 9، ماي 1965م، ص 25

² جمال الدين، بن الشيخ: الشعرية العربية بالتقدمة، مقالة حول خطاب نقدي، ترجمة مبارك حنون،

وآخرون، دار توبقال، الدار البيضاء، المغرب، 1996 م، ص 17.

الأمير عبد القادر ولغة شاعر آخر في البلاد نفسها، لكن في ظروف أخرى هو محمد العيد آل خليفة، أو أيّ شاعر آخر من الشعراء الذين ضمّهم كتاب شعراء الجزائر في العصر الحاضر مثلاً، ويعود ذلك لأسباب كثيرة ليس هذا مجالها.

وإذا ما أمعنا النظر في نتاج أدباء الحركة الوطنية بعد الحرب العالمية الأولى فإننا نجد محمد السعيد الزاهري أوسعهم انتشاراً داخل الوطن وخارجه، بل أغزرهم عطاءً وأدقّهم وصفاً لحوادث المجتمع الجزائريّ المتقلّ بسلاسل الجهل والفقر، وكذلك أصدقهم تعبيراً عن أسرار سياسة المحتلّ وخفاياه، وقد عبّر صالح خرفي عن هذه الفكرة قائلاً: (فأنت حين تقرأ في الثمانينات زاهريّ الثلاثينيات في بعض مقالاته كالموقف الحاضر في الجزائر في تلك الفترة) وفي صفحة مجيدة من حال الأدب في الجزائر) ممثلة في شخصيات جزائرية رائدة مثل محمد بن أبي شنب .. أو عمر راسم... أو تتصفح مجتمع الانحراف الدينيّ، وشيوع الشّعوزة والتّضليل في جزائر الثلاثينيات في قصته¹ "إني أرى في المنام"، ونفسه الشعريّ الذي يكاد يتميّز بالمرابطة والمواجهة للانحراف الدينيّ، من خلال ذلك وغيره نجد الزاهري صورة معبرة بصدق عن كل الموضوعات التي عالجه شعراً ونثراً².

محمد السعيد الزاهري أحد الأدباء الذين درسوا بالزيتونة، وعلى يد كبار علمائه كالتّميمي الذي غرس في تلاميذه حبّ الوطن والدين واللّغة، والتّمسك بقوّة بالتراث العربيّ القديم. وما من شكّ من أنّ الزاهري قد رضع النّزعة السلفيّة

1- اعتبرنا مقال الزاهري "إني أرى في المنام" في بحثنا مقالاً قصصياً وليس قصة لأنّ خصائص المقال فيه أكثر من خصائص فن القصة. وقد اعتبره صالح خرفي مقالاً في الكتاب نفسه، ص 86.

2 : السعيد الزاهري، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986، 10.

الاجتماعية، واستقى من منابعها الصافية على يدي أمثال ابن باديس والتّيمي، وأصبح بعد ذلك من رجال الإصلاح في الجزائر الذين بدورهم أفنوا أعمارهم في إنشاء نهضة أدبية مبنية على أسس التراث العربي القديم إذ به يقوى عضد اللغة العربية في الجزائر بعد أن صارت غريبة في أرضها بسبب قوانين المحتلّ الفرنسي.

رغم أن الزّاهري منفتح على الثقافة الغربية كما ذكر محمد مصايف قائلا: (إن حمودا والزّاهري مثلا كانا يحسان اللغة الفرنسية)¹، إلا أن نتاجه الأدبي متأثر إلى حدّ بعيد بالمصدر العربي الإسلامي. أمّا من حيث الأدباء فقد كان متأثرا بأدب مصطفى صادق الرافعي الذي كان قبلته كما أشار إلى ذلك محمد ناصر بقوله: (كان الزّاهري يستمدّ كثيرا من الحقائق عن الإسلام فيما يقرأه من فصول كان ينشرها صادق الرافعي ومحّب الدين الخطيب)². أمّا من حيث الخطّ المتبع أدبيا، فاللحمة عنده بين الأدب والإسلام لا يمكن أن تتفصم عراها، قال الزّاهري: (ومن أراد أن يفصل بين الأدب العربي وبين الإسلام لا يجد الأدب إلا جثة هامدة لا روح فيها ولا حياة، ومن يعلم من الأدباء أن القرآن الكريم هو معجزة الفصاحة وسرّ البيان، وأنّ منطق النبي صلى الله عليه وسلّم هو المثل الأعلى للحكمة وفصل الخطاب، وأنّ فحول الشعراء المتقدّمين، وأئمة الأدب

1- محمد مصايف: النثر الجزائري الحديث، المؤسسة الوطنية للكتاب 1983 114.

2- محمد ناصر: المقالة الصحفية: نشأتها، تطورها، أعلامها من 1903 1931 م، الشركة الوطنية

للنشر والتوزيع، الجزائر، عن جريد 6 1929/10/24 196 .

العربيّ في القديم، إنّما هم مسلمون متديّنون، وأنّ الرّوح الإسلاميّ متجلّ واضح في آدابهم التي تركوها لنا وما فيها من روائع وآيات)¹.

هذه هي الخلفية الأدبيّة التي انطلق منها هذا الأديب في التعبير عن هموم الأمة العربيّة والإسلاميّة عموماً، والجزائر خصوصاً، لذلك تجد آيات القرآن الكريم والحديث الشّريف، وأشعار فحول شعراء الأمة العربيّة ترصّع مقالاته السياسيّة والأدبيّة وحتىّ النّقديّة منها. ولا غرابة في ذلك أبداً إذا عرفنا أنّ زعيم المصلحين في الجزائر ابن باديس يدافع بشراسة عن الأدب العربيّ القديم فيقول: (الشعر العربيّ هو أصل ثروتنا الأدبيّة، وأصل بلاغتنا، ومرجع شعرائنا في اللّغة والبلاغة والأساليب العربيّة. فدرسه والاستفادة منه أمر ضروريّ لحفظ هذا اللّسان المبين. فكيف نبنّي دعوتنا إلى توسيع الشعر العربيّ بالتّزويد فيه)². وهكذا نجد شعراء الجزائر التّقليديّين في العصر الحديث لهم نظرة مقيدة ومحدودة في مرّع القديم. تلك النّظرة التي تولي الجانب الموسيقيّ في العمل الشعريّ أهميّة بالغة، ثمّ إنّ عنايةهم بذلك (لم يقتصر على الموسيقى الخارجيّة للقصيدة بالمحافظة على الإيقاع المتكرّر في كل بيت من أبيات القصيدة بحراً وقافيّة، وإنّما تجاوزت عندهم إلى مراعاة الموسيقى الداخليّة الناتجة عن مخارج الحروف وتآليف الألفاظ والكلمات)³.

1 - محمد السعيد الزاهري: (حديث مع الشيخ راسم) _____ 159 3 ربيع الأول 1348هـ، القاهرة، 9.

2- ابن باديس: الشهاب، ج 2 6 1930 126.

3- محمد ناصر: الشعر الجزائري الحديث، اتجاهاته وخصائصه الفنيّة - 1925 1975 194 1985.

في الحقيقة، يسعى كل أديب إلى إرضاء سمع قارئه بما يختاره من لفظ أو معنى أو صورة أو هم جميعا، لذلك تحسّ أنه قد يفتعل موسيقى خاصة يخطف بها سمع القارئ غير المهتم أحيانا، لأنّ الموسيقى عند العرب تلعب دورا كبيرا بالنسبة إليه في دغدغة عواطف القراء. وهي كذلك بالنسبة للنثر، فكيف بها في الشعر، ولعلّ الغاية التي يرمي إليها كلّ من الشعر والنثر هي التأثير، وهي التي يسعى إليها الأدباء.

وأذن القارئ مهمّة جدا بالنسبة للشاعر، لذلك لا بدّ أن تكون في نفس مستقبل الشعر أو النثر واضحة لا غبار عليها، ويجب أن تجد أذنه المتعة كما تجده عينه تماما عند النظر إلى الزهرة الجميلة، أو يباغتها منظر جميل فتان، لأنّ متعة الأذن هي أيضا تصل إلى أعماق أعماق النفس الإنسانية، وتثير في الإنسان كوامن قد يفصح عنها بواسطة سلوك ما، وهي صورة معروفة عند العربي المقبل على معركة مصيرية مثلا، فعندما يطعم أذنيه نثرا أو شعرا ينطلق غير عابئ بالخطوب والعواقب. وقول بشار دليل على عشق الأذن.

يا قومي أذني لبعض الحي عاشقة والأذن تعشق قبل العين أحيانا

قالوا بمن لا ترى تهذي ، قلت لهم الأذن كالعين توفي القلب ما كانا

ومشاعر السامع تهزّها تلك المتعة التي تجسدها في تعاقب المقاطع وتواتر المفردات ذات الرنين الموسيقيّ. وقد وصف الأديب الزاهري جمعا غفيرا حضر اجتماعا لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين في نادي الترقّي فاستمع الحاضرون إلى الطيب العقبي يتلو آيات من القرآن الكريم في افتتاح الجلسة فصور

المشهد بقوله: (فاقشعرت الجلود لذكر الله، وخشعت الأصوات للرحمن، واطمأنت القلوب، وفاضت الأعين بالدموع اتعازا واعتبارا)¹. كما وصف الجلسة نفسها بعد كلمة إبراهيمي، بقوله: (ثم قام النائب الأستاذ محمد البشير إبراهيمي فحاضر الناس بمحاضرة قيمة حافلة، جاءت على غاية اللذة والإمتاع، وفي منتهى الروعة والإبداع، وكان يلقيها بلهجة هادئة مطمئنة، فيها عذوبة وفيها جمال استولى بها على المشاعر والعواطف، ولعب بالعقول والألباب)². فمن أين للزاهري بهذا الوصف لولا أن الأذن كانت عنصرا أساسا في استقبال تلك الكلمات المؤثرة التي جعلت الناس في خشوع للأصوات واطمئنان للقلوب وانهمار لدموع الأعين واللعب بالعقول والألباب؟

ونحسب أن العناية بأذن السامع لدى الشعراء الجزائريين المحافظين طبيعية، نظرا لتشبعهم بالشعر العربي القديم في عصوره الذهبية، وتأثرهم الواضح به. فقصائدهم (تسير في نفس النهج الذي سارت عليه القصيدة العمودية التقليدية في محافظتها الصارمة على العروض الخليلي، والتزامها الشديد بنظام القافية المطردة)³. وقد تبين من الدراسات السابقة للباحثين أن الشعراء التقليديين في الجزائر اعتمدوا القصيدة العمودية. ودواوينهم شاهدة على ذلك. كما تبين هذه الدراسات أن هذه القصائد العمودية لم تشذ عن بحور الشعر الخليلية وهي: الطويل والبسيط والمتقارب والخفيف والكامل والوافر...

¹ - محمد السعيد الزاهري: (الاجتماع العام) الشريعة النبوية المحمدية 1 1933 3.

2

³ محمد ناصر: الشعر الجزائري الحديث، اتجاهاته وخصائصه الفنية، مصدر سابق، 198.

والزاهري أحد هؤلاء الشعراء المعروفين بحماستهم للشعر العربي القديم، وللغة التي كتب بها؛ لأنه في نظر شعراء المدرسة التي ينتمي إليها (لا رقي إلا برقي اللغة العربية)¹، وقصائد الزاهري التي عثرنا عليها لم تخرج عن قالب الشعري العربي القديم، وجلّها موجود في كتاب شعراء الجزائر في العصر الحاضر. أما بقيتها فمبثوثة في أعداد جرائد الحركة الوطنية. ومنها: الإصلاح للطيب العقبي والشهاب لابن باديس، والزهراء لمحّب الدين الخطيب. ومجموع قصائده ومقطوعاته لا يتزيد عن العشرين فيما توافر لدينا حتى كتابة هذه الأسطر. جاء أغلبها على بحر الطويل. وهذا أمر شائع لدى شعراء العرب القدامى، وربما المحدثين. (ليس بين بحور الشعر ما يضارع البحر الطويل في نسبة شيوعه. فقد جاء ما يقرب ثلث الشعر العربي القديم من هذا الوزن)².

ونورد هنا جدولاً توضيحياً، يضم تسع قصائد للزاهري موجودة في كتاب شعراء الجزائر في العصر الحاضر

عنوان القصيدة	عدد الأبيات	الروي	بحر القصيدة
الجزائر تحيي الجزائر	51	اللام	الطويل
الجزائر تحيي المتطوعين	40	الراء	الطويل
إلى الزعيم الجزائري بالإسكندرية	31	الباء	الطويل
ليت قومي يعلمون	28	الهاء	الطويل
الشعر الفحل	45	الدال	الطويل

¹ رمضان حمود: بذور الحياة، تونس 1928 43.

² - إبراهيم، أنبس: موسيقى الشعر، ط2، مطبعة لجنة البيان العربي، 1952، 57.

الناس والدَّهر	46	الدَّال	البسيط
وما النَّاسُ إِلَّا اثْنان	27	الباء	الطَّويل
اجتماع الضَّدين	15	الباء	الخفيف
الإفراط	11	الهاء	البسيط

ويتَّضح من الجدول أنَّ الشَّاعر الزَّاهري قد اختار لمعظم قصائده الموجودة بالجدول بحر الطَّويل، وجعله مسيطرا على بقية بحور القصائد الأخرى، ونحن لا يمكن أن نعتبر بحرا ما أقوى من بحر آخر، وأفضل منه في التعبير عن عاطفة معينة، غير أن بحر الطَّويل (أملاً للفم والسَّمع، وأعظم هيبته)¹. كما يتَّصف عند أدباء آخرين برحابة الصدر، وطول العنان)²، فضلا عن كون هذا البحر أغني من غيره بالأنغام والموسيقى (وأصلحها للكلام الجزل الفحل، لما اجتمع فيه من رصانة الموازنة بكامل أدواتها وتمام الوزن)³. أما من ناحية أخرى، فإنَّ تسمية بحر الطَّويل كانت لمعنيين هما: (أحدهما أنه أطول الشَّعر؛ لأنه ليس في الشَّعر ما يبلغ عدد حروفه ثمانية وأربعين حرفا غيره، والثاني يقع

1 : وبني أمية، ط1، دار قباء الحديثة، القاهرة،

2007 .105

2

كتاب العرب، دمشق، سوريا، 2003 .105

3- عبد الله، الطيب: المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها 2 3 دار الآثار الإسلامية، الكويت

.385

في أوائل أبياته الأوتاد والأسباب بعد ذلك، والوتد أطول من السبب فسمي لذلك طويلاً¹.

أما من حيث حروف روي القوائد الموجودة في الجدول، فحظّ حرف الباء وافر ومهيمن، ثم يليه حرفا الدال والهاء، وأخيرا حرفا اللام والراء. ونستنتج هنا هيمنة حرف الباء فيما توفر لدينا من قصائده. وذلك لملاحظة فكرية ونفسية: فحرف الباء من القوافي الذلل، ومن الحروف التي لها انفجار، وقد تكون لها شدة وقوة في الأسماع، (لذلك كان أكثر استخداما في الأشعار المعبرة عن الفخر والحزن معا)². وهذا ما رأيناه على سبيل المثال في مضمون بائية الزاهري: إلى الزعيم الجزائري بالإسكندرية؛ فخر من ناحية، وحزن من ناحية أخرى، فكما يتجلى افتخاره بنفسه كجزائري وجد في وسط اجتماعي وسياسي وثقافي (يفني العزائم ويخلق الهزائم)³، أو يعيش كما يقول حمزة بكوشة: (تحت سماء الجزائر مقبرة العبقريّة والنّبوغ)⁴، يظهر حزنه على فراق البطل الشهم. ومع ذلك فبتحدي الصعاب والمشاق يأمل الشاعر أن يبلغ الغاية النبيلة؛ غاية استعادة المجد التليد للأباء والأجداد. وكلّ هذه معاني الافتخار تجسدها التراكيب التالية للقصيد، يقول الزاهري:

تودّ الليالي لو تثنينا عن المنى وعزمي يأبى حتى أدرك مطلبنا

¹ الخطيب التبريزي: كتاب الكافي في العروض والقوافي، تحقيق الحساني عبد الله، ط3 الخانجي، القاهرة، مصر 1994 22.

² :

كتاب العرب، دمشق، سوريا، 2003 105.

³ : 146 2، تاريخ 1949/9/4 3.

⁴ - حمزة، بكوشة: (صديقي فرحات)، 158 2 1951 3.

ومن يبتغي الأمر الجليل فإنه يكابد فيه متعبا ثم متعبا
بلوت مراس الحادثات فلم أجد خبيرا يعقب الدهر مجربا
وما همّني خطب سوى أنني أرى هلال بلادي للأفول مصوبا
تركت من ورائي بالجزائر من إذا تذكّرتهم زاد الفؤاد تلهبا

ويدور موضوع القصيدة حول الافتخار بشخصية الأمير خالد السياسية

في مناسبة أليمة تم فيها نفيه خارج وطنه. يقول الزاهري فيها:

ألا في سبيل الله يا خير مرشد إلى حيث الفخار خيم وطنبا
لئن كنت في أفق الجزائر كوكبا فقد لحت في الأسكندرية كوكبا
لعمري لقد خلفت فينا مآثرا يعزّ علينا أن تضيع هبا
فديناك ذا جأش قويّ ثباته إذا ما خطوب الدهر تنشب مخلبا
فأنت أخو العلياء والبطل الذي إذا جدّ جدّه زاد تقـرّبا¹

أما ما جادت به القصيدة من أجواء حزينة تشاؤمية فاضت بها نفسية

الشاعر، وصرح بها في وضوح تامّ فهي التي تضمّنتها الأبيات الآتية من القصيدة

نفسها:

ألا يا بني الجزائر بدرنا تيلج ثم لم يدم أن تغيبا

1. محمد الهادي، الزاهري: شعراء الجزائر في العصر الحاضر، ج1، ط1، المطبعة التونسية، 1926م،

رعى الله شعبنا كلما بدا شارق يهديه إلا تحجبا

له الله من شعب تحير رشده فأصبح عن نهج الهدى متنكبا

ولعلّ حرف الباء قد ناسب من ناحية أخرى نفسية الشاعر، ففي هذه القصيدة المنطوية على صرخات الزاهري الموجهة والمتعالية في نفسه كلما تذكر بلاده المحنّلة، وهام بزعمائها المقيدين بسلاسل القوانين التعسفية الظالمة، وكذلك أحاسيسه المهمومة البائسة الحزينة على قوم أبوا إلا أن تموت ضمائرهم، وتتقيد أجسادهم بقيد الفقر والجهل.

وبالعودة إلى بحر الطويل يمكن أن نرجح هيمنته في قصائد الزاهري إلى كونه البحر الأنسب لاحتضان تلك الأوجاع النفسية الإنسانية التي طفت على سطح حياة هذا الأديب، والتي ظهرت في فلتات لسانه حينما عبر عن حال بلاده بقوله: (أرى الجزائر في أنياب بؤس يعضها مضغا، وأراها في فقر يأكلها أكلا لماً، وأراها بعد ذلك تتخبّط في جهالة عمياء، وتعمه في ضلال مبين، فلا أستطيع مع ذلك صبرا. أراها كذلك فيذوب فؤادي لها رقّة وحزنا، وتذهب عليها نفسي حسرات !!!)¹.

من الجدول السابق نرى قصائد الشاعر التي جاءت على بحر الطويل قد احتوت على العدد الأكبر من الأبيات. وإليك هذا الجدول التوضيحي:

بحر الطويل	177 بيتا
بحر البسيط	57 بيتا

¹ محمد الهادي الزاهري: شعراء الجزائر في العصر الحاضر، ج1، ص78.

ومجمل القول هنا: إن الزاهري قد نظم هذه العينة من القصائد على البحور الأكثر شيوعا في الشعر العربي القديم، حيث يأتي بحر الطويل في المرتبة الأولى، وبهذا فاختيار الشاعر لهذا الوزن كان ملائما لتجربته الشعرية.

إن الأحكام التي يصدرها الباحث في مثل موضعنا تبقى نسبية، وقد تقدمت أسباب ذلك، خاصة إذا علمنا أن طول نفس الشاعر في النظم على أي بحر فإنه يرتبط بطول تجربته الشعرية وامتدادها، كما أن اختيار أي شاعر لأي بحر متوقف دائما على التوافق بين الانفعالات والإيحاءات المنبعثة من إيقاع البحر.

ويمكن هنا أن نخرج بخلاصة حول كثرة نظم الزاهري على بحر الطويل صاحب أطول نفس، وهي ما ناسب الشاعر في مقام عرضه لاعتزازه بنفسه من جهة، ورجاءاته المتكررة في استعادة مجد الجزائر الناصع في تاريخ الأمة العربية والإسلامية من جهة أخرى. ويمكن أن يكون ذلك تفسيرا لكثرة ورود ذاتيته في لاميته ذات الـ "اثنين والخمسين بيتا". ولو قمنا بدراسة إحصائية بسيطة لذلك لوجدناه يتحدث عن نفسه أكثر من عشرين مرة؛ أي حديث عن النفس في نصف القصيدة تقريبا، ونصفها الآخر عن بلده الجزائر التي هام بها كثيرا، وقال فيها:

ويلاه أذهل خاطري عمّا بي ما بالجزائر من أليم عذابي

فنسيت من بؤس الجزائر كل ما ألقاه في الدنيا من الأتعاب

وفنييت في حبّ الجزائر مثلما يفنى المحبّ الحقّ في الأحباب
وإذا أصاب بني الجزائر حادث فهناك عظم بليّتي ومصابي
كيف الخلاص من الجزائر بعدما ملكت عليّ مشاعري وصوابي
فإذا ضحكت فللجزائر، أو نُحت فلم يكن إلّا لها تنحابي
ويلذلي من بعد ذلك أن يطول على الجزائر في الحساب حسابي¹
وهو القائل أيضا:

إذا كان في عشق المها وهيام فلي في بلادي دونهن غرام
فلم يبق عن حب الجزائر لهوى الـ حسان بقلبي موضع ومقام
أحبّ بلادي، أرضها وسماؤها وأعشق فيها الليل وهو ظلام²

إذا تجاوزنا البحور الشعريّة لدى الزاهري وانتقلنا إلى ما يلحق تفعيلاتها من تغييرات وجوزات، فالمسلّم به هو أن الشكل النظري الموضوع للشعراء كما رسمه الخليل بن أحمد الفراهيدي يصعب تحقيقه في النظم، فكل الشعراء لهم من الجوزات ما يجعلهم يتخطّون هذه القواعد العروضيّة؛ لأنّ للزحافات دورا كبيرا في تنويع الإيقاع.

¹ - محمد السعيد، الزاهري: الشهاب العدد 161، السنة الرابعة، 6 ربيع الأول 1347هـ، ص 17.

² - محمد السعيد الزاهري: البرق، عدد 18، جويلية 1927م، ص 2.

وشعر الزاهري كغيره، لم يسلم من الجوازات الشعرية. ويمكن إيراد بعضها بغية الوقوف على ما يلحق تفعيلات قصائده من الزحافات. وسنجد الأمر مقتصرًا على نموذج شعري واحد من كل بحر من البحور الأكثر وجودًا عند الزاهري، وهي: الطويل والبسط. وبإحصاء مواقع الزحافات يمكن إبراز دورها في تكثيف الإيقاع وفق ما يناسب البناء الدلالي للقصيدة.

ما يطمئن إليه الباحث هو أن الشعر العربي القديم لم يصلنا سليماً من الأخطاء في الألفاظ والجمل بعد قرون من الزمن، وأن الخليل بن أحمد الفراهيدي ومن جاء بعده حاولوا (استنباط قواعد العروض من تلك الأشعار القديمة، ووجدوا أنفسهم أمام أبيات غير موزونة، رويت متناثرة في صلب القصائد المختلفة، مما عقد الأمر عليهم وجعلهم يتلمسون لها تلك القواعد النادرة التي وصفوها في العروض بالقبح حيناً، وبالصلوح حيناً آخر، والتي خلعوا عليها ألقاباً، ووضعوا لها مصطلحات يجمعها ما يسمى في العروض بالزحافات والغلل)¹.

معنى الزحاف:

معنى الزحاف كما جاء في معجم مصطلحات العروض والقافية، هو: (حدوث تغيير في ثواني الأسباب، وهو نقصان جائز لا يخص موضعاً من البيت، ولا يكون في الأسباب دون الأوتاد، ويكون إما بحذف حرف أو حركة)².

¹. إبراهيم، أنيس: موسيقى الشعر، مرجع سابق، ص 294.

¹. محمد علي، الشوابكة، أنور أبو سليم: معجم مصطلحات العروض والقوافي، دار البشير للنشر والتوزيع، عمان، لبنان، 1987، ص 170،

(ودخوله في بيت من القصيدة لا يستلزم دخوله في بقية أبياتها، والعروضيون يربطون الزحاف بالتفعيلة لا بالبيت)¹.

نموذج للدراسة من بحر الطويل:

القصيدة المختارة للدراسة بعنوان: (إلى الزعيم الجزائري بالإسكندرية) قالها الزاهري في شخصية الأمير خالد الجزائري يودّعه بها أيام أبعده الحكومة الفرنسية إلى مدينة الإسكندرية بمصر، وشاعرنا إذ ذاك لا يزال يزاول دراسته العلمية بالمعهد الزيتوني المعمور². وتحتوي هذه القصيدة على واحد وثلاثين بيتا، ومطلعها:

قضيت حياتي مدلجا ومؤوبا ولكن كأني رمت عنقاء مغربا

قبل الشروع في إحصاء الجوازات الشعرية، يحسن بنا أن نعرف ببعض المصطلحات العروضية المهمة التي سنصادفها في دراستنا، وهذا من أجل إيضاح هدفنا المنشود، وتكون لنا عوناً في تذليل الصعاب التي يمكن أن تعترض سبيلنا، وسنردفها بأمثلة توضيحية كلما تطلّب الأمر، وأهمّها:

العروض:

2- عبد العزيز، عتيق: علم العروض والقافية، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، 1987، ص 170.

3 - أنظر حاشية صفحة 76 من كتاب شعراء الجزائر في العصر الحاضر، ج1، ط1، لمحمد الهادي الزاهري.

وهو) مصطلح يطلق على آخر الجزء في النصف الأول من البيت...
وتجمع عروض على أعاريض، وأعاريض الشعر أربع وثلاثون عروضاً،
استعملتها العرب وكثر أشعارها عليها، وقد شذت أعاريض وأهملت أخرى، وهي
عند بعضهم ثلاث وثلاثون عروضاً¹.

الضرب:

ويعني في معجم المصطلحات العروضية والقافية (اسم للجزء الأخير
من البيت؛ إي الجزء الأخير من المصراع الثاني من البيت، ويسميه السكاكي
العجز، وتجمع أضرب وضروب)².

ومثال ذلك، قول الزاهري:

ألا في سبيل المجد حلي وترحالي ومسعاي في العلياء والشرف العالي

ألا في سبيل لمجد حلي وترحالي ومسعاي فلعلياء وششرف لعالي

$\frac{0/0/0//}{\text{مفاعيلن}}$	$/0// \quad 0/0/0// \quad 0/0//$	$\frac{0/0/0//}{\text{مفاعيلن}}$	$0/0// \quad 0/0/0// \quad 0/0//$
----------------------------------	----------------------------------	----------------------------------	-----------------------------------

الضرب

عروض

ملاحظة:

¹ محمد علي، الشوابكة، أنور أبو سليم: معجم المصطلحات العروض والقوافي، دار البشير للنشر والتوزيع، عمان، لبنان، 1987، ص 170،

² المرجع نفسه، ص 163.

- عروض بحر الطَّويل (مقبوضة دائما بعد حذف الحرف الخامس)¹ منها:

مفاعِلن 0//0// بدلا من مفاعيلن 0/0/0

- ضرب الطويل (تقع صحيحة (مفاعيلن)، وقد تجيء مقبوضة (مفاعِلن) أو محذوفة (مفاعي))².

- يجيء نظام بحر الطَّويل حسب ضروبه وأعاريضه على ثلاثة أنواع:

الأول عروض مقبوضة وضرب صحيح.

الثاني عروضه مقبوضة وضربه مقبوض.

الثالث عروضه مقبوضة وضربه محذوف.

الحشو:

هو تفعيلات البيت عدا العروض والضرب.

البيت:

ألا في سبيل المجد حلي وترحالي ومسعاي في العلياء والشرف العالي

الكتابة العروضية:

ألا في سبيل لمجد حللي وترحالي ومسعاي فلعلياء وششرف لعالي

الرموز العروضية:

¹ - غازي، يموت: بحور الشعر . عروض الخليل، ط2، دار الفكر اللبناني للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، 1992، ص 37.

² - م ن، ص ن.

0/0/0// /0// 0/0/0// 0/0// 0/0/0// 0/0// 0/0/0// 0/0//

مفاعيلن	<u>فعولن</u> مفاعيلن	<u>فعولن</u> مفاعيلن	مفاعيلن
ضرب	حشـو	عروض	حشـو

الكفّ:

هو حذف السّابع الساكن من التّفعلية الثّانية في بحر الطّويل (مفاعيلن)

فتصبح (مفاعل)

القبض:

وهو حذف الخامس الساكن من التّفعلية الأولى في بحر الطّويل (فعولن) فتصبح

(فعول)

الحذف:

ما يقع من حذف للحرفين السّادس والسّابع من ضرب الطّويل

(مفاعيلن) فتصبح (مفاعي)

التّصريح:

هو (أن يكون العروض كالضرب في وزنه وإعرابه)¹.

هذا الجدول عام بعدد أعاريض وأضرب قصيدة الزاهري "إلى الزعيم الجزائري

بالإسكندرية"

عدد أبيات القصيدة	عدد عروض القصيدة	عدد أضرب القصيدة	عدد الأعاريض والأضرب السّالمة
31	31	31	00

ونورد هنا جدولاً آخر خاصاً بالزحافات

زحاف العروض	زحاف الضرب	زحاف الحشو	زحاف فعولن في الحشو	زحاف مفاعيلن في الحشو	الحذف
31 من أصل 31	31 من أصل 31	62 من أصل 186	71 من أصل 124	6 من أصل 31	1 من أصل 12

تعليق:

استوعب بحر الطويل لهذه القصيدة "إلى الزعيم الجزائري بالإسكندرية" معانيها الفخرية والحماسية والوصفية، وجاء مطلعها مصرعاً، والتزم الشاعر فيها بما لا يلزم، ثم جاء كل من العروض والضرب مقبوضة واستمرت على هذه

¹ محمد علي، الشوابكة، أنور أبو سليم: معجم مصطلحات العروض والقوافي، دار البشير للنشر والتوزيع، عمان، لبنان، 1987، ص 170.

الوضعية إلى نهاية القصيدة، ويمكن عدّ نظام بحر القصيدة من النوع الثاني المذكور أنفاً، وهو: عرض مقبوضة وضرب مقبوض.

وعلى كل حال فإنّ الزحاف تكرر في النصّ كثيراً، ففي العروض كان مئة بالمائة، وفي الضرب كذلك مئة بالمائة، وفي الحشو بنسبة خمسة عشر بالمائة، وفي تفعيله فعولن كانت بنسبة واحد وسبعين بالمائة، وفي تفعيله مفاعيلن ستة من أصل واحد وثلاثين، أمّا الحذف فكان بنسبة واحد من أصل مائة وأربعة وعشرين.

وعليه فإنّ نسبة الزحاف الموجود كثيرة، وواقعياً هي 62 من أصل 124. وهي نسبة تؤكد أنّ الطارئ قد تجاوز الثابت، ممّا يدلّ على أنّ الزاهري يميل نوعاً ما إلى ركوب أمواج التغيير في نمطية الإيقاع والأخذ به إلى التتوّع والتعدد دون الإخلال بما حدده الخليل بن أحمد الفراهيدي لهذا البحر، أو الخروج عنه كما دعا إلى ذلك بعض شعراء تلك الفترة.

والملفت للانتباه أنّ الزحاف كان في الجمل الاسمية أكثر منها في الجمل الفعلية، حيث وقع في الجمل الاسمية واحداً وثمانين مرة، مقابل خمسة وثلاثين مرة في الجمل الفعلية، والغلبة كانت للجمل الاسمية طبعاً (التي من خصوصيتها الثبات والاستقرار)¹. وهي قد يدلّ ذلك على استقرار الحالة النفسية للشاعر وهو يودع الزعيم الأمير خالد وكأنّه قد رضي بالدور الفعّال الذي أدّاه في

¹. حياة، معاش: الأشكال الشعرية في ديوان الششتري، دراسة أسلوبيّة، أطروحة مقدمة لنيل دكتوراه العلوم في الأدب العربي، (لم تنشر)، كلية الآداب واللغات، قسم اللغة الأدب العربي، جامعة الحاج لخضر، باتنة، الجزائر، 2010 - 2011م، ص39.

الجزائر، وبمقاومته للاحتلال، وبالمآثر التي خلفها في شعبه، وبتعليمه للنشء الجديد، وطريقة الجهر بمطالبة الحقوق. ومن جهة أخرى فإن زحاف الجمل الفعلية يكشف عن نفس مضطربة متوترة حزينة لفراق بطل عزيز لا يُعوّض، ترك فراغا مهولا في صفوف شعبه.

وباستتطاق أبيات قصيدة الزاهري: "إلى الزعيم الجزائري بالإسكندرية" يتبين لنا المعنيان: معنى الاستقرار النفسي، والاطمئنان من جهة، وجو الحزن وعدم الرضى من جهة أخرى، لكنّ الغالب هو جانب الاستقرار النفسي.

إنّ البيت الوحيد الذي لم يطله الزحاف ينطوي مضمونه على حكمة، وهو البيت الثالث عشر، الذي قال فيه الشاعر:

ومن أين يلقي غافل ما يودّه إن كان لم يملك من الجدّ مكسبا

فالإيقاع السريع في هذه القصيدة يحاكي نفسية الزاهري المضطربة التي تراقب الأوضاع السياسية الجزائرية في فترة تأمرت السلطات الفرنسية وأتباعها من الجزائريين - نوابا وشيوخ الطرق - على رواد الحركة الوطنية أمثال: عمر راسم والأمير خالد، وقد تزامنت هذه القصيدة مع الحملة الانتخابية التي خاضها عمر راسم ضد مرشح السلطة الدكتور ابن التهامي، وفاز فيها رمز الحركة الوطنية غير أنّ السلطات لم ترض بالنتائج.

كما يكشف تسارع الإيقاع في هذه القصيدة لهفة ورغبة الشاعر المحبّ للجزائر في العودة إلى الوطن، والخوض مع رواد الحركة الوطنية في المعارك السياسية والأدبية، ومشاركتهم في الآلام والآمال. وربما يصدق هذا المعنى إذا

علمنا أن الشاعر أصدر جريدة بعد عودته مباشرة من تونس إلى الجزائر سماها "الجزائر" وجعل شعارها "الجزائر للجزائريين"، وكان لها وقع كبير في الأوساط الثقافية والسياسية الشيء الذي أدى بالمحتل إلى وأدها بعد العدد الثاني مباشرة.

نموذج من بحر البسيط:

القصيدة المختارة للدراسة بعنوان: (الإفراط) نشرتها مجلة "الزهراء"، في المجلد الثاني من الجزء العاشر في الصفحة 625، عام 1344هـ. كما نشرت القصيدة أيضا في كتاب "شعراء الجزائر في العصر الحاضر" لمحمد الهادي الزاهري عام 1926م في الصفحة 93. ويبلغ عدد أبياتها أحد عشر بيتا، وهي مثبتة في ملحق البحث ومطلعها:

لا تظلم الشيء إطراء وتنويها حاجة أنت في التنويه تنويها

تقطيع البيت

البيت

لا تظلم الشيء إطراء وتنويها حاجة أنت في التنويه تنويها

الكتابة العروضية:

لا تظلم ششيء إطرأعن وتنويهن لحاجتن أنت فتنويهن تنويهن

الرموز: 0//0/0/ 0//0/ 0//0/ 0//0// 0/0/ 0//0/0/ 0//0/ 0//0/0/

مستفعلن فاعلن مستفعلن فعُلن متفعلن فاعلن مستفعلن فعُلن

الحشو — العروض — الحشو — الضرب

ولتسمية بحر البسيط آراء منها ما قاله الخليل: (لأنه انبسط عن مدى الطويل وجاء وسطه فعن وآخره فعن)¹. أو سمي لانبساط أسبابه؛ أي تواليها في مستهل تفعيلاته السباعية. وقيل لانبساط الحركات في عروضه وضربه في حالة خبئهما، إذ تتوالى فيهما ثلاث حركات. ويرى بعض أهل العروض أن (كلاً من الكامل والبسيط يحلّ في المرتبة الثانية في نسبة الشيوخ بعد الطويل)². وبحر البسيط له عناية من شعراء العصور القديمة كالجاهلي والإسلامي. فعند الشاعر زهير بن أبي سلمى احتل المرتبة الثانية، في حين احتل المرتبة الثالثة عند أبي العتاهية. أما الشاعر أبو نؤاس فكان اهتمامه ببحر البسيط أكثر حيث احتلّ عنده المرتبة الأولى، ثم جاء بعده الطويل فالكامل. ولم يتخلف بحر البسيط عن المراتب الأولى في العصر الحديث، فقد احتلّ المرتبة الثالثة؛ أي بقي محافظاً على مرتبته لدى الشعراء قديماً والمجيدين وحديثاً. فهذه النسب الآتية في شعر البارودي الذي سما بالشعر إلى منزلة تضارع مراتب من شعراء الأقدمين تدلّ على مكانة هذا البحر بين البحور. (طويل 39%، كامل 20%، بسيط 15%، خفيف 6%، سريع 5%، وافر 4%، منسرح 2%، وكل من المتقارب ومخلّع البسيط 1%)³.

¹ ابن رشيق: العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، ج 1، ط5، دار الجيل للنشر والتوزيع والطباعة، ص136.

² غازي يموت: بحور الشعر، مرجع سابق، ص64.

³ غازي يموت: بحور الشعر، المرجع السابق، ص197.

ومجمل القول في هذه الالتفاتة حول بحر البسيط هي أن (كلاً من الكامل والبسيط يحتلّ المرتبة الثانية في نسبة الشيوخ، وربما جاء بعدها الوافر والخفيف، وتلك هي البحور الخمسة التي ظلت في كل العصور موفورة الحظّ يطرّقا كل الشعراء، ويكثرّون النظم منها، وتألفها آذان السامعين في بيئة اللّغة العربيّة)¹.

يحسن بنا قبل الشروع في إلقاء نظرة عامّة على ما حدث من زحافات وعلل في قصيدة الزاهري أن نذكر مصطلح الخبن، ونعرفه كما جاء عند العروضيين. فالخبن كما جاء في اللّغة: خبن الثوب؛ أي رفعه إلى صدره، وهو في الاصطلاح إسقاط الثاني الساكن، وفي كتاب العين (المخبون من أجزاء الشعر ما قبض من حروفه مشوه ممّا يجوز في الزحاف فيلزم قبضة، كقولك في فاعلن: فعن في القافية أو في النصف فيلزم ذلك القبض وذلك الشعر مخبون والجزء مخبون)².

تفعيلة مُستفعلن فاعلن تتكرّر في بحر البسيط أربع مرات في البيت وعروض البيت وضربه هي فاعلن.

لقد ذكر العروضيون أن مستفعلن في حشو البيت تصير متفعلن وعدواً ذلك مقبولا وصالحا، أمّا تفعيلة فاعلن فتصير فعن كما تصير فعن. وكلّ تغيير يصيب التفعيلة الأخيرة يلتزم به الشاعر في كلّ أبيات القصيدة الواحدة. أما

¹. إبراهيم، أنيس: بحور الشعر، مكتبة الأنجلو المصرية، مصر، ط2، 1952، ص190، 189.

³. محمد علي، الشوابكة، أنور أبو سليم: معجم المصطلحات العروض والقوافي، دار البشير للنشر والتوزيع، عمان، لبنان، 1987، ص 170.

تغييرات فاعلن في حشو البيت فليس من الضروري الالتزام بها، لا في البيت الواحد ولا في القصيدة برمتها. وعليه فإنّ قصائد بحر البسيط نوعان:

- قصائد تنتهي كل أبياتها بوزن فعِلن.

- قصائد تنتهي كل أبياتها بوزن فعُلن.

وتفعيلة مستفعلن يصيبها الزحاف فتصير متفعلن وهو قليل الحدوث إلاّ إذا كان في أول الشطر الأوّل أو الثّاني (ووقوعه في أوّل الشطر حسن جميل تميل إليه الأسماع ولا تنفر منه، ويظهر أن جميع الشعراء المحدثين قد آثروا هذا حين نظموا من هذا البحر، فلا يجيزون أيّ تغيير في المقياس مستفعلن إلاّ إذا وقع في أوّل الشطر، أمّا في غير هذا الموضوع فيبقى على حاله دائماً)¹.

هذا جدول عام لقصيدة الزاهري: الإفراط

عدد الأبيات	العروض السالم	الضرب السالم
11	00	00

جدول آخر يبين الزحاف الذي حدث في القصيدة بعدما عرفنا أن الزحاف كان في كل الأبيات

زحاف	زحاف مستفعلن	زحاف فاعلن	زحاف مستفعلن في أوّل الشطرين
16 من	9 من أصل 44	8 من أصل	3 من أصل 22

¹. إبراهيم، أنيس: موسيقى الشعر، ص 71.

	22	أصل 66
--	----	--------

تعليق:

نشرت قصيدة الزاهري "الإفراط" وهي مثبتة في ملحق البحث في:

كتاب شعراء الجزائر في العصر الحاضر في الرتبة التاسعة

وفي مجلة الزهراء في الصفحة 625 دون تعليق أو تفسير لمفرداتها، وهي من الشعر الحكمي، ومضمونها يتحدث عن الإنسان الذي يبالغ في المدح أو الذم، فالظلم في كليهما. أما العدل فهو في تحكيم العقل، وبالتالي لا إفراط ولا تفريط.

والملاحظ على قصائد الزاهري أن التصريح غرتها، فلديه مثلا تسع قصائد دُونت في كتاب شعراء الجزائر في العصر الحاضر، وثلاث مقطوعات. جاء التصريح في ثمان منها؛ من المقطوعات اثنان، ومن القصائد قصيدة "الإفراط".

استوعب بحر البسيط في قصيدة الإفراط معاني الجد؛ إذ أن الشاعر يرى في القصيدة أن الوسطية يجب أن تكون في كل الأشياء، خاصة في الأقوال، فهي زينة الإنسان العاقل الباحث عن الحقيقة التي يتحسر معظم الناس عليها، لأن عقل الإنسان ضرورة في الاهتداء إلى الحق المطلق. قال الزاهري:

لا أحسب الناس تهديهم عقولهم إلى الحقيقة، والأهواء تعميها

ويمتاز بحر البسيط (بجزالة موسيقاه، ودقة إيقاعه، وهو يقترب من الطويل في الشيوخ والكثرة، أو بعده بقليل، ولكنه لا يتسع مثله لاستيعاب المعاني، ولا يلين لينه للتصرف والتراكيب والألفاظ، وهو من وجه آخر يفوقه رقة، ولذلك نجده أكثر توافرا في شعر المولدين منه في شعر الجاهليين).¹

وبالعودة إلى الزحاف المتكرر في هذه القصيدة ففي عروضها حدثت بنسبة المائة بالمئة، وكذلك في ضربها. أما في زحاف تفعيله مستفعلن في حشو البيت فهي قليلة، كانت بنسبة عشرين بالمائة، أما في بداية الشطر الأول والثاني فهي أقل، فهي بنسبة ثلاثة عشر بالمائة. وتدل هذه النسب على أن الزاهري مقلد للأولين غير مخالف لهم، حيث أن القصيدة كانت من النوع الذي نرى فيه تفعيله مستفعلن وفاعلن، لم يلتزم فيهما الشاعر صورة واحدة هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى التزم صورة واحدة في ضرب الأبيات، حيث جاءت فعلن بدل فاعلن أو فعلن، والصورة الثانية أكثر شيوعا. وهذا ما شاع أيضا لدى الشعراء في العصور القديمة كالجاهلي والإسلامي.

ثم إن تفعيله مستفعلن لم يلحقها التغيير كثيرا لتصير متفعلن في بداية الأَشْطَرِ الأولى للأبيات، وقد حصل أربع مرات من أصل أحد عشر بيتا. ووقوع الزحاف في هذه التفعيله حسن لا تنفر منه الأسماع.

وخلاصة القول: أحسن الزاهري اختيار بحر البسيط حينما أراد عرض حكمته، لأنه الأنسب لعرض الجد من ناحية، والدقة من ناحية أخرى، وقد برهننا

¹ إميل بديع يعقوب: المعجم المفصل في علم العروض والقافية وفنون الشعر، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1991، ص74.

بعد استنطاق القصيدة عروضياً أنّ الشاعر يبغى التجديد في الأسلوب، لكنّه كان أشدّ استمساكا بما تركه الأولون، حيث رأيناه يتقيّد بما كان يتقيّد به القدامى عروضاً وقافيةً.

القافية:

لا فائدة تُجنى إذا تعقبنا كلّ الأقوال التي قيلت في القافية وأجزائها وبتفاصيلها، لكنّه من الأفيد لنا أن نقف عند أشهر هذه الآراء. فالخليل بن أحمد يرى أنّ القافية (من آخر البيت إلى أول ساكن يليه مع المتحرّك الذي قبل الساكن)¹. أما الأخفش فيرى القافية (آخر كلمة في البيت أجمع)².

مثال ذلك:

قال الزاهري:

وأكثر الناس يغلو في مقالته إن راح ينعت تنقيصاً وتنزيهاً

التقطيع العروضي

وأكثر ناس يغلو في مقالته إن راح ينعت تنقيصن وتنزيهن

الرموز العروضية

0/0/ 0//0/0/ 0/// 0//0/0/ 0/// 0//0/0/ 0//0/ 0//0//

¹ الخطيب التبريزي: كتاب الكافي في العروض والقوافي، تحقيق الحساني حسن العبد الله، ط3، مكتبة

الخانجي بالقاهرة، مصر، 1994، ص149.

² م ن، ص ن.

فَعَلْنَ

فَعَلْنَ

فالقافية عند الخليل: زيها، 0/0/، أما عند الأخفش فهي تنزيها، 0/0/0

هذا الاختلاف في تعريف القافية، وتحديد حروفها هو الذي دفعنا إلى الاقتصار على هذين التعريفين، وسنختار في دراستنا القول المشهور من هذين الرأيين، وهو رأي الخليل بن أحمد الفراهيدي اقتداء برأي ابن رشيق القائل: (فقال الخليل: القافية من آخر حرف من البيت إلى أول ساكن يليه من قبله مع حركة الحرف الذي قبل الساكن، والقافية على هذا المذهب. وهو الصحيح تكون مرة بعض كلمة، ومرة كلمة، ومرة كلمتين)¹. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن تحديد الخليل للقافية هو الشائع في دراسات الباحثين في العصر الحديث. وليس ابن رشيق وحده من أقر سلامة مذهب الخليل، لأن القافية في تعريف المحدثين هي المقاطع الصوتية التي تتكرر لزوما في أواخر أبيات القصيدة من بدايتها إلى نهايتها.

وإذا أردنا التدقيق أكثر، فإننا نوظف في هذه الدراسة القول المشهور الذي ذكرناه سابقا عند الخليل لأن لـ الخليل رأيين في القافية².

والوزن كما يراه المعاصرون هو (النغمة الموسيقية المتكررة وفق نظام معين، التي تجعل الكلام شعرا)¹. وللوزن قيمة بالغة عند القدامى وهي (أعظم

¹ ابن رشيق: العمدة، ج 1، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، ط5، دار الجيل للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 1981، ص151.

¹ ابن المحسن التنوخي: كتاب القوافي، تحقيق عوني عبد الرؤوف، ط2، مكتبة الخانجي، مصر، 1978، ص67،68.

أركان حدّ الشعر، وأولها خصوصية، وهو مشتمل على القافية وجالب لها
ضرورة².

وأهمّ ما يميز القافية عن الوزن هو حرية اختيار الشاعر لها، فهي لا
تقوم على نموذج يضبط مسبقاً كما هو الحال بالنسبة للوزن الذي لا بدّ للشاعر أن
يلتزم به من بداية القصيدة إلى نهايتها.

نموذج للقافية

سنجعل من بعض قصائد محمد السعيد الزاهري نموذجاً لبيان القافية.

- تكون مرة بعض كلمة

رحلت فأماً القلب فهو لديكم وأما اشتياقي نحوكم فشديد

الكتابة العروضية:

رحلت فأمم لقلب فهو لديكم وأممشتياقي نحوكم فشديدو

الرموز العروضية:

0/0// /0// 0/0/0// 0/0// 0//0// /0// 0/0/0// /0//

فعول مفاعيلن فعول مفاعلن فعولن مفاعيلن فعول مفاعل

² محمد علي، الشوابكة، أنور أبو سليم: معجم مصطلحات العروض والقوافي، دار البشير للنشر

والتوزيع، عمان، لبنان، 1987، ص318.

³ ابن رشيق: العمدة، ج 1، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، ط5، دار الجيل للطباعة والنشر

والتوزيع، بيروت، لبنان، 1981، ص134.

القافية هي: ديدو، 0/0/

- تكون مرة كلمة

قال الزاهري:

وكونوا كمثل الناس فيكم معلّم نصوح، ومنكم من يرى كيف يكتب

الكتابة العروضية:

وكونو كمثل ناس فيكم معلمو نصوحن ومنكم من يرى كيف يكتبو

الرموز العروضية:

0//0// 0 /0// 0/0/0// 0/0// 0//0// 0/0// 0/0/0// 0/0//

فعولن مفاعيلن فعولن مفاعلن فعولن مفاعيلن فعولن مفاعلن

القافية كلمة واحدة: يكتبو. 0//0/

- تكون مرة كلمتين

قال الزاهري:

ولا يهّمك ممّن يحسدونك إن لم يعرفوا لك من فضل ومن كرم

ولا يهّمك مّمّن يحسدونك إن لم يعرفوا لك من فضلن ومن كرمن

0/// 0//0/0/ 0/// 0//0/0/ 0/// 0//0/0/ 0/// 0//0//

متفعلن فعلن مستفعلن فعلن مستفعلن فعلن مستفعلن فعلن

القافية هي: من مكرم. /0///0

خلاصة القول هي أنّ القافية جزء لا يتجزأ من الوزن، لها أهمية قصوى في الشعر العربيّ، تعاد في سائر الأبيات من حروف وحركات، وتتألف أحيانا من أكثر من عنصر، خصّها العروضيون بمصطلحات هي: الحروف والحركات. ومن الحروف: الدّخيل، التّأسيس... ومن الحركات: الإشباع، والرّس، والفاد...

والمتملّ في قصائد الزّاهري التي ضمّها كتاب شعراء الجزائر في العصر الحاضر يرى فيها ما يأتي:

- عدد القصائد اثنتا عشرة قصيدة.

- حروف الروي: اللّام، الدّال، الهاء، الباء، الرّاء.

وهذا جدول يبين هيمنة حروف الروي في قصائد الزّاهري.

حروف الروي	اللّام	الميم	الرّاء	الباء	الهاء	الدّال
عدد تكرار	2	1	1	3	2	3

فالمرتبة الأولى كانت لحرفي الدّال والهاء، ثم جاء بعدها حرف الباء واللّام، وبقي حرف الرّاء والميم في المرتبة الأخيرة.

والرّوي صوت تشترك فيه كل قوافي القصيدة، وتبنى عليه الأبيات (فلا يكون الشعر مقفًى إلا حينما يشتمل على ذلك الصوت المكرر في أواخر الأبيات، وإذا تكرّر وحده ولم يشترك مع غيره من الأصوات عدت القافية حينئذ أصغر صورة ممكنة للقافية الشعرية)¹.

وقد تعارف الأدباء والعروضيون على إنساب القصيدة إليه. فيقال مثلاً: لامية الزاهري وبائية محمد العيد آل خليفة ونونية الطيب العقبي وتائية مفدي زكرياء... وما يلاحظ من الدراسات الحديثة للشعر العربي القديم، أن معظم الحروف الهجائية صالحة لأن تكون رويًا بنسب متفاوتة، وكما ذكر إبراهيم أنيس بعد دراسة لهذا الموضوع فقد وجد أن حرف الراء مثلًا أكثر شيوعاً، أما حرف الطاء فقليل إن لم يكن نادراً. وقد قسم حروف الهجاء التي تقع رويًا إلى أقسام أربعة حسب نسبة شيوعها في الشعر العربي القديم (حروف تجيء رويًا بكثرة وإن اختلفت نسبة شيوعها في أشعار الشعراء وتلك هي:

1- الراء واللام والميم والنون والباء والدال.

2 - حروف متوسطة الشيوع، وتلك هي: التاء والسين والقاف والكاف والهمزة والعين والحاء والفاء والياء والجيم.

3 - حروف قليلة الشيوع: الضاد والطاء والهاء.

¹. إبراهيم أنيس: موسيقى الشعر، مرجع سابق، ص245.

4 - حروف نادرة في مجيئها رويًا: الذال والثاء الخاء الشين الصاد الزاي

الظاء الواو).¹

وبالعودة إلى الجدول السابق، وحسب الدراسة المذكورة آنفا فإننا نجد روي تلك النماذج المدروسة الشاعر لم تخرج عن دائرة الحروف الشائعة في الشعر العربي القديم، وهي: اللام والراء والباء والذال والميم باستثناء حرف الهاء الذي لا يقع إلا نادرا. وهي إشارة واضحة توحى إلى بأن الزاهري متشبع بروح التراث القديم التي شربها بتونس على يد أستاذه معاوية التميمي الذي قال في حقه: (كثيرا ما أعرض عليه القصيد فيعيب عليّ منه أشياء، فما زلت كذلك حتى أصبحت إذا قلت قصيدة عرفت ما سيعيبه عليّ فيه من الأشياء من قبل أن أعرض عليه، لأنه إذا عاب شيئا يبين وجه العيب فأتحى عنه).²

وتمسك الزاهري بالقديم وتبنيّه لما اشتهر به السلف من شعراء العرب يدخله في دائرة الشعراء المحافظين التقليديين والملتزمين بما وضعه وحدده أمثال قدامة بن جعفر في كتابه نقد الشعر، وابن قتيبة في الشعر والشعراء، والآمدي في الموازنة، والجاحظ في البيان والتبيين، وابن رشيق في العمدة. وهو ما جعل الباحثين الجزائريين أمثال صالح خرفي يصفون الزاهري بأنه (تخرج في ثقافته العربية من مدرسة وثيقة الصلة بالتراث وأمّهات كتبه، سواء في القرية عند الأسرة الزاهرية، أو في قسنطينة عند ابن باديس، وكذلك في جامع الزيتونة عند مشايخه الذين اصطفى الزاهري من بينهم معاوية التميمي. هذه المدارس كلها

¹. إبراهيم أنيس: موسيقى الشعر، ص 246.

². محمد الهادي الزاهري: شعراء الجزائر في العصر الحاضر ج1، ط1، تونس، 1926، ص67.

كانت في الوقت المبكر من هذا القرن شديدة اللّحمة بالطابع التقليدي للثقافة العربية...¹

ولا غرو فإنّ الزاهري من التيّار السلفي في الجزائر، الذي قوامه اللّغة العربية، والدين الإسلامي. والهدف الأول منه هو بعثهما من جديد والحفاظ عليهما. وأيضا من أنصار من يزعم بأن اللّغة العربية لغة دينية قبل كل شيء (والحفاظ عليها حفاظ على الدين نفسه، وقد عرفت قديما مواقف سخط الأئمة والعلماء ورجال الدين على الشعراء الذين يحاولون الخروج على هذه المحافظة)².

وبالنسبة للقافية عموما فإنها أنواع حسب ما تتضمنه من حروف، وحسب هذا الاعتبار فهي خمسة أنواع: المترادف والمتواتر والمتراكب والمتكاوس والمتدارك.³

وما دام الزاهري من أنصار القديم فقوافي قصائده لا بد من أن تتحى منحى قصائد سلفه. لأن حرصه شديد على ذلك.

وهذا جدول يبين نوع القافية التي وظّفها الزاهري في قصائده المثبة في كتاب شعراء الجزائر في العصر الحاضر.

القصيدة	بحرها	نوع قافيتها	رويها
---------	-------	-------------	-------

¹. صالح خرفي: محمد السعيد الزاهري، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986، ص 84.

². طه، حسين: حديث الأربعاء، ج1، دار المعارف، مصر، 1962، ص12.

1. أنظر، اميل، بديع، يعقوب: علم العروض والقافية وفنون الشعر، ج3، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ص ص348،349.

اللام	المتواترة	الطويل	الجزائر تحيي الجزائريين
الراء	المتدركة	الطويل	الجزائر تحيي المتطوعين
الباء	المتدركة	الطويل	البالزعيـم الجزائري بالإسكندرية
الهاء	المتدركة	الطويل	ليت قومي يعلمون
الدال	المتواترة	الطويل	الشعر الفحل
الباء	المتدركة	الطويل	وما الناس إلا اثنان
الباء	المتدركة	الخفيف	اجتماع الضدين
الهاء	المتواترة	البسيط	الإفراط

وكما نرى فإن كل القصائد تراوحت قوافيها بين نوعين فقط، هما: المتدارك والمتواتر، وبنسبة متساوية. أربعة مقابل أربعة.

وللحديث عن حروف القافية وجب تحديد نموذج للدراسة وقوفا على ما كان يلتزم به الزاهري. والأفضل أن نأخذ قصائد غير التي وقفنا عندها سابقا دفعا للتكرار. وأنموذج الدراسة: البائيـة التي مطلعها:

ربّ يوم لهوته، ثم في الجنـة
نة ما شئت بين خير عصابة

وهي قصيدة من بحر الخفيف، وضع الشاعر عنوانها كما يلي: (اجتماع الضدين)¹، أما أبياتها فخمسة عشر بيتا. ضمت القصيدة معاني جميلة كأنها الحكمة، تحدت فيها عن قلبه الذي جمع بين شيئين متضادين من الصعب أن

¹ - مثبتة في ملاحق البحث

يتوافرا في الشّخص في وقت واحد، وإذا حدث كان ذلك غريبا. فالقصيدة تجسد سرور الشّاعر وهو يلهو ويتلذذ بما طاب من الأكل والشّراب، وبين أرحب الجنان والرياض وبنسيمها العليل، وخرير مياهها المنسابة، وزقزقاتعصافرها الصّادحة، لكنّه في الآن نفسه، منها ما يبعث صوتها على النّحيب حيث تدفع بالمرء إلى الأسى، وذلك ما زاد من صباية الشّاعر حتّى أصبحت نفسه تتراوح بين الاثني، وبقلب متألّم يجمع متناقضين.

وقبل الحديث عن حروف القافية لبائية الزّاهري وجب ذكر النظري من حروف القافية لدى العروضيين.

حروف القافية: التّأسيس، الدّخيل، الرّدف، الرّوي، الوصل، الخروج. ولا يعني أنّها وجوبا تجتمع كلّها في قافية واحدة، لكنّ ما دخل منها في البيت الأوّل وجب الالتزام به.

حركات القافية: الإطلاق، الحذو، الرّس، التّوجيه، النّفاد، الأتساع (وجميع ما يلحق القوافي من الحروف والحركات ستّة أحرف، وستّ حركات. فالأحرف: الرّوي، الرّدف، والتّأسيس، والوصل، والخروج، والدّخيل. والحركات: الإطلاق، والحذو، والرّس، والتّوجيه، والنّفاد، والإشباع)¹.

تقطيع مطلع البيت:

ربّ يوم لهوته ثمّ في الجنّ — نة ما شئت، بين خير عصابه

¹. ابن رشيق: العمدة، ج 1، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، ط5، دار الجيل للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 1981، ص164.

الكتابة العروضية

رب يومن لهوتهو ثم فلجد نة ما شئت بين خير عصابه

الرموز العروضية

0/0/// 0//0// 0/0/// 0/0//0/ 0//0// 0/0//0/

فاعلاتن متفعلم فاعلاتن فاعلاتن متفعلم فاعلاتن

ملاحظة:

بعد تقطيعنا لأبيات القصيدة لاحظنا ما يلي:

- أصاب الخبن تفعيلة فاعلاتن اثنتين وثلاثين مرة من أصل ستين.
- وأصابها الحذف مرتين، وأصاب تفعيلة مستفعلم الخبن مرة واحدة.
- عروض البيت صحيحة وضربه صحيح: ثلاث مرات.
- عروضه صحيحة وضربه محذوف: مرتان.
- عروضه محذوفة وضربه محذوفة: ست مرات.
- التشعيب: صفر.
- الكف: مرة واحدة.
- كلّ الوضعيات التي مرت في قصيدة الزاهري مقبولة وشائعة كما هي في قصائد الشعراء القدامى وكلّها (صور حسنة كثيرة الشيوخ في أبيات القصيدة من هذا البحر، وتمتاز صور المقياس الأخير هنا أنّها لا تلتزم، وأنّ إحداها تجزئ. وعليه فقد ينتهي بيت من الخفيف بالوزن فاعلاتن أو

فالآتن. ولا فرق بين هذه الصور الثلاث في الجودة، فكُلُّها حسن الوقع في الآذان، وكُلُّها تستريح إليه الأسماع)¹.

- توظيف الشاعر للقافية في هذه القصيدة موفق، خاصة حرف الروي الذي يشيع في أشعار الأقدمين، وذلك استنادا لما سلف من القول عن حديث إبراهيم أنيس عن شيوع حروف القافية في الشعر العربي القديم.

واختيار الزاهري لحرف الروي الباء لقصيدته (اجتماع الضدين) يأتي بقصد منه، ربما لبلوغ المعنى المراد توصيله للقارئ، وربما للانبثاق والظهور وهو المعنى المحدد لدى الباحثين، فحرف الباء كما يقول عنه حسن عباس: (مجهور شديد، شكله في السريانية صورة البيت. يقول عنه العليلي: إنه لبلوغ المعنى، وللقوام الصلب بالتفعل. ويقول عنه الأرسوني: إنه يوحي بالانبثاق والظهور. تعريف الأرسوني أدق ولكنه قاصر)². وهو كذلك رغم بساطته في هذه القصيدة فإنه إيمائي تمثيلي للأشياء والأحداث التي تنطوي عليها معاني القصيدة. فالشاعر أراد تضخيم الحدث عنده في لهوه، وارتفع به إلى حد الذروة، ثم اتسع به إلى حدود عشق الشباب لما تيسر له في دنيا الواقع، وما لم يتيسر له إلا في الحلم والخيال، لكنه في الوقت نفسه جسد حدثا آخر وهو الهم الذي خالط قلبه من ناحية أخرى، وذلك أمر يوحي بصد المعنى السابق، الشيء الذي عبر عنه الشاعر بقوله:

فرايت الأضداد يجمعها قلـ بي وأن اجتماعها ذو غرابه

¹. إبراهيم، أنيس: موسيقى الشعر، ص76.

1. حسن عباس: خصائص الحروف ومعانيها. دراسة. منشورات اتحاد كتاب العرب، 1998م، ص 99.

وهكذا نجد الشاعر قد جسد المعنى المراد خير تجسيد، وقد وُفق في ذلك حينما اختار لقافيته حرف الباء لأن حرف الباء أصلح الحروف لتمثيل الأشياء (لم نجد ما هو أصلح منه لتمثيل الأشياء والأحداث التي تنطوي معانيها على الاتساع والضخامة والارتفاع، بما يحاكي واقعه انفتاح الفم على مداه عند خروج الصوت من بين الشفتين)¹. ثم إن التزام الشاعر في القصيدة بحرف الروي قد قوى حرف الوصل الهاء وجعل من الحرفين تعاوناً كبيراً أدى بالضرورة إلى انسجام موسيقي تطلّبتَه القافية، ولا ننسى قبل الروي حرف المد وهو الألف التزم به الشاعر من بداية القصيدة إلى نهايتها، ذلك أدى هو الآخر إلى انسجام أعطى القصيدة طعماً خاصاً (وحرف المد يعدّ بمثابة الاشتراك في هذا الأصل إن لم يكن أقوى منه وأوضح في السمع)². ولهذه القصيدة شبه كبير بقصيدة أحمد شوقي البائية التي قالها في ذكرى كارنارفون، والتي التزم فيها بعد حرف الروي الباء بحرف المد الألف والوصل الهاء. قال فيها:

في الموت ما أعيا وفي أسبابه كلّ امرئ رهن بطيّ كتابه.

ومما سبق يمكن القول بأنّ الزاهري يتفق واستخدام القدامى للقوافي (فالشعر ينزع إلى القافية المطلقة أكثر من نزوعه إلى القافية المقيدة)³، ذلك ما لمسناه من

2 . المرجع، ص ن.

1- إبراهيم، أنيس: موسيقى الشعر، ص 245.

2 . سالم عبد الرزاق، سليمان المصري: شعر التصوف في الأندلس، دار المعرفة الجامعية،

مصر، 2007، ص 340.

خلال دراستنا للقصائد خاصة المدونة في كتاب شعراء الجزائر في العصر
الحاضر.

القسم الثاني

الفكر النقدي عند محمد السعيد الزاهري

أولاً: تمهيد

ثانياً: مضامين النصوص النقدية

ثالثاً: اللغة والأسلوب في فكر الزاهري

أولاً: تمهيد

لقد تحدثنا في القسم الأول عن الإبداع (نثرا وشعرا) عند الزاهري، وسنتناول في هذا القسم محمد السعيد المفكر والناقد.

لا نقصد بالفكر النقدي مجرد النصوص الأدبية، فهذا جزء يسير من أفكار الزاهري، ولكننا نقصد عموم جهوده التثويرية في مجالات الحياة العامة مثل آرائه في الاجتماع وفي الدين وفي السياسة وبالطبع في الأدب. وعلى ذلك سنتطرق في هذا القسم إلى قضيتين أساسيتين هما:

1- الفصل الأول

مضامين النصوص النقدية عند الزاهري

مع أن النقد بمفهومه الضيق في الفترة التي نتحدث عنها ضعيف إذا كنا نقصد به الأدب، ولكنه عميق وواسع ففي مجالات الحياة المختلفة، وبالنسبة للزاهري فإن أفكاره النقدية موزعة على محاور مختلفة. أهمها:

النقد الأدبي والقضايا الوطنية والقومية.

كل هذه القضايا ماثورة في كتابه (الإسلام في حاجة إلى دعاية وتبشير)، وأيضا في مقالاته الكثيرة التي تضمنتها الصحف التي أسسها أو في مقالات نشرها في صحف خارجية. وسنقف عند بعض مواقفه النقدية وفق التحليل الآتي:

1- النقد الأدبي

2- نقد الشخصيات

2- الفصل الثاني

اللغة والأسلوب في فكر محمد السعيد الزاهري

كان وصفنا للزاهري في القسم الأول بأنه ناثر وشاعر على حدّ سواء، وفي هذا الفصل سنتحدّث عن لغة الزاهري وأسلوبه، فنتطرق إلى الحديث عن الاقتباس والتضمين كظاهرتين بارزتين في لغة الزاهري الناثر، كما نتحدّث عن التقريرية والمباشرة، وشيوع النبرة الخطابية، وكذلك شيوع بعض المفردات كالعامية والفرنسية، تلك التي ميزت لغته. كما نعالج الصّورة الأدبية عنده بوصفه شاعر من كبار الشعراء في الجزائر في العقد الثاني من القرن العشرين. وستكون تلك المحاور كالآتي:

1 - الاقتباس والتضمين

2 - اللغة والأسلوب

3- الصّورة الأدبية

1- تمهيد

أنّ أول ما يلفت انتباه الدّارس لأدب الحركة الوطنيّة في الجزائر خاصّة بعد الحرب العالميّة الأولى غلبة النزعة النّقديّة، فلا نكاد نتصفّح أوراق المجلّات والجرائد الصّادرة في تلك الفترة إلّا وكان النّقد والانتقاد عمودها الفقري، أو طابعها السّابغ لها بأنّ معنى الكلمة على اختلاف المادة المشكّلة لهذه الفنون الأدبيّة، شعريّة أم نثرية وبالإضافة إلى الكتابات الأدبية فقد امتدت الروح النّقديّة إلى إصلاح المجتمع في المجالات السياسيّة والاجتماعية أو الأدبيّة .

لقد خاض أدباء الحركة الوطنيّة الجزائريّة ميداني الشّعْر والنّثر على السواء وأظهروا للقارئ بلاغتهم وفصاحتهم، منتقدين أوضاعهم وأوضاع غيرهم السياسيّة والاجتماعية والدينيّة والثّقافية. فلم تفت الشّاعر **محمد العيد** مثلا مناسبة اشتمّ منها رائحة جريمة وقعت في حقّ المواطن إلّا وأدلى فيها بدلوه، كاشفا جرائم المستعمر ودوره في معاناة الشّعب الجزائري، وخير مثال قصيدته: (في ذمّة التاريخ)¹.

وهذه جمعية العلماء المسلمين الجزائريين تجنّد كتابها وأدباءها وتشجّد أقلامهم لانتقاد سياسة المستعمر والشّخصيات المساندة لوجوده. وجلّ هذه الأقلام كانت تعتبر التّصدي للأفكار المشوّهة لعقيدة الإسلام واجبا شرعيّا، ومن أولويات الحركة، ومن أهمّ شهود تلك الحركة محمد خير الدين الذي يقول عن واحدة من

¹ محمد الهادي، الزاهري: شعراء الجزائر غي العصر الحاضر، ج1، ط1، المطبعة التونسية، تونس، 1926، ص13.

إسهامات الجمعية: (وكانت الطريقة ساهما صوبها الاستعمار في صدور شعبنا، يشوه بها العقيدة الإسلامية الصحيحة بما تنشره الطريقة من بدع وخرافات تؤثر بها في نفوس العامة والبسطاء، وتقدم لهم إسلاما زائفا لا ينهض بعزيمة مؤمن، ولا يدعو إلى تربية الإرادة القوية، بل يدعو إلى التواكل والضعف والاستسلام باسم التواكلية، وقد غدى المستعمرون هذه الأفكار الخبيثة، ونشروها بواسطة هؤلاء الطريقين، وبين عامة الناس، حتى أصبح العمل على حربها واحدا من أهم أهداف حركتنا الإصلاحية، وقد هاجم رائد النهضة ابن باديس وبين فساد مهنتهم، وفند مزاعمهم في البدع والخرافات)¹.

ولعلّ النزعة النقدية لدى رجالات الحركة الوطنية، وأدباء جمعية العلماء، تجلت - أيضا - بوضوح في كتابات محمد السعيد الزاهري، إذ لا يكاد القارئ يعثر على مقال له إلا ويجد النقد والانتقاد يعلوه، وسمة من سماته. يبرزه من خلال مواقفه، أو مواقف الجهة التي ينتمي إليها بوضوح تام، وبجرأة نادرة.

وباستعراضنا لسيرة الرجل، تتبين لنا صورة الانتقاد التي تطبع نتاجه الأدبي والسياسي والاجتماعي. فقبل الثلاثينيات، دأب الزاهري على انتقاد صحف وشخصيات جزائرية وفرنسية وأوضاع اقتصادية، وما إن أعلنت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين عن ميلادها في الخامس من ماي عام 1931م، حتى كان قلمه من أقسى الأقلام على الكثير من الجمعيات والدوائر الحكومية ومن هذه التي اشترك مع غيره من الأدباء على محاربتها للطريقة وشيوخها، ليعود بعد خروجه منها إلى حلبة صراع آخر، جمعته بأبرز الشخصيات والحركات على الساحة

¹. محمد، خير الدين: مذكرات، ج2، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، دت، ص 105.

الأدبية والسياسية، ولم تسلم من قلمه الجريء تلك الشخصيات السياسية والثورية والأدبية، مثل البشير الإبراهيمي، وقد أشار إلى موقفه هذا عبد الملك مرتاض في كتابه فنون النثر الأدبي في الجزائر 1931م - 1954م، قائلاً: (وأصدر صحيفة المغرب العربي في سنة 1947م وقد أخذ يهاجم فيها العلماء في شخص الإبراهيمي الذي رد عليه في مقاله الشهير إلى الزاهري)¹

يستطيع المتتبع لكتابات الزاهري في الأدب والفكر أن يميز بين هذه الفنون الأدبية والفكرية التي برز فيها كأديب بارع ومفكر وناقد، وذلك حسب كل طبيعة كل نوع من هذه الفنون، فهي تتراوح بين مقالات النقد الأدبي، ومقالات في نقد أفكار شخصيات كبيرة، وأخرى في شخصيات دينية مشهورة على الساحة الجزائرية. لقد كانت له وجهات نظر أنطلق منها حسب رصيده المعرفي، وتوجهه الفكري والأدبي، وانتمائه للمدرسة الإحيائية. أما آراؤه الإصلاحية والفكرية فقد تجلّت بوضوح تامّ في انتقاده للشخصيات البارزة التي كانت تصنع الحدث في تلك الفترة، وكذلك تلك الجرائد كجريدة (التقدم) التي كانت تعبر عن بعض الآراء الجزائرية المحسوبة على المحتلّ الفرنسي مثل آراء الدكتور ابن التهامي².

1 - عبد المالك مرتاض: فنون النثر الأدبي في الجزائر 1931م - 1954م، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1983م، ص 510.

2 - طبيب وسياسي، ومدير تحرير جريدة (التقدم) المناهضة لأفكار جمعية العلماء المسلمين الجزائريين

2- في مجال النقد الأدبي

بعد أن نتعرف على النقد الأدبي في جزائر العشرينيات، وعلى مسيرة الزاهري النقدية، سنركز على مقال الزاهري النقدي الذي نشرته جريدة النهضة التونسية بعنوان: (تزييف رد)، وقد نشر المقال على خمس حلقات؛ في الأعداد الآتية:

العدد 31 والعدد 36 والعدد 38 و العدد 42 والعدد49.

لم يكن المصدر الذي أخذت منه المقال هو جريدة النهضة التونسية وإنما اعتمدت على ملحق رسالة ماجستير لصاحبها عبد السلام ضيف المقدمة عام 1993-1994م، إشراف عبد القادر هني، بمعهد اللغة العربية وآدابها التابع لجامعة باتنة الجزائر.

سأعتمد في توثيق نصوص المقالات: (تزييف رد) كما هو في رسالة عبد السلام ضيف.

نص المقال الأول

تزييف رد¹

(أتيت من العدد الأخير من جريدة الأمة على فصل عريض فوقه عنوان:)
تفنيد مزعم) أو (وُدُّ على زيتوني) فقرأته وأنا عار عن سائر العواطف وزدت
النظر فيه بسطة، ونقدته نقد بصير، فتبين أن صاحبه لم يحرره إلا بحلم طائش
وفؤاد روي من التسرع في الحكم، وليس له من سبب يدعو إلى تحرير ذلك
الفصل المفعم شتيمة وسبابا سوى أنه وجد نفسه من قوم يحسبون كل صيحة
عليهم، فظن أنه المعني وحده بما كتبه الفاضل الزيتوني بطويه طاهرة وضمير
عف وسلك الصراط السوي فيما كتبه بعنوان: (دمعة على العروض).

لقد جاء الكاتب الزيتوني فيما كتبه بحقيقة الأمر ترفل في مطارف
الإنصاف، وماذا بعد الإنصاف إلا الحيف والاعتساف، ولقد أنصف إذ طلب
عرض القصيدة السكيرجية على محك النقد ولكن صاحب الرد عليه جاء في
أساطيره بشيء في الأرض والمطلوب منه في السماء، فالبعد بين ما أجاب به
وبين ما ترجاه الفاضل الزيتوني كالبعد ما بين السماء والأرض، فما أجدر الزيتوني
أن ينشد:

وأكبر رزه يا أمامة أنني أخاطب من دنياي من ليس يفهم

¹ - محمد السعيد الزاهري: (تزييف رد)، النهضة التونسية، ع 31 (1 / 11 / 1923)، نقلا عن عبد السلام ضيف، (محمد السعيد الزاهري كاتبا)، بحث مقدم لنيل شهادة الماجستير في الأدب الحديث، (لم ينشر)، المشرف عبد القادر هني، معهد اللغة والأدب العربي، جامعة باتنة، الجزائر، 1993-1994م، ص178.

ألم تر إلى صاحب الرد كيف يسترک طبعه الرقيق اللطيف ويستثقل ذوقه
السليم أن عدى الزيتوني لفظة "شوه" بالجار ولا يستثقل نظير ذلك في قوله
هو (طمس الله على بصره) ونحن نرى الجار يجر مفعول الفعل المتقدم لغرض
بلاغي، وقد ورد كثيرا في كتاب الله وفي الحديث الشريف وفي الكلام البلغاء من
العرب. ألا يسألنا صاحبنا أن نورد له من ذلك شواهد... وما كنا لنعرض لمثل
هذا لولا أن صاحبنا ينكر شيئا وقع هو فيه.

وبعد فضرينا الذكر صفحا عما في تراكيبه من الركاكات الباردة، لأن
ذلك يحط بنا من الأمور ذات البال إلى السفاسف، على أننا خلينا له هذا الباب
يكثر ما استطاع من الكلام فيه وبينه وبين مناط الأخذ والرد بعد المشرقين، مثل
هذه العجاجة أن الفاضل الزيتوني هزته غيرة أدبية على الأدب، إذ رأى فئة ممن
ينتمون إليه تتكبوا الجادة البيضاء في الحكم على قصيدة الشيخ "سكيرج" التي
نشرت بجريدة الزهرة فقال: من الناس من أخذ ينتقد قصيدة الشيخ سكيرج بعدم
الاتزان الخ.

فقال صاحب الرد: فأنت ترى كيف اعترف بأن غير المتزن إنما هو
مجموع القصيدة لا كل فرد من أبياتها ... الخ).

نص المقال الثاني

تزييف رد¹

(زعم صاحب الرد أن الزيتوني اعترف له بمدعاه، وزعم أيضا أن مدعاه من أول مرة هو ما ذكره من أن غير المتزن إنما هو المجموع الخ ...

وسواء سخط صاحب الرد أم لم يكن من الساخطين فالحق والحق أقول أن صاحبنا رمى القصيدة أول مرة بأنها ليست إلا كلاما منثورا وبعض أبياتها على فرض أن لها أبياتا فيها زيادة الحرف والحرفين وفي بعضها النقص الذي لم يكن ليغفره علماء العروض، وجعل يشد عضد مزعمه بمقدمات عميقة يكفر بعضها ببعض فخذله وقتئذ من ظنه ينصره فأنشد لسان حاله يخاطب خاذله قول الفرزدق:

وكنت كذئب السوء لما رأى دما بصاحبه يوما آمال على الدم

ثم ما لبث إذ أعياه الأمر وكذبه الواقع أن انتقل « و عدم الثبات على المبدأ معرفة » فجعل مدعاه أن غير المتزن إنما هو المجموع وضرب لذلك مثلا باطنه فيه خلاف الواقع وظاهره من قبله ... السفسطة الكاذبة التي لا تنطلي إلا على قوم ليست لهم مسكة من فن العروض .

ضرب صاحب الرد مثلا لما يقول بالرطل من الذهب أو الفضة يعطيه الرجل لصائع يصوغه أساور أو دمالج أو غير ذلك، فصاغه وقد نقص من كل سوار من تلك الأساور أو دملج من تلك الدمالج قدرا يسيرا لا يعد نقصا في كل

¹ - المصدر السابق ع 36 (6 / 11 / 1923)، ص 180.

سوار أو دملج غير أنه إذا ضمت الأفراد بعضها إلى بعض صارت أقل من رطل فجاء الرطل غير موزون، المعنى أن صاحب الرد أفاض فيما لم يندبه إليه الزيتوني فلغا ما شاء أن يلغو. وما ذكرناه عنه من ضرب المثل أهم ما قال، ونحن وإن كان شأننا أن نمر باللغو من الحديث كراما لكن أنفسنا تأبى لنا ألا نمحق الأراجيف الباطلة وأن نصدع بالحق رضي من رضي وغضب من غضب). (غضب).

نص المقال الثالث

تزييف رد¹

(إن هذا المدعى الذي ادعاه في مطاويه أن القصيدة العربية بوصف مجموعها بعدم الوزن إذا كان بعض أبياتها منقوصا بعض السواكن نقصا لا يخرج بالبيت عن دائرة الوزن، وهذا لم نجد له من مسوغ، فإن القصيدة إذ كانت كذلك لا يوصف مجموعها بعدم الوزن مثل ما قال صاحب الرد لا في اللسان العربي ولا في متعارف العروضيين، ولو أنه جاءنا ببينة تأخذ بيد مدعاه لسلمنا له كلما وضح الحق، ولكنه أورد مزعمه عاريا عن سائر ما يشد أزره فلقي من التزييف ما لقي، وما خلونا بمرقب مما يظهره بعد من الدلائل المنقذة لمزعمه من الغرق فليأتنا بكتاب مصدق لما بين يديه إن كان من الصادقين .

وبعيد ما بين الشاعر يقف على ساحل اللغة العربية فيأخذ من درر ألفاظها ما يشاء ولا يحيط بها علما إلا الله فيفرغ فيها من المعاني ما يشاء وبين

¹ - المصدر السابق، ع 38 (8 / 11 / 1923)، ص 182.

الرجل يعطي رطلا مخصوصا موزونا بوزن معلوم فإن للشاعر فيما يقابل الرطل من جواهر الألفاظ ما لا يقف على آخره بشر.

ولسنا ننكر عليه تنظيره القصيدة بالعقد من الماس فهما، كما قال. ولكننا ننكر عليه زعمه أن النقص يرى في المجموع وليس يرى كذلك عيبا في كل حبة من حباته إذ ربما كان بعكس ما قال، فإن النقص في الحبة الواحدة أقبح منه في كثير من الحبات أو في جميعها ذلك بأن العقد إذا كانت حباته كلها ناقصة كان أقرب إلى التمام أجزائه وتتاسب بعضها مع بعض وإن كانت واحدة ناقصة بين حباته السليمة كان أبعد، والواقع شاهد عدل على ما نقول.

وبعد فماذا يقول صاحب الرد يجريه قائله على سنن واحد مخبونا أو مطويا أو مكفوبا أو موصوفا بغير ذلك من الأنقاض العروضية أيحكم عليه بعدم الاتزان، وذلك شيء كثير في قصائد العرب العرياء الذين دون فن العروض من أجل أشعارهم، أم يحكم بصحة ذلك، وقد حكم على قصيدة الشيخ سكيرج بأن مجموعها غير متزن أم يحكم بفساد الوزن في قصيدة الشيخ ويحكم بصحته فيما عداها ألا ساء ما يحكم)

نص المقال الرابع

تزييف رد¹

(ثم قال صاحب الرد ما وقع فيه سكيرج كثيرا ما تتحى على الأدباء الجزائريين في عدم التحري من الوقوع في مثله.

طالما سمعنا هذا المتحامل يقول أن الجزائريين لا يتوخون الوزن في أشعارهم كأنهم لا يعرفون العروض... وزيفنا له هذا القيل وشخصنا له خطأه حتى لمس بهيده.

ولئن سألتني من أين تسرب إليه هذا الخطأ الملعون لأقولن إنه اختار لنفسه في كل بحر تام العروض والضرب من البحور التي يغلب طروق الشعراء لها، نغمة من النغمات التمثيلية يقرأ القصيدة عليها، فمتى ما رأى البيت سگن فيه متحرك أو نقص منه ساكن اختل نظام تلك النغمة فيحكم ساعتئذ على البيت بأنه غير موزون أو على مجموع القصيدة فيما يراه .

والجزائريون لا يرون التمثيل شيئا يؤبه له، وصددهم عنه ما يلزمه غالبا من الإخلال بالعروض وقلب الأخلاق الفطرية الفاضلة فلم تجر على ألسنتهم نغماته.

من أجل ذلك مهما سمع صاحب الرد جزائريا ينشد قصيدا على نغمة لا تلتئم مع نغمته حكم على الجزائريين بأنهم لا يزنون أشعارهم، وأكثر من إعادة هذه الكلمة في سائر النوادي التي يجلس إليها ولم تكن له من طرفة يطرف بها

¹ المصدر السابق ع 42 (18 / 11 / 1923)، ص 183.

السامعين سواها وما من أديب يقدر من يحملون عرش الأدب إلا يستبرد منه مثل هذه الحزازة، وحسبناه لا يجهر بذلك على أعمدة الجرائد حتى تكون فضيخته أهون شرا ولكن أبي له الحمق وسفه النفس إلا أن يبين للناس أنه الجاهل بعلم العروض وأنه لا يعرف منه إلا لفظة العروض، فأبدى مكانته من الفن للعيان في انتقاده على الشيخ سكيرج بيته :

فيأخذ النغم التي توافقه و يستدل بها في وزنه الجلل)

نص المقال الخامس

تزييف رد¹

(إذ قال أن صدر البيت من بحر الرجز وعجزه من البسيط، وهل يجهل مثل هذه الجهالة إلا بسيط، وتلك إما عثرة وإما زلة تحسب عند العروضيين شركا لا يغفر، وعندني أن تلك حجة واضحة على جهله بفن العروض، يسمع بالرجز والبسيط والطويل والوافر ونحو ذلك ولا يدري لها من مسميات، ولدي على ما قلته برهاننا: الأول، لو ألمّ بالعروض أو ببعض العروض لعرض القصيدة السكيرجية ونقدها نقدا عروضيا على أن الزيتوني اضطره إلى ذلك، والثاني قوله أن صدر البيت المتقدم من الرجز ولم يقطعه على تفاعليه، ونحن نسأله أن يجري لنا هذا الصدر على أجزاء الرجز فلم نره إلا من البسيط.

وأن تعجب فعجب قوله بعد ذلك « الله شيء جميل وجميل جدا» ففي هذه الفقرة من ... والتخنت ما يتبرأ منه المتعفون.

¹ - المصدر السابق، ع 49 (19 / 11 / 1923)، ص 185.

ومن كانت منزلته من العروض ما ترى، فليس بسداد أن ينتقد شيئاً يجهله
فيجعل بنا أن ننشد:

يا للرجال ذوي الألباب من نفر لا يبرح السفه المردي لهم ديناً

وذكرت أنه استعمل أكياساً جمعاً لكأس وذلك فاسد وغير معروف ثبوته
عن العرب، فليأتنا على الصحة هذا الجمع بسطان مبين ونحن له من الشاكرين.
فهلا اشتغل بتثقيف نفسه هو وتثقيف بني بلاده، فإن في قصيدة شاعر تونس التي
تقول في مطلعها:

تزرع ما بالغرب والشرق ساطع وما لبلاد الغرب لا تتزعزع

من القافية المتلاعنة ومن برودة المعنى وتنافرها ما يقتل الروح وبميت الوجدان،
فأولى له قصده عنا مواطن الخلل من أشباه هذه القصيدة التي يقيم لها التونسيون
وزناً وهي أثقل على السمع من رجحانه، ولولا التحكك بأدباء الجزائر لكان له من
نقد الشعر التونسي فضاء مترامي الأطراف لو كان من فرسانه، وإنما ننصح له أن
لا يعود يمس بكرامتنا بغير حق، ننبهه إلى أن الجو لم يكن خالياً من صقور أدباء
الجزائر الكرام فليحذر أن يقع عليه صقر من تلك الصقور المحلقة فوق رأسه كلما
عاد لمثل ما أنكرناه عليه ...

ولو انتقدنا بسداد لشكرنا لصنيعه ولرأينا له فضلاً ... أما وقد نقدنا نقد
معرض جهول، فإننا نمتعض وننكر على ما كتبه عنا بالإبطال ونزيد بالحجج
الدامغة ما يلصقه بنا من كل ما يشوه بسمعتنا، بطوية أرويناها نزاهة وطهارة
وكذلك كل من حاول العبث بسمعتنا كلنا له بضاعه، ويومئذ ربما يود الذين

يتحاملون علينا أن لو كانوا لنا مسالمين، ولا يغرمهم سكوتنا اليوم عن مجارة ما يهرفون فإننا خليناهم وما يهرفون أنفة وإباء.

وبعد فنطالب صاحب الرد أن لا يخرج بنا فيما يكتبه بعد أن كان عما نكون فيه مثل ما خرج فيما رد به على الكاتب الزيتوني إلى وصف الشعر بأنه كذا و كذا... .

وجعل يذكر أشياء لها مساس بما نحن فيه، بل منزلتها من الموضوع كمنزلة الضب من النون، وترك محل البحث وراءه ظهريا .

وكنت عزمت على أن لا أغادر صغيرة ولا كبيرة مما كتبه في هذا المقال؛ نسفتها، ثم رأيت أن في ذلك طولا ربما سئمه القارئ النبيه على أنه إن عاد عدنا.

دعانا إلى كتابه هذه الكلمة الذب عن حقيقتنا، لا نبرح تتبعها طلائع السمع تتجسس كيف يكون عاقبة وقعها فإن كان الإذعان إلى الحق والى تحمل غيره، فذلك ما كنا نبغي وإن كان غير ذلك فمن يضل الله فلا هادي له)

دراسة النصوص

لم يكن النقد الأدبي في الجزائر ظاهرة إقليمية منغلقة، حيث من خلال إطلاعنا على نتاج أدباء الحركة الوطنية الاصلاحية، وجدناه منفتحا على مثله في الأمة العربية والإسلامية، ولم يكن بعد ذلك جامدا لا يؤثر ولا يتأثر، بل كان كغيره من ميادين الإبداع والتفكير في الأوطان العربية، يأخذ حيننا، ويتأثر أحيانا أخرى، ويتميز عن غيره من الفنون في بعض من المرات، خاصة كونه يحظى بعنصر

الإطلاع على الثقافة الغربية في بعض الأوقات، ومنها الثقافة الفرنسية، بحكم أنّ معظم أدباء الحركة الوطنية على معرفة تامة باللغة الفرنسية ومنهم الزاهري نفسه.

صحيح أنّ هذا النقد متأخر في ظهوره إذا ما قورن بالحركة النقدية في المشرق العربي، ومرّ بمراحل ضعف وقوة حتى استوى على سوقه. وذلك أمر طبيعيّ من جهة، وله ما يبرره من أسباب واقعية ومنطقية من جهة ثانية.

لا يمكن أن يكون النقد الأدبي في الجزائر نشطا وفي مستواه الطبيعيّ في ظلّ مناخ ضيقٍ فيه المحنّ على الحركة الأدبية بإصدار قوانين تحول دون وصول منابع العلم والثقافة من جرائد ومجلات مشرقية ومغربية، فضلا عن محاربتة لأفكارها الشيء الذي انعكس سلبا على أن تكون القصيدة الجزائرية مثلا فيه على رأي محمد البشير الإبراهيمي (أخت الأشعار الملحونة الرائجة في السوق، لأنها منقطعة الصلّة بالشعر في أعاريضه وأضربه، ومنقطعة الصلّة بالعربية في ألفاظها ومعانيها، ومنقطعة الصلّة بالخيال في تصرفه واختراعه)¹. أما الشعر عموما، فهو حرفة، زهد فيها محبوه ومريدوه، حتى أصبحت سلعة كاسدة، فعمّ بذلك المجتمع زهد في الأدب في جميع فنونه.

وإذا كان حال الأدب الجزائري إلى العشرينيات كذلك، فمن الطبيعيّ جدّا أن نرى نقدا لا يتسم إلا بالضعف وبالنقص والنظرة الجزئية والسطحية، لأنّ الدراسات النقدية في الحقيقة تسبقها الأعمال الأدبية لتكون موضوعا لها.

¹. الشهاب، جزء 9، مجلد 10، أوت 1934، ص 390.

لقد عرف النقد الأدبي في الجزائر طريقه بعد الحرب العالمية الأولى، وذلك بعدما استماتت الصحافة العربية الجزائرية في الدفاع عن اللسان العربي والدين الإسلامي، والأرض الجزائرية، خاصة في الفترة التي تولت فيها حكومة فيوليت الفرنسية - ذات التوجهات الاشتراكية - قيادة مقاليد الحكم، وزمام الأمور (وشهدت فترة هدنة مؤقتة في محاربة هذه الصحافة الوطنية، مما أدى إلى ظهور صحف أخرى)¹.

يبرز موضوع النقد من خلال شعارات مجلات وجرائد الحركة الوطنية بعد الحرب العالمية الأولى، فالشعار المرصع لكل أعداد المنتقد مثلا وهو: (جريدة سياسية تهذيبية انتقادية، شعاره الحق فوق كل أحد، والوطن قبل كل شيء).

وإذا كان محتوى هذه الجريدة يشمل حالات شتى فذلك يعكس المستوى الاجتماعي والسياسي والثقافي للمواطن الجزائري، فإن أحد هذه المواضيع جاء في النقد الأدبي وتحت عنوان مباشر: **النقد الأدبي**. وإذا دل ذلك على شيء فإنه يدل على ميلاد مثل هذه المسائل الأدبية. حيث انتقد صاحب مقال قصير خط الجريدة الذي تغلب عليه المعالجات الكثيرة للشؤون السياسية والدينية والأخلاقية، دون أن يلقى موضوع النقد الأدبي منها أي اهتمام يذكر. يقول صاحب المقال: (إني رأيتم وجهتم سهام النقد إلى شؤون سياسية ودينية وأخلاقية، وإلى أشخاص من جهتهم العمومية، وتكرّر منكم ذلك دون مبالاة بضجيج الساخطين وهياج الناقمين، ثم لم أراكم ولا مرة واحدة تعرضتم للنقد الأدبي، مما نشر في صحيفتكم أو غيرها، وقد كان حقيقا بالاعتناء منكم، وجديرا بالمكان الفسيح من جريدتكم

¹. محمد، ناصر: المقالة الصحفية، نشأتها، تطورها، أعلامها من 1903 إلى 1931م، ج 1، ص45.

وأهله. أهل الأدب أعرف بقيمة النقد، وأدرى بحسن عائدته، وأوسع صدرا له من جميع الناس)¹.

لا يكتفي صاحب المقال بانتقاد التوجه العام لجريدة المنتقد، بل يعمد إلى الضغط على القائمين عليها، فيقترح عليها فتح الباب لمناقشة المسائل الأدبية والنقدية، لتبيان الغث من السمين، والجيد من الرديء في قصائد نشرت في الجريدة أو في جرائد أخرى، وحُظيت بميزة النشر دون غيرها فيقول: (قَدِّمْتُ لَكُمْ هذا لأنني رأيت أبياتا للشيخ العلمي بجريدة "النجاح" الفيحاء قد أُخْتِيرت على غيرها، فحُصِّت بالنشر، واكتُفِي بالإشارة إلى ما عداها، فأحببت نقدها، فإن كانت جريدتكم تتسع لذلك، فإنني سأُنشر نقدها، مهما وجدت فراغا من الوقت، ونشاطا من البال)².

لعلّ هذا النص يدل على استعداد الأدباء في ذلك الوقت للمناقشة والمحاورة، وكذلك على الروح النقدية التي بدأت في التكون لدى رواد الحركة الوطنية في الجزائر، وتظهر بعد ذلك متنامية في أشكال متعددة، منها المقالات، ومنها الدعوات المتكررة حتى تصل إلى رسم حدود النقد الأدبي.

ومن هؤلاء الداعين - إلى هذا الميدان المهم في هذه الفترة - الأديب محمد السعيد الزاهري الذي أولى لمسألة النقد الأدبي اهتماما كبيرا لسنوات عدة، وكان توجهه إلى ذلك مبكرا، خاصة بعد التحاقه بجامعة الزيتونة وهو ابن العشرين، وقد ساعده في ذلك اهتداؤه بأشهر الشيوخ كمعاوية التميمي، والاسترشاد بتوجيهاته

¹. أبو هلال: (النقد الأدبي)، المنتقد، ع 7، 12 أوت 1925، ص3.

². المصدر نفسه، ص ن.

النافعة له، وهذا ما أكده الزاهري في قوله: (وأنا شخصياً لم ينفعني شيء في جامع الزيتونة المعمور مثل ما نفعني هداية الأستاذ الشيخ معاوية التميمي، فقد كان يرشدني إلى الكتب التي ينبغي أن أقرأها، ويرغبني فيها، وكان يصدني عن كتب كانت نفسي تهفو إلى مطالعتها ويزهّدني فيها، فلم أتبيّن ضلالها وفسادها إلا بعد ذلك بكثير).¹

كان معاوية التميمي من أعلام الأدب والدين، الذين صحبهم الأديب الزاهري مدة إقامته بتونس، حيث تعاطى على يديه الكثير من الفكر والأدب، وخاصة مسألة النقد، وكان ملازماً له لزوم الظل لصاحبه، (وذلك أنني ما وجدت أحداً أوسع خبرة منه بكلام العرب، ولا أبصر منه بواقع النقد، ولا أصحّ منه ذوقاً، ولا أحزم منه في تمحيص الحق من الباطل في كل مشكلة تنزل).² وهذا ما دعا الزاهري لمشاركة شيخه نشاطاته الأدبية الشعرية منها والنثرية، ويلجأ إليه كلّ حين في تمحيص كتاباته الأدبية، وخاصة الشعرية منها. (كثيراً ما أعرض عليه قصيد فيعيب عليّ منه أشياء، فما زلت كذلك حتى أصبحت إذا قلت قصيدة عرفت ما سيعيبه عليّ فيه من الأشياء من قبل أن أعرض عليه، لأنّه إذا عاب شيئاً يبين وجه العيب فأتحنّى عنه).³

1. محمد السعيد، الزاهري: (جمعية إخوان الأدب)، البصائر، ع 11، 20 مارس 1936، ص 66.

2. محمد الهادي، الزاهري: شعراء الجزائر في العصر الحاضر، ج 1، ط 1، المطبعة التونسية، تونس،

1926، ص 5.

3. المصدر نفسه، ص 67.

هكذا بدأت تنمو ملكة النقد لدى الزاهري، الشيء الذي مكّنه من مواصلة نشاطاته الأدبية، على ضوء توجيهات أساتذته عموماً، وفي كنف شيخه التميمي خصوصاً، وقد انعكست الآراء المتنوعة لهؤلاء الشيوخ والأساتذة إيجاباً في كتابات الزاهري بعد ذلك، وتجلّت بوضوح فيما بسطه من وجهات النظر والآراء، حيث لا يجد الدارس المتمعن فيها حدوداً تدور داخلها الكلمة النقدية ذات الأبعاد المحددة، وإنما تغلب عليها النزعة التأثرية الانطباعية التي تحدّد طبيعة آرائه النقدية، انطلاقاً من موروثة الثقافي الموجه لذوقه النقدي. وكمثال على ذلك فمفهومه للفن لا تخرج مفرداته عن القاموس القرآني، إذ يعكس ذلك بوضوح انتماءه للمدرسة الاتباعية، التي سادت وهيمنت على الساحة الأدبية الجزائرية لتلك الفترة. يقول محمد السعيد الزاهري معرفاً: (الفنّ الجليل الذي يميّز الخبيث من الطيب، والخطأ من الصواب، والصحيح من الفاسد، إذ ليس الاتقاء هو الاقتصار على المدح والقدح متى وجد معا)¹.

تشير الآثار النقدية للأديب الزاهري أنّ بداية خوضه لمسائل النقد كانت في بداية العشرينيات، وكانت بالتحديد بتونس، وعلى صفحات جريدة "النهضة"، حيث - ذات مرة - كثرت أقاويل قرّائها، وشاعت بين أوساط الطبقة المثقفة حول قصيدة لأحد شعراء تونس يدعى أحمد سكيرج. مضمونها مدح وثناء في أحد أعضاء اللجنة المغربية، ألقاها الشاعر التونسي بمناسبة اجتماع سنويّ لجمعية أوقاف الحرمين الشريفين، انعقد بالعاصمة الجزائرية عام 1923م، فما كان من الزاهري إلا أن أدلى برأيه رآه حصيفاً في خضمّ تلك الزوبعة الأدبية النقدية. وفي

¹ محمد السعيد، الزاهري : الشهاب، السنة 1، ع6، 1925، ص 5.

مقال طويل، وتحت عنوان: "تزييف رد" وقف السعيد الزاهري إلى جانب من استحسنا القصيدة ورأوها سليمة في معانيها ومبانيها.

بين الزاهري في بداية مقاله لقراء الجريدة أنه محايد لا ينتصر لأحد من المتجادلين، وأنه يطلب في مقاله الحق لا غير، قائلاً: (أتيت من العدد الأخير من جريدة الأمة على فصل عريض فوق عنوان: تفنيد مزعم أو رد على زيتوني، فقرأته وأنا عار عن سائر العواطف، وزدت النظر فيه بسطاً ونقدته نقد بصير...)¹.

تدل مقدمة المقال المقتضبة أن الزاهري تلقى نقد القصيدة بقلب مفتوح ويقظ، بمعنى أنه يطمئن القارئ من خلال وعيه بشروط الناقد الحقيقي، إذ الواجب على القارئ أن يقبل على قراءة أي نص دون أحكام مسبقة، ودون عصبية للنص ولا لصاحبه، كما يجب عليه أن يتوقف عند اللغة المشكّلة للنص وصوره ومعانيه لإبراز المساوي والمحسن، لأن الناقد الحقيقي يدرك أن لغة النص يمكن أن تكون (انزياحية في الدلالة والأسلوب في حالتها الحقيقية والمجاز)².

ويفهم من مقدمة المقال: (تزييف رد) أن الزاهري يتفق تماماً مع المفاهيم القديمة للغة التي تقول مثلاً: اللغة ليست مجرد صوت وإيقاع ولون و... وإنما هي بنية لغوية وصوتية وتركيبية وإيقاعية وتصورية، ذات دلالة، تتوزع في

¹. محمد السعيد، الزاهري: (تزييف رد)، النهضة، ع 31، 1 نوفمبر 1923. نقلًا عن عبد السلام ضيف، (محمد السعيد الزاهري كاتباً)، رسالة ماجستير في الأدب الحديث، معهد اللغة العربية وآدابها، جامعة باتنة، الجزائر، 1993م - 1994.

¹. حسين، جمعة: المسبار في النقد. دراسات في نقد النقد للأدب القديم والتناص. منشورات اتحاد كتاب العرب، دمشق، سوريا، 2003، ص 26.

أساليب مكثفة تارة، ومفصلة تارة أخرى، حقيقية أو مجازية...وتقوم على علاقات متفكة وموحية.

وإلى جانب ما سبق توجي هذه المقدمة إلى قابلية الزاهري النفسية والعقلية لكل من النص الأول، المتمثل في قصيدة أحمد سكيرج، والنص الثاني المتمثل في المقال النقدي الذي انتقد القصيدة وكشف عيوبها وهناتها. وتدل هذه القابلية بكل وضوح على تذوق الزاهري للغة النصين وصورهما وعاطفتيهما وأخيلتهما، وكذلك مدى استعداده لبسط الموضوع بسطا، ينبئ على مستوى مخزونه النقدي وانفتاحه على أشكال النقد القديم والحديث، وقبوله لآراء النقاد الآخرين، كما يدل أيضا على إدراكه التام لمعاني القصيدة حتى تتوضح لغيره ممن يجادله من النقاد أنه يعيش التجربة الإبداعية من الداخل بكل مكوناتها بالنسبة لقصيدة أحمد سكيرج.

وعلى ضوء ذلك فالزاهري مرتبط بجو النص الذي انتقد القصيدة، ومنفتح عليه، حتى يساعده على تصور محتواه تصورا دقيقا يؤدي إلى اقترابه من المستوى الفني والجمالي دون نسيان العناصر الخارجية. وكل ذلك يؤدي إلى تحقيق الغاية المتوخاة من رد الزاهري لأن الهدف هو (استكشاف مادة الأدب عن طريق مقاييس العقل، وضوابط المنطق، وأدوات الإدراك بغية الوعي بخبايا الظاهرة الجمالية)¹.

¹. حسين، جمعة: المسبار في النقد الأدبي، عن رولان بارت، (من العمل إلى النص)، ص 15، منشورات اتحاد كتاب العرب، دمشق، سوريا، 2003، ص 25.

لم يتوجّه الزاهري مباشرة إلى نص خصمه في محاولة لتقويمه في ضوء الأحكام النقدية التي ربما لم تكن في تلك الفترة أكثر وضوحاً للناقد الجزائريّ، بسبب الظروف التي يعيشها، وإنما عمد إلى حكم جازم على صاحب الردّ، ليبين للقراء أنّ خصمه لا علاقة له بالمسائل النقدية التي تطرّق إليها في موضوعه، وأنه بعيد كل البعد عن الحقيقة النقدية، قائلاً: (فالبعد بين ما أجاب به وبين ما ترجاه الفاضل الزيتوني كالبعد بين السماء والأرض)¹.

كان الأديب الزاهري قاسياً على خصمه لأنّه ألصق به صفة الجهل التّام لأبسط أحكام النقد وقواعد العربية وبلاغة العرب، ليس هذا فحسب بل نجد الزاهري في خاتمة مقاله المنشور في العدد الواحد والثلاثين من مجلة النهضة يورد حكماً آخر دون تحليل يذكر، وبشيء من السخرية حول اللّغة التي وظّفها صاحب المقال، فيقول: (وبعد، فضربنا الذّكر صفحاً عما في تراكيبه من الرّكاقات الباردة، لأنّ ذلك يحطّ بنا من الأمور ذات البال إلى السّفاسف على أنّنا خلينا له هذا الباب، يكثر ما استطاع من الكلام فيه، وبينه وبين مناط الأخذ فيه والردّ بعد المشرقين)².

ومما يلاحظ على المقال "تزييف رد" في العدد السادس والثلاثين من جريدة النهضة للسنة نفسها، أن الزاهري اتّهم صاحب الرد بـ:

2. محمد السعيد، الزاهري: (تزييف رد)، النهضة التونسية، ع 51، 1 نوفمبر 1923م نقلاً عن عبد السلام ضيف، (محمد السعيد الزاهري كاتباً)، رسالة ماجستير في الأدب الحديث، معهد اللغة العربية وآدابها، جامعة باتنة، الجزائر، 1993م - 1994.
² م ن ، ع 31، 1923م.

- عدم الثبات على قول واحد، ورأي واحد، بسبب تناقضه في الكلام (ثم ما لبث إذ أعياه الأمر، وكذبه الواقع، أن انتقل - وعدم الثبات على المبدأ معرفة - فجعل مدعاه أن غير المتزن إنما هو المجموع، وضرب لذلك مثلا باطنه فيه خلاف الواقع، وظاهره من قبله السفسة الكاذبة التي لا تنطلي إلا على قوم ليس لهم مسكة من فن العروض)¹.

- بالمناورة واللف والدوران والكذب والسفسطة (التي لا تنطلي إلا على قوم ليست لهم مسكة من فن العروض)².

- باللغو. إذ اعتبر ما جاء به من ردّ على قصيدة أحمد سكيرج لا فائدة منه، قال: (إن صاحب الردّ أفاض فيما يندبه إليه الزيتوني فلغا ما شاء أن يلغو. وما ذكرناه عنه من ضرب المثل أهمّ ماقال، ونحن وإن كان شأننا أن نمرّ باللغو من الحديث كراما، لكنّ أنفسنا تأبى ألاّ تمحق الأراجيف الباطلة، وأن تصدع بالحقّ، رضي من رضي، وغضب من غضب)³.

مما سبق نستنتج أنّ القاموس النقدي للزاهري يكشف عن تأثره - كغيره من النقاد الجزائريين لهذه الفترة - إلى أبعد حد بالناقدين القدامى و (بمصادرهم الثقافية القديمة، بل إن بعضهم تحامل على كل ما ليس له صلة بالتراث العربي)⁴. ويبدو ذلك جلياً على مستوى اللفظ الموظف في هذا المقال خاصة.

¹. المصدر السابق ، ص ن.

². م ن، ص ن.

³. م ن، ص ن.

⁴. علي، خذري : نقد الشعر . مقارنة لأولويات النقد الجزائري الحديث . ديوان المطبوعات الجامعية،

قسنطينة، الجزائر، 1998م، ص 139.

وكمثال على ذلك نقتطف عبارات من مقال: "تزييف رد" لنبين تأثر محمد السعيد الزاهري بالمصادر العربية القديمة ومنها القرآن الكريم:

- فالحقّ والحقّ أقول... جملة مأخوذة من سورة ص، آية 84.

- يشدّ عضده ... جملة تشير إلى سورة القصص، الآية 35.

- ضرب لذلك مثلاً، باطنه فيه خلاف، وظاهره من قبله السفّسة... جملة

تشير إلى سورة الحديد، الآية 13.

- يصوغه أساور ... جملة تشير إلى سورة الإنسان، آية 21.

- نمرّ من اللغو كراما ... جملة تشير إلى سورة الفرقان، الآية 72.

- نمحق الأراجيف الباطلة، وأن نصدع بالحقّ ... جملة تشير إلى سورة

الشورى، آية 24.

ولهذه المفردات والتعبيرات القرآنية والإسلامية المنشأ معنى قوياً يؤكد

بقوة كما قال صالح خرفي: (أنّ الزاهري تخرّج في ثقافته العربية من مدرسة

وثيقة الصلة بالتراث وأمّهات كتبه، سواء في القرية عند الأسرة الزاهرية، أو في

قسطنطينة عند ابن باديس. وكذلك في جامع الزيتونة عند مشايخه الذين اصطفى

الزاهري من بينهم معاوية التميمي. هذه المدارس كلّها كانت في الوقت المبكر

من هذا القرن شديدة اللّحمة بالطابع التقليدي للثقافة العربية)¹.

¹. صالح خرفي : محمد السعيد الزاهري، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 1986، ص84.

لم تقتصر ردود الزاهري على الشكليات التي أثرت هنا وهناك على مستوى القصيدة المنتقدة، بل تعدى ذلك إلى بيت القصيد وهو الوزن والقافية، مما يدل على أن له مخزونا كافيا من علم العروض، وزادا كبيرا في هذا الميدان يكفيه لمواجهة خصومه والرد عليهم بما يرد مزاعمهم. ففي المقال الثالث يقول الزاهري: (إن هذا المدعى الذي ادّعاه في مطاولة أن القصيدة العربية يوصف بمجموعها بعدم الوزن، إذا كان بعض أبياتها منقوص بعض السواكن نقصا لا تخرج بالبيت عن دائرة الوزن، وهذا لم نجد له مسوغا، فإن القصيدة إذا كانت كذلك لا يوصف مجموعها لعدم الوزن مثل ما قال صاحب الرد، لا في اللسان العربي، ولا في متعارف العروضيين، ولو أنه جاء ببينة تأخذ بيد مدعاه، لسلمنا به كلما وضع الحق، ولكنه أورد مزعمه عاريا عن سائر ما يشدّ أزره فلقي من التزييف ما لقي)¹.

الذي نستنتجه من هذه الفقرة حكما نقديا صرح به الزاهري. وقد خالف به صاحب الرد وهو: أن اختلال ونقص بيت واحد لا يخرج عن اختلال في مجموعة من الأبيات المختلفة، ذلك لا يعني أبدا بأن القصيدة كلها مختلة، كما قال: (لكننا ننكر عليه زعمه أن النقص يرى عيبا في المجموع، وليس يرى كذلك عيبا في كل حبة من حباته، إذ ربما كان بعكس ما قال، فإن النقص في الحبة الواحدة الواحدة أقبح منه في كثير من الحبات أو في جميعها، ذلك بأن العقد إذا كانت

¹ محمد السعيد، الزاهري: (تزييف رد) النهضة التونسية، السنة 3، العدد 38، 8 نوفمبر 1923. نقلنا عن عبد السلام ضيف، (محمد السعيد الزاهري كاتبا)، رسالة ماجستير في الأدب الحديث، معهد اللغة العربية وآدابها، جامعة باتنة، الجزائر، 1993م - 1994.

حبّاته جلّها، أو كلّها ناقصة بين حبّاته السليمة كان أبعد، والواقع شاهد عدل على ما نقول)¹.

أثار حفيظة الزاهري اتهام صاحب الردّ للشعراء الجزائريين، ذلك لأنّه وضعهم في خانة الجهال بعلم العروض، وما أثبتته هذا الخصم من نقص على قصيدة أحمد سكيرج ينظلي على شعراء الجزائر، ولذلك كان ردّ الزاهري في المقال الخامس والأخير قاسيا وعنيفا، وجارحا للغاية.

انتقد الزاهري خصمه بداية من مفردة أكياس (وذكر أنّه استعمل أكياسا جمعا لكأس، وذاك فاسد وغير معروف ثبوته عند العرب)². ثم انتقل مباشرة إلى مطالبته بتتقيف نفسه وتثقيف بني بلاده (تونس)، ثم جاء بمطلع قصيدة نسبها إلى شاعر تونسيّ أراد أن يبيّن من خلاله (من القافية المتلاعنة، ومن برودة المعنى ما يقتل الروح ويميت الوجدان)³.

ويبدو للقارئ من خلال سياق خاتمة هذا المقال النقدي لهذا الخصم أنّ الزاهري في حالة غير طبيعيّة، الشّيء الذي أدّى به إلى الخروج عن جادة النقد، والارتداء في مربع ملاسنة ظاهرها النصيحة، وباطنها التهديد. يقول: (وإنّما ننصح له ألاّ يعود بمسّ كرامتنا بغير حقّ. ننبّهه إلى أن الجوّ لم يكن خاليا من

¹. المصدر نفسه، ص ن.

². المصدر السابق، ص ن.

³. م ن، ص ن.

صقور أدباء الجزائر الكرام، فليحذر أن يقع عليه صقر من تلك الصقور المحلقة فوق رأسه، كلما عاد لمثل ما أنكرنا عليه¹.

مما تقدم يتضح لكل من قرأ هذه المقالات النقدية ضد خصم ادعى أن قصيدة أحمد سكيرج لا قيمة لها، والتي بلغ عددها خمس مقالات، والمنشورة في جريدة النهضة التونسية، في الأعداد: 31، 36، 38، 42، 49 من سنة 1923م. ما يأتي:

- افتقار النقد الجزائري في هذه الفترة إلى رؤية شاملة، وغوص إلى أعماق الصورة الأدبية، لمعرفة كنهها، والوقوف على دلالتها وجزئياتها. وقد أشار الأديب رمضان حمود إلى أهمية هذا المعنى المهم في تحليل النصوص التي تتعرض للانتقاد قائلا: (فالأديب الذي لا يُصدر عن نفس حساسة في نفحاتها، لا يتسرب إلى أعماق النفوس المنيرة الحية، بل لا يخلد طويلا، ولا يلبث أن يقضي عليه سلطان النسيان والإهمال)².

- شيوع التركيز على التراث العربي الإسلامي، والإشارة إلى أعظم الآراء النقدية القديمة خاصة. ولعلّ (التحليل والموازنة والتركيز على التراث هي أكثر الوسائل النقدية شيوعا في النقد الجزائري، وهي تتضمن بالضرورة - حتى وإن لم يرد الناقد - قدرا من التقويم)³.

³. م ن، ص ن.

². رمضان، حمود: بذور الحياة، ص 52.

³. علي خدري: نقد الشعر، مقارنة لأولويات النقد الجزائري الحديث، ص 133.

- اعتبار التراث العربي القديم المحور الأساسي في العملية النقدية، إذ كانت الآثار الشعرية نموذجا يجب أن يُحتذى به، وهو المقياس الأوحد الذي لا ترجع الأحكام النقدية إلا إليه. فأشعار الفرزدق وغيره مثلا، تعتبر القبلية التي لا بدّ من التوجه إليها، بالإضافة إلى الكلام البليغ للعرب، وحديث الرسول محمد صلى الله عليه وسلم. وما دام الأديب الزاهري أحد رواد حركة إصلاحية المرتبطة بكل ما يمتّ إلى التراث العربي الإسلامي بصلة، فإن مواقفه وآراءه النقدية لا تخرج عما صرح به عبد الحميد بن باديس قائلا: (فالشعر العربي هو أصل ثروتنا الأدبية، وأصل بلاغتنا، ومرجع شعرنا في اللغة والبلاغة والأساليب العربية، فدرسه والاستفادة منه أمر ضروري لحفظ هذا اللسان العربي المبين. فكيف نبني دعوتنا إلى توسيع الشعر العربي بالتزهد فيه)¹.

- حضور الناقد الجزائري في تلك الفترة العصبية التي تمرّ بها البلاد، ومشاركته مع أدباء الأمة العربية والإسلامية في الكثير من المسائل الأدبية والسياسية والنقدية، رغم محاصرة المحتل الفرنسي له ثقافياً وسياسياً.

- سيطرة العاطفة على الزاهري أبعده عن الموضوعية في الطرح (إلا أن هذه المعالجة لم تخل من التهافت لأن المعالجة هنا عاطفية أكثر منها موضوعية)².

1. عبد الحميد، بن باديس: الشهاب ج 2، 2 مارس 1930. ص2.

2. رابح، فروجي: (المقالة النزالية عند الأديب محمد السعيد الزاهري)، مجلة الآداب والعلوم الاجتماعية، عدد 4، كلية الآداب والعلوم الاجتماعية، جامعة فرحات عباس، سطيف، الجزائر، 2004م، ص133.

3- نقد الشخصيات

يحسن بنا ونحن نطرح في هذا الفصل قليلا من أفكار الأديب محمد السعيد الزاهري، - وقبل الشروع في طرح أفكاره المتعلقة بانتقاد الشخصيات الفاعلة في الحياة السياسية والثقافية السائدة في الربع الثاني من القرن العشرين، والتي عانى منها الشعب الجزائري - أن نبسط موضوع القوانين المنظمة للحياة الانتخابية البلدية والنيابية في الجزائر تحت مظلة الاحتلال الفرنسي، وهدفنا من ذلك إزالة الغموض الذي قد يكتنف مسألة النيابة الأهلية، التي نالت حظا وافرا من تعاليق أدباء الحركة الوطنية خاصة، ورموز السياسة الجزائرية عامة، وأسالت حبرهم على صفحات مختلف الجرائد والمجلات داخل الجزائر وخارجها. فالقانون المنظم للانتخابات الجزائرية في ظل المحتل الفرنسي، يميز بين نوعين من الجزائريين رعايا ومواطنين (الرعايا، وهم الذين حافظوا على حالتهم الشخصية كمسلمين، وبقوا يعيشون بالقانون الإسلامي. ومواطنون، وهم أولئك الذين تخلوا عن حالتهم الشخصية، ورضوا بالدخول تحت أحكام القانون الفرنسي)¹. والفئة الأولى باعتبارهم رعايا، لا حقوق سياسية ولا مدنية لهم، على خلاف الفئة الثانية فهي مفضلة وتتمتع بكل الحقوق، وإذا رغب أحد أفرادها تحت ضغط الفقر والحرمان الانسلاخ عن الفئة الأولى، فإن أحد أقسام القانون وتحت (كيفية الحصول على الجنسية الفرنسية) يُسمح له بالرقى إلى درجة مواطن فرنسي عند طلبه، بشروط منها:

¹. أبو القاسم، سعد الله: الحركة الوطنية الجزائرية 1900-1930، ج2، دار الغرب الإسلامي بيروت، لبنان، 1992، ص 72.

- العمر خمسة وعشرون سنة.

- غير إرهابي.

- غير متزوج.

- يقرأ ويكتب بالّلغة الفرنسية ...

كما نصّ هذا القانون أيضا على أنّ الرّعايا يمثّلهم في كلّ المجالس الاستشارية في الجزائر أعضاء منتخبون. و (نصّ على أنّ عدد الجزائريين في المجالس العمومية، يجب أن لا يتجاوز ربع جملة الأعضاء في كلّ مجلس)¹.

أما المصوّتون، فلا بدّ أن تتحقّق فيهم شروط منها:

- الخدمة في الجيش أو البحرية الفرنسية

- التّوظيف لدى الدّولة، أو تقاضي أجره من السّلطات الفرنسية ...

طبعا، لم يرض الجزائريون بهذا القانون، خاصة الطبقة المثقفة منهم، ومنهم الأمير خالد الذي أدرج مطلب تمثيل الجزائريين في المجلس الوطني الفرنسي بنسبة متعادلة مع الأوربيين الجزائريين، في رسالة وجهها إلى السيد هيريو عام 1924م وجعله أهمّ مطلب له.

أمّا عن حرية الانتخابات، فالدارس يصادف أنواعا شتى، ونماذج غريبة. فمنذ أن سمحت قوانين المحتلّ للمواطن الجزائري أن يدلي بصوته، تعالت أصوات النّاس منددة بسلوك الإدارة الفرنسية التي تجعل - مرة - صناديق الاقتراع في بيوت بعض الأعيان، والذين يتصرّفون بدورهم بحرية تامّة في بداية الاقتراع ونهايته،

¹. المرجع السابق، ص 274.

ويتصدون لمن يرغبون - من المواطنين الجزائريين - في الإدلاء بأصواتهم. ومرة أخرى تُنقل هذه المكاتب من أماكنها التي يُعلن عنها دون إشعار المواطن، لتوضع في أماكن معلومة لدى الفئة العميلة للاحتلال. بالإضافة إلى كل هذه السلوك غير الحضاري، والإجراءات الاستبدادية، تتحاز أجهزة الأمن من الجندرية والشرطة ورجال الإدارة إلى صف ممثلي الاحتلال، وذلك بإرغام المصوتين بوسائل شتى على أن لا تُرجح كفة الحركة الوطنية¹.

أما بالنسبة إلى فئة الكولون، فرغم كون هذه المشاركة الضئيلة للجزائريين في الانتخابات النيابية والبلدية على السواء، والتي لم تكن (حاسمة وقليلة إلى درجة أنها لم ترض لا مطالب الجزائريين قبل الحرب، ولا مشاريع الزعماء الفرنسيين خلال الحرب، ولا تضحيات الجزائريين من أجل "أشرف جميع المبادئ")². فقد كانوا يعتقدون بأن الإصلاحات التي تحدث على مستوى القوانين الانتخابية بفعل ضغط رواد الحركة الوطنية تعني في النهاية انتصار الحركة الوطنية الجزائرية، ومعنى هذا زوال ملكهم وامتيازاتهم في الجزائر، لذلك غضبوا واحتجوا (ونادوا بقوانين ما قبل 1914م)³. أما موقف الجزائريين، فيمكن تلخيصه تلخيصه في آراء الطبقة المثقفة المعلنه على صفحات الجرائد والمجلات المقاومة للاحتلال، كجريدة: الجزائر والإقدام والهلال، وغيرها كثير. وهذه مقتطفات من

¹. يراجع، محمد العربي، الزبيري، تاريخ الجزائر المعاصر. دراسة. ج 1، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، سورية، 1999م، ص ص 164، 165.

². أبو القاسم سعد الله: الحركة الوطنية الجزائرية، 1900-1930، ج2، ص 275.

³. م ن، ص 279.

الآراء الطبقة المثقفة في الانتخابات البلدية في الجزائر لفترة ما بعد الحرب العالمية الأولى

يقول شاعر اسمه الزهاوي في انتخابات البلدية لعام 1925م:

وإذا اعتلت السياسة يوماً

ربّ قانون أهله وضع كدواء، فازداد منه الداء¹

أما الشاعر محمد السعيد الزاهري فقد شارك الشاعر مشاعره بنظرة أخرى، فيرى هذه الانتخابات ليست حرة ولا نزيهة كما يدعي القائمون عليها، لذلك حذر مما يسمى بالانتخابات النيابية التي من خلالها يضحك المحتل على الجزائريين، ثم كشف أعمال أولئك الساكتين من المنتخبين عن الحقوق المهضومة للمواطن الجزائري، بل ذهب إلى أكثر من ذلك، لقد وصفهم بالنواب والمصائب على الجزائر وشعبها.

ما كان أبرّه من يوم أهوال يوم به ركبت حال على حال

يوم به قامت ا على ساق لها بين صعلوك وذي مال²

1- الزهاوي: (هو الانتخاب)، جريدة النجاح، السنة السادسة، ع 24، الثلاثاء 20 أكتوبر 1925م، الجزائر، ص 1.

2. محمد السعيد الزاهري، شعراء الجزائر في العصر الحاضر، ج 1، ط 1، ص 94.

ومن زاوية أخرى فإنّ محمد البشير الإبراهيمي يقرّ بأنّ للانتخابات أهمية كبرى تستحقّ التّضحيق من أجل الفوز بها، فهي (عصب الحياة)¹. غير أنّ المحتلّ الفرنسيّ حولها من فكرة تبني وتعمّر الدّول، إلى وسيلة تهدّم البلدان وتخربها، وتذلّ المواطن وتسحقه. لقد صورّ الإبراهيمي ذلك بقوله: (تقع أول نظرة منك على احتقار مفضوح بشواهدة، وهو وجود صندوقين لأمتين، لم تقعد بأولاهما قتلها، ولم تغن عن أخراهما كثرتها، ومعنى ذلك إلا وجود طائفتين سيّدة ومسودة، ثم أنظر إلى التفاصيل في الكمّ والكيف، والإجراءات في الإيرادات تجد مصداق ما قلناه كالشمس ليس دونها حجاب)². ويبدو أنّ الجزائريين قد طبعتهم مسحة التّشاؤم من وقوع مثل هذه الانتخابات التي تصبّ دائما في رصيد القويّ القائم على تنظيمها والترتيب لها، الشّيء الذي أكّده الإبراهيمي بقوله: (والحقيقة أنّه ليس في الجزائر نيابة ونواب، ولا منتخبون ولا انتخاب، وأنّ حالتها في هذا الباب بعد مائة وعشرين سنة من استعمار فرنسا أمّ الدساتير وأمّ الشعوب، النيابية في العالم انتهت من حيث بدأ الباشا آغا عبد الله قائد الدّراويش شرق الأردن)³. وهذا ما دعاه للتأكيد مرة أخرى على أنّ الممثلين عن الشعب الجزائريّ الذين تأتي بهم صناديق الاقتراع، ما هم إلا (نواب نازلة عليها، لا يعرفونها إلاّ في أيام الانتخابات، أو لا يعرفونها قط، لأنّ الحكومة عرفتهم، فإذا حلت الكوارث

1. محمد البشير، الإبراهيمي: عيون البصائر، دار المعارف، مصر، 1963م، ص 395.

2. المرجع، ص ن.

3. م ن، ص 400.

بالأمة، أو فعلت الحكومة الأفاعيل بالأمة سكتوا، كأنّ الأمر لا يعينهم، ولأنّ الحكومة ما وضعتهم حيث هم إلا ليسكتوا¹.

رغم النظرة السوداء التي سادت ورائت على أعين الكثير من رواد الحركة الوطنية، ورغم حيل وألاعيب المحتلّ الذي إذا حاز الجزائريون بالمقاعد، أو كان ذلك قاب قوسين أو أدنى لجأ إلى رفض النتائج، أو عمل على التنسيق مع غلاة الكولون للحيلولة دون تمكين الجزائريين من دواليب الحكم. وهذا ما حدث أثناء فوز حزب الشعب الذي تحوّلت انتصاراته على مرشحي الإدارة الفرنسية عبر صناديق الاقتراع إلى هزيمة، حينما رفضت إدارة الاحتلال التعامل مع الفائزين، ولم تمكنهم من تأدية عملهم حسب القانون المعمول به. وكى لا تتكرّر مثل هذه النتائج في الانتخابات، اتّحد الكولون مع الإدارة الفرنسية (وعملوا بواسطة ممثليهم في حكومة باريس على استبدال الوالي العام في الجزائر السيد "إيف ساتينيو" بوزير التربية السابق السيد "إيدمون نايجلان" الاشتراكي المذهب، والذي جيء به خصيصاً لسدّ جميع الطرق وبكل الوسائل في وجه كافة التشكيلات السياسية والوطنية)².

رغم، ورغم ما حدث، إلا أنّ شخصيات جزائرية اقتحمت الميدان على الرغم من معارضة الإدارة الفرنسية، و (تم انتخاب الأمير خالد على التتابع نائباً مالياً، ثمّ مستشاراً عاماً، وتم انتخابه بأغلبية ساحقة ضدّ مرشحي الإدارة

1. المرجع السابق ن، ص ن

2. محمد العربي، الزبيري، تاريخ الجزائر المعاصر. دراسة . ج 1، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، سورية، 1999، ص166.

الفرنسيّة)¹. وكانت الصحافة الوطنية كثيرا ما ترفع من معنويات الفائزين، وتتوسّم فيهم الخير للجزائر فـ(مجلّدات الشّهاب الماضيّة سجلّ يحفظ اسم كلّ نائب وقف موقفا مشرفا يطلب حقّا، أو يدفع باطلا، فالشّهاب ينوّه بكلّ عامل، ويشيد بذكره دائما بلزوم المحافظة على شخصيّة الأمّة، وعدم التّساهل بشيء منها، والمصارحة في كلّ موقف بأنّها أمّة، لها لغتها ولها دينها... وإنّا لنغتبط كلّ الاغتباط أن نرى نواب الأمّة - إلا قليلا - قد أخذوا يشعرون بما عليهم من المسؤولية في الدّفاع عن الإسلام والعربيّة...)².

أسلفنا القول بأنّ الأديب محمد السعيد الزّاهري صاحب نزعة انتقادية، وأنّنا لا نكاد نعثر على مقال له إلا ونجد مسحة انتقادية تعلوها. فالى جانب انتقاد شخصيات أدبيّة كما جاء في مقال: طه حسين شعوبي ماكر³، هناك شخصيات في مجالات شتى تعرضت للمهاجمة كانتقاد توفيق المدني⁴ في مقالات نشرتها صحيفتي البرق والشّهاب، والرّاهب الكبير المعلم فريدمان رئيس الطّائفة اليهوديّة في الشّمال الإفريقي.

1. بسام العسلي: الأمير خالد الهاشمي الجزائري، والدفاع عن جزائر الإسلام، ط2، دار النفائس، بيروت، لبنان، 1984م، ص188.

2. عمار طالبي: آثار ابن باديس حياته وآثاره، جمع ودراسة، ج2، ط2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1983م.

3- ينظر المقال في ملحق هذا البحث

4- ينظر مقال بعنوان "آلآن" بجريدة البرق، ع 13، الاثنين 26 ذي القعدة 1345 هـ الموافق لـ 30 ماي 1927 م ص1.

كثيرة هي المقالات الانتقادية الزاهرية عن الدكتور ابن التهامي¹، المتزعم لجماعة النخبة ودعاة الإدماج مع فرنسا، والحزب الليبرالي، ورئيس تحرير جريدة التقدم²، ومن هذه المقالات التي صرح فيها الزاهري باسمه - ومنها التي أشار فيها إليه بأعمال وسلوك ابن التهامي - وعلى سبيل المثال لا الحصر التي فيها إشارة إلى ابن التهامي مقال بعنوان: العربية والنواب، احتضنته جريدة البرق عام 1927م، في عددها الثامن عشر. أظهر محمد السعيد الزاهري في هذا المقال - بقوة - البون الشاسع بين النواب العاميين الذين يحملون الشهادة العالية في مختلف الفنون والعلوم، ولكنهم (حصلوا على علومهم ومعارفهم بغير لغة قومهم، ويلسان غير لسان أمّتهم)³. أولئك - ومنهم الدكتور ابن التهامي - في نظر الزاهري، لا يمكن أن تعول الأمة على جهودهم، ولا تنتظر منهم أن يصفوا لها دواء عللها لأنهم (بمقدار ما برعوا في الفرنسية وخذقوا فيها كان نصيبهم من الجهل بالعربية والجهل بأحوال أمّتهم التي يدعون النيابة عنها، ويزعمون أنهم يتكلمون بلسانها، ويجلبون إليها النفع، ويدرأون عنها العذاب، فهم كثيرا ما يجتهدون - ومنهم المخلص وغير المخلص - أن يداووا هذه الأمة، ولكن سرعان ما يقعون في الخطأ، فيداوونها بغير دوائها، لأنهم لا يعرفون دوائها. ولا يبرأ داء يداوى بدواء لم يخلق له)⁴. وقد اتهم الزاهري الطبقة المثقفة بالتقافة

¹. طبيب وصحفي، من رجال السياية، ولد سنة 1897م، وتوفي عام 1937م، عرف بميوله المتفرجة، وزعامته لجماعة النخبة دعاة الاندماج مع فرنسا.

² - جريدة كانت تصدر في مدينة الجزائر 1923- 1931م، وهي جريدة نصف شهرية تعبر عن اتحاد الجمهوريين المسلمين الفرنسيين.

³. محمد السعيد الزاهري: (العربية والنواب)، البرق، ع 18، 1927م، ص 1.

⁴. المصدر نفسه، ص ن.

الفرنسيّة بالجهل والحمق، لأنّهم ببساطة يسعون بأعمالهم إلى الدّفع بالمجتمع الجزائريّ نحو الانسلاخ عن عروبتة وإسلامه) وليس هناك في النّواب أشدّ حمقا ممّن يطلب للجزائر أن تخلع جنسيتها، وأن تتفرّج كرها¹. وكان هؤلاء النّواب في تمثيلهم للجزائريين يسبحون ضدّ التّيّار. يريدون تحويل الأمتة إلى ما لا تريده بقوة العناد والجهل، وهم في ذلك كمن يطلب منها أن تخلع روحها لترتمي بين أحضان عدوّها، وأن تخرج مما بقي بأيديها من جنس ودين. إنّ الجهود المبذولة في مثل هذه الأعمال لا ثمار لها إلاّ الخيبة والإخفاق.

ويصل الزّاهري في خاتمة مقاله هذا إلى أنّ:

- إلقاء اللّوم على مثل هؤلاء النّواب خطأ كبير، بل اللّوم الحقيقيّ على (الأمتة التي انتخبتهم وهم غير أكفاء لأن يكونوا عنها في المجالس نوابا، ولها ممثّلين، وبلسانها ينطقون)².

- أرض الجزائر فقيرة من (الرجال أهل المقدرة واللياقة للنيابة عنّا، وليس لنوابنا - وهم غير أكفاء - أن يشغلوا أكثر من ربع مقاعد النيابة في سائر المجالس)³، لذلك على الجزائريين أن لا يعلّقوا على هذه النيابة أملا كبيرا.

- الرّأي الصواب هو) أنّي أرى أن نقطع أملنا من هذه النيابة الموجودة الآن، وأن نعرض عنها بكل ما لنا فيها من طمع ورجاء. إنّّه يجب أن

¹. المصدر السابق، ص ن.

². م ن، ص ن.

³. م ن، ص ن.

نمسك أصواتنا أيام الانتخاب، فلا ننتخب أحدا ما دامت هذه هي الحالة، لئلا تكون على الجزائر حجة بعد هذه النيابة الكاذبة)¹.

ويتضح موقف الزاهري من شخص ابن التهامي أكثر، إذا علمنا أن هذا الأخير - في نظر الزاهري - قد اختلف مع الأمير خالد حول كيفية الحصول على الجنسية الفرنسية، وأنه متهم بالسعي الحثيث على إبقاء عمر راسم في السجن، وبالعامل الدعوى لأجل تعطيل جريدة البرق.

كثيرا ما كان الزاهري يتخفي في مقالاته النقدية وراء أسماء مستعارة، اختارها بعناية تامة، منها: تابط شرا، الرائد رقيب، جساس، (وهذه الأسماء لم يختارها الزاهري لنفسه اعتباطا، إنما هي مقصودة لذاتها، ذلك لأن جل مقالاته في هذه الصحيفة - البرق - كانت مريرة ضاحكة وخاصة ضد الخرافات ورجال الطرق وغير المستقيمين)².

وهناك مقالة قصيرة جدا يبدو أن الزاهري كتبها بسرعة وعلى لسان أحد قراء جريدة البرق، وبإمضاء عتيد، يذكر فيها أن شابا جزائريا عسكريا في البحرية، أصيب بطلقة مدفع أثناء احتفال بعيد جان دارك، حسبته جريدة البرق شهيد العسكري، ولم تجد عائلة هذا الشهيد إعانة من أية جهة مسئولة، إلا جريدة "البرق" على صفحاتها أقامت دعوة للشعب الجزائري حتى يؤازر والدي الشهيد، وفي المقابل، وفي اليوم ذاته قُتل فرنسيان في حادث سقوط طائرة بالعاصمة

¹. المصدر السابق، ص ن.

². عبد السلام ضيف: محمد السعيد الزاهري كاتبا، بحث مقدم لنيل شهادة الماجستير في الأدب الحديث جامعة باتنة، الجزائر، 1993م - 1994م، ص 11.

(حسين داي) فهبّ الرّسميون من الأهالي وغير الأهالي لمؤازرة عائلتي الفقيدين وحضروا مراسم الدفن، ودعت بعد ذلك الصحف الفرنسيّة لإعانة أهالي المصابين. ومن وقائع الحادثتين المتشابهتين (شهيد العسكريّة، ومنكوبي مصيبة حسين داي) هاجم الزّاهري النّائب ابن التّهامي الذي انتخب للدّفاع عن الجزائريين، ووصفه بالمتحيز للمحتلّ الفرنسيّ لأنّه طالب في جلسة انعقدت في البلديّة خصيصاً لإعانة مصابي حسين داي وإعانة دار العميان غير الأهالي (أما مصطفى بن محمد الذي قتله طلقة مدفع عيد جان دارك فقد أهمل ونسي، حتّى من النّواب الأهالي الذين هم في حقيقة الأمر خدام الغير، ومحبو أنفسهم. أولئك هم الضالون)¹. ولما مالت جريدة البرق بهذه النزعة الوطنيّة لشهيد العسكريّة سعى أعداؤها إلى خلق مبررات واهية بغرض تعطيلها، فلقد عمد الدّكتور ابن التّهامي المتجنّس بالجنسيّة الفرنسيّة وصاحبه مورينو النّائب الفرنسيّ بالبرلمان آنذاك إلى رفع دعوى ضدها، بحجّة أنّها كانت تثير النزاعات بين الأفراد، وتخلّ بالنّظام والأمن العاميين في الجزائر، فما كان من السّلطات الاستعمارية إلا أن استجابت لهما، فأصدرت أمراً بتوقيفها². من هنا نفهم جيّداً أنّ الزّاهري كان لاذعاً في انتقاده للنّائب ابن التّهامي، مرّة باسمه الصّريح، ومرّة أخرى بأسماء مستعارة. ففي مقال له تحت عنوان: رأيت بعيني راح يتتبع عورات خصمه متحدّياً إياه) والدّكتور ابن التّهامي يزعم أنّ هذا المستشفى يقوم على رعاية الأطفال المسلمين وغير المسلمين، ونحن نطلب من الدّكتور إن كان صادقاً يخبرنا بعدد

¹. عتيد: (خدام العير)، البرق، ع 15، 1927م، ص 1.

². ينظر، محمد، ناصر: الصحف العربيّة الجزائريّة من 1847 إلى 1939م، مرجع سابق، ص 95.

أطفال المسلمين، أو بأسماء الموجودين هناك اليوم، أو قبل اليوم، فنكون له من الشاكرين)¹. ولم ينطلق الزاهري في كشف مزاعم خصمه من فراغ، بل من حصيلة زيارة ميدانية للمستشفى، وقف من خلالها عن كثب مستقصياً أخبارها التي كانت لغير صالح ابن التهامي، وهي أنّ العدد الإجمالي للأطفال الموجودين خمسين طفلاً بين ذكور وإناث، كلّهم من الأبناء الأوربيين، ليس فيهم وليد من المسلمين، ولم يدخل هذا المستشفى واحد منهم أبداً منذ نشأته. ولما سأل الزاهري عن سبب ذلك، أخبرته المسؤولة عن المستشفى بقولها: (بكل أسف أقول لك، إنّ قانون هذا المستشفى لا يبيح لأطفال المسلمين أن يدخلوا هذا المستشفى المخصوص لغير المسلمين)². وما الدافع وراء انتقال الزاهري إلى الميدان لمعرفة الخبر الصحيح إلا محاولة منه لإثبات عكس ما يدّعيه ويصرّح به النائب خصمه النائب الذي ادّعى بأنّه قد طلب أموالاً من الدولة لخدمة أطفال الأوربيين والجزائريين المسلمين على حدّ سواء.

لم تكن جرأة الأديب الزاهري في مثل هذه المقالات الانتقادية غير مؤسسة، أو بغير حقّ، أو حقداً على خصومه، بل كانت لتصوير الحقيقة كما هي دون أن تأخذه في ذلك لومة لائم، فقد ترجم للقارئ أعمال نواب الشعب وسلوكهم ومزاعمهم ومنهم الدكتور ابن التهامي ممن كانوا دُمى في يد المحتلّ الفرنسيّ) والحقّ أنّ الزاهري كان عنيفاً قاسياً جريء القلم واقعيه، يبتذي في أسلوبه حدّ

¹ - محمد السعيد الزاهري: (رأيت بعيني)، البرق، العدد 23، 1927م، ص 1.

² - م ن، ص ن

الإسفاف، وهو لا يتورّع عن نيل خصومه من كل ثغرة ولو ساقه ذلك إلى
المجون وفحش القول واتّهام الأعراض)¹.

وكتب الزاهري مقالا آخر مطوّلا في جريدة البرق عام 1927م، تبدو
من خلال عنوانه: الدكتور ابن التّهامي الصّراحة والجرأة التي تميّز بهما قلمه، مع
المنائين والخصوم، وربما إغلاظ القول والفضاضة والحدة في الردّ.

مقال الزاهري: الدكتور ابن التّهامي مقال سياسي، نظرا للمادة التي
شكّلته. فمفرداته وتراكيبه شاهدة على ذلك. فصريحها وموحيا تلوكها ألسنة
الساسة في جلساتهم وتصريحاتهم، مثل: المحكمة، الانتخاب، مكاتبنا السياسي،
العضو البلدي، المرشحين، التجنس، الصحافة، النيابة السورية...

ولم يكن المقال بالقصير ولا بالمفرط في الطول، تصدر الصفحة الثانية من
الجريدة من غير هيمنة عليها. تفوح منه رائحة التحدي والإلحاح في بسط القرائن
والحجج التي تدين الخصم فتفضحه أمام الرأي العام. لقد احتوى المقال على
مقدمة استعرض فيها الكاتب سلوك النائب ابن التّهامي حيال من يخاصمهم من
الناس بغير الحقّ، فيعتدى على أعراضهم وحرمتهم ويثير غضبهم، حتى إذا ما
إذا اضطروا إلى محاكمته، طلب منهم المقابل من أجل ألاّ يتعرّض لهم بالأذى،
لأنه صاحب منصب عال. إن الطمع نفسه كان وراء مخاصمة جريدة البرق
الزاهرية لدى المحكمة، حيث اتّهمها بإثارة الفوضى في البلاد، وتحريض الناس
ضد الجمهورية الفرنسية، وفي حسابانه أن القائمين عليها سيلجأون إلى دفع

¹ محمد، ناصر: المقالة الصحفية، نشأتها، تطورها، أعلامها من 1903 إلى 1931م، ص 131

الرّشّاوى ليؤمنوا استمرار الجريدة، غير أنّ جرأة الزّاهري في الردّ حالت دون تمكين ابن التّهامي من هذه الأموال، وقد جاء الردّ بشيء من السّخرية التي تميّز بها أسلوب الكاتب في مقاومته للاحتلال الفرنسيّ في كثير من مقالاته قال: (وأحسب أنّ كيسه لا يسع ما سيأخذه من (إرش) (دوماج). فليوسع الدّكتور كيسه، وليهيئ من الآن البنك الذي سيضع فيه ما سندفع إليه من (أرش) وغرامة. فإنّا مؤأخذوه لا محالة، ولسنا بتاركيه بحال من الأحوال)¹.

ثمّ تعرض الزّاهري في هذا المقال - بعد المقدّمة - إلى نقطتين بارزتين

هما :

- إعادة بعض ما كُتب من أخبار عن ابن التّهامي في جريدة البرق ليؤكّد للقراء صحّة ما جاء فيها من اتّهامات مثل: اتّهامه بالتّجنس، وعدم صحّة إدّعاءات هذا النّائب بجمع الأموال لصالح الفقراء من الأهالي، أو لجمعية الشّبيبة الجزائريّة. كما أنّ الجريدة أثبتت بأنّ عمر راسم رشّحته جماعة من الأحرار في تلك الانتخابات لمكانته العالية بين أفراد الشّعب الجزائري، ولسجله التّاريخي، وأعماله الكثيرة التي سجّلتها له الأيام في قائمة أسماء رجال العقول والأعمال، ذلك لكي ينافس مرشح الإدارة ابن التّهامي غير أنّ راسم كما قال الزّاهري (لم يشأ الأستاذ راسم أن ينوب عن أمته نيابة صوريّة، فرفض أن يرشّح نفسه قبل الانتخابات بيومين أو ثلاثة أيام)².

¹. البرق، عدد 18، الاثنين، 12 محرم 1346هـ، الموافق لـ 11 جويلية 1927م ص2.

². المصدر السابق، ص ن.

- إحصاء الأعمال المخزية التي سُجّلت على هذا النائب ابن التهامي، ومنها: دعوة الجزائريين إلى التّجنس، وهي المسألة التي يُعتبر الجزائريّ من خلالها - بموجب القانون - فرنسيا، لكنّه لا يتمتّع بنفس الحقوق المدنيّة والسياسية التي يتمتّع بها المواطن الفرنسيّ، وطبعا فموقف الجزائريين معروف منذ صدور القانون. والأحداث كثيرة بعد صدور هذا القانون تثبت ذلك ومنها: أن عريضة طبعت بقسنطينة في العاشر من جويلية عام 1887م ووقّع عليها ألف وسبعمائة شخصية جزائرية، وّجّهت باسم سكّان الجزائر إلى البرلمان الفرنسيّ ومجلس الشيوخ تشرح فيها الأسباب الحقيقيّة التي دفعتهم لمعارضة تجنّس الجزائريّ بالجنسيّة الفرنسيّة¹.

إن قضية تجنيس الجزائريين من المسائل المهمة في تاريخ الجزائر، والتي أدّى نقاشها على صفحات الجرائد إلى صراع مرير بين أعلام الطبقة المثقفة، وعلى رأسهم عمر راسم الممثل للجهة الرافضة بقوة، لقانون التّجنس، وابن التّهامي النائب الممثل للمدافعين عن هذا القانون، وقد أشار المقال إلى ذلك متّهما ابن التّهامي بالاجتهاد النّادر لتمكين القانون، وبالععمل (بكل ما يقدر على بقاء راسم بالسّجن، لأنّه كان عدوّه الأزرق في مسألة التّجنيد، ولأنّ الدكتور كان يحب للأستاذ راسم أن يبقى خاملا في زوايا النّسيان)².

². انظر، جمال قنان: نصوص سياسية جزائرية في القرن التاسع عشر 1830م - 1914م، ديوان

المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1993م، ص 197-205.

². محمد السعيد الزاهري: (الدكتور ابن التهامي)، البرق، ع 18، ص 1.

ومن أبرز الأعمال السلبية لابن التهامي المذكورة في المقال - وقد فضح بها الزاهري ما صدر من هذا النائب أمام الشعب الجزائري - تكالبه على تلك الشخصيات الوطنية العاملة بجدّ واجتهاد، في المجال الثقافي والسياسي، محاولة منهم إصلاح المجتمع الجزائري ومنهم: الحاج عمّار والقائد حمود وابن العربي، قال الزاهري (عقر ابن التهامي جميع رجال الأعمال واحدا واحدا)¹. ولم يكتف هذا النائب - حسب المقال - بالوقوف في وجه العاملين لصالح القضية الجزائرية بل تعدّى ذلك إلى محاربة الأمير خالد) وليس أحد حارب الأمير مثل ما حاربه ابن التهامي حتى نفاه وقطع أثره - فيما يزعم - وظنّ أنه أصبح بمكان الأمير خالد، وأن جريدته التّقدم أصبحت في صدق الدّفاع مثل جريدة الإقدام)².

كما جاء في مقالات الزاهري في جريدة البرق والتي تتحدث عن النائب ابن التهامي فإنها تدلّ على أن النائب ابن التهامي قد نافس الأمير خالد في الانتخابات وهُزم، الشيء الذي دفع بهذا النائب إلى اتهام خصومه بالشيوعية تارة، وبالتأمّر ضدّ مصالح فرنسا تارة أخرى. ومن تحركاته في ذلك أنه ذهب إلى باريس ليعرض شكواه ضدّ الأمير خالد ثم تابع حملاته في صحيفة حزبه. وممّا كتب ابن التهامي في هذا الشأن: (من المعروف أنه استنفر الجمهور علنا طالبا تدخّله الفوضوي، ومثيرا للتّعصب الإسلاميّ ضد سياسة الإدماج وضد الحصول

¹ - المصدر نفسه، ص ن.

² - المصدر السابق، ص ن.

على الجنسية الفرنسية، متّهما حاملها بالكفار أصحاب القبّعات الفرنسية البيرية)¹.

يصل الزاهري - بعد عرضه لما نشرته جريدة البرق في حق النائب ابن التّهامي والتّأكيد على أنّها أخبار صحيحة صادقة، ثم اتّهامه مباشرة دون غموض، وبجرأة وسخرية بأنّ هذا النائب خادم ومطيع للسياسة الفرنسية، وفي المقابل مضيع لحقوق الشعب الجزائري - إلى خاتمة أكّد من خلالها على النتائج التي جنتها الجزائر من أعمال هذا النائب. وهي:

- أن ابن التّهامي مرق من جماعة المسلمين، وتجنّس بغير جنسيتهم، وبدين غير دينهم وأنّه لا يقصد بسلوكه هذا إلاّ (أنّه يستقذرم ويحتقرهم ولا يحبّ لنفسه أن يبقى كأحدهم... وساخط على أبيه الذي ولده جزائرياً مسلماً، فلا يريد هو الآخر أن يلد أولاده مسلمين جزائريين)².

- أن الزاهري قد تملكه التّعجب، لأنّه بعد كل الذي فعله يدعي ابن التّهامي بأنّه قضى حياته في نفع الجزائر، وفي جلب الخير لأبنائها.

- أنّ الدكتور ابن التّهامي أعاد قانون الأديجينا والنّفي الإداري، وأنّه كان عضواً في المجلس الزجري الذي يحكم على الجزائريين بالنّفي والتّعذيب وبالأشغال الشاقّة، ولدى الزاهري من الوثائق التي تثبت صحّة ما يدّعيه. وبهذه الشّهادات

¹ - بسام العسلي: الأمير خالد الهاشمي الجزائري، والدفاع عن جزائر الإسلام، ط2، دار النفائس، بيروت، لبنان، 1984م، ص ص 117-118.

² محمد السعيد الزاهري: (الدكتور ابن التّهامي)، البرق، ع 18، 1927م، ص 1.

يكون هذا النائب قد قتل الأمة الجزائرية. وما يثير دهشة الزاهري هو إدعاء ابن التهامي بالتفاني في خدمة الشعب الجزائري وبداه لا تزال تقطر من دمهم.

تعليقات حول المقال

- إن المقال وثيقة سياسية هامة تثبت الصراع السياسي المرير الذي خاضته الطبقة المثقفة في الجزائر في عشرينيات القرن العشرين، وكذلك يبين حجم التهم والمكائد، ووعورة الطريق الذي سلكته هذه الطبقة من أجل الدفاع عن الوطن والدين واللغة.

- يتضمن المقال جلّ خصائص فنّ المقالة للعصر الحديث ومنها:

- وجود المقدمة والعرض والخاتمة.

- شيوع المفردات السهلة المفهومة التي لا يرجع القارئ في فهمها إلى القاموس.

- البعد عن الصور البيانية والبديع إلا ما كان عفويًا.

- شيوع الأسلوب المباشر المناسب لمثل هذه الموضوعات السياسية.

أولاً: تمهيد

سنتحدث في هذا الفصل الثاني: اللغة والأسلوب في فكر الأديب محمد السعيد الزاهري عن مواطن جماليات الكتابة عند الزاهري، ولتوضيح ذلك استحضرننا من نثره الفني مقالا بعنوان: (إني أرى في المنام) أوجع به أتباع الطريقة العميلة للمحتل الفرنسي في عشرينيات القرن العشرين، إلى جانب مقطوعات من قصائده. سنبين من خلالها مدى تشيع هذا الأديب إلى التراث القديم، ومدى نسجه على منواله، رغم بروز بعض الخصائص التي تدل على أنه كان من الرواد الذين جنحوا إلى السهولة والبساطة في الأسلوب بغية إبلاغ الفكرة للطبقة العريضة من الشعب الجزائري كما هي.

والمباحث التي ستشكل هذا الفصل ستكون تحت العناوين الآتية:

أ- الاقتباس والتضمين

ب - اللغة والأسلوب

ج - الصورة الأدبية



ثانياً: الاقتباس والتضمين

الاقتباس وسيلة مهمة جداً، ومن وسائل التعبير الفني العربي القديم، وهو أيضاً فنٌ بدعيٌّ يشير إلى ثقافة الأديب وقدرته على توظيف هذه الثقافة في كتاباته بصورة لا تدلّ على النشاز أو القلق.

(والاقتباس: تضمين النثر أو الشعر من القرآن أو الحديث الشريف من غير دلالة على أنه منهما، ويجوز أن يغير في الأثر المقتبس قليلاً)¹. وجلّ التعارف التي عثرنا عليها في أبحاث البلاغيين تصبّ تقريباً في معنى واحد؛ جاء في كتاب البلاغة الواضحة القول الآتي: (أما الاقتباس فهو أن يضمن الكلام شيئاً من القرآن أو الحديث لا على أنه منه)²، وهو التعريف نفسه الذي قال به القزويني في كتابه الإيضاح في علوم البلاغة، المعاني، البيان، البديع³، وكذلك المعنى نفسه لا يخرج عن تعريف الدكتور بدوي طبانة في كتابه معجم البلاغة العربية⁴

¹. علي، الجارم، مصطفى، أمين: البلاغة الواضحة، دار المعارف، مصر، 1964، ص270.

². عبد العالي الصعيدي: بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة، ج1، مكتبة الآداب، القاهرة، مصر، 1999، ص115.

³. ينظر، القزويني: الإيضاح في علوم البلاغة المعاني والبيان والبديع، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2003، ص312 وما يليها.

⁴. ينظر، بدوي طبانة: معجم البلاغة العربية، ط3، دار المنارة للنشر والتوزيع، جدة، دار الرفاعي للنشر والطباعة والتوزيع الرياض، السعودية، 1988م، ص519 وما يليها.

إذا، فتعريفات البلاغيين - في نظرنا - لا تخرج عن أن كلام الأديب يحتوي على مفردة أو جملة أو آية بكاملها للدلالة على ما يراد توصيله إلى السامع أو القارئ.

أما التّضمين فهو (من أقسام البلاغة عند الرّماني، وهو حصول معنى في الكلام من غير ذكر له باسم أو صفة هي عبارة عنه)¹. أو كما قال القزويني: (أن يضمن شعر الغير مع التّنبية عليه إن لم يكن مشهورا عند البلغاء)².

وانطلاقاً من أن الحركة الشعرية والنثرية في عصور الأدب العربي المختلفة متأثرة بالإعجاز البياني للقرآن الكريم - معاني ومباني - وأن القرآن كان سبيلاً إلى قلوب معظم الأدباء، وقام فيهم مقام النموذج الرفيع فإنّ الأديب محمد السعيد الزاهري أحد هؤلاء الأدباء في علاقته بالقرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، وقد تجلّى ذلك بوضوح في الكثير من إبداعاته الشعرية والنثرية، وربما يعود ذلك إلى أنّ الزاهري واحد من شعراء الجزائر الذين جاؤوا في فترة الاستعمار وسياسة التّجهيل بمفهوميه: تجفيف منابع التّعليم، وتسفيه العقول بإفساد الأخلاق التي مارسها على الشعب الجزائري، مع العلم أنّ الزاهري صرّح بأنّ الذي جعله في استمرار في أسلوب الكتابة هو القرآن الكريم، قال: (أما أنا فإنّ القرآن هو الذي كوّن لي فكرة مستقلة، وهو الذي ربّى فيّ ملكة التّمييز التي أُميّز بها بين الخبيث من الطّيب، والقبيح من الحسن، والباطل من الصّحيح. وأشهد أنّي كنت

¹. بدوي، طبانة: معجم البلاغة العربية، ط3، المرجع السابق، ص 354.

². القزويني: الإيضاح في علوم البلاغة المعاني البيان البديع، مرجع سابق، ص316.

أقرأ كتابا من كتب الأدب فيجذبني إليه، وأقرأ كتابا آخر ضدّ الأول في الفكرة والأسلوب فيجذبني إليه أيضا، وكنت أحسّ بعقلي يتذبذب بين الكتابين كالكرة التي تضطرب بين اللاعبين لا يستقرّ لها قرار، حتى رجعت إلى القرآن فثبتت عقلي بعدما كان يرجف، واستقلّ استقلالا تامّا، واتخذ سبيله في الأدب وغير الأدب واضحا مستقيما، وأصبح يحكم على الأشياء بعدما يعقلها ويفهمها فهما صحيحا لا ذبذبة فيها ولا اضطراب، وأصبحت أقرأ الكتاب من كتب الأدب فأعرف فيه الحقّ من الباطل، والزائف من الصواب، فأسلم له الرأي الصائب وأردّ عليه القول الزائف ولا أدع صاحب الكتاب يتكلم وحده)¹. وحينما أجاب الزاهري عن هذا السؤال الذي طرح عليه: ما هو الكتاب العربيّ الذي كان له أثر بليغ عميق في تكوين أدبك وشاعريتك؟ ردّ قائلا: (فقلت له: نعم إنّه كتاب ديني، وإنّه في لغة العرب معجزة الفصاحة وسحر البيان)².

هذا التصريح الواضح من الزاهري يدلّ دلالة تامّة على مصادر تكونه التي يشير إليها هو بنفسه والمتمثلة في النصوص الدينية الإسلامية على وجه الخصوص ثم في التراث الأدبي العربي القديم. وسنقوم بعرض مقال قصصي للزاهري بعنوان: (إني أرى في المنام) نرى أنه النموذج النثري الواضح الذي يعكس مدى تأثر الزاهري بالثقافة العربية الإسلامية عموما وبالقرآن الكريم على وجه الخصوص.

¹. محمد السعيد الزاهري: الإسلام في حاجة إلى دعاية وتبشير، ط2، دار الكتب، الجزائر، 1933،

ص72.

2. م ن، ص70.

نُشر مقال: (إني أرى في المنام)، في مجلة الرسالة القاهرية بالعدد 145 من يوم 21 محرم 1355هـ، ضمن ركن: صورة من المجتمع الجزائري، ويصنّف هذا ضمن فنّ المقال القصصي الاجتماعي الذي شاع نوعه في كتابات أدباء الحركة الوطنية في الجزائر بعد الحرب العالمية الأولى. (لقد عني الكتاب الجزائريون المقالون خلال هذه الفترة بالمواضيع الاجتماعية عناية كبيرة)¹. لذلك نجد مجلة الشهاب تعقد ركنًا خاصًا في كلّ شهر تحت عنوان: في المجتمع الجزائري، أطلق من خلاله الكثير من الأدباء موضوعاتهم الاجتماعية، وحاولوا تصوير مفاصل المجتمع وإصلاح العيوب وتطبيب الثغور.

ومن الأمراض الاجتماعية التي انتشرت بعد الحرب العالمية الأولى: الطريقة التي استخدمها الاستعمار كوسيلة لإخضاع الجزائريين لسلطته، وهي الموضوع ذاته الذي عالجه مقال الزاهري، وقد اتفق رواد الحركة الإصلاحية في الجزائر على أنّ معظم الطرق الصوفية ومنها الطريقة العليوية كانت كما رآها محمد البشير الإبراهيمي إذ هي (في صميم حقيقتها احتكار لاستغلال المواهب والقوى، واستعمار بمعناه العصري الواسع، واستعباد بأفصح صورته ومظاهره)²، وأنها كانت (السبب المباشر والأقوى في كثير مما حلّ بالعالم الإسلامي من الأرزاء والنكبات، وكثيرًا ما كانت مفتاحًا للاستعمار)³.

¹ . عبد الملك، مرتاض: فنون الأدب الأدبي في الجزائر، 1931م . 1954م، ديوان المطبوعات الجامعية، 1983م، ص 112.

² محمد البشير، الإبراهيمي: سجل مؤتمر جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، المطبعة الجزائرية، قسنطينة، الجزائر، 1935م، ص 34.

³ . المرجع السابق، ص 36.

ويعدّ السعيد الزاهري البطل الرئيس في حلبة صراع أدباء الحركة الإصلاحية مع الطرقية، وبخاصة الطريقة العليوية، وأن سنة 1927م، كانت (من أشدّ السنوات عنفا ومرارة على العليويين وأنصارهم)¹، كما يعدّ فن المقال عموما والقصصي خصوصا من أبرز الفنون الأدبية التي عالجت الحركة الإصلاحية من خلالها ظواهر اجتماعية كثيرة منها ظاهر تلاعب بعض شيوخ الطرق الصوفية بعقول أتباعهم من أجل كسب المال.

ويبدو أن أحسن مقال نال فيه الزاهري من الطريقة العليوية وشيخها أحمد بن عليوة هو الذي أشرنا إليه بعنوان: (إني أرى في المنام). وهو مثبت في ملحق هذا البحث.

مواطن الاقتباس والتضمين من القرآن الكريم في مقال: إني أرى في المنام

جاء مقال الزاهري: إني أرى في المنام، متقلا بالاقتباس من القرآن الكريم، حيث تضمن - رغم قصره - أكثر من خمسة وعشرين اقتباسا. ومن هذه الاقتباسات ما كان مباشرا وما كان إحياء، وأكثره كان إما: كلمة أو جملة .

حُبك هذا المقال القصصي بأسلوب شيق جذاب؛ ما إن يبدأ القارئ لا يمكن أن يدعه حتى يفرغ منه، وكما نرى فإن العنوان المقال (إني أرى في المنام) مقتبس من القرآن الكريم، وهو جزء من الآية الكريمة { فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا

² محمد ناصر المقالة الصحفية، المقالة الصحفية، نشأتها، تطورها، أعلامها من 1903 إلى 1931م،

ج1، ص129.

بُنِيَ إِيَّيَّيَّ أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ¹. وأرى هنا بمعنى رأيت. و مما يدلّ على أنّ الأديب الزاهري متشبع بالثقافة الإسلامية، وبالروح القرآنية تكراره لهذا الجزء من الآية سبع مرات، نثرها في مقاله القصصيّ من بدايته إلى نهايته بطريقة تسلسلية جذابة، تتمّ عن تمكّنه من ناصية اللّغة العربيّة وارتوائه من نبع القرآن الكريم.

والمتمعنّ في مقال الزاهري يتجلّى له بوضوح ومن القراءة الأولى تلك الاقتباسات من القرآن الكريم سواء عبارة كانت أو مفردة، وقد بلغ عددها تسعة وعشرين موطناً. وسنقف على أغلبها متبعين في ذلك تسلسل فقرات المقال.

بدأ الزاهري المقال مباشرة وفي السّطر الأوّل بقوله: (خرج من السّوق خائبا مكتئبا، ملامحه عليها غبرة ترهقها قتره). والجملة تحتوي على اقتباس مباشر من سورة عبس. قال تعالى: {وَوَجُوهُ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ}². استطاع الأديب أن ينقل القارئ بخياله إلى صورة أولئك الذين كفروا وفجروا في الدنيا وتغشى وجوههم يوم القيامة ظلمة وسواد، أو ذلّة، وهذا المعنى هو الذي أراد الأديب أن يجسّد به صورة ذلك الطّرقي الذي دأب على التّذبذب في تصوّره للدين وللحياة. وغير بعيد عن هذا الموطن قال الزاهري: (فوهن العظم منه واشتعل الرأس شيبا). والجملة جزء من آية في سورة مريم . قال الله تعالى: {قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا}³. وقد حصل التّغيير في

¹. سورة الصافات، آية 102.

². سورة عبس، آية 41، 40.

³. سورة مريم، آية 4.

تعبير الزاهري في "مَنِي" فأصبحت منه لتلائم المعنى، ونجد الحظّ قد حالف الزّاهري في تصوير هذا الطّرقى تصويراً دقيقاً مؤثراً، لتتجسّد صورته أمام القارئ بكل أجزاءها. فاشتعل الرأس شيباً أي انتشر الشّيب في الشّعْر كما تنتشر النار في الحطب. ويستمر الزّاهري في الاقتباس من القرآن الكريم قائلاً: (ويرسل في المدائن حاشرين). والجملة اقتباس مباشر وجزء من آيتين في سورة الشعراء، الآية في قوله تعالى: { فَأَرْسَلْ فِرْعَوْنَ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ }¹، والآية الثاني في قوله تعالى: { قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَبْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ }². والهدف من الإشارة إلى الآيتين هو تقريب صورة الطّرقى وهو بيتّ العيون هن وهناك لتترصد فتأتيه بأخبار الأفراح والأتراح، ويأتيه بالزّوار والمريدين للحصول على البركة والخير، تلك صورة في غاية الوضوح خاصة حينما أرفها بمعنى آخر يبيّن صورة "المريد"³ وهو يقدم على شيخه بقوله: "يرجون مغفرة". وهي جملة مقتبسة من قوله تعالى: { أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا }⁴. ولكي تتضح صورة هؤلاء المريدين وهم يؤدّون واجب الزيارة لكبيرهم شيخ الطريقة استخدم الزّاهري عبارة أخرى حاكي فيها قوله تعالى: { مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا }⁵. ولهذه الآية من سورة النساء شبه في السور التالية:

1. سورة الشعراء، آية 53.

2. سورة الشعراء، آية 36.

3. مصطلح يدل على مرتبة من مراتب أتباع الطريقة

4. سورة الإسراء، آية 57.

5. سورة النساء. آية 80.

النور، الأحزاب، الفتح. إن عبارة الزاهري: (من يطع الشيخ فقد أطاع الله)، غاية في السخرية والاستهزاء بهؤلاء الذين عطلوا عقولهم فذابت شخصيتهم، وأسلموا أرواحهم لمخلوق مثلهم جهلا، لأنهم ساووا في المرتبة بين الرسول وزعيمهم، ولأن في تصوّرهم كما قال الزاهري: (من أطاع الشيخ فلا جزاء له سوى جنّات عدن يدخلها خالدًا فيها)، وهي العبارة التي بين فيها الزاهري جزاء المطيع للشيخ قال: (فجزاؤهم عند ربهم جنّات عدن يدخلونها، وأن من خالفهم مأواهم النار وبئس المصير). وهي إشارة إلى الآية: {جَنّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ} ¹. وذكر جنّات عدن بالصفة التي أشار إليها الزاهري في مقاله مبثوث في الكثير من سور القرآن الكريم، وكلّها توحى بالاستقرار والراحة والإقامة الطيبة يوم القيامة حيث الأنهار والقصور ورضوان الله، وذلك دليل على أنّ الله قد قبل أعمال المؤمنين وعدّها صالحة. ومن هذه السور: التوبة، النحل، الكهف، طه، مريم، فاطر، ص ...

يعود الزاهري بعد ذلك ليصوّر حالة "المريد" مع شيخه حينما يراوده الشكّ حيناً ويلتحفه الخوف أحياناً أخرى، حينما يرى التناقض في أقوال وأفعال شيخه، ثم يعود الزاهري بمخيلة قارئه إلى صورة النبي موسى وهو بجانب الطور الأيمن حينما أمره الله بإلقاء العصا ثم أخذها. قال الزاهري: (فخشي أن يفلت من يديه ويولّي مدبراً). والعبارة إشارة إلى الآية {وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رآهَا تهتّز كأنّها جانٌّ ولىّ مدبراً ولم يعقب يا موسى أقبل ولا تخف إنّك من الأمنين} ².

¹. سورة الرعد، آية 23.

². سورة القصص، آية 31.

انتقل الزاهري من مشهد "المريد" المطيع و"شيخه" المحتال إلى تصوير حالة المرأة التي وقعت في شباك الشيخ وأرادت أن تدلي بدلوها في رؤيا رأتها في المنام، فأرسل لها الشيخ بتفسيرها، بقوله: (قالت: أضغاث أحلام). والجملة جزء من الآية: {قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالَمِينَ} ¹.

إن آثار سلوك شيوخ الطريقة وأتباعهم وخيمة على المجتمع الجزائري، وهذا ما جسّد في هذا المقال القصصي، ومن صورهِ أن الشيخ وأتباعه في عبارة الزاهري: (يفرقون بين المرء وزوجه). إشارة إلى الآية: {وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ} ².

إن الأمر يرجع كله إلى شيوخ الطريقة، فهم الذين يعقدون عقدة النكاح بين الأزواج، وهم الذين يتولون فسخه على مزاجهم، فالمجتمع الجزائري ابتلي بمثل هذا السلوك المشين للأفراد والهيئات. انظر إلى الزاهري كيف جسّد مثل هذه الأفعال فأحكم نسيج قصة شيخ الطريقة مع أتباعه الذين بدورهم ينسجون خيوط الحيل حتى يقع الناس ضحايا في أيديهم، فهذا هو الضحية يُطلق زوجته ثم بسرعة

¹. سورة يوسف، آية 44.

². سورة البقرة. 102.

فائقة يختار له الشيخ شريكة حياة ثانية تتاسبه، قال الزاهري: (وعقدوا له عليها من ليلته عقدة النكاح)، فالقول يتضمن كلمتان عقدة والنكاح وموطنهما في الآية { وَإِنْ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلَا تَنسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ }¹. أما المطلقة المسكينة التي حيل بينها وبين زوجها ظلما وعدوانا فقد: (تجرعت فيه طعاما ذا غصة وعذابا أليما) كما قال صاحب المقال. وهذه العبارة تشير إلى الآية: { وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا }². وقبلها أشار الزاهري إلى الآية: { هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا }³ بقوله: (هل أتى على المطلقة حين من الدهر...)

وهكذا نجد الكاتب يقتبس من القرآن الآيات لكلّ مشهد من مشاهد مقاله، ويذكر ما يناسب معانيه بأسلوب حكيم جميل. وانظر إليه كيف صور حالة المرأة التي طلقها زوجها من غير سبب. لقد فكرت مرارا في الانتحار بل (همت به مرارا لولا إبقاؤها على وحيدها...) فالانتحار لم يحدث بل كاد أن يقع، وهذا تعبير يشير إلى قوله تعالى: { وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ }⁴.

يستمر تدفق الاقتباس من القرآن الكريم في مقال "إني أرى في المنام" ليلبلغ مداه، فلا يكاد ينتصف المقال حتى تكثر زخاته. قال الزاهري واصفا تلك

1. سورة البقرة آية، 237.

2. سورة المزمل، آية 13.

3. سورة الإنسان، آية 1.

4. سورة يوسف، آية 24.

المطلقة التي لم تجد أمامها إلا الشيخ كحبل نجاة تتعلق به بعد أن خسرت أسرتها: (فقد أسلمت له وجهها وفوضت أمرها إلى الشيخ...) وهذه عبارة مقتبسة من قوله تعالى: { بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ }¹، ثم من قوله: { وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا }²، وكذلك من قوله: { فَسَتَذَكَّرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأَفُوضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ }³.

إن ملاطفة شيخ الطريقة للرجل الذي طلق امرأته من غير إرادة ثم أراد إرجاعها بغير إرادته أيضا، عبر عنه الزاهري بلفظة: وطفق، وهي اقتباس مفردة من الآية: { فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتَ لهُمَا سَوَاتُهُمَا وَطَفَقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى }⁴.

وفي مشهد آخر يجسد الزاهري تلك الأحاديث التي تدور بين النساء في أماكن تجمعهن خاصة في الحمام، وهي أحاديث تعود عادة على المجتمع بالسوء، أو ضررها أكبر من نفعها، يقتبس ألفاظا وجملا قرآنية في غاية الوضوح والدقة؛ قائلا: "وَأَنَّ النِّسَاءَ فِي الحَمَامَاتِ وَالوَلَائِمِ وَالْمَنَاحَاتِ يَسْلُقْنَ أَهْلَهُ بِأَسْنَةِ حَدَادٍ..." وهي إشارة إلى الآية: { أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ

1. سورة البقرة، آية 112.

2. سورة النساء، آية 125.

3. سورة غافر، آية 44.

4. سورة طه، آية 121.

بِأَسْنَةِ حَدَادٍ أَشْحَةً عَلَى الْخَيْرِ أَوْلَيْكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا¹.

وكما رأينا الزاهري في مقدمة المقال وعرضه يقتبس من القرآن مفردات وجملا كذلك فعل في خاتمته، التي لم تقتصر فيها الاقتباسات من القرآن دون الجمل. لقد كشف من خلال تلك حالة شيوخ الطريقة حينما تضرب الأزمة بسياطها ظهر الشعب الجزائري فيحجم عن مدّ شيوخهم بالمال الوفير لأنهم كما يقول الزاهري: (ضاق عليهم الأرض بما رحبت...) وبذلك ضاعت على الشيوخ عيشة هنيئة: (يأتيه رزقه رغدا من كل مكان...) هاتان عبارتان اقتبسهما الكاتب من القرآن الكريم. فالأولى من قوله تعالى يصف حالة المؤمنين يوم حنين {لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ²، أو الآية { وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ³، أما العبارة الثانية فتشير إلى الآية { وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعَمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ⁴

1. سورة الأحزاب، آية 19.

2. سورة التوبة آية 25.

3. سورة التوبة، آية 118.

4. سورة النحل، آية 112.

ثالثا

اللغة والأسلوب

من المصطلحات الشائعة في النقد الأدبي الحديث مصطلح التشكيل في الشعر، وقد شغل هذا المصطلح الكثير من النقاد، ومعناه هو: (الأدوات التي يتألف منها المعمار الأدبي)¹، ولا يخرج هذا المعنى عن مفهومه في النقد القديم، إذ هو المعنى والمبنى، أو الشكل والمضمون وكل ما ارتبط بهما (وللتشكيل في القصيدة الحديثة وجهان: أحدهما خارجي والآخر داخلي، فالتشكيل الخارجي يعني بناء القصيدة بناء متلائم الأجزاء ... أما التشكيل الداخلي فعناصره متنوعة وعديدة، أبرزها عنصر الصورة والموسيقى)².

وفي هذا الجزء من هذا البحث نودّ التعرف على أبرز عناصر التشكيل الشعري عند الشاعر الزاهري، وهو اللغة والأسلوب، والصورة الشعرية.

أ_ اللغة

الطابع التقليدي

استطاع الزاهري بفضل تكوينه العربي الإسلامي من خلال دراسته بمدرسة ابن باديس في الجزائر، وتكوينه في معهد الزيتونة بتونس، أن يملك ناصية اللغة

¹. عبد العزيز، المقالح: الشعر بين الرؤيا والتشكيل، ط2، دار طالاس، للدراسات والنشر، دمشق، سوريا، 1985م، ص193.

². إبراهيم، الحاوي: حركة النقد الحديث المعاصر في الشعر العربي، ط1، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، 1984م، ص90.

العربية، ويروّض قوافيها. لذلك يعدّ اتجاهه الأدبيّ هو اللّغة البيانيّة القديمة، ومن الشعراء الجزائريين القلائل الذين استثمروا التّراث الأدبيّ للعرب القدامى، واقتدوا به في أساليبه البيانيّة.

والمتتبع لقصائد الزّاهري يلاحظ بوضوح ارتباطها بالمعجم اللّغوي للشّعري العربيّ القديم، وإن كانت الموضوعات التي طرقها حديثة. ومن أمثلتها التي تشبه معجم القصيدة القديمة بكل خصائصها الفنيّة، قوله في قصيدة بعنوان: وما الناس إلا اثنان¹

تهشّ لنا الدّنيا فنرضى وتقطب	فنغضب، والأيّام ترضى وتغضب
كذلك شأن الدّهر مرّ مذاقه	لقوم، وقد يجلو لقوم ويعذب
كأنّ الوري والدّهر بحر صروفه	قوارب تطفو تــــارة ترسب
وما الناس إلا اثنان، هذا منعم	وذاك على جمــــر الشّقا يتقلّب .

وإذا تأملت قليلا في المقطوعة أدركت أنّ مفرداتها متداولة في العديد من قصائد شعراء العرب القدامى، مثل: الوري، صروفه، يتقلّب، مذاقه، تغضب، يعذب... وإلى جانب ذلك نجد لهذه المفردات ميزة القدرة على التّصوير وذلك عن طريق المعنى المجازي الذي تحمله، مثلا في قوله: والأيّام ترضى وتغضب. حيث شبّه الأيّام بالإنسان، ومن طبيعته الرّضى والغضب، وحذف المشبه به الذي هو الإنسان، ودلّ عليه بالفعلين ترضى وتغضب، على سبيل الاستعارة المكنية.

¹ - محمد السعيد، الزاهري: شعراء الجزائر في العصر الحاضر، ج1، ط1، ص89.

أما من طرق تحسين الكلام فقد جاء التصريح في البيت الأول على عادة الشعراء الأوائل، والجناس بين كلمتي غضب وتغضب، وطباق الإيجاب بين كلمتي: ترضى وتغضب، ومر وحلو، تطفو وترسب. بالإضافة إلى كل هذا جزالة اللفظ وقوته، مثل: جمر الشقا، وتهش، وتقطب، ويعذب...

أما من ملامح تقليدية الأدب العربي القديم عند محمد السعيد الزاهري طريقة الاستهلال في قصائده التي قلّد بها الأوائل من فحول الشعراء، حيث استخدم التصريح في معظم قصائده المثبتة في ملحق البحث، وقد أشرنا إليه بما يكفي فيما سبق.

إنّ ملامح تقليد الزاهري للتراث العربي تقليده للشعراء في بعض المعاني، سواء كانوا شعراء من العصور القديمة أو شعراء من العصر الحديث أصحاب الانتماء التقليدي. ونقتصر هنا على تقليده للشعراء التقليديين في عصر النهضة ومنهم حافظ إبراهيم

قال الزاهري:

فما لساع مبصر في جهاده يحصل من مسعاه ما بات يرقب¹
يرقب¹

وهو قريب من قول حافظ إبراهيم:

ربّ ساع مبصر في شعبه أخطأ التوفيق فيما طلبا

¹ - المصدر السابق، ص 91.

وقال الزاهري:

إذا جرى صرف الحادثات إلى العلا فأهلا بصرف الحادثات ومرحبا¹

وهو يشيه معنى البيت الذي قاله حافظ إبراهيم

مرحبا بالخطب يبـلـونـي إذا كانت العلياء فيه السـبـبا

أما عن أهم ظاهرة من الظواهر اللغوية عند محمد السعيد الزاهري وهي من المنبع القرآني الذي يمدّه بالتضمينات في شكل تحويلي إلى جمل قرآنية ذات دلالات عميقة أحيانا، فقد كانت في شكل ألفاظ بعيدة عن مفهوم التضمين المتعارف عليه عند البلاغيين، وقد رأينا هذا المظهر في نثره أكثر منه في شعره.

ونستنتج هنا أن الزاهري يجهد نفسه في الاعتناء في أدبه شعرا ونثرا بالقاموس القديم مثل غيره من شعراء الحركة الإصلاحية بغية إحياء اللغة العربية التي حاول المحتل الفرنسي مند أن وطئت قدماه أرض الجزائر وأدها، لهذا كانت (العناية بالقاموس القديم من طرف محمد العيد وباقي شعراء الإصلاح ومنهم الزاهري عملية مقصودة، وهي شكل من أشكال المقاومة، نظرا لما أصاب اللغة العربية من تدمير على يد المستعمر)².

1- المصدر السابق، ص 77.

2- إبراهيم، لقان: ملامح المقاومة في شعر محمد العيد آل خليفة، دراسة فنية، رسالة ماجستير، (لم تنشر) كلية الآداب واللغات، جامعة منتوري، قسنطينة، الجزائر، 2006، 2007م، ص 146.

إنّ اللّغة العربيّة في رأي هؤلاء الأدباء خط أحمر لا يمكن تخطيه (فشعراء الإصلاح باعتبارهم رجال علم وفكر ديني إصلاحي رأوا أنّ في اللّغة أمرا مقدسا، لأنّها لغة القرآن. فالتّجديد فيها

أو الخروج عن مقاييس القدماء أو الثّورة على قوالبها يعدّ خروجاً على المقدّسات)¹.

إنّ المرحلة التي عاشها الزّاهري مرحلة بعث، لاقى فيها كغيره من شعراء المرحلة الكثير من المحن المتعلّقة بمصير الهويّة، ممّا أدّى إلى التّمسك بقوة بكل ما يشده إلى تراثه العربي، ويذكره بأجداده فكان (الأسلوب التّقليديّ بلغته الفصحى، لغة القرآن ولغة بني العرب، كما في ذاته ظاهرة قوميّة اتّسمت بالإجلال والتّقديس، فلم يكن من الممكن أن يصدر عن الشعراء أيّ نزوع جادّ نحو قطع الصّلة أو إضعافها بذلك التّراث العريق في مثل هذه المرحلة من حياة العرب)²

السّهولة والبساطة

كما أنّ مستويات النّاس تختلف من الصّغير إلى الكبير، ومن الذّكي إلى متوسط الذكاء، فإنّ اللّغة الموجهة إليهم هي الأخرى مستويات، وإنّ (الفئة التي يتوجّه إليها الموضوع تفرض على الشّاعر أن يختار لموضوعه هذا لغة تجعله

¹ - عمر، بوقرورة: الغربة والحنين في الشّعر الجزائري الحديث 1962، 1945م، منشورات جامعة باتنة، الجزائر، دت، ص195.

² - عمر، الدقاق: الاتجاه القومي في الشعر العربي، ط3، جامعة حلب، سوريا، 1990م، ص 52.

مفهوما، لأنه إذا كان المفكر يريد لأفكاره أن تصل إلى الآخرين، فلا بد أن يضع هؤلاء الآخرين باعتباره وهو يصوغ أفكاره)¹. وهكذا كان دأب أدباء الحركة الوطنية في الجزائر لفهمهم الدور الذي يقدمونه من خلال اللغة التي يوظفونها. فهذا الشاعر رمضان حمود يقول: (لا يسمّى الشاعر شاعرا عندي إلا إذا خاطب الناس باللغة التي يفهمونها، بحيث تنزل على قلوبهم نزول ندى الصباح على الزهرة الباسقة، لا أن يكلمونا في القرن العشرين بلغة امرئ القيس، وطرفة، والمهلهل الجاهليين الغابرين)².

وإيماننا منه برسالة الأدب في معالجة قضايا الأمة والوطن انتقى الأديب محمد السعيد الزاهري مفردات في غالبها بعيدة عن التعقيد حتى تكون اللغة سهلة بسيطة، والمعاني ميسورة المأخذ، والصورة قريبة المنال، والجمل سهلة التراكيب المرتبة العناصر، فالغالب لدى قارئ أدب الزاهري لا يحتاج إلى قاموس لغوي يفهم من خلاله ما يريد خاصة في النثر. لكن هذه السهولة لم تكن حائلا دون جمال العبارة، وقوة التأثير، وربما يكفينا في هذا المجال اعتراف عبد الحميد بن باديس في قول له عن الأسلوب الأدبي للزاهري: (عرفناه شاعر الجزائر الشيخ السعيد الزاهري شاعرا خنديزا، و عرفناه كاتبا رحب البيان بليغا، و عرفناه في هذا الكتاب "الإسلام في حاجة إلى دعاية وتبشير" داعية إسلاميا كبيرا، وقد خاض مسألة الحجاب والمرأة الجزائرية، ومسألة الإسلام والتغرب، والشبيبة المتعلمة فأبان الحقائق وأقام من الحجج ما لا يلقاه أشدّ الخصوم - إذا أنصف - إلا بالإكبار والتسليم،

³. محمد، دكروب: الأدب الجديد والثورة، ط3، دار الفرابي، بيروت، لبنان، 1990م، ص52.

¹. رمضان حمود: بذور الحياة، طبعة تونس، 1928، ص125.

وساق ذلك كله في أسلوب من البلاغة الشبيه بالروائي، سهل جذاب لا تستطيع إذا تناولت أوله أن تتركه قبل أن تأتي على آخره¹. وربما لا تكون ميزة السهولة البساطة قاصرة على نثر أديب دون نثر أديب آخر في ظل الحركة الإصلاحية في الجزائر؛ إذ أن هذه السمة تطبع الأعمال الفنية لجل هؤلاء الأديباء كما قال محمد ناصر: (والذي يلاحظ في لغة الشعراء الإصلاحيين هو ما تمتاز به من بساطة ويسر وسهولة، ومرد ذلك يعود فيما نحسب من أسباب منها: أن الشعراء الإصلاحيين بحكم رؤيتهم التقليدية للغة لم يحاولوا أن يتعاملوا مع اللغة تعاملًا غير عادي باستخدام الرمز)².

وسنقتطف فيما يأتي بعض الأبيات الدالة على السهولة واليسر لدى الزاهري من قصيدته "الجزائر تحيي الجزائر". قال:

ألا في سبيل الله حلّي وترحالي ومسعاي في العلياء والشرف العالي
فإن نلت ما أبغي فذاك وإن مت فكم مات من المنى قبل أمثالي
أرجو أن يبقى الزمان مساعدي ومن طبعه أن لا يدوم على حال
إذا أنا مغتر بأن لا يخونني إذا كنت منه في حظوظ وإقبال³

² محمد السعيد، الزاهري: الإسلام في حاجة إلى دعاية وتبشير، مقدمة الطبعة الثانية، دار الكتب، الجزائر، 1933، ص 9.

² محمد، ناصر: الشعر الجزائري، اتجاهاته وخصائصه الفنية، 1925-1975م، ص 287.

³ محمد السعيد الزاهري: شعراء الجزائر في العصر الحاضر، ج1، مصدر سابق، ص 68.

وإذا تأملنا المقطوعة السابقة وجدنا ألفاظها سهلة ميسرة، وبعيدة عن الغرابة والغموض، بل لا تحتاج إلى قاموس لغوي يفك معاني مفرداتها، وحتى جملها لم يستعمل فيها الشاعر التقديم والتأخير ولا الصور البيانية المجنحة، ولا الرمز الغريب. كل ذلك حتى لا يحول دون فهم المعنى. وهذا ما يدعونا إلى القول بأن شاعر تلك المرحلة كان يتصور حقيقة المجتمع في ذهنه قبل أن يقول قصيدته. إذ أن مجتمع تلك الفترة (بسيط ساذج، ولعل فيه التلاميذ الصغار، والكهول الذين لا يقرأون ولا يكتبون، والشيوخ الذين ليس لهم حظ من العلم إلا حفظ القرآن وبعض الأحاديث والتمتون القديمة)¹.

نصل إلى أن: أسلوب الزاهري خاصة في نثره هو أسلوب أدبي يتلاءم ومستوى المواطن البسيط، والعامل المضطهد الفقير والمناضل في السر والعلن من أجل قضية وطنه المحتل.

ظاهرة الألفاظ

هنالك أكثر من قضية حول ألفاظ الأديب محمد السعيد الزاهري وهي أنه وظف ألفاظا بذيئة كما وظف ألفاظا فرنسية.

أ- الألفاظ البذيئة

إن كثرة استخدام الزاهري للألفاظ البذيئة في كتاباته النثرية - خاصة تلك التي قاوم من خلالها الطريقة الصوفية المسماة بالطريقة العليوية والمنتمين

¹. أبو القاسم، سعد الله: محمد العيد آل خليفة رائد الشعر الجزائري في العصر الحديث، مرجع سابق،

إليها من وشيوخ ومريدين - شكّلت ظاهرة بارزة وملفتة للانتباه، ومن أبرز إبداعاته في ذلك ما جاء في ركنه قوارص.

القوارص

القوارص ركن هام التزم به الزاهري - تقريبا - في كل عدد من أعداد ثاني جريدة له وهي "البرق"، الصادرة عام 1927م، حيث وردت أكثر من سبعة عشر مرة، ويزيد عدد هذه القوارص في كل عدد عن قارصتين أو أكثر. كتبت كلّها باسم مستعار هو تأبط شرا، وكان الزاهري يتخفى وراء هذا الاسم المستعار لأسباب منها كما ذكر هو نفسه في معرض الملائنة التي دارت بين المصلحين وأتباع الطريقة من المتقفين قائلًا: (ذلك أنك لا تقرّ مقالا من مقالاتهم إلا وتجد صاحبه لا يستحي، ولا يحتشم أن يضع إمضاءه الصريح تحت ذلك المقال البذيء الفاحش. على خلاف جماعة الشباب، فالكاتب منهم يربأ بنفسه، ويعف أن يضع إمضاءه الصريح على مقال فيه إقذاع اضطره إلى كتابته الدفاع عن أعراض المؤمنين وعن شرف المصلحين)¹.

إنّ مجمل محتوى هذه القوارص يعالج السلوك المخزي الصادر عن شيوخ الطريقة وأتباعها، الذين يعتبرهم الإصلاحيون آفة ابتليت بهم الجزائر في معقد بقائها، لذلك رأوا أن محاربة مثل هذا الفكر الطرقي من أولى الأولويات، وهذا ما

¹ - (بيان للناس)، البرق، عدد 13، 26 ذي القعدة 1345هـ. الموافق لـ 30 ماي 1927 م، ص 2.

دفع بالشباب الناهض من مثل الطيب العقبي والسعيد الزاهري والبشير الإبراهيمي إلى أن يجردوا أقلامهم لمحاربة هذا الفكر فترة من الزمن. لكن أسلوب التصدي لذلك كان يختلف من أديب إلى آخر ومن فن إلى آخر؛ فمنهم من أبدع في ذلك شعرا ومنهم من كان فن المقال أنسب إليه من الشعر وهكذا.

أما السعيد الزاهري فقد أوجع شيوخ الطريقة وأتباعها بفننين نثرين هما: المقال القصصي، وفن الحكاية إذا صحت التسمية في ركن القوارص.

كتب الزاهري جلّ قوارصه المؤلمة للطريقة بالمستوى نفسه من الألفاظ؛ حدة وقسوة وعنفا كما أنها احتوت على كلمات بذئية، فاحشة وماجنة، وقد أشار محمد ناصر بقوله إلى ذلك بقوله: (فإن الزاهري لا يتورع عن استعمال الألفاظ الماجنة والعبارات المسفّة)¹. ثم أضاف قائلا: (والحق أن الزاهري كان عنيفا قاسيا جريء القلم واقعيه. يبتدي في أسلوبه أحيانا إلى حد الإسفاف، وهو لا يتورع عن نيل خصومه من كل ثغرة ولو ساقه ذلك إلى المجون وفحش القول واتّهام الأعراض. وإن جبين الحياء ليتصبّب عرقا من بعض قوارصه)².

وسيرى القارئ حقيقة تلك المفردات من هذه القوارص التي تحمل العناوين

الآتية:

البلاغ والتقويم الجزائريان

¹ - محمد، ناصر: المقالة الصحفية. نشأتها - تطورها - أعلامها - من 1903 إلى 1931، ج1، مرجع سابق، ص 196.

² - المرجع نفسه، ص 131.

باش عدل عليوي

الإسلام والعلماء

العليوي

أمجوسي هو؟

أيها الفلتاء المتشردون

بالرفاء والبنين

غلام أمرد

الخلوة

فسوق البلاغ

الديك الأبخر

أين اللص الأبخر؟

قاضيان في النار...

وبعد أن نثبت ثلاث قوارص سنحدد تلك

المفردات البذيئة التي كثر استعمالها في كل قارصة.

قارصة البلاغ والتقويم الجزائريان¹

قال الزاهري:

(إن كنت تعرف القيء الممجوج ، وتعرف فضلة الإنسان، فهما شيئان
قذران ليس في الدنيا أقدر منهما غير البلاغ الجزائري والتقويم الجزائري العام،
وليس أدل على ما أقول مثل أن أضع بين يدي القاريء نتفة من جريدة البلاغ
... ونتفة أخرى من التقويم. فأما البلاغ فإنه قالك: (فض الله فاه) " ... حتى
سمح القدر بكم مع شحه (..) بوجود أمثالكم على أمثالنا ... " جاءت هذه
الكلمة في افتتاحية العدد 12 موجهة إلى الوالي العام ، والقارئ يعلم ما في هذه
الكلمة من الكفر والجهل ، والإلحاد الأعمى ، لأن فيها نسبة من الشيخ إلى قدر
الله (تعالى الله علوا كبيرا عما يقولوه الأغواث الكافرون والأقطاب الكافرون)
وجاء في هذه المقالة نفسها ما نصه : ... ولا ينسى جنابكم أن أمة الجزائر
استودعت حكومة فرنسا دينها (!) ودنياها .. وهاهي اليوم لا تملك لنفسها ضرا
ولا نفعا ، تراها تستمطر أنواع الرحمات من سماء حكومتها (..) فإن نزل عليها
من الغيث القدر الذي فيه روح الاطمئنان على ... (!) البقية الباقية من دينها
فهو سبب حلوكم (..) بين ظهرانيتها (!) ... " ولا ريب أن هذا الكلام كلام
غوث ، يعتقدون سمو الوالي إنما هو إله لا حاكم أو أنه آنية حل فيها الله،
تعالى الله عما يقوله المتصوفون المشركون، ثم قال البلاغ الكافر الجاهل: " إلا
إذا كانت الحكومة بمنزلة إبراهيم الخليل (!) (ص) والأمة الجزائرية بمنزلة

¹ . تأبط شرا: (البلاغ والتقويم الجزائريان)، البرق، عدد 17، 3، رمضان 1345هـ، الموافق لـ 21 مارس

1927 م، ص 2.

إسماعيل (ص) إذ قال له: (يا بني إني أرى في المنام ...) وإنك لا تكاد تجد في جريدة البلاغ جملة مركبة تركيباً صحيحاً، أو كلمة مستعملة في موضعها فهو مملوء بمثل قوله: " وعلى فرض تكون ... " وقوله: (.. فمن يكن أفحش قولاً من صاحبه ياترى؟؟) من إضافة الاسم إلى الفعل ومن الجزم بمن الاستفهامية، وغير ذلك مما لا يحصى ولولا أنني أشفق على القارئ أن يتعجله القيء من وسخ البلاغ لأوردت له شيئاً كثيراً من جهل البلاغيين وأغلاظهم اللغوية والنحوية والصرفية والأدبية والدينية والصحافية .

وأما التقويم الجزائري العام فإنه جاء فيه ما نصه: " ... إن كاتبنا بتاريخ 8 رجب 23 جانفي الفارطين إلى طائفة ممن شهروا بالكتابة والتفقه بجزائرننا (!) ثم شفعتهم (!) بمثلهم (!) لما أحسست (!) بتثيبتهم لنا في 3 شعبان - لأن - المؤمن غر كريم ...منهم اثنان بتونس أحدهما جزائري أيضا واقترحت على كل بما اشتهر به من الاختصاص العلمي ... " ثم استمر يسب الكتاب والعلماء بغير حق، يسبهم لأنهم لم يعينوا مجرماً جانياً على اللغة العربية التي هم ساعون في إحيائها، ولم ينصروا حيواناً ناطقاً يجهل كل شيء على هدم الأدب الجزائري الذي هم مجدون في بنائه ورفع مناره. وما كان هذا التقويم ليطلع لولا السيد الحمار التونسي اعتنى بنشره ظناً منه أن الجزائريين سيسارعون إلى هذا التقويم ويتهاكون عليه، والجزائريون أرفع من أن يشتروا هذا العار لأنفسهم، وما من جزائري إلا وهو يقول للبلاغ .. والتقويم احسأ ، فإن عليكما لعنة الأدب والعربية إلى يوم الدين).

ومن المفردات البذيئة:

- القيء الممجوج.

- فضلة الإنسان.

- الحمار التونسي.

قارصة العليوي الخاسر¹

(الشاب السيد محمد العيد بن عبد الباري الشريف التونسي مؤلف كتاب "الشهائد والفتاوي" قضى سبع سنين في الخلوة العليوية حتى أعطاه بن عليوة "إجازة" بخط يده يقول فيها: إن بني هذا (يعني محمد العيد) ولي من أولياء الله الكبار وهو خليفتي في الأرض بعد غيابي ومماتي ، وقد أعطيته التصريف في كل هذا الكون ، ومكنته اليوم من ذلك كله ، أنا مدينة الولاية وسيدي محمد العيد بابها، أنا بمثابة "الله" وسيدي محمد العيد بمثابة "جبريل" وهو صفوة أصحابي كلهم، ومن أراد أن ينال مني سرا من الأسرار أوفيضها من الفيوضيات فعليه بسيدي محمد العيد فإنه هو أنا وأنا هو . ومن لم يطعه فإني أسلبه. وهكذا أخذ يصف العليوي خريجه هذا بأوصاف الألوهية ، ولكنه بعد ذلك بقليل أصبح هذا الخاصة العليوي يعلن في الناس أنه لا إله إلا الفرنك وما الدين والمروءة إلا وهم فقط .

1- تأبط شرا: (إمام عليوي)، البرق عدد 21، الاثنين 3 صفر الخير 1346هـ، الموافق لـ 1 أوت 1927م، ص3.

وقد علم عنه حتى العليويون أنه دائما يخاصر ساقطة ويمشي معها في
عاصمة الجزائر في النهار المبصر. وكم مرة بات بها في الزاوية العليوية التي
هو المتصرف عليها وخليفة "الله" فيها (..) وكان إذا غلب عليه الحال يقول:

وسكرة مع بنت وسط "زاوية" أشهى إلي من الدنيا وما فيها

أبيت في "خلوتي" أحسو المدام وهـ ذي "المدامة" أحسو لريق من فيها

فهاات لي الخمر يا "حمار زاوية" تسكن من الجنة العليا أعاليها

و"حمار الزاوية" لقب من ألقاب الشرف في نظرهم، أطلقوه على غليظ
سمين (هوري) فارغ القلب فارغ الجيب ، ويدعونه أيضا (خديم الزاوية) .

هكذا يقضي ليلة في زاوية ، أما النهار فيقضيه في مخمرة ومحشاشة ،
وهو متأبط تلك الساقطة لا يدعها تفارق ذراعيه . هذا هو مؤلف كتاب "الشهاد
والفتاوي" الذي عاد اليوم يقول : هذه الساقطة أفضل عند الله من بني عليوة ،
وعاد يلعن بن عليوة لعنا كبيرا بما ننزه عنه قلمنا .

هذا هو السلوك وهذا هو التصوف "!!! وهذه هي الولاية وهذا هو الصلاح
. وهذا هو الوصول إلى الله . وهذه هي الدلالة على الله . (!)

والمفردات البديئة التي تجرح شعور شيوخ الطريقة هي:

حمار الزاوية

الساقطة

سكرة مع ساقطة

سمين هوري

قارصة: صدقت ...¹

(اليوم فقط صدقت البلاغ فيما منت به علينا من أن إدارتها مملوءة
بالقاذورات والفضلات ، وأنها لم ترسل علينا من ذلك إلا بريح منتنة فقط ...)

لعل لفظة الفضلات والقاذورات الريح المنتنة الفاظ ممقوتة

الشيوخ الكلاب .؟²

(بلغنا أن كلبين من كلاب بن الحملاوي خرجا في هذا المصيف يطوفان
على الإخوان ويدوران لجمع الزيارات. وكان مهما دخلا حيا من الأحياء ودوارا
من الدواوير إلا استقبلتهما الطريقون الحملاويون بكل حفاوة وإكرام، وأحسنوا
ضيافتهما، وبالغوا في رفع منزلتهما. وخضعوا لهما خالصا لهما.)

لفظة الكلاب شديدة الوقع على سمع شيخ الطريقة أحمد بن عليوة وأتباعه ...

وهكذا دأب الزاهري يعلق على سلوك شيوخ الطريقة العليوية في قارصته

عدس أيها الفلتاء المتشردون¹

¹ - تأبط شرا: (صدقت)، البرق عدد 21 . الاثنين 3 صفر الخير 1346 هـ . الموافق لـ 1 أوت 1927 م . ص 3 .

² - تأبط شرا: (الشيوخ الكلاب)، البرق عدد 22 . الاثنين 10 صفر الخير 1346 هـ . الموافق لـ 08 أوت 1927 م . ص 3 .

ومن أَلْفَظْهَا البذِيئة

- رأس أقرع

- يسيل دما وقيحا

- إست

- البواسير حتى تفقأت بالرطوبات والصدید

- لينقيه من الدود وبصفيه من العفونات

- لقيط متشرد

- بغال بني عداس

وكما نرى فإن هذه المفردات جميعها توحى بشدة إلى الإنقاص من قيمة
الطريقين، والسخرية منهم ومن السلوك المقيت لأتباعهم.

ب - المفردات العامية والفرنسية

والقوارص أيضا مزرعة للمفردات الفرنسية، وقد عنون بعض قوارصه بألفاظ

فرنسية مثل:

القارصة المعنونة بـ (كوناكرونس) وهي مفردة باللغة الفرنسية، وتعني

المنافسة.

وتحتوي قارصة (ضبة الجزيري) لفظة (البيكير) ومعناها بالعربية الإبر.

¹. تأبط شرا: (عدس... أيها الفلتاء المتشردون) المصدر السابق، ص ن.

وفي قارصة باش عدل عليوي جاءت لفظة لاتاي لتدل على مشروب الشاي.

وفي قارصة (احتجاج) وظف لفظة (كوميسارية) ومعناها دار الشرطة.

وفي قارصة (زيارة جديدة) لفظة (كادوات) ومعناها الهدايا.

ولو تتبعنا كتابات الزاهري في غير هذا الركن لوجدناه يوظف المفردات العامية والفرنسية في المقال السياسي والأدبي والاجتماعي وخير مثال على ذلك ما جاء في مقال: (إني أرى في المنام)، وفي مقاله أيضا (الأدب والعلم في الجزائر). وفي رأينا توظيف هذه الألفاظ كان عفويا. وهي سمة من سمات اللغة الزاهرية.

هذا جزء مما وظّفه السعيد الزاهري من الألفاظ إما مفردة عربية عامية أو مفردة فرنسية أراد من خلالها النزول بمستوى لغته إلى الإنسان العادي، رغبة منه في تعميم الفائدة التي هي عموما تتضمن مقاومة المحتلّ وأذنابه من طرفيين، ونواب المصالح، وشخصيات معادية للوطن.

ب - الأسلوب

حاول الكثير من النقاد الغربيين والعرب تحديد مفهوم الأسلوب، واتفقوا في أحايين كثيرة. فمن الغربيين من قال: إنَّ (الأسلوب هو الرجل ذاته)¹، ومنهم

¹. هوجو، منتين: (الأسلوب والأسلوبية) ترجمة عبد اللطيف عبد الحليم، مجلة الفيصل، عدد 109، السعودية، مارس أبريل 1986، ص 41.

من رأى أنّ الأسلوب هو (الطريقة التي تتمّ من خلالها تعابير الكاتب عن أفكاره؛ أي كيفية التشكيل اللغوي الذي أنجزه الكاتب أفكاره ورواه)¹. أمّا نظرة نقاد وشعراء العرب، فيرون أنّ الأسلوب (يمكن تعرّفه بأنّه اختيار أو انتقاء يقوم به المنشئ لسمات لغوية معيّنة بغرض التعبير عن موقف معين، ويدلّ هذا الاختيار والانتقاء على إثارة المنشئ وتفضيله لهذه السمات على سمات أخرى بديلة)². أمّا حسين عارف وآخرون، فيعتبرون أنّ الأسلوب هو (طريقة التعبير وخصائصه)³. ومهما أكثرنا هنا من أقوال الأدباء والشعراء والنقاد من العرب أو الغرب فإنّ الجامع بينها قد يكون: الأسلوب إطار يصبّ فيه الشاعر أو الكاتب أفكاره، وهو قضية خصوصية لأنّ لكلّ شاعر أو كاتب أسلوبه الخاص وميزاته التي يتمييز بها، سواء في المفردة أو غيرها، وهو ثلاثة أنواع: أسلوب علمي وخطابي وأدبي.

إنّ الدّارس لشعر ونثر الزّاهري قد يقف على الخصائص الآتية:

أ. المباشرة والتقريبية

الشعر فنّ جميل، يعتمد على أدوات فنية كثيرة، منها الرّمز، والموسيقى، والصورة الشعرية. وإذا رجعنا إلى شعر الزّاهري فإننا نجده لا يخلو من هذه الأدوات

¹ نور الدين، السد: الأسلوبية تحليل الخطاب، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، 1979م، الجزائر، ص 29.

² سعد، مصلوح: الأسلوب دراسة لغوية إحصائية، عالم الكتب، القاهرة، مصر، دت، ص 37، 38.

³ حسين، محمود عارف، ومحمد، حسيب علي: دراسات في النص الأدبي - العصر الحديث، ط 4، دار الوفاء للطباعة والنشر، الإسكندرية، مصر، ص 8.

التي تستمدّ منها القصيدة قيمتها، لكن الطّابع العام والمهيمن الوصف، والتّشخيص للواقع المرّ الذي كان الشّاعر يعمل على تغييره، ومن ثمّة فإنّ المواضيع الاجتماعيّة والسياسيّة التي كانت محلّ اهتمام الشّاعر، فرضت عليه أحيانا التقريرية والمباشرة. (ومن هنا نرى أنّ هذا الأسلوب يصبح جزءا أساسيا من الموضوع، بل هو العامل الحاسم هنا، سواء في وصول الموضوع إلى الجماهير أم في طمس هذا الموضوع أو قتله، إذا صيغ بلغة لا تفهمها الفئة الموجهة إليها)¹. وهذا القول يفسّر لنا دعوة رمضان حمود إلى الشعراء (أن يتنازلوا إلى مخاطبة الطبقة الوسطى والسفلى من الأمة؛ أي العامة التي هي هيكل الشعوب، ومرجعها الوحيد عند المدلهمات، ويقتدوا بشعراء فرنسا وأدبائها الكبار إبان إنفجار الثورة الكبرى)².

ويكفي للدلالة على هذه الخاصية في شعر الزّاهري أن نورد جزءا من قصيدته: (الجزائر تحيي المتطوعين). قال:

يحلقّ أناس كالصقور الكواسر ويبقى أناس تحت دق الحوافر
فسبحان قسام الحظوظ فإنّه لا قدر بالأشياء من كل قادر
توفر حظ الناس في العلم والهدى وما زال منقوصا نصيب الجزائر
فيا ليتها تحظى من العلم بالذي يردّ عليها ما مضى من مفاخر

¹. ينظر، محمد، دكروب: الأدب والثورة، ط3، دار الفرابي، بيروت لبنان، 1990م، ص52.

². رمضان، حمود: بذور الحياة، ص56.

وما فات من مجد وعزّ أوائل وكان من فضل وطيب مآثر¹

من خلال هذه الأبيات يمكن القول بأنّ الوضوح علامة بارزة في شعر الزاهري، وكما نلاحظ فالأبيات تشتمل على تشبيه ومقابلة في الشطر الأول من البيت الأول، واستعارة في البيت الأخير، ويتراوح أسلوبها بين الأسلوب الإنشائي والأسلوب الخبري.

ب - شيوخ النبرة الخطابية

إنّ المقصود بالنبرة الخطابية هو أنّ أسلوب القصيدة قد تخالطه خصائص وسمات من الخطابة، أو قد تسيطر عليه عناصر توحى بذلك، مثل طابع الوضوح الذي يهيمن على القصيدة، واستعمال أحرف التنبيه، والمزاوجة بين الأسلوب الإنشائي والخبري، حيث يكثر الاستفهام والنداء والتضمين من القرآن الكريم، والحديث النبوي الشريف. وهذه من السمات التي تجلّت لنا بوضوح ونحن ندرس قصائد الشاعر الزاهري. ولتوضيح ذلك نسوق هذا النموذج من قصيدة له بعنوان: (الشعر الفحل) وهي مثبتة في ملحق البحث

قال الزاهري:

يا أمة ضحكت عليـــــــ
ها الناس من بيض وسود
ضحكوا من الجهل الذي
غرقته به ومن الجمود
همدت من القرون عدّة
فإلى متى هذا الجمود

¹ - محمد السعيد الزاهري: شعراء الجزائر في العصر الحاضر، ج1، ط1، مصدر سابق، ص72.

يا قومنا سار الورى نحو العلا السير الوخيد
كسروا قيودهم ولم تزل الجزائر في قيود
لا تطمعوا أن ترتقوا والجهل خفاق البنود
فعليناكم أولادكم لا تتركوا وهم كالقروود

ثم يقول:

يا قومنا تفتح المدا رس للهدى سبب وحييد
ربوا بها الأولاد كي نسمو على العدد العدييد
ففسى يعوود الودهر يخدمنا وتخدمنا السعود
هذي لعمري حاجتي إن نلتها فأنا السعيد¹

حين قراءتنا لأبيات هذه القصيدة لا نشعر إلا ونحن أما خطيب أو داعية وليس شاعر، بل يفرق بين قصيدته والخطبة في مسجد من المساجد إلا الوزن والقافية الملتزمة فقط.

إن الألفاظ الموظفة في هذه القصيدة والتي تكررت أحيانا مثل: ضحكت، يا قوم، قيود، الجزائر، لا تطمعوا، فعليكم أولادكم، هذه الجهالة.. هي

¹ - المصدر السابق، ص 85.

ألفاظ لا محالة تتاسب خطب الوعظ والإرشاد التي كان الشعب الجزائري في حاجة ماسة إلى سماعها في تلك الفترة. وربما يعود السبب في انتشار ظاهرة النبرة الخطابية في شعر الزاهري وغيره من شعراء تلك الفترة هي مواجهة المرحلة التاريخية الصعبة التي مرّ بها الشعب الجزائري عموماً، والشاعر خصوصاً، والتي فرضت عليه أن يخوضها بجدارة، ويسمع صوته الجماهير الشعبوية دون أن يميز بين فئة وأخرى .

أما من حيث مستوى قصائد الزاهري وغيره من الشعراء فقد سلم من الانحطاط الفكري، والضعف في التأليف، والأخطاء في الإعراب ومن خلل في الوزن، كما خلا من الوصف الذي أطلقه رمضان حمود على شعر فترة العشرينيات من القرن التاسع عشر. قال: (نعم إنك لا ترى في هذه السنين الأخيرة إلا مخمّساً ومشطراً ومعارضاً ومحتدياً ومادحاً ومعتزلاً ومسمطاً أو غير ذلك)¹.

3- الصورة الأدبية

جاء في لسان العرب لابن منظور أن الصورة هي (حقيقة الشيء، وهيئته، وعلى معنى صفته. يقال: صورة الفعل كذا وكذا، أي هيأته، وصورة الأمر كذا وكذا أي صفته)². أما في المعجم الفلسفي لجميل صليبا فهي تعني في جانبها المادي المحسوس ذلك (الشكل الهندسي المؤلف من الأبعاد التي تتحدّد بها

¹. رمضان، حمود بن سليمان: بذور الحياة، تونس، ص 105.

² - ابن منظور: لسان العرب، ج 4، مادة (ص و ر)، ص 473.

نهايات الأجسام، كصورة الشمع المفرغ في قالب فهي شكله الهندسي...تدلّ على الأوضاع الملحوظة في هذه الأجسام، كالاستدارة والاستقامة والاعوجاج)¹.

وجاء في القرآن الكريم { فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ }². أما الصورة في مفهومها الفني الخاص كنسق تعبيريّ مشحون بالانفعال والخيال، فهي تمثل روح الشعر الذي تكون به حياته وحيويته، وهي قديمة وجدت منذ وجد الشعر (وليست الصورة شيئاً جديداً، فإنّ الشعر قائم على الصورة منذ أن وُجد حتى اليوم)³. غير أنّ هناك جدلاً كبيراً بين الفلاسفة واللغويين والبلاغيين حول مفهوم الصورة ومصادرها ودورها وأنواعها البلاغية، مع العلم أنّ النقد العربي القديم قد تناول الصورة الشعرية ضمن دراسته لأنواع البلاغية، كالتشبيه والاستعارة والكناية وسائر أضرب المجاز، ولم تكن الصورة الشعرية مصطلحاً نقدياً كما هو الشأن في العصر الحديث.

يقول أحمد كمال زكي (الصورة على ما نعرف هي لبّ الشعر، ومناطق قدرة الشاعر الفنية، وما يصحبها من عرض وتوتر قد يكون ضرباً من التفكير الواعي، أو شيئاً يقتضيه الموقف، ولا سيّما إذا كان موضوعياً ولم يكن عجبياً، من أجل ذلك يلجأ الشعراء المصورّون القدامى من أمثال أبي تمام إلى الحكمة الشعرية من حيث كونها تلخيص لموقف أو تجميعاً لمغزى مجموعة من

¹ - جميل صليبا: المعجم الفلسفي بالألفاظ العربية الفرنسية الانجليزية، مجلد 1، دار الكتاب اللبناني،

بيروت، لبنان، 1978م، ص 741.

² - سورة الانفطار، آية 8.

³ - إحسان عباس: فن الشعر، دار الشروق، عمان، الأردن، ط 4، 1987م، ص 230.

الصّور)¹. ويقول عبد القادر قط (الصّورة الشعريّة هي الشّكل الفنّي الذي تتّخذهُ الألفاظ والعبارات بعد أن ينظّمها الشّاعر في سياق بيانيّ خاص، ليعبر عن جانب من جوانب التّجربة الشعريّة الكاملة في القصيدة، مستخدماً طاقات اللّغة، وإمكاناتها في الدّلالة والتركيب والإيقاع والحقيقة والمجاز والترادف والتضاد والمقابلة والتجانس، وتميزها من وسائل التّعبير الفنّي، ويرسم بها الصّورة الشعريّة)². ويرى غنيمي هلال أنّ صورة الأسلوب الفنّي هي (الصّور الجزئية التي ينقل بها الكاتب أفكاره، ويصيغ بها خياله، فيما يسوق من عبارات وجمل)³.

ومن التّعريفات السّابقة يتّضح أنّ هناك صعوبة في إيجاد مفهوم محدّد للصّورة الفنّيّة لدى النّقاد، وربما يعود ذلك إلى تعدّد المناهج النّقديّة، والاتجاهات الأدبيّة، وتفاوت في المنطلقات الفكرية والفلسفيّة التي تصدر عنها هذه المناهج.

والشّيء الذي نلاحظه هنا هو أنّ أغلب شعر شعراء الجزائر لفترة الاحتلال ظلّ بعيداً عن هذه المفاهيم النّقديّة. ويرجع النّقاد ذلك إلى عدّة عوامل، منها:

1. أحمد كمال، زكي: النقد الأدبي الحديث أصوله واتجاهاته، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1983م، ص 182، 183.

2. عبد القادر، القط: الاتجاه الوجداني في الشعر المعاصر، دار النهضة العربيّة، بيروت، لبنان، 1978م، ص 174.

3. محمد غنيمي هلال: الأدب المقارن، دار العودة، بيروت، لبنان، 1983م، ص 182، 183.

أنّ ثقافة أغلب الشعراء الجزائريين كانت عربية خالصة، تستمد جذورها من التراث القديم، ومن المدرسة الإحيائية في المشرق (ولم تطعم بالإطلاع على الآداب الأجنبية، ولم تُثر بالتجارب العالمية الغنية بخيالها وصورها)¹. والسبب الآخر هو أن أغلب الشعراء الجزائريين في تلك الفترة نشأوا في بيئة صحراوية انعكس صفاؤها وبساطتها على نفوسهم، فجاءت الصور تبعا لذلك، متميزة بالوضوح والمباشرة .

ولعلّ في النموذج الآتي مصداق شاهد على ما ذهبنا إليه. قال الزاهري في قصيدته (الجزائر تحيي الجزائر)²

لنا نشء شمّ بعيد مرادهم	ستدريهم الأشبال في زي أطفال
فأهال بهم نشأ جديدا ومرحبا	بمن اتخذوا الأفلاك مسحب أذيال
فيا وطني إن كنت من قبل ذا عنا	ومالك من صروف الحوادث من وال
فها قد أتاك اليوم عصر مذهب	وها قد أتتك اليوم أيام إقبال
وإن كنت يا شعب الجزائر ذا ضنا	فها أنت تدنو من شفاء وإبلال
ويا وطني إن كنت قد عضك الأسى	قديما، فسوف تغتدي ناعم البال
سيكفيك فتيان الجزائر ما به	شقيت زمانا من ذهول وإهمال

حتى يصل إلى:

¹. محمد، ناصر: الشعر الجزائري الحديث اتجاهاته وخصائصه الفنية، مرجع سابق، ص 267.

². محمد السعيد الزاهري: شعراء الجزائر في العصر الحاضر، ج 1، ص ص 71، 72.

شباب ذو وجد مكان جدودهم ليرقوا بك العلياء والمنزل العالي

وما المرء إلا من يسود بنفسه فيبقى مع الأيام ذكرى أجيال.¹

احتوت القصيدة السالفة على مجموعة من مجموعة استعارات تكاملت وتضافرت صورها الجزئية من أجل تكوين الصورة العامة، وذلك من خلال الجمل التالية: عصر مذهب، أنتك الأيام، فأنت تدنو من شفاء، عضك الأسى...

وكلها استعارات تكشف عن تفاعل الشاعر مع الواقع الذي يعيشه، ومع الأمل في تحرر الوطن من قيود المحتل. فالزاهري من خلال الأبيات يبني قاعدة ذهبيّة، وهي أنّ النّشء هو الجيل الذي يأتي النّصر على يديه، وهو العنصر المعوّل عليه في مثل هذه الظروف الحالكة، فيبقى أمل الجزائر في الخروج من سيطرة المحتلّ في عزيمة وقوة النّشء، وكان الشاعر قد وجد الحلّ لمشكلة الجزائر الذي طال البحث عنه، وتعب النّاس في التّفكير فيه أزمنة كثيرة.

لقد جسّد الشاعر الوطن، وصوره معلولا، وهو في حاجة ماسّة إلى علاج ليتعافى بعد أزمنة، ويتمثّل للشفاء على أيد النّشء الجديد، وبالتالي فقد جاء هذا الوطن عصر مذهب وأقبلت عليه أيام سعيدة .

فالزاهري كما نرى يعتمد على الاستعارات في تكوين صورته وتشكيلها وتلوينها باللون الذي يريد، فهي تعبّر عن مشاعره المتدفّقة اتّجاه وطنه الأسير، وتعبّر عن هيامه بمستقبل زاهر تصنعه أيادي جديدة للنّشء الجديد.

¹ - المصدر السابق، ص 71.

انتشرت في قصائد الزاهري - رغم قلتها - هذه الصورة الشعرية بشكل واضح وفي مواضيع شتى، فكما تحدث عن النشء ثم عقد عليه الأمل في التّخلص من المحتلّ، أثنى على خصال رجل مجاهد ومقاوم أفنى حياته في سبيل وطنه، هو البطل الأمير خالد، حيث ودّعه يوم أن نفي إلى الإسكندرية بقصيدة شبّه فيها بالبدر والهامام، وبالعارف والعزيز وخير مرشد.

خاتمة

حقاً إنّ الأديب الجزائريّ الذي أرادَه المحتلّ منضوباً تحت سماء الأحزاب السياسية يدافع عنها بكلّ قوّة ويفني ساعات حياته من أجلها، أثبت للعالم العربيّ والاسلاميّ بكلّ شجاعة أنّه منحاز - بوعي منه - إلى قضايا وطنه الكبير، وإلى صالح القضية الأمّ (وهي الجزائر آنذاك) وهي الدّفاع عن شعار يجمع بين المواطن العاديّ والمتقفّ الواعي والسياسي البارز ويخدمهم جميعاً وهو: الجزائر وطن الجميع؛ لغته العربيّة ودينه الاسلام.

ومن بين هؤلاء الأدباء محمد السعيد الزاهري أحد الأعضاء النشطين في الحركة الإصلاحية والوطنية، وعلى رأسها جمعية العلماء المسلمين الجزائريين والذين كانت فصول هذه الدراسة حول أدبه وفكره النقدي.

إنّ أهمّ النتائج التي توصل إليها هذا البحث الموسوم بـ (الإبداع الأدبي والفكر النقدي عند محمد السعيد الزاهري) تتلخّص فيما يأتي:

- للزاهري مكانته المرموقة بين أدباء الأمة العربيّة، استحسنت كتاباته شخصيات أدبية عربيّة ذائعة الصيت منها: محب الدين الخطيب وابن باديس. وهي شهادات يندر أن نجد لها لأحد أعلام الأدب الجزائري في ذلك الوقت.

- يعدّ الزاهري أحد أركان المدرسة المحافظة في الجزائر، نهج طريق الأقدمين، دون أن ينسى تطوّر عصره في أسلوب كتاباته، وقد تجلّت أهمّ مظاهر ذلك في

المحافظة على الموروث القديم، والالتزام بمبادئه، ومن ناحية أخرى يعتبر من المخلصين للنثر الجزائري الحديث من الصنعة اللفظية وطغيان البديع.

- تميّز أسلوب الزاهري بالجرأة في طرح الأفكار والتعبير عنها، وفي معالجة قضايا الوطن السياسية منها والاجتماعية، حيث انتقد وواجه المحتل والطريقة، واختلف مع رموز الحركة الإصلاحية، وهو ما جرّ عليه متاعب كثيرة انتهت بمقتله.

- يعد فقدان السعيد الزاهري في بدايات الثورة بوصفه أدبيا ومفكرا لامعا خسارة للأدب والفكر والوطن.

- بالإضافة إلى الإبداع الأدبي والنقدي للزاهري فإن له نشاطا آخر مميز يتمثل في الصحف؛ فقد أنجز عددا من العناوين الصحفية المهمة منها: الجزائر والبرق والوفاق.

- إنّ الأديب الزاهري من أبرز الشخصيات الأدبية التي تصدّت للغزو الثقافي الفرنسي في الجزائر.

- تُعتبر شخصية الزاهري مثيرة للجدل حيث لم تستقرّ على سكة واحدة؛ لقد عرفته الجزائر في البداية مدافعا عن الحركة الإصلاحية، ثم ما لبث أن أصبح من المعارضين لها.

- كان الزاهري كثير الترحال - خاصة بين المدن الجزائرية - حيث وقّع كتاباته من تونس والجزائر العاصمة والأغواط وقسنطينة ووهران وتلمسان التي عاش فيها كثيرا وكتب جلّ مقالاته بها.

- الزاهري واحد من الأدباء الجزائريين الذين تميّزوا في كتاباتهم بظاهرة الخروج من المحليّة إلى العالميّة، إلى جانب كونه - كذلك - ظاهرة فكرية سياسية ونقدية.

- آثار الزاهري الأدبية كثيرة ومتنوّعة المضامين ومنتشرة في الصحف والمجلات داخل الوطن وخارجه، وهو ما حاولنا جمعه ودراسته في هذه الأطروحة، وأملنا الكبير في استكمال ما فاتنا جمعه في هذه الأطروحة لكي يصل إلى القراء والنقاد والدارسين ضمن التراث الجزائري.

الملاحق والفهارس

أولاً: تمهيد

إنّ الحديث عن كتابات محمد السعيد الزاهري واسع جداً ويحتاج إلى جهد كبير، وسنخصّص هذا القسم من البحث لأهمّ كتاباته سواء في الشعر أو في النثر، على أنّ للزاهري جهوداً لا نستطيع إدراجها في هذا الملحق، وهي مجموعة الصحف التي أسّسها، وبدلاً من ذلك سنختار نصوصاً نراها مهمّة من الشعر والنثر والفكر النقدي.

أمّا الفهارس فهناك فهرس المصادر والمراجع، وهناك ملخصات الأطروحة بلغات ثلاث. وفي الأخير فإنّ هناك فهرس محتويات الأطروحة.

ثانياً: الملحق

أ. ملحق القصائد الشعرية

ب. ملحق النصوص النثرية

ثالثاً: الفهارس

1. المصادر والمراجع

2. ملخصات الأطروحة

3. محتويات الأطروحة

ثانيا: الملاحق

أ- تمهيد:

رأينا من المفيد جداً أن يُشفع هذا البحث المتواضع بملحق يضم آثار الأديب محمد السعيد الزاهري الشعرية والنثرية، فقمنا بجمع ما تيسر من شعره ونثره الموجود في الجرائد والمجلات التي كان هذا الأديب يتابع أخبارها ويرسل إليها بإبداعاته. وهي مجلات ذات شهرة كبيرة في العالم العربي آنذاك، تنوعت مجالاتها حيناً، وتباعدت أفكارها حيناً آخر، بل كانت صفحاتها ساحة صراع بين تيارات فكرية متعددة في أغلب الأحيان. ومنها: النهضة التونسية، والرسالة المصرية، والشهاب الجزائري.

لا ندعي أننا استطعنا جمع كل آثار الزاهري في هذا الملحق، وإنما قمنا بتثبيت أغلبها خاصة تلك التي لم تكن في متناول أيدي الباحثين.

وتجنبنا للتكرار فإننا استبعدنا تلك الكتابات التي ضمها ملحق رسالة الماجستير التي تقدمنا بها عام 2007م - 2008م، بمعهد الآداب جامعة قسنطينة، الجزائر، والموسومة بأدب المقاومة عند محمد السعيد الزاهري من خلال جريدة البرق - دراسة إحصائية فنية -

ونعترف أننا لم نبذل جهداً في البحث عن إبداعات هذا الأديب الشعرية والنثرية التي نشرتها بعض صحف الحركة الإصلاحية مثل جريدة الإصلاح والوفاق، لذلك سيفتقر ملحق البحث هذا من الأعمال الأدبية التي ضمتها تلك الصحف.

وهذا الكلام ينطبق أيضاً على ما نُشر بأعداد جريدة النهضة التونسية، غير أن مصدر مقال الزاهري الذي أوردناه في القسم الثاني عند دراستنا للفكر

النقدي عند الزاهري والمثبت في ملحق هذا البحث مصدره هو: ملحق رسالة **عبد السلام ضيف** التي تقدّم بها لنيل شهادة الماجستير خلال عام 1993م - 1994م بجامعة باتنة، الجزائر، وقد أوردناه كما هو. ومع ذلك فنحن مدينون له بجهده في الحصول على ذلك المقال المهم، ونريد أن نؤكد هنا على أن بالنّا لن يهدأ قبل أن نتمكن نحن أو يتمكن غيرنا من جمع كل آثار هذا الأديب المفكر؛ لأن تلك الآثار لهذا الأديب، إنما هي - كما هو الحال مع آثار معظم ذلك الجيل قبل الاستقلال - تراث جزائري يحمل نضال الجزائر وكفاحها الوطني في فترة من أصعب فترات تاريخ الجزائر الثقافي الحضاري.

وأريد أن أنوه هنا بتوجيه المشرف (الأستاذ الدكتور محمد العيد تاورته) في الحرص الشديد على جمع هذه الآثار إلى درجة أنه تردد في إجازة هذه الأطروحة دون جمع مجمل آثار محمد السعيد الزاهري، فله مني خالص الشكر والاحترام، وإني - إن شاء الله - سأتابع السعي حثيثا في الاتجاه الذي أوصى به المشرف من أجل إخراج آثار السعيد الزاهري كاملة في مستقبل الأيام، ولذلك بادرنّا لما توصلنا إليه من النصوص الشعرية والنثرية وإثباته في ملحق هذه الأطروحة.



ب - ملحق القصائد الشعرية

«الجزائر»¹ تحيي «الجزائر»

ألا في سبيل المجد حلي و ترحال ومسعاي في العلياء والشرف العلي
فإن نلت ما أبغى فذاك وإن أمت فكم مات من دون المنى قبل أمثالي
أأرجو بأن يبقى الزمان مساعدي ومن طبعه أن لا يدوم على حال
إذن أنا مغتر بأن لا يخـونني إذا كنت منه في حظوظ وإقبال
بلى إنني من ليس يغتر لبّه بدهري يلقاني بأجمل سرّال²
أرى الدهر لا ينفك تأتي صروفه ما لم يكن يوما يمر على بال
ولولا خطوب الدهر ما كنت شاعرا بما فت في أعضادنا في أوصال
فيا ويح قومي كم يعرض عليهم من الفقر أنياب وأنياب إقلال
على أنهم لا يقطعون نهـارهم ولا ليلهم إلا على القيل والقال
كأنهم لم يشعروا أن جهـلهم لدى الناس طرا سار سيرة أمال
ويا ويح أحرار الجزائر كم و كم يهيج عليهم من هموم و بلبال

¹ - محمد السعيد الزاهري: شعراء الجزائر في العصر الحاضر، ج1، ط1، بالمطبعة التونسية، تونس، 1926م، ص 68. وقد جاء التعليق على عنوان هذه القصيدة جاء في هامش الصفحة 68 من كتاب شعراء الجزائر في العصر الحاضر، ج1، ط1، بتونس التعليق الآتي: (نشرت هاته القصيدة في العدد الأول من جريدة "الجزائر" تحت عنوان أعلاه، فالجزائر الأولى: الجريدة، والثانية: الشعب الجزائري).
وقد أصدر محمد السعيد الزاهري جريدته الأولى "الجزائر" 1925م، شعارها: جريدة سياسية أدبية أخلاقية اجتماعية، ولم يصدر منها إلا ثلاثة أعداد.

² - سريال: القميص أو كل ما يلبس، ج سريال.

لقد كسر الناس القيود و حطموا
بقينا بأغلال من الفقر لم يكن
وقد لبس الناس العلوم جديدة
وقد لبس الناس الفخار مطارفا
وأصبح هذا الناس أحياء كلهم
فما أحد منا يحرك ساكنا
ونحن بقينا في قيود وأغلال
ليكرها إلا تكسب أموال
ونحن لبسناها من الخلق البالي
ونحن بقينا في جرود وأسمال
ونحن بقينا اليوم في زي تمثال
لدى نوب تغشى البلاد وأهوال

سأبعث في قومي حياة إذا إنا
ورب امرئ احيى العشيرة كلها
وأطلب حقا للجزائر ضائعا
فليست حقوق جد فيهن طالب
وأركب متن الجد واللين، إنني
وأنشر فيهم ما انطوى من مفاخر
سيعلم مني القوم صدقا وعفة
وأعرض عما قال في حواسدي
وما كنت ممن يحفلون بمن له
حييت بأعمالي وصادق أقوالي
بما هوات من جلائل أعمال
ولو كان محميا يا نيباب أغوال
تفوت ولو صينت بيباب وأقوال
رأيت ركوب الجد واللين أولى لي
وفضل للأجداد أوائل أقيال¹
وأن لست من قوم زعانف جهال
فما كان أمر الحاسدين بذي بال
الائم من عم لئيم ومن خال

¹ - جاء في شرح هذه الكلمة في كتاب شعراء الجزائر في العصر الحاضر: الأقيال جمع قيل: الملوك من حمير.

وأَمْضِي بما تُوحي إليّ خواطري
 وافعل ما أقوى على نفع أمتي
 وأندب شبان الجزائر عليهم
 فإن كان منهم من يجيب فإننا
 وإن لم يكن من يفعل المجد منهم
 وأقفو سبيل المصلحين فإنه
 واثبت فيما ابتغيه وإنني
 وانصح فتیان الجزائر كلهم
 وليس يفيد النصح في المرء لم يكن له
 ألا في صلاح الشعب أصرف مهجتي
 فان كان لي قومي سمونا بشعبنا

لنا نشئ شم بعيـد مرادهم
 فأهلا بهم نشأ جديدا ومرحبا
 فيا وطني إن كنت من قبل ذا عنا
 فها قد أتاك اليوم عصر مذهب
 وان كنت يا شعب الجزائر ذا ضنا
 ستدريهم الأشبال في زي أطفال
 بمن اتخذوا الأفلاك مسح أذيال
 ومالك من صرف الحوادث من وال
 وها قد أتتك اليوم أيام إقبال
 فها أنت تدنومن شفاء وإبلال

ويا وطني إن كان قد عضك الأسي
سيكفيك فتیان الجزائر ما به
أحييك بالنشء الجديد فإنه
يرى كل ما قد أنفق الناس قيمة الـ
فما منهم إلا أخو هممة له
ويا وطني إن كان لم يبق للأولى
فكن هانئا بالنشء يجهد نفسه
ويبذل في تخفيف بؤسك جهده
شباب ذو وجد مكان جدودهم
وما المرء إلا من يسود بنفسه

قديما فسوف تفتدي ناعم البال
شقيت زمانا من ذهول وإهمال
ليفديك ذاك النشء بالنفس والمال
فداء لشعب ليس بالثمن الغالي
جوانح لا تنفك كالمرجل الغالي
خلوا بك من آبائنا غير إطلال
ليجديك نفعا بالغدو والأصال
فيكفيك ما لاقيت في الزمن الخالي
ليرقوا بك العلياء والمنزل العالي
فيبقى مع الأيام ذكرى لأجيال

«الجزائر» تحي المتطوعين*

يحلّق ناس كالصقور الكواسر ويبقى أناس تحت دق الحوافر
فسبحان قسّام الحظوظ فإنّه لا قدر بالأشياء من كل قادر

توفر حظّ النَّاس في العلم والهدى ومازال منقوصا نصيب الجزائر
فيا ليتها تحظى من العلم بالذي يرد عليها ما مضى من مفاخر
وما فات من مجد وعزز أوائل وما كان من فضل وطيب مآثر
ويا ليتنا يوما نبهر جدودنا ففي بر أسلاف فخار الأواخر
وما البهر إلا أن نقص ونقتفي طريق جدود حافرا فوق حافر
وما كان برّ الوالدين بمــــانع لنا أن نجاري في السرى¹ كل سائر
نسابق أهل العصر في كل غاية فما الفخر إلا في سباق المعاصر

* محمد السعيد، الزاهري: شعراء الجزائر في العصر الحاضر، ج1، ط1، بالمطبعة التونسية، تونس، 1926م، ص72.

القصيدة من بحر الطويل، عدد أبياتها أربعون بيتا، وجاء في التعليق عليها في حاشية صفحة 72، من كتاب: "شعراء الجزائر في العصر الحاضر" الآتي: المتطوعون هم حاملون للشهادة العلمية من جامع الزيتونة وقد تخرج من الجامعة المذكورة في آخر عام 1343هـ السادة المشايخ: محمد الصالح بن الطاهر الجيلالي التبسي. محمد بن علي عز الدين. محمد خير الدين الفرفاوي. الطيب بن الهاشمي السوفي. محمد الشريف بن عمار المدكالي. علي بن عمار من طولقة. محمد بن الطيب الدراجي. وهم المعنيون بالمتطوعين الذين نظمت هاته القصيدة في حقهم ولما فيها من الدعوة غلى العمل في إحيائها اندثر من مفاخر الجزائر ومن الدعوة إلى النهضة بالوطن وأبنائه آثرت نشرها.

¹ - السرى: السير ليلا

لقد سبقت أسلافنا أهل عصرهم إلى كل شيء في المكارم فاخر
فكم ركبوا للمجد يبيغون شأوه على من يجاريهم متون المخاطر
فكانوا هم القوم الأكابر في الورى وما كان قوم غيرهم بالأكابر
ولوانهم كانوا في ذا العصر حضرا لكانوا على المنطاد أول طائر
ولا صطنعوا ما يعجز الطير في السما مداه، وكانوا فيه أمهر ماهر
وغاصوا ببطن البحر حوتا وخرجوا من القعر قعر البحر أغلى الجواهر
وساروا يشقون البحار مسخرا لهم ما بها من منشئات البواخر
سلوا "شركانا"¹ كم رأى من جدودنا فليس له الأهم من زواجر
فجهز أسطولا وجيشا عرمرما لكنه قد آب أوبة خاسر
هم القوم لا هم الزمان كههمم ولا باعهم عما أرادوا بقاصر

طوى الدهر قومي غير أن حديثهم سيبق مع الأيام رغم المكابر
سيحييهم النشء الجديد فانه يغار على اجداده في المقابر
ولا خير في نشء إذا لم يكن له ولوع بآثار الجدود الغوابر²
فيا نشأنا هذي بلادك تشتكي إلى الله من شؤم الجدود العواثر

¹ - جاء في حاشية الصفحة 74 من كتاب شعراء الجزائر في العصر الحاضر، ج1، في تعريف "شارلكان" الآتي: هوملك اسبانيا قدمت جنوده الجزائر في القرن العاشر الهجري لقصد الاستيلاء عليها فخاب وانهزم شر هزيمة بما لاقاه من بطولة الجزائريين الذين شهد لهم الأعداء والفضل ما شهدت به.

² - الغوابر: جمع مفردة غابر وهو الماضي.

وتشكومن الأخلاق لما فسادها
وتشكومن الجهل الذي لم يزل بها
وتشكومن القوم الذين قضوا بها
فلا تك أشتاتا إذا جد حادث
وكن في ابتغاء المجد يا نشء صابرا
ولا مجدد إلا العلم يطلبه أخوا
مضى نفر يبغي المعارف من بني الـ
فأهلا وسهلا بالذين تطوعوا
شباب لعمر الحق لم يك فيهم
تجلوا على هذي الجزائر بعدما
فقر بهم شعب الجزائر مثلما
هم النشء لا نشء أضاع شبابه
شباب يرى تفريطه في بلاده
شباب أبوا أن يألفوا قط سبة
ليهناً بهم شعب الجزائر أنهم
فلا زال أبناء الجزائر طالعا
ولا زال هذا الشعب في الناس دائما

فشا حتى ما بين البنين الأصاغر
يعض عليها بالنيوب الكواشر
زمانا ولكن في قبيح التنافر
فما ضرنا إلا انحلال الأواصر
فما انقادت الآمال إلا لصابر
عزائم تزري بالسيوف البواتر
جزائر حتى آب أوبة ظافر
لخدمة هذا الشعب شعب الجزائر
سوى حازم عف الطوية طاهر
سجى الجهل أشباه البدور الزواهر
تقر لدى الإياب عين المسافر
وأمواله بين الخنا والمخامر
وتضييعه للقوم إحدى الكبائر
فلا خير فيمن يرتضي بالمعاير
هداة نوو خبر بوعر المعابر
عليها فتى منهم جميل المظاهر
على الدهر والأيام أظهر ظاهر

إلى الزعيم الجزائري بالإسكندرية*

قضيت حياتي مدلجا ومؤوبا ولكن كأنّي رُمت عنقاء مغربا
تود الليالي لو تثنّتي عن المنى وعزّمي يَأبى حتى أدرك مطلباً
ومن يبتغي الأمر الجليل فانه يكابد فيه متعباً ثم متعباً
بلوت مراس الحادّثات فلم أجد خبيراً بعقبي الدهر إلا مجرباً
إذا جرى صرف الحادّثات إلى العلى فأهلاً بصرف الحادّثات ومرحبا
تركت وراءني بالجزائر من إذا تذكرتهم زاد الفؤاد تلهباً
وما همّني خطب سوى أنني أرى هلال بلادي للأفول مصوباً

ألا يا بني شعب الجزائر بدرنا تبلج ثم لم يــــدم إن تغيباً
فهل في أناس يحسدون عــــلاءه همام بنا يزجي إلى المجد مركباً
نعم ثم قوالــــون أهل بطالة فما سلكوا يوماً إلى العز مذهباً
وشتان ما بين الأميــــر معارفاً وما بين من لم يعرف الدهر مكتباً

* محمد السعيد، الزاهري: شعراء الجزائر في العصر الحاضر، ج1، ط1، بالمطبعة التونسية، تونس، 1926م، ص76. والقصيدة من بحر الطويل، وعدد أبياتها واحد وثلاثون بيتاً.

القصيدة من بحر الطويل، عدد أبياتها واحد وثلاثون بيتاً، وقد علّق عليها صاحب كتاب "شعراء الجزائر في العصر الحاضر" في الصفحة 76، قائلاً: قال هذه القصيدة في الأمير خال الزعيم الحر المقدم الجزائري يودعه بها أيام أبعده الحكومة الإفريقية إلى الإسكندرية، وشاعرنا آنذاك لا يزال يزاول دروسه العلمية بالمعهد الزيتوني المعمور. والحر مهما نشأت به الدار وطوحت به الأسفار لا يزال يغرد عن وطنه تغريد الحمامة عن أفراخها، وكيف يهدأ بال من وضع حب الوطن في حضن صباه.

وليس عزيزا أن ينال مــــراده أخو عزيمة يحكي الحسام المشطبا
ومن أين يلقي غافل ما يــــوده إذا كان لم يملك من الجد مكسبا
عجبت لمن يقضي الليالي ساهرا إلى رشا عذب المرشرف أشنبا
يباري لفرط الحمق من بات كادحا يحاول من فوق السماكين منصبا
كذلك ذو (الإقدام)¹ كان بشعبه إلى الفخر يطوي سبسبا ثم سبسبا
رعى الله شعبا بالجزائر كلما بدا شارق يهديه إلا تحجبا
ولولا رعاغ يخذلون هداته لما راح في نار الهوان مكبكا
له الله من شعب تحير رشده فأصبح عن نهج الهدى متكبا
سلام على شعب الجزائر بعد ما نأى عنه من كان العذيق المرجبا
سلام عليه بعد ما بان خالد سلام عليه بعد ما انحلت الحبا
تتأى ولكن ليس يبرح "خالدا" جميل ثناه بيننا ضاربا خبا

ألا في ذمام الله يا خير مرشد إلى حيث خيم الفخار وطنبا
لئن كنت فيأفق الجزائر كوكبا فقد لحت في الإسكندرية كوكبا
أما كان قرن الشمس عند شروقها شبيها بقرن الشمس تقصد مغربا

¹ - جريدة سياسية جزائرية تأسست يوم 3 مارس 1919م، بالعاصمة الجزائرية، كما ذكر زهير إحدان في كتابه *histoire de la presse indigene en algerie* ص 10، غير أن مفدي زكرياء أرخ بداية هذه الجريدة بيوم 4 ماي 1920م، في كتابه تاريخ الصحافة العربية في الجزائر، ص 65، أسسها الأمير خالد لتكون لسان حال هيئة سياسية سماها (اتحاد النواب المسلمين)، توقفت يوم 6-4-1923م.

لعمري لقد خلفت فينا مآثرا يعز علينا أن نضيعها هبا
وعلمت نشأ كيف يسعى إلى العلى فأمسى على طرق المعالي مدربا

فديناك ذا جاش قوي ثباته إذا ما خطوب الدهر تنتشب مخلبا
إلى الآن لم تلق السلاح ولم تكن لتلقى يا مقدم من بعد ذا الظبا
فأنت أخوالعلياء والبطل الذي إذا جد زاد منه تقربا
لئن كنت في أهل النيابة مفردا كأنك كنت بينهم متغربا¹

¹ - جاء في تعليق محمد الهادي الزاهري على شخصية "الأمير خالد" من خلال هذا البيت بهامش صفحة 79، القول الآتي: (كان مفردا بين النواب بصراحته وإخلاصه وتفانيه في مصلحة أمتة ليس له من شعار غير ذلك الشعار الذي تسربل به فتى مصر مصطفى كامل رحمة الله عليه " من تساهل في حقوق بلاده ولومرة واحدة عاش مززع العقيدة سقيم الوجدان" ليس له من خاذل قوم تقدموا للنياحة عن الأمة فخرس بهم الوطن وتمادى في كبوته. رحماك يا رباه.

ليت قومي يعلمون!*

فؤادي أسير عند من ليس يرعاه فيأمره كيما يشاء وينهاه
ولا تسألوه أن يحلّ وثـاقه فإنّي لأرضى بالذي هو يرضاه
إذا أنا لم أقدر على رد مدمع أكفكفه يوم النوى فلي الله
رعى الله دهرًا في (الغيب)¹ لهوته بمن تقضح الدر النضيد ثناياه
ليالي يسقيني رحيق رضابه² وتفعل بي - مايفعل السحر - عيناه
ولولا عفاف في طباعي يصدني لما كنت ممن تغلب الحب تقواه
ولكنه سلطان نفسي عافها فيمنعها من شر ما تتمناه
ذكرت على بعد المزار وذوالهوى تهيج له الشوق المكمّ ذكراه
وفتية أنس كنت أجمع شملهم على منزّه يسترجع الطرف مرآه
تراهم نجومًا أو مصابيح في الدجى فهم والداري³ والمصابيح أشباه
وساق كأنّ الشمس تجري بوجهه يبيت يساقينا الذي بات يسقاه
سلام على عهد الخلاعة إنّه لعهد لعمرى لست ما عشت أنساه

* محمد السعيد، الزاهري: شعراء الجزائر في العصر الحاضر، ج1، ط1، بالمطبعة التونسية، تونس، 1926م، ص79.

قصيدة من بحر الطويل. عدد أبياتها ثمانية وعشرون بيتًا.

¹ - اسم مزرعة في ليانة مسقط رأس الشاعر.

² - الرضاب: الريق

³ - الداروي: الكواكب

وما كنت أقوى بالفراق وإنما دعا المجد ذا هم بعيد قلباه
كذلك ذوالنفس الطمّوح إلى العلا يعاف على الضيم البقاء ويأباه
أريد من الأيـام ما لا تطيقه وأقصد منها ما لا يقصده (الشاه)¹
ومن يركب العزم الجديد فإنّه يهون عليه أن يحصل مرماه
ومن كان في أعماله متكاسلا فسرعان ما يكدي ويخفق مسعاه
سعى معشر يبغون عيشا وإنني لأسعى، ولكن بغيتي العزّ والجاه
وأندب حظّا لـ (الجزائر) ضائعا به طـارت العنقاء علي ألقاه
واستتهض الأحرار لا متأوه فماذا عسى يجدي (الجزائر) أواه؟
ولم يجدها إلا العلوم وهكذا أخو العلم يحظى بالذي يترجّاه
فهل شيدّ فيها للمعارف معهد؟ وكل وليد في (الجزائر) يغشاه
ولو كان شعبي يقدر العلم قدره لأصبح من فوق السماكين² مثواه
ولكنّه اختار الجهالة موطننا فبات بدار الهون والضيم سكناه
فيا ليت قومي يعلمون بما سما إليه الوري حتّى ننتيه كما تاهوا!
وهذي سبيل المجد بيضاء بيننا فمن حاد عنها فالهنا يتخطاه
فان كان قومي سالكيها فتلكم مناي وإلا فالذي كنت أخشاه
ألا فاجعلوا العلم الصحيح وسيلة فلم يرق إلا جاعل العلم مرقا

¹ - الشاه: ملك العجم

² - السماكين: كوكبان منيران

الشعر الفحل*

همي من الدنيا بعيد	والدهر جبار عنيد
أسعى من الدنيا لما	يسعى له الشهم الحديد
وركبت عزما لو ركو	ب العزم في الدنيا يفيد
لكنها هذي الحيا	ة زمامها بيد الجدود ¹
فلقد رأيت الرزق بمـ	نعه أخوالرأي السديد
ورأيت ذا الحمق الجهو	ل منعما وهـ والبليد
سبحان من قسم الشقا	وة والسعادة في العبيد
هذا على شظف يبيـ	ت وذاك في عيش رغيد
والناس محسود على	هذي المعيشة أو حسود
أما أنا فالله يعـ	لم من أنا وهوالشـهيد
رجل أحب المصلحـ	ن وافندي الرجل الرشيد
وأرد مجدا للجـزا	ئر ما استطعت واستعيد
والشمس بعد الليل ليـ	س لها من الرجعي محيد
وأغلب الأتعاب في	قصدي ولي عزم شديد

* محمد السعيد الزاهري: شعراء الجزائر في العصر الحاضر، ج1، ط1، المطبعة التونسية، تونس، ص82. القصيدة من بحر الطويل عدد أبياتها ثمانية وعشرون بيتا، وقد أشار صاحب كتاب شعراء الجزائر في العصر الحاضر بأن القصيدة نشرت في جريدة النهضة التونسية.

¹ - الجدود: الحظوظ

لا يركب المجد المؤث	تل من به داء القعود
..... ¹
وزعانف ² زعموا بأنـ	نهم الضراغمة الأسود
ظنوا السيادة في اللّحي	وبطولهن وبالجعود
أبصرتهم يتفـاخرو	ن على البرية بالجدود
شغفوا بتعبئة الجيوب	فافرغوا فيها الجهود
لم يتركوا في الناس من	إلحافهم إلا الكنود ³
لؤمت طباع الناس حت	تى ما ترى سما يجود
ما الناس إلا فريسة	ينتاشها ضبع وسيد ⁴
والناس منهم من يعي	ش على البسيطة كالوليد
فرأيت فيهم ذا الجها	لة سيدا وهم العبيد
قد يعتلي ذو حطة	ما أن عليها من مزيد
والكلب منزله لدى الأ	فرنجي مرفوع بعيد
ولرب رائعة البها	تفتت عن طلع نزيد

¹ - أخبر محمد الهادي الزاهري في كتابه (شعراء الجزائر في العصر الحاضر) أنه أسقط أحد عشر بيتا

من قصيدة الزاهري لأنها تتكلم عن الشاعر نفسه

² - قصد الشاعر بالزعانف، بعض شيوخ الطريقة

³ - الكنود: الذي يكفر بالنعمة

⁴ - السيد: الذئب

لثمت بمبسمها اللذيذ ذ شوارب الكلب الطريد

يا أمة ضحكت علي ها الناس من بيض وسود
ضحكوا من الجهل الذي غرقت به ومن الجمود
هدت قـرونا عدة فإلى متى هذا الهمود؟..
يا قومنا سار الوري نحو العلا السير الوخيد¹
كسروا قيودهم ولم تزل «الجزائر» في قيود
هذي الجهالة كم لها خلل «الجزائر» من مهود
لا تطمعوا إن ترتقوا والجهل خفاق البنود
إن شئتـم أن تلبسوا ثوب المجادة² من جديد
فعليكم أولادكم لا تتركـوهم كالقروود
أضحوكة بين الوري والناس أجمعهم شهود
أفلا يعزّ عليكم أن تهملـوهم في شرود؟
أتطيب أنفسكم بأن يشقى البنون وهم كبود؟
وكان هذا الجهل نب قي أن نورثـه العبيد

¹ - الوخيد: السريع

² - المجادة: المجد

يا قوم تفتيح المدا
رس للهدى سبب وحيد
ربوا بها الأولاد كي
نسم على العدد العديد
فعسى يعود الدهر يخ
دمننا وتخدمنا السعود
هذي لعمرك حاجتي
إن نلتها فأنا (السعيد)

النّاس والدّهر *1

أما نكدت وإنّي غير منكود فالنّاس ما بين محروم ومجدود²
 هذا يحصل ما يبغي بلا تعب وذاك يشقى ولم يظفر بمقصود
 وهذا تعوله الدّنيا فيمرح في ظل ظليل من السلطان ممدود
 وذاك يرزح تحت الهون مضطهدا فليس ينـفك ذا هم وتسهد
 وهذا ليس له في المجد من غرض ولا الفعائل من بيض ومن سود
 لا هو ينهض يوما للسماح ولا تراه يقـرع ضنبوبا إذا نودي
 وكم لآخر من سؤال ومن إرب معلق بحبال الشّمس معقود
 ما أن يزال حثيث السيّر ينشده حتّى يبوء بمأمـول ومنشود

يا روع الله برقـا في قلبه يدعى الجبان شجاعا غير رعيد
 وقد رأينا أبا مال يشحّ به فراح وهو يسمّى صاحب الجود
 وجائر ما توخي العدل ساحته يدعى أبا عضد بالحق مشدود
 تلك الليالي ترينا كل آونة ما لم يكن عندنا يوما بمعهود

* محمد السعيد، الزاهري: شعراء الجزائر في العصر الحاضر، ج1، ط1، المطبعة التونسية، تونس،

1926م، ص86. القصيدة من بحر البسيط، وتحتوي على سبعة وعشرين بيتا

¹ - قال صاحب كتاب: (شعراء الجزائر في العصر الحاضر) في هامش صفحة 86 عن القصيدة: قال

هذه القصيدة لصديق له أصابه هم ونكد يهون عليه بعض ما يجد ويروح عنه شيئا مما أصابه

² - محظوظ، من الحظ

كأنما الدهر طوفان ونحن على سفينة ما استوت يوما على الجودي
 تتساب في اليميم الحادثيات بنا لكن إلى أجل تتساب محدود
 فليصبر الحـرر إن سد مذهبه فرب يوم يـراه غير مسدود
 هون عليك إذا نابتك نائبة فالدهر يحنق بالشـم الصناديد
 رءاك تعنـولك الأيام صاغرة حتى كأنك فيها عين معبود
 فاستل ما كان مغمودا ليقذف في جأش لك الرعب من إشهار مغمود
 فخذ لك العزم بتـارار لعلك أن تعيد ما طاح من عز وتأيد
 واسع المساعي التي تبقى مخلدة فالسعي يكبر أن يعقب بتخليد
 لا تعتمد في الذي تأتي على رجل مكبل بقيود الجهل مصفود¹
 والناس والدهر في التحقيق بينهما ما كان بين أب وبين مولود
 فلا يهـمك ما في القوم من إحن ومن أراجيف ذي إفك وتفنيد
 فالمرء تُحمد أحيانا شمائله وربما ظلّ يوما غير محمود
 هم يحسدونك في فضل وفي أدب وغير ذي الفضل لم يكن بمحسود
 قد أجمعوا لك أمرهم وجمعهم والجمع إن كان ذا كيد لتبديد
 ودبروا الكيد لكن كان كيدهم على نـورهم كالطوق في الجيد
 وخانك الصّـحب في عهد ولم أك من إبرام عهدك في شك وترديد
 ما كنت أخلف موعدا وعدت به والحر من كان يوفي بالمواعيد

¹ - مقيد

لا تعجب إن من همتي فأنا من أولئك الأماجد الصيد
 إنني وإن كنت من قوم ذوي حسب فنشوة الخمر ليست في العناقيد
 إنني لأعمل ماضي العزائم في إحياء مجد لأسلافي وتجديد
 يا نادب القوم بيكي في مساكنهم ماذا تحاول من نوح وتغريد
 فكُنْ معي حتى نستجده شرفا عفا فلا يبلى بعدها ولا يودي

بني الجزائر إن القوم قد ملكوا ملكا يذكرنا ملك ابــــن داود
 والناس تفخر بالمجد الذي بلغوا ونحن نزهو بمقبور وملحــــود
 فلا وربك لا يجدي فخارك في يوم الفخار بمدفــــون التجاليد¹
 هذا فخارهم فأين مـفخرنا؟ شتان ما بين معدوم وموجــــود
 فهلا نسعى إلى العلياء نطلبها وهلا نبذل فيها كل مجهود
 عسى نجد ما هدّ الزمان لنا من العلاء فيمسي غير مهــــود
 ونبتغي العزّ لا ضعف يلم بنا فما الضعيف لدى الحلّى بمعدود
 كانت أوائلنا عقدا ويا له من عقد نضيد بجيد الدهر منضود
 كانوا الجحاح من بين الورى فخلوا فبات ما فعلوا في جوف أخدود
 ورب باك على الماضين قلت له إن البكاء لشأن الخرد² الغيد

¹ - تجاليد الإنسان: جسمه وأعضاؤه

² - الخرد: جمع مفردة الخريدة وهي المرأة البكر

هياً إلى عمل يجدي فحاجتنا إلى أخي عمل بالعزم معضود
على (الجزائر) تغدو وهي تخطر في ثوب قشيب من العلياء مقودود

وما الناس إلا اثنان...*

تهش لنا الدنيا فنرضى وتقطب
فنعضب والأيام ترضى وتعضب
كذلك شأن الدهر مرّ مذاقه
لقوم وقد يحلوقوم ويعذب
كأنّ الورى والدهر بحر صروفه
قوارب تطفو تارة ثم ترسب
وما الناس إلا اثنان هذا منعم
وذاك على جمر الشقا يتقلب
وهذا أخو حزم يجد إلى العلا
ومن لم ينم إلا غرارا رايته
وذلك لا ينفك يلهو ويلعب
ومن بات حلفا للكرى ملء جفنه
وكم منه في العلياء تبلج كوكب
فهيئات أن يحظى بما يتطلب
ولولا انتشار العلم والجهل في الورى
لما كان مغلوب ولا متغلب
وإني إذا ما الأمر عزّ طلابه
ليدنو به مني اعتزام مذب¹
أحاول مجدا أبتغيه مؤثلا
وهل كان بعد المجد للحر مأرب
وإني إن أبعدت همي فإن لي
عزائم تدني ما نأى وتقرب
ولست مقيما في بلاد نكرتها
ف(كل مكان ينبت العز طيب)
ولست أقول الشعر إلا لأنني
أروح ما تخفي الضلوع وتحجب
ولم امتدح يوما أبا جدة لكي
يجود فنائي من غواديه صيب

* محمد السعيد الزاهري: شعراء الجزائر في العصر الحاضر، ج1، ط1، المطبعة التونسية، تونس، ص79.

والقصيدة من بحر الطويل.

¹ - من ذرب السيف كان حادا

ورب قصيد قلت ممتدحا به
 ولوع بادراك المعالي يريدها
 همام فأما الفضل فيه فمعرق
 رزين فأما اللحم فيه فدونه
 وإما الخلال الفاضلات فإنه
 يشيد على فخر الجدود مفاخرا
 وإن امرئ يقفو رجالا له خلت
 لقد علموه كيف يكتسب العلا
 أروه على عهد الصبا الفخر فاغتندى
 فمن جاء من أقرانه يبغى شأوه فيبعد
 فما كل ساع مبصر في جهاده
 إلى أن ختمها بقوله:
 وكونوا كمثل الناس فيكم معلم
 كذلك فلتوتوا المكارم إن من

أخوا الحزم لا يألوالى المجد يدأب
 وكل امرئ يهوي المعالي محبب
 أصيل وإما طبعه فمهدب
 (عسيب) وإما الصدر منه فمرحب
 أبوها الذي تعزى إليه وتنسب
 لها منزل فوق السماء ومنصب
 ليجعل من أهل الكمال ويحسب
 فأصبح يدري كيف يسعى ويكسب
 يجر لأذيال الفخار ويسحب
 أن يعدومداه وبصعب
 يحصل من مسعاه ما بات يرقب
 نصوح ومنكم من يرى كيف يكتب
 يحاولها من دون ذاك لأشعب

اجتماع الضدين*

رب يوم لهوته ثم في الجنا	نة ما شئت بين خير عصابه
نفر لم تكن لتبصر فيهم	غير من تعشق النهى آدابه
من فتى يا له متى هزّ فينا	قلما حاذقا بصوغ الكتابة
فإذا أعمل اليراعة في أم	رهم الورى أصاب صوابه
وفتى إن تفاخر الناس يـ	وما فهومن يعلو فيهم أترابه
ذو طباع كأنها زهر روض	أمطرته من الغمام سحابه
فظللنا هناك عند كريم	نتعاطى تحت الظلال شرابه
وعلى كل جانب ننظر الما	ء فنهوى خريره وانسيابه
وهبوب النسيم يعبث بالدو	ح كما يشتهي ويلوي رقابه
وعليه الطيور تصدح هذا	يتغنى وذا أطال انتحابه
سرّني ذلك الغناء ولكن	زادني ذلك النحيب صبابه
فأنا بين ثائرات شجون	غلبتني ولذة مستطابة
وغدا الهم والسرور بقلبي	ذا يجيء وذاك ينوي ذهابه
فرأيت الأضداد يجمعها قلـ	بي وإن اجتماعها ذو غرابة
هكذا قد قضيت يومي وذو	الذوق على مثل ذاك يقضي شبابه

* محمد السعيد، الزاهري: شعراء الجزائر في العصر الحاضر، ج1، ط1، المطبعة التونسية، تونس، 1926م، ص92. القصيدة من بحر الخفيف، وعدد أبياتها خمسة عشر بيتا.

الإفراط*

لا تظلم الشيء إطرأ وتتوبها	لحاجة أنت في التتويه تتوبها ¹
فالعدل إن راح للأشياء يذكرها	فليس يذكرها إلا بما فيها
وإن ذممت من الإنسان مكسبة	فاقصد لعلك بعد اليوم تطريها
وأكثر الناس يغلو في مقالته	إن راح ينعت تنقيصا وتنزيها
فرب مادح شيئا لا يزال به	حتى يؤلّه في الناس تأليها
وعائب رجلا ما انفك يظلمه	حتى يشوّهه بالعيب تشويها
كيف السبيل إلى نيل الحقائق وال	إفراط في الذم والإطرأ يخفيها?... ¹
لا أحسب الناس تهديهم عقولهم	إلى الحقيقة والأهواء تعميها
هل كان في الناس ذو عقل بصيرته	لم يغشها غرض الدنيا فيصميها؟
أم في التواريخ تاريخ بلا غرض	يجلو الحقيقة في أجل مجاليتها؟
يا لهف نفسي متى نرى الحقائق لا	تكسى من الناس تلبيسا وتمويها؟

* المصدر السابق، ج1، ص93، والقصيدة من بحر البسيط، وعدد أبياتها: أحد عشر بيتا

¹ - الجنس التام بين لفظي تتويها وتتويها، ومعنى اللفظة الأولى رفعة، أما الثانية فمن النية

امض لحالك*

امض لحالك قدما يا أبا الهـم في خدمة الشعب لا تعتب ولا تلم
 ولا يهـمك ممن يحسدونك إن لم يعرفوا لك من فضل ومن كرم
 لولم يروك أبا نعمى لما حسدوا علاك، فالمرء محسود على النعم
 يكفي من الناس أن يرضاك بعضهم من ذا ينال رضاء الناس كلهم؟..

يوم الانتخاب*

ما كان أكبره من يوم أهوال يوم به ركبت حال على حال
 يوم به قامت الحرب العوان على ساق لها بين صعلوك وذئ مال

فلا تحسبوني ناسيا*

رحلت فأما القلب فهولديكم وأما اشتياقي نحوكم فشديد
 فلا تحسبوني ناسيا لودادكم ففي كل يوم لا يزال يزيد
 وفي كل يوم لوعة تحرق الحشا عليكم وحب يعتريني جديد
 وإن زماننا لست فيه أراكم ولو كان يوما واحدا لمديد
 سلام عليكم كلما حن خاطري إليكم على أن المزار بعيد

* مصدر سابق، ج1، ص94 والمقطوعة من بحر البسيط، وعدد أبياتها أربعة أبيات.

* المصدر السابق، ص94،

* م ن، ص ن.

تحية "الإصلاح"*

ويلاه إذ هل خاطري عما بي ما بالجزائر من أليم عذاب
 فنسيت من بؤس الجزائر كل ما ألقاه في الدنيا من الأتعاب
 وفنيت في حب الجزائر مثلما يفنى المحب الحق في الأحباب
 كيف الخلاص من الجزائر بعدما ملكت علي مشاعري وصوابي؟
 فإذا ضحكت فللجزائر أو نحبت فلم يكن إلا لها تتحابي
 أوابت يوما أو ذهبت ففي الجزائر مذهبي أبدا لها ومآبي
 مهما تأذى في الجزائر مسلم إلا توفر من أذاه منابـي
 وإذا أصاب بني الجزائر حادث فهناك عظم بليتي ومصابي
 ويلذ لي من بعد ذلك أن يطو ل على الجزائر في "الحساب" حسابي
 إن كنت في هذه الجزائر لم أعش إلا لمن يأتي من الأعقاب
 فالمرء كم يحيى لجيل مقبل وكذلك في الدنيا نوو الألباب
 لكن جمهور الأنام يعيش في جيل مضى في سالف الأحقاب
 سبحان من قسم العقول على الورى عدلا، فما من لومة وعتاب

* محمد السعيد، الزاهري: (تحية الإصلاح)، الشهاب، عدد 161، السنة الرابعة، ص17. وعدد أبياتها ثلاثة وسبعون بيتا.

هذا يكاد يرى المغيب في غد
 وتري سواد الناس يقصر أن يرى
 فتظنهم في ذي الحياة معاشر
 والناس بين أخ عمي متأخر
 أو بين شيخ مدبر عن ذي الحيا
 لولا الشباب اليوم يعمل غير
 ويجد في العلياء معتمدا على
 لرمت بأمتنا خرافات الشيوخ
 ويل الجزائر من بنيتها إنهم
 هذا يريد لبنتها أن تغتدي
 وتظل تذرع بالخطى طرقاتها
 وتقود من تهوى إلى ما تشتهي
 فتبيت ترقص حيث لا من وازع
 حتى إذا ضمنت (جميلة) أطفأت
 ما كان أجملها (جميلة) وهي لم
 فبنانها المخضوب أجمل من يد
 بذكائه الوقاد دون حجاب
 ما حوله يبدو بغير غياب
 أموات تحت صفائح وتراب
 وأخي هدى متقدم وثاب
 ة ومقبل من فتية وشباب
 ذي كسل ولا متردد مرتاب
 ما صح من علل ومن أسباب
 المدبرين إلى ردى وتباب
 كانوا لمحتتها من الأسباب
 وتروح سافرة بغير نقاب
 وتكيلها في جيئة وذهاب
 إن لم يكن رجلا فجرو كلاب!
 وتبيت في لهو وفي تلعباب
 ضمأ الجوانح بابنة الأعناب!
 تتبع بريق تمدن خلاب
 تبدولنا برصاء دون خضاب

ورنين خلخال يرن بساقها
 أشهى لنا من رنين رباب¹
 وبقاؤها في خدرها مقصورة
 أولى بها من مسرح ورحاب
 لا تستوي امرأة لزوج واحد
 وكثيرة الأزواج والأصحاب!
 كلا ولا امرأة وذات ترجل
 شتان بين حمامة وغباب!
 أو جيدها الحالي وجيد عاطل
 كم بين عاطلة وذات سخاب
 ويريد للشبان أن يتفرنجوا
 في لبس قبعة وزى ثياب
 ويقلدوا الإفرنج دون جدودهم
 في منطق مستعجم الأعراب
 وإذا رأيت الناشئين تفرنجوا فهم
 لعمر الحق شر شباب
 إذا كان تقليد الإفرنجة عدة
 للنشء عند مكاره وصعاب
 فليحتفظ شعب الجزائر بالذي
 يعنيه من دين ومن أحساب
 وليترك الشبان في إسرافهم
 وليتبعوا الإفرنج دون متاب
 فلسوف يلقون الغواية والردى
 إن التفرنج² مرهف الأنياب
 ويريد آخر للجزائر أن تضل
 ل الرشد في طرق وفي أبواب
 تلقي زمام عقولها جهلا إلي
 من كان متكلا على الأنساب

¹ - الرباب آلة من آلات الطرب

² - التنقف بثقافة الغرب

من كل ذي نسب يسلسله
 إلي جدله متحنث أواب
 أو كل ذي جدل يمت به إلي
 شيخ له متصوف كذاب
 يا ويحنا من أمة لم تتبع
 في الدين غير مشائخ وذئاب!
 قسموا عباد الله أغنامنا
 لهم فالجاهلون لهم من الأذئاب
 ملكوا على البسطاء من جهالنا
 ما كان من مهج ومن أسلاب
 والجهل إن ينزل بشعب آمن
 أودى بأموال له ورقاب
 والمرء يتبع شيخه طمعا بما
 يرجو ويأمل من منى ورغاب
 والجهل يطمع أهله فيريهم ال
 ماء الزلال بلمع وسراب
 ويل لأشياخ الزوايا فرقوا
 الإسلام في طرق لهم وشعاب!
 لولا الشيوخ الطامعون لما هوى
 سلام بين مهالك وخراب
 يا رب زاوية بها ما لم يكن
 حانة من خمرة وشراب
 يسقي الشيوخ الصالحون ضيوفهم
 بالكأس أو بالطاس والأكواب
 يتقولون على الشباب مآثما
 وهم الألى أثموا بغير حساب
 فجنوا على الدين الحنيف وأفسدوا
 ما فيه من خلق ومن آداب
 لا يطعمون الدهر مسكينا ولا
 يكسونه خلقا من الأثواب
 وهم الألى جمعوا حطامهم من
 "الفقراء" و"الإخوان" و"الأحباب"

لـ (لطيب العقبي) من هدى الورى
يدعوا لى ضلوا ويهدهم الى
و"لقوم" يدعون الورى أبدا الى
يدعونهم أن ينفقوا أموالهم
وهناك تلقى "الزاهدين" تشكلوا
يا صاحب "الإصلاح" ما للقوم في
من كل أفك بذي فاجر
فاقم على هدي النبي فلم يكن
لك في الهداية راية والناس
ويناصر "الإصلاح" في إرشاده
من كل من لم تلق في غير العلا
أو كل من يرمي الضلال وأهله
ماذا على الشبان من إفك امرئ
وإذا الكلاب ولغن في أعراضنا
ما ليس لـ (الأغواث) و (الأقطاب)¹
دين النبي بسنة وكتاب
جمع من الشركاء والأرباب
ما بين أضرحة وتحت قباب
حيناً بشكل عصابة نهاب!
الأخلاق غير شتائم وسباب
لكنه ينجو نجاه ذباب
يوماً يضر البدر نبج كلاب
تمشي خلفها في موكب وركاب
كل من العلماء والكتاب
يوماً له من بغية وطلاب
بحقائق تهوى هوى "شهاب"
متعنت أو طامع مغتاب
فإباؤنا العربي خير جواب

¹ - الأغواث جمع غوث، والأقطاب جمع قطب، والمقصود بذلك ألقاب شيوخ الطرق الصوفية

ويح الجزائر*

ما كان لي من حاجة ومراد
 إلا تيقظ أمتي وبلادي
 هيت جميع الناس من نوم ولم
 تنزل الجزائر في ذليل رقاد
 هذه الحوادث أيقظت من هولها
 حتى الجماد فعاد غير جماد
 وأرى الجزائر في همود لم يكن
 يوما بمعهود ولا معتاد
 ما للجزائر لاتحرك ساكنا؟
 أفلم يكن أبناؤها بعباد
 هل كان في هذه الجزائر شاعر؟
 يبكي على الآباء والأجداد
 فيهيج شجوا في القلوب وعبرة
 تهمني على أبناء عبدالواد
 وعلى تلمسان التي كانت تتيب
 يه بعلمها تيتها على بغداد
 ويذكر النشء الجديد بما مضى
 بالناصرية من هدى ورشاد
 فتتهز فتیان الجزائر نخوة
 للمجد من ذكرى بني حماد
 إني لأذكر آل رستم والذي
 كانوا به من سؤدد وسداد
 وأرى الحوادث أذهبت آثارهم
 ومشت على تلك الرسوم عوادي
 فتثور في نفسي كوامن حسرة
 ملأت علي جوانحي وفؤادي

* محمد السعيد، الزاهري: (ويح الجزائر)، الشهاب، عدد 85، السنة الثانية، ص18، ألقى الزاهري هذه القصيدة في حفل تكريم جامع كتاب " شعراء الجزائر ". كتب تحت عنوان القصيدة: للشاعر الملي الشيخ محمد السعيد الزاهري. وقد ضمت خمسة وأربعين بيتا.

فلقد عشقت أوائلي لا سيما
من جاهد وافى الله حق جهاد

ذهبت أوائلنا الأبوة لحالهم
بفعائل ليست بذات سواد

لكننا لم نقفهم، وبرورهم
حق على الأبناء والأحفاد

وأقل ما في البر من حق لهم
إنا عليهم نرتدي بحداد

وإذا أردت المجد تبني صرحه
فمجادة الآباء خير عماد

ويح الجزائر كم تعض على الجزائر
من حوادث يعتزين شداد

كل الشعوب تبيت فيما تشتهي
وبييت شعبي في ضنى وسهاد

وبنوالجزائر بعد ذلك لم يزا
لوا اليوم بين خصومة وتعادي

يبغون توحيد العقول، ودون تو
حيد العقول توجد الأجساد

تكفي الجزائر جامعا لشتات هـ
ذا الشعب من فرق ومن أفراد

أنا لا أفرق في بني هذا الجزائريين
ذي شرك وبين ذي إلحاد

إن كان حبك للجزائر خالصا
فلأنت أهل إخوتي وودادي

ماذا علي أكنت بعد أخا هدى
أم كنت معتكفا على الأوراد

كيف السبيل إلى الوفاق وأنت لم
تبرح لذنب أخيك بالمرصاد

ويعد هو عليك كل الصالحا
ت مآثما بتعنت وعناد

هذا هو الداء العياء يفت في
أعضائنا ويفت في الأعضاء

هيهاات نبلغ مأملا من دهرنا
مادامت الأخلاق ذات فساد
فلرب عائلة تبيت على الطوى
وأبوهم في غيهم تمادي
وأخي سماح في الخبائث مسرف
لكنه في البر غير جواد
هيهاات تصلح أمة ذي حالها
حتى ينادي للحساب منادي
من أبنائنا وأحالها لرماد
قتل الخمول مواهب النبغاء
كم مر من زمن على شعرائنا
وبضاعة الشعراء ذات كساد
هذا نراه زاهدا في نفسه
ويضل ذلك صارخا في وادي
حتى جمع محمد الهادي شتا
تهم بعزم كان خير عتاد
لم ألق من أبنائنا برا بأم
ته كمتلك حاضرا أو بادي
أخرجت رغم الدهر من شعرائنا
لهم كتاب تعارف وتهادي
أمجددا أدب الجزائر بعدما
ظنوه لا يحي مدى الآباد
أحييت ذكر الزاهرين الألى
وكذا تكون سلالة الأمجاد
أعددت مجدا للجزائر ذاهبا
بأحسن مجد للبلاد معاد
والمجد أرفع ما يكون بناؤه
متجمعا من طارف وتلاد
إن يتبع الشبان بعدك غاية
فلأنت للشبان نعم الهادي

ضقت ذرعا*

ذقت ذرعا بهذا الوجود
 أوجه مثل أوجه الناس ولكن
 قد بذلت الجهود لو كان يجدي
 أيها العالم لأرشيد الذي
 أنت في أمة تداركها الله
 أنت إن جنتم بعلم صحيح
 وإذا جنتم بحق صراح
 وإذا دعوتهم لهدي خير
 زعموا أنه نداء إلى دين
 وأشاعوا عليك أنك تدعوا
 وتمنوا لوأنهم قد أذاقوك
 حجة الجاهلين تلك فما
 ليس هذي " طريقة القوم" يا قوم

وبقوم طـول الزمان رقود
 خشب من ضلالة وجمود
 في بلوغ المراد بذل الجهود
 بمحض نحصا دوما لغير رشيد
 بلطف كصالح في ثمود
 أنكروه وقابلوا بالجمود
 فندوا الحق أشنع التفنيد
 الوري أوالى الكتاب المجيد
 جديد فأرجفوا بالجديد
 جهرة للإلحاد والتجديد
 صنوفا من العذاب الشديد
 تلقي لهم غير "قزولة" أو عمود
 ولا مذهب الإمام الجنيد

* ينظر: كتاب مجلة (آمال) الصادرة عن وزارة الثقافة، الجزائر، ج1، المتضمن (شعر ما قبل

الاستقلال)، الجزائر، دت، ص 32.

إنّما مذهب الإمام تغاض
 ولوانّ الجنيد" يبعث اليوم
 لدعاكم لما دعا"الطيب العقبي"
 لقد تقلّبت في الجزائر لم
 فإذا أمة تطيع الألى عندهم
 من شيوخ مرابطين ومن
 همّة الشيخ عندهم تتقد
 إنّما عناية الله يا قوم
 وإذا العلم في الجزائر لا
 هو في قومه مقيم على الضيم
 يسعد الآثم " المقدم" فيهم
 هذه الحال في الجزائر لا تبغوا
 وإخاء مع العدو اللدود
 حياً إليكم من جديد
 إليه بمقمع من حديد
 أترك قريباً منها ولا من بعيد
 الدين قصعة من ثريد
 يتبعهم من "مقدم" ومريد
 الحائر في القفر طائحا في البيد
 فلا تجعلوا لـه من نديد
 يجلب نفعاً للعالم الصنديد
 مقام المسيح بين اليهود
 وأخوالصالحات غير سعيد
 من الشرح بعد ذا من مزيد

★ البحر

لعل العنوان المناسب لهذه القصيدة هو في وصف البحر، وقد ثبت محمد السعيد الزاهري القصيدة في كتابه الإسلام في حاجة إلى دعاية وتبشير ص 69 بدون عنوان.

ما كان أشهاها إلي عشية	أمسيتها بجانب (البلـفار)
والبحر يكتف الجزائر كالهلال	ل مقوسا، أو مثل عطف سوار
والريح فوق الملاء تكتب أسطرا	ما كا أجملهن من أسطار
كتبت أسطر الاعتبار لمن تدب	رها، وموعظة لذي استبصار
قد يقرأ الناس الكتابة ، وهي لم	تك من براعة كاتب أو قاري
ولقد يكون البحر رهوا هادئا	إلا حراك تبعثر وعثار
فكأنه قفر الفلا : مرت به	غم فلم تترك سوى الآثار
أو أنه رمل بقاع صفصف	جادته بالأحجار سود سوار
والموج كالثعبان يهجم بالسوا	حل هائجا، لكن على الأحجار
وحجارة فوق العباب نواتيء	كخيام حي، خيمت بقفار
وقفاقع تبدو ككتان بنا	نقه منشرة على الأشجار

* محمد السعيد الزاهري: الإسلام في حاجة إلى دعاية وتبشير، دار الكتب، الجزائر، 1933م، ص 68. طلب صحفي أسباني من الزاهري التقى به على شاطئ البحر بوهران أن ينشده من أشعار العرب في البحر فتذكر هذه القصيدة التي قالها في مساء يوم على شاطئ البحر في العاصمة الجزائرية.

ج - ملحق النصوص النثرية

1- تمهيد:

تم ترتيب الصحف والمجلات في هذا القسم مطابقا لما هو عليه في القسم الأول. الصحف الوطنية أولا، ثم صحف المشرق العربي ثانيا، أما المقالات فكانت حسب الترتيب الزمني لتواريخ نشرها.

2- صحف المغرب العربي وبعض مقالات الزاهري بها

أ- الشهاب (الجزائر)

جناية الآباء

شباب مراکش يحيي شباب الجزائر

أطرقى أم سياسي

إلى البلاغ

نزع الأراضي من أصحابها

للنشر الحر

للنشر الحر 2

ب - الشريعة النبوية المحمدية (الجزائر)

الاجتماع

ألف وسبعمائة مسلم يدخلون في

يوم 2" ماي 1932م

في مجلس حجاج

من الزاهري إلى سائر الإخوان

ج - الصراط السوي (الجزائر)

اعترافات طرقي قديم

طه حسين شعوبي ماكر

الوهابيون سنيون

زيارة سيدي عابد

هل كان الشيخ التيجاني وهايبيا؟

زيارة سيدي عابد 2

ما العلاج

زيارة سيدس عابد 3

على هامش الحوادث: نقل الأستاذ العمودي إلى آفلو

ترجمة القرآن

المستشرق فنسناك

رسالة طائشة

جمعة ثانية

زيارة سيدي عابد4

شؤون وشجون

هلال رمضان

د- النهضة (تونس)

تزييف رد

أ- الشهاب

جناية الآباء...!*

إنه ليكاد يقتلني الأسي، و تكاد تذهب نفسي حسرات، على أبناء الجزائر الذين قتل مواهبهم الإهمال، وذهبت نبوغهم ضحية التربية الجاهلة.

لقد اشتعلت جوانحي أسفا على ذلك الغلام الصغير الذي كلف بالعلوم، وعشقها عشقا، ثم لم يجد إلى مناه سبيلا: منعه والده أن يضيع في القراءة ولو ساعة واحدة من حياته، لأن أباه الذي قد رزق بسطة في المال، وأوتي سعة في الرزق، لا يحسب العلم إلا وسيلة من وسائل العيش، وطريقة من طرق التحصيل، ثم لا يرى ذلك إلا بضاعة كاسدة، مالها من رواج في هذه البلاد، فهو خاف على ولده أن يضيع عمره فيما لا يجدي عليه في حياته شيئا، فسد عليه كل طريق يمكن أن يسلكه إلى العلم، وأغلق في وجهه كل باب ظنه يمرق منه إلى القراءة فطار عقل الغلام وجن جنونه، فلم يعد يهتف إلا بالعلم والعلماء عامة يومه، لا يسمع لأحد يحدثه إلا أن يخوض معه في حديث العلوم وأخبار العلماء والمتعلمين، ولم يعد يذوق النوم إلا ليذوق حلما لذيذا من أحلام العلم لا غير. قد أسلم نفسه إلى الأفكار والوساوس تذهب بها في كل مذهب، وتستن بها في كل سنن، قد يتلأأ صدره أملا ورجاء حتى يخيل إليه أنه صار عالما كبيرا، وإماما متبعا، أو كاتبا مبينا، أو شاعرا مبرزا، فيكاد يطير من شدة الفرح والسرور، وقد يضرب على صدره ظلام حالك من اليأس والقنوط، حتى يجد أمامه منفذا يخلص

* محمد السعيد، الزاهري: (جناية الآباء)، الشهاب، العدد 74، 4 جمادى الثانية، 1345هـ، ص 2.

منه إلى ما يريد، فإذا هو في ضيق شديد، لا يجد وجها للخلاص منه غير رصاصة يخرق بها (دماغه) ليستريح مما يعانیه من الشقاء في هذه الحياة، ولكن يصده عن ذلك إيمان ملاً عليه قلبه، وسائر مابين ضلوعه، فيعود إليه أمله ورجاؤه، فإذا هو ناعم البال، قرير العين، بعلوم جمّة خيل إليه أنه حصل عليها، وأنه أصبح يتيه بها تيتها، ولم يزل هكذا يناجي ظنونه وخواطره، وأحاديث نفسه وهو اجسها: يسعد تارة بالأمل والرجاء، ويشقى تارة باليأس والقنوط.

خلا مرة بنفسه - و قد حبب إليه أن يخلو بها - وأقبل عليها يحدثها في أمر أبيه، وفي منعه له من التعلم، ومن الاشتغال بالقراءة فتخيل أنه في ملاً من الناس يكلمهم في أبيه، وهم يلومونه على تناقله عن طاعته فيما أمره به من الاشتغال بالتجارة وترك القراءة التي لا يراها الأب تغني في الحياة شيئاً، فكلمهم بكلام كثير لا أحصيه ولا أحفظ منه إلا قوله: «أيها السادة المنصفون! إن أبي دائماً يغلظ لي في القول في غير ذنب، وينتهزني في كل يوم بغير حق. قد كانت لي رغبة شديدة في العلم، ولن تزال عندي محبة كبيرة فيه، وقد نهاني عنه أبي فيما مضى نهياً عنيفاً، وما كان ليأذن لي في الاشتغال به اليوم، وما أراه إلا نهياً لي عنه في القابل مادام حياً يرزق.

أيها الفضلاء! إذا أنا لم أتعلم فكيف أستطيع أن أعرف الله؟ وأعرف كيف أعبده؟ أم كيف أحسن إلى الوالدين؟ وأعرف مالهما علي من حق وواجب؟ ما أراني أستطيع ذلك بغير قراءة، وما أراه يتهيأ لي بدون علم أبد الدهر، أنتم تعلمون أن العلم نور يضيء الصدور، ويحيي القلوب حياة يعرف المرء معها كيف

يعبد الله لا يشرك به شيئاً، وكيف يحسن إلى والديه، ويعرف مالهما عليه من حقوق وما عندكم في هذا شك.

لقد كان حقا واجبا علي أن أطيع أبي، ولكن كان حقا عليه أيضا أن يعلمني كيف أطيعه؟ وكان خيرا له أن يأخذ في تأديبي بالتّي هي أحسن لا بالعنف والخشونة.

إننا سنختصم بين يدي الحكم الذي لا يظلم أحدا، ولا يحكم إلا بالحق بين عباده، على أنني حسن الظن في الله أن يبلغني مرادي من العلم قبل أن أفوت سن التعلم، ومن ظن الخير وعمل إليه لقي ما يظن، لا يجد عن ذلك محيدا.

لا تظنوا أن مجرد دعاء الوالدين على الأبناء يضر، ولا مجرد دعائهم لهم ينفع، فالضار والنافع إنما هو الله وحده، وليس ما يلاقيه الأبناء من شقاء الجهالة بناشئ عن دعاء الآباء، إلا الآباء الذين ربوا أولادهم وعلموهم فأولئك ما عليهم من سبيل.

هذه عقليتي أيها السادة، وهي الحق، ما فيها من مرية ولا ريب. وإني أرجوان لا تصدوا أولادكم عن القراءة مثلما صدني أبي عنها فإن العلم أعظم تراث تخلفونه لهم من بعدكم، ولتخافوا على الثروة العريضة أن يبعث بها الجهلاء من أولادكم، ويمزقوها وراءكم تمزيقا.

فلما أفاق وجد نفسه في توق شديد إلى العلم، ولوعة محرقة على القراءة، فبكى على نفسه بكاء مرا، وناح عليها نواحا حزينا، ثم هز قلمه وجعل يكتب آلامه، ويبث أحزانه، ويشرح بعض ما يجده في صدره من الحرقة على العلم،

فظننتني أسمع بأذني نشيجة الشجي فيما كتب، وحسبتي أرى ببصري ما يعالجه في صدره من الهموم والغموم، فرثيت له وبكيت له بكاء كثيرا، رحمة به، وإشفاقا عليه.

وما زال في مثل هذه الخواطر، لا يرتاح إلا إليها، ولا ينفس عنه عن غمته إلا وهمه وخياله، ولا يأنس إلا حينما يخلو بنفسه، يحدثها كما يشاء، وترد عليه كما يحب ويريد. قد نفر من الناس أجمعين، لأنه ما من أحد يلاقيه منه إلا ويعذله عن تبرمه من أبيه، وعدم رضاه بما رضي له من البقاء في الجهالة، والإعراض عن القراءة كل الإعراض، حتى ما تخطر بباله، ولا يمر ذكر العلم على لسانه، حتى وصف الناس هذا الغلام بالعقوق، وبالجنون، فنفر منه نفارا شديدا. ثم مازال يقاسي من أمره عذابا أليما، إلى هذه الساعة، وربما ظل أياما كثيرة لا يذوق طعاما ولا شرابا، وبات ليالي طويلة لا يطعم غمضا من شدة الشغف بالعلم، ومن شدة الاشتياق إلى القراءة ولم يكن أبوه يسمح له بالاشتغال بالعلم على أية حال.

إن كثيرا من الوالدين (في هذه الأمة) ليصدون أبناءهم عن سبيل الله، ولكني ما رأيت في الآباء أقسى قلبا، ولا أغلظ كيدا ولا أقل رحمة من هذا الأب المتحجر فؤاده، الذي لا يحمل بين جنبيه من عطف الوالدين مثقال حبة من خردل، ولا يملك من الشفقة ذرة، وإنني لا أحسبه يترك ولده هذا يشتغل بالقراءة أبدا، ولا أحسب الولد إلا أن يقضي من الوجد على العلم، ويموت شهيد الاشتياق إلى القراءة، لا يخطئه ذلك.

شباب مراکش يحيي شباب الجزائر *

في مراکش اليوم شباب ناهض، وعصبة مؤمنة وناشئة مباركة زكية تجد في تحطيم الشرك والخرافات، وتجتهد في تطهير عقائد المسلمين من شوائب الوثنية والضلال، وتدعوهم إلى سبيل المؤمنين بالحكمة والموعظة الحسنة، وتجادلهم بالتّي هي أحسن.

وقد رأى شباب الجزائر آثار هذه النهضة التي قام بها إخواننا شباب المغرب الأقصى فيما نشرته لهم صحف الجزائر من مقالات الهداية والإصلاح، ولا سيما مجلة الشهاب الجسور فإنه نشر لإخواننا المصلحين في المغرب الأقصى من الفصول القيمة ما لم تنتشر جريدة أخرى من صحف الإصلاح بالجزائر، فله الفضل في عقد التعارف بين شبان الجزائر وشبان فاس. وكنا معشر شباب الجزائر نبتهج بما نقرأه من أفكار إخواننا هنالك في المغرب الأقصى، ونتسقط أخبارهم بلهف شديد، وكلما نبغ فيهم كاتب أو شاعر تباشرنا به، وكاتب به بعضنا بعضا.

أذكر أننا كنا قرأنا ببسكرة قصيدة تطفح عاطفة وشعرا نشرها الشهاب الكريم لأخيينا شاعر فاس النابغة العبقرى الشاب السيد محمد علال، طالعتها: «أبعد مرور الخمس عشرة العب؟..» فتهاديناها بشارة يبشر بها بعضنا بعضا، فرحنا بهذا الشاعر الجديد فرحا شديدا. وكنا إذ ذاك أقمنا احتفالا لتكريم هذا النابغة تحت إشراف الأستاذ الفذ محمد الأمين العمودي ولم نذعه يومئذ على

* محمد السعيد الزاهري: (شباب مراکش يحيي شباب الجزائر)، الشهاب، عدد 126، السنة الثالثة، 20 جمادى 1346هـ، ص 4.

أسنة الجرائد لأنه كان احتفالا خاصا بالشعراء والكتاب ولأنه لم تلق فيه خطبة ولا قصيدة إلا كلمات قليلة قالها الرئيس وهو جالس أعجب فيها بالمحتفى به. وإلا ما ذكرته لهم من أني كنت نشرت في جريدة الزهرة أيام كنت أقرأ بتونس قصيدة طالعتها:

« تهش لنا الدنيا فنرضى وتقطب فنغضب والأيام ترضى وتغضب»¹

فلقيني من الغد الأستاذ الشيخ عبد الحميد باديس وبادرني بقوله: أهنتك بالشاعرية وأهني بك الجزائر... ومن حسن الاتفاق أن كانت قصيدتي هذه وقصيدة هذا الشاب النابغة من بحر واحد. وأظرف من ذلك أن أول قصيدة تجلت فيها شاعرية الكمييت وظهر فيها نبوغه وأذن له الفرزدق بإذاعتها بين الناس، كانت في هذا البحر وفي هذا الروي وهي التي يقول في مطلعها:

«طربت وما شوقا إلى البيض أطرب ولا لعبا مني وذو الشيب يلعب»

وكذلك كنا إذا ألم حادث برجل من رجال الإصلاح بالمغرب الأقصى توجعنا له وتألما لألمه، ويعلم الله ماذا فعل بنا الألم والأسى حينما سمعنا بنفي الأستاذ غازي وإبعاده عن فاس، ولم تسكن جوانحنا. وكانت "الشهاب" و"البرق" صلة بيننا وبين شباب المغرب فلما منعنا من الدخول إلى تلك الديار انقطعت عنا أخبار إخوتنا هنالك حتى لا نكاد نقف على خبر من الأخبار ولا على عقلية من العقليات، إلا ما نسمعه عنهم من الأخبار التي يجيئنا بها المسافرون القادمون من

¹ غير أننا تصفحنا (مجلة الزهرة) ولم نعر على القصيدة التي أشار إليها الزاهري ووجدناها في كتاب شعراء الجزائر في لعصر الحاضر لمحمد الهادي الزاهري بعنوان: وما الناس إلا اثنان، ص 79.

تلك الديار. وربما سمعنا عنهم أخبارا تذيبها صحافة الاستعمار، ولكن لا يكون لنا إليها من اطمئنان كبير.

كانت «الطان» نشرت في يوم 17 سبتمبر الأخير مقالا عن إخوتنا المصلحين بالمغرب، وما لا يلاقونه من وشايات أشياخ الزوايا هنالك قالت فيه: «الآن فقط عرفنا أن أشياخ الطرق وأبناء الزوايا هم أحباب فرنسا وخدمتها الصادقون لأنه لا يقع شيء من حركة الشباب اليوم إلا أخبارنا به حتى إنه لا يغرب عنا من أمال الشباب كلها مثقال حبة من خردل، ومع أن أشياخ الطرق عملوا لنا أعمالا صالحة وكانوا أعانونا على الاحتلال إعانة كبرى فإننا كنا نحسبهم مسلمين يخلصون للإسلام أكثر مما يخلصون لنا. أما اليوم فقد تبين لنا بالتجربة والعيان أنهم يخلصون لنا فقط ثم هم بعد ذلك لا يهتمهم إن أخلصوا للإسلام أم كانوا له غير مخلصين!...

في الجزائر اليوم وفي مراكش حركة إصلاح دينية اجتماعية يقوم بها شباب الجزائر وشباب المغرب الأقصى غرضها تطهير الإسلام من الجمود والأضاليل.

كانت حركة صغيرة لا أهمية لها، ولكنها عادت في أمد قصير ثورة قوية متسعة النطاق. وكانت لا تتجاوز نفرا من الشبان في الجزائر ومراكش فصارت اليوم تتناول أغلب طبقات المسلمين.

ويظهر أن الحركة حركة دينية اجتماعية فقط، لا خطر فيها على الحكومة وعلى جالية الفرنسيين، ولكنها كلها خطر وأي خطر على أحبائنا: أشياخ

الطرق وأبناء الزوايا، وعلى فرض أن تتقلب هذه الحركة إلى حركة سياسية فيها خطر علينا فإننا نطلع عليها سريعا لا محالة لأن أحببنا: أشياخ الطرق يخبروننا دائما بكل ما يقع من هؤلاء الشبان الناهضين.

ونحن يسوؤنا جدا، ونأسف كثيرا أن نرى أحببنا أشياخ الطرق تلتهمهم هذه الثورة الدينية الملتهبة التي أثارها الشبان عليهم وإن قيامة جميع المسلمين قامت على أبناء الزوايا ثم لا نجد إلى إغاثتهم سبيلا، لأن المسألة مسألة دينية محضة والحكومة لا تتدخل في الدين بوجه من الوجوه.

وسوف لا تبقي ولا تذر هذه الثورة أثرا لزاوية من الزوايا، وسوف تقطع دابر كل شيء من أشياخ الطرق لأن أصلها ثابت لا يتخلخل وأساسها أساس متين، ذلك هو القرآن الكريم الذي يؤمن به جميع المسلمين. وستجد هذه الثورة من أفعال أشياخ الطرق المخالفة للدين مؤيدا و نصيرا».

ثم اندفعت تعدد عن أشياخ الطرق تعديدا وتأبنهم تأبيننا كله أسف وحسرة وتبكي عليهم بكاء حزينا! وتذكر ما قدمته أيديهم للحكومة من صالح الأعمال فذكرت من ذلك شيئا كثيرا لا يكاد يقف عند حد، ولا يأخذه إحصاء.

ثم تبعثها جريدة «ليكو دوران» فنشرت في عددها الصادر في 30 سبتمبر الأخير مقالا في هذا الموضوع، اتهمت فيه هذه الحركة كذبا وبهتانا بأنه حركة مستمدة من حركة مصطفى كمال باشا، ومن حركة الأمير بن السعود. ثم ذكرت الثورات الخائنة التي ثارها أشياخ الطرق على مولاي إسماعيل وعلى غيره من سلاطين مراکش من قبل أن تضرب الحماية الفرنسية على تلك البلاد، وذكرت

الأعمال الصالحة التي عملها أشياخ الطرق للحكومة الفرنسية هناك وخصصت بالذكر منهم أشياخ الطريقة التجانية، وأشياخ الطريقة الدرفاوية وأشياخ زاوية «وازان» وأثنت عليهم ثناء عريضا على ما أظهره لفرنسا من البر والتقوى ومن الصداقة والإخلاص.

ثم قال: «... و هؤلاء أشياخ الطرق أحبابنا كانت قامت عليهم الطرابش الصغيرة بحركة دينية ما كنا نحسب لها حسابا، ولكنها اليوم أصبحت ثورة دينية قوية مشتعلة تأكل نارها أشياخ الطرق وما كانوا يعبدون من دون الله ولم تعد تقوم بها الطرابش الصغيرة وحدها ولكن تقوم بها مع ذلك العمائم الكبيرة، فإن كثيرا من أرباب المناصب الإسلامية العالية في المغرب الأقصى قد حالفوا الشباب على محق الطرق وهدم «الزوايا» ونزلوا فعلا إلى ميدان المقاومة والكفاح.

ويجب على الحكومة - وان كانت المسألة مسألة دينية - أن تعين أحبابنا أشياخ الطرق إعانة باطنة، وأن تتصرهم نصرا خفيا. ولا تضع الحكومة يدها في كفة الطرقيين جهارا فإن عامة المسلمين يفرون من الطرقيين ولا يعودون يثقون بهم متى علموا أنهم للحكومة أنصار وأعوان...».

ثم نصحت أبناء الزوايا - والدين النصيحة - أن يحسنوا حالهم وأن يكفوا عن الفواحش ما ظهر منها وما بطن أو ما ظهر منها على الأقل وأن يتظاهروا دائما بالولاية والصلاح حتى يكونوا للناس موضع «النية» و«الاعتقاد»!.

ثم انحنت عليه باللائمة المرة والعتاب العنيف على سوء ما يصنعون وعلى انهماكهم في الشهوات والموبقات، حتى وصفتهم بأنهم يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين... فاعتبروا يا أولي الأبصار...

ومنذ أسابيع مر بتلمسان قافلا إلا الأغواط فضيلة أختنا الأستاذ الشيخ أبي العباس أحمد بن محمد الأغواطي الترجمان اليوم بالأغواط. وهو من أنبغ من أنجبته الجزائر ومن أبر أبناءها العاملين، وله في مسألة الإصلاح والتجديد مواقف كريمة ولم يقفها غيره من المصلحين، وقد جاء ومعه أسرته بنية أن يصل أولي قرياه بـ "الأغواط" و"عين ماضي" وبنية التعرف إلى هؤلاء الشبان المصلحين الذين نشئوا في الجزائر بعد انتقاله إلى الرباط.

أضافه بـ "تلمسان" حضرة الأخ الكريم السيد محمد الصغير أبو صالح ثلاثة أيام قضيناها جميعا في الحديث عن الإسلام والمسلمين، وعن حركة الإصلاح في ماضيها وحاضرها ومستقبلها، فذكر لي أنه مغتبط كثيرا بشباب الجزائر، ومما لهم من الجرأة والإقدام في مسألة الإصلاح، وبشرنا بأن هناك في المغرب الأقصى شبابا ناهضا يجاهد في سبيل الله جهادا كبيرا، وأن مسألة الإصلاح والتجديد هنالك أكثر جدا منها في الجزائر، وشباب "فاس" أشد في دعاية الناس إلى الدين الخالص والإسلام الصحيح، وإن إخواننا هنالك يلاقون في سبيل الإصلاح من المحنة والبلاء ما لا يلاقيه أبناء الجزائر. ولكنهم كلما أودوا في سبيل الله أذية زادتهم إيمانا مع إيمانهم، وأن أشياخ الطرق هنالك كثيرون جدا لا يكادون يحصون وهم لا يقاومون شباب الإصلاح بالحجة والبرهان ولكن بالوشايات والأقاويل، والحكومة هنالك حكومة عسكرية.

على أنه قد اشتد اليوم ساعد الشباب الناهض هنالك بالأعيان والعلماء الذين نصرُوا الله ونصروا أولئك البررة الأطهار من الشبان المصلحين، فلم تعد المسألة مسألة شيوخ وشباب بل أصبحت حرباً عواناً بين الحق والباطل؛ وبين الإيمان والشرك، وبين القرآن والخرافات. ولينصر الله من ينصر من جماعة الشباب ودعاة الهدى ودين الحق وليقطع دابر أهل العماية والضلال، إنه لا يخلف الميعاد.

وذكر لي أن شباب المغرب الأقصى في شوق إلى إخوانهم شباب الجزائر وقال لي: إنهم جميعاً حملوني أن أبلغكم عنهم تحية وسلاماً، فقلت له بالأصالة عن نفسي وبالنيابة عن جماعة الإصلاح بالجزائر: «و عليهم السلام و رحمة الله من إخوان صدق وأنصار إلى الهدى ودين الحق».

أطرقى أم سياسي؟*

إلى السيد غلام الله النائب المالي والعمالي والعضو البلدي في تيارت

أيها النائب المحترم، إننا نعلم أنك تشغل ثلاثة كراسي في النيابة الجزائرية منذ وجدت إلى هذا اليوم، ولكن ما سمعنا لك قط كلمة واحدة في مجلس من مجالس النيابة، حيث يجب الكلام. ومع ذلك فإننا كنا نظنك ساكتا لا عن جهل، ولكن أسكتك ما أسكت زملاءك طلاب الأوسمة والنياشين، وبغاة التقرب والزلفى، وأحسبك الآن قد ظفرت بشيء مما تبتغي، فقد تكلمت ونشر لك "البلاغ" رسالة أرسلت بها إلى صديق لك تزعم فيها أنك كنت مشغولا بالمسألة الجزائرية وبمسألة الوحدة، وتصف جماعة الوفد بالمروق والانشقاق. مع أننا نعلم أنه لا يهملك من هذا كله إلا ما تحمله لرئيس الوفد من الموجدة والضغينة فرأيتها فرصة تتشفي بها من صاحبك، وتحصل منها على الرضى والقبول!... وقد زينها لك "مسيو بنتامي"¹ كما يزين الشيطان للجاهل المغرور، فأراك أن الرضى والقبول اللذين هما كل همك لا تتالهما إلا بالخروج عن جماعة الوفد وبالدخول تحت لوائه الأثيم. ولينك وقفت عند هذا الحد واكتفيت بهذا الخطأ السياسي ولكنك شعرت بعدم كفاءتك للكراسي النيابية التي تشغلها، وعلمت أن الناس لا ينتخبونك لولا أن والدك المرحوم كان شيخ طريقة ولولا أن الناس مازلوا في جهالة عمياء وفي ضلال بعيد يناقدون - لبساطتهم - إلى كل متصوف ولو كان لا يؤمن بيوم

* محمد السعيد، الزاهري: (أطرقى أم سياسي؟)، الشهاب، السنة الثالثة، عدد 154، 5 ذي القعدة 1346هـ، ص 11.

¹ - هوالدكتور بن التهامي رئيس تحرير جريدة "التقدم"

الحساب وعلمت أن الناس قد أخذوا في اليقظة والانتباه، وأن حركة الإصلاح لا بد مكتسحة كل ما كان في الطرق من شوائب الوثنية والضلال، علمت كل هذا فجعلت تؤيد الخرافات التي بها نجاحك في الانتخاب، و تؤيد "بن عليوة"¹ علة الفحش الذي تنشره جريدته كل يوم على الناس، وأنت من ألد خصومه الطرقيين وتحمل على المصلحين حملة جاهلة، فتزعم أنهم لم يفعلوا مثل ما فعل الطرقيون المبتدعون، ولولا سذاجتك لما احتجبت بهذه الحجة الداحضة، لأن مهمة المصلحين هي أن يهدموا مازاده الطرقيون في الدين من البدع والضلالات. وليست مهمتهم أن يزيدوا في الدين مثل ما أحدث الطرقيون المبتدعون فيه. فسعادة المسلمين أن يتلقوا هذا خالصا من كل وهم وخرافة» فافهم وتعلم يا سي عدة، كما قال الشيخ الزواوي».

ولو أنك اشتغلت بالسكوت كعادتك لكان خيرا لك وأبقى.

¹ - شيخ الطريقة المعروفة بالعلوية، وصاحب جريدة البلاغ

إلى البلاغ*

قرأت في العدد الأخير من "البلاغ"¹ كلمة وجهتها إلى "الشهاب" عنوانها: «مراجعة وعتاب» وهي كلمة نزيهة ما فاستحقت أن أستفهمها في قولها: لزمننا الاعتراف بأننا أسأنا فيما نشرناه عن الزاهري...

وأنا أريد أن أستفهمها وأستوضحها في معنى الإساءة التي اعترفت بها، فإن كانت تعني أنها إساءة للدين وما فيه من الفضيلة ومكارم الأخلاق بما نشرته عني من الفحش والقذف بالباطل المكذوب الذي لا تستطيع إثباته لا أمام الله ولا أمام الناس ولا أمام ضميرها إن كانت تعني هذا، فقد أساءت حقيقة إلى الدين، وكيف لا تكون مسيئة إليه وقد ارتكبت كبيرة من الكبائر وهي كبيرة القذف التي قذفتني بها، وقذفت كذلك معي مؤمنة غافلة، ولو كان للإسلام أمر لأقام حد القذف على "البلاغ".

وإن كانت تعني أنها أساءت إلى قرائها بما تنشره عليهم من الفحش وقول السوء، فإنها أساءت إليهم حقيقة لأن الجريدة العلمية الإرشادية التي تعلم الناس وتزكيهم (فيما تدعي) لا ينبغي لها أن تنشر عليهم من الفحش وقول السوء ما لا يقرأه الابن بين يدي أبيه، ولا التلميذ بين يدي شيخه، وما لا ينطق به حتى المرید في خلوته إن كان ذا إيمان وحياء. وإن كانت تعني أنها أساءت إلي أنا، فلتعلم أنها لم تبلغ مني ما تريد لأنني لا أنتظر منها من أول مرة غير الفحش وغير

* محمد السعيد، الزاهري: (أطرقني أم سياسي؟)، الشهاب، السنة الثالثة، عدد 154، 5 ذي القعدة 1346هـ، ص 12.

¹ - جريدة أصدرها شيخ الطريقة العليوية أحمد بن عليوة

الكلام القبيح، ولأنني أعلم أنها لا تعرف غير الكذب والسباب» وسباب المسلم فسوق» فلا أهتم بفحشها وقذفها لي بالزور والبهتان، وكيف أهتم بتهمة باطلة وبريبة كاذبة تحاول "البلاغ" إصاقتها بي، والله يعلم أنني بريء من أفك "البلاغ"، و"البلاغ" نفسه يعلم أنه فيها قذفني به أفاك أثيم.

ولو كان لي أن أنتقم من "البلاغ" لتمنيت له أن يستمر يقذفني بالإفك وبلغ في عرضي وفي أعراض المؤمنين والمؤمنات حتى يذوق الخزي في الدنيا، و يذوق في الآخرة عذاب الحريق. وهناك يكون قد خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين. ولكن ديني يأبى علي إلا أن أتمنى لسائر المسلمين كل خير وسداد.

نزع الأراضي من أربابها للاستعمار

موقف نوابنا اتجاهه

وعود جميلة لسمو الوالي العام*

لما عرضت مسألة أرض "كول" على النواب الماليين - تلك الأرض التي تقرر منحها للاستعمار وباعها مالكوها وأمضى سموالوالي السابق ذلك البيع وجاء نواب المعمرين اليوم يريدون إبطال ذلك البيع - اغتتم نواب القسم العربي الفرصة لإبداء رأيهم والدفاع عن مصلحة منوبيهم فحرروا لائحة هذا تعريبها:

إن قسم النيابات العربية.

(بعد اطلاعه على تقرير مسيو فروجي. يعتبر أن عصر نزع الأملاك لفائدة الاستعمار قد انقضى.

وفي الوقت الحاضر أصبح الأهالي يجدون ويجتهدون في استعمال الأساليب العصرية الفلاحية بصفة فعالة.

وانتزع الملكية عمليا وبصفة عامة يقع ضد الأهالي فمن واجب نوابهم أن يقاوموا هذه الأعمال كلما سمحت لهم الفرصة يقرر (القسم العربي) أنه لا موجب لتدخلاته لدى السيد الوالي العام ليطلب منه انتزع الأراضي المتكلم عنها.

* محمد السعيد الزاهري: (نزع الأراضي من أربابها للاستعمار موقف نوابنا اتجاهه، وعود جميلة لسمو الوالي العام)، الشهاب، السنة الرابعة، العدد 154، 17 محرم 1347هـ، ص2.

ويغتنم هذه الفرصة التي سمحت له اليوم ليطلب من الحكومة أن تقلع بصفة نهائية عن انتزاع الأرض لمصلحة الاستعمار).

ولما جاء دور الكلام في الجلسة العامة للنيابة المالية طلب سموالوالي العام من النواب العرب أن يسحبوا لائحتهم لأنها مضادة للاستعمار الذي هو في مصلحة الجميع ومضادة للأوامر الدولية فأجابه الأستاذ (سيسبان) بأن قصدهم ليس هو الضدية وأن هذا شيء لا يدور في فكر أحد وإنما هم يدافعون على مصلحة منوبيهم ويرون الذي يجب لهم من العناية ما يجب لإخوانهم الفرنسيين. وأصر سموه على لزوم السحب وإلا فإنه يطلب عرض أصل المسألة على الاقتراع.

فأجاب النائب (ابن باديس) بأنه لا يمكننا بحال أن نسحب الطلب.

ولما بقي سموه على تصميمه في طلب السحب ورأى النواب أن المسألة لما وصلت إلى هذا الحد لا بد أن يغلبوا بالأغلبية عند الاقتراع وأنهم قد أدوا واجبهم بإبداء رأيهم وبذروا أصولها في عالم الوجود، سحبوا طلبهم قطعاً للهرج، واعتماداً على وعد سموالوالي العام لهم بأنه لا بد من مراعاة جانب المسلمين في المستقبل فيمنح العرب الفلاحون قطعاً من الأرض.

ونحن بعد تقديم شكرنا بلسان الأمة لنوابنا الذين قاموا بواجبهم نحو هذه المسألة الهامة خير قيام، وشكرنا لسمو الوالي العام على حسن وعده وهو الرجل الذي تشهد تصريحاته الرسمية بأنه يعتني بالمسلمين والفرنسيين على حد سواء ممن غير تفرقة - فإننا لا نكتم الحكومة أن أولئك النواب قد أعربوا عن فكرة عامة

وشعور متمكن بالتألم من ذلك النزاع فإن الجزائريين - وقد عاشروا إخوانهم الفرنسيين قرنا - قد تعلموا منهم وصاروا يعرفون قيمة الأرض ويعتبرونها مادة حياتهم ويرون أنفسهم قادرين على عمارتها لو وجدوا من المساعدات ما يجد غيرهم.

ويعدون نزعها منهم على أي وجه كان معاملة لا تتفق مع ما يقدمونه لفرنسا من الخدمات كأصدق أبنائها، وما لهم معها من ارتباط مكين وإخلاص تام. ومن الحق والعدل أن أمة لا يخلو بيت من بيوتها من شخص أو اشخاص خدموا الجندية الفرنسية - أن لا ينزع منهم شبر من أرض. نحن نصرح بهذه الحقيقة بلسان الأمة للحكومة لنتظرها بعين الاهتمام. وتتصفها فيها حرصا منا على نفع الجزائريين بما يزيدهم في فرنسا حبا وإخلاصا وتعلقا.

في النيابة المالية

ذكر الشهاب في باب السياسة المحلية أن النائب المالي السيد غلام الله قد اقترح على القسم العربي أن تكون الوظائف الدينية في المساجد لأهل الكفاءة سواء كانوا من أبناء المدارس أو من المتخرجين من "الزيتونة" أو "الأزهر" وذكر (الشهاب) أن القسم العربي المالي قد صادق على هذا الاقتراح بإجماع، ولم يبق إلا موافقة الحكومة.

وأنا أقول أن هذا بعض اقتراح كنت أرسلت به إلى أربعة من النواب الماليين، في رسائل خاصة، منهم السيد(غلام الله)، ليعرضه على المجلس فعرض السيد (غلام الله) فصلا من فصوله، وشكرا له على كل حال.

وأذكر من باقي الاقتراح: أن تعاد الوظائف الدينية التي حذفت منذ زمن غير بعيد، وأن تحدث وظائف تدريس ديني في ثلاثة مواضع على الأقل، في الجزائر وقسنطينة وتلمسان، أو تكون كلها بالعاصمة فتكون بها شبه كلية لدرس الديانة الإسلامية وآدابها.

ومنه إباحة التعليم الديني في المساجد لكل عالم مسلم جزائري بلا قيد فإن المساجد اليوم غير مباحة لكل من يريد أن يتطوع من أبناء الجزائر بتعليم قومه أمور دينهم إلا من يتحمل منهم صعوبات كثيرة في الحصول على رخصة التطوع فيها بالتدريس الديني.

وهذه تلمسان مثلا فيها أكثر من ثلاثين مسجدا، ومع ذلك فليس فيها أحد يعلم المسلمين دينهم، وليس معنى هذا وجود العلماء الأكفاء، بل أن من له أمر المساجد يمنع المساجد من قراءة الدين فيها.

وليس كل أحد يستطيع أن يتحمل الصعوبات حتى يحصل على رخصة التدريس المجاني في المساجد.

وكنت ذكرت في الاقتراح أنه إذا دام هذا الحال وبقيت موصدة الأبواب في وجوه علماء الدين. فإن حالتنا الدينية تؤول إلى سوء المصير. وأن علماء الدين الذين يتخرجون كل عام من "الزيتونة" أو "الأزهر" أو من غيرهما إذا دامت هذه

الحال، فإنه ستسوء حالهم كما ساءت من قبل حال حفظة القرآن، نحن نصرح
بهذه الحقيقة بلسان الأمة للحكومة لتتظرها بعين الاهتمام. وتتصفها فيها حرصا
منا على نفع الجزائريين بما يزيدهم في فرنسا حبا وإخلاصا وتعلقا

النقوض والردود

"النشر الحر"*

للكاتب الكبير

في باب النشر الحر من الشهاب الأغر عدد 151 قرأت مقالا عنوانه "التجربة خير دليل" بعث به إلى الشهاب السيد "الطريقي العليوي" ليختبر به الشهاب فيما يقول من أنه فتح باب النشر الحر على مصراعيه في وجوه سائر الكتاب، سواء كانوا مصلحين أم كانوا خرافيين لا يشترط فيهم إلا الأدب والإنصاف.

وقد رأيت في هذا المقال ما لم يسعني السكوت عنه فأحببت أن أكون لهذا الكاتب من المجيبين أو من المناظرين.

وليس يهمني أن أظهر اسمه الصريح فيما بعد كما وعد أم لم يظهره لأن كلامي مع كلامه لا مع شخصه.

وليس لي فضل في الوقت حتى أتوسع معه في البحث والمناظرة توسعا يخرجنا من "القصد" إلى الإسراف، فقديما قيل "خير الكلام ما قل ودل". إلا أن تكون بنا حاجة إلى الإفاضة والبيان وإنما دعاني إلى إجابة هذا السيد قوله في آخر كلامه: "وحسبنا كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم" وسأجاريه

* محمد السعيد الزاهري: (لنشر الحر)، الشهاب، السنة الرابعة، العدد 154، 17 محرم 1347هـ،

في الترتيب الذي وضعه لمسائله وربما قسمت المسألة الواحدة إلى مسألتين أو أكثر لأنها كذلك في نفس الأمر.

1- هنا روى الكاتب عن الشهاب بالمعنى واللفظ من عنده هذه الكلمة:

لا يغرنكم بعض الطريقين! الذين جعلوا الدروس في زواياهم وذلك لحاجة في نفس يعقوب. ثم أجاب السيد "الطريقي..." عن هذه الكلمة التي نسب معناها إلى الشهاب بقوله: ونحن نقول بدل هذه الفقرة لا يغرن من يدعي أنه مصلح مع أنه لم يصلح نفسه فلو كان صادقاً لبدأ بنفسه أولاً؟

وأنا أجب حضرة السيد "الطريقي العليوي" بأن مرتكب الإثم إذا ناه ناه فليس له إلا أن يكف وينتهي إن كان يؤمن بالله واليوم الآخر.

وما يكون له أن يستهتر في إثمه ثم يخلق الإثم ويتقول المزاعم على من ناه عن المنكر بدلا من الانتهاء والإرعواء لأن المسألة مسألة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا مسألة محاربة وخصام. وكل مسلم له أن يأمر بالمعروف الذي يراه الإسلام معروفا وله أن ينهى عن المنكر الذي يراه الإسلام منكرا وكل مسلم عليه أن يأتمر ويمتثل إذا أمر بالمعروف وعليه أن ينتهي إذا نهى عن المنكر. والحكمة ضالة المؤمن أينما وجدها التقطها وليس يضر مسلما أن يأخذ العلم والحكمة من أي عالم ومن أي حكيم وليس يعني المسلم سيرة العالم أو الحكيم مادام لا يطلب منه غير العلم والحكمة.

والعالم لا بد أن يفيد مربيه بعلم، والعالم العامل بعلمه هو العالم المعلم الذي لا يبخل بعلمه عن الطلاب والمريدين والعمل بالعلم هو التعليم والتدريس لا

غير ولا أفسر العالم العامل بالعالم العابد كما - يقولون - لأن هذا التفسير لم يقم عليه دليل.

والعالم العامل (المعلم) إن كان ذا خلق كريم وعمل صالح كان يومئذ عاملا معلما بأقواله وأفعاله معا. وإن كان صغير النفس وضعيف الإدارة فمثله كمثل المصباح يحترق هو في نفسه ويستضيء به الناس.

على أن جماعة الإصلاح لم تدع الناس إلى مذهب جديد (أو دين جديد كما يقول عنهم الطرقيون) وغاية ما كان أن المصلحين يدعون إلى القرآن الكريم وإلى إتباع الرسول صلى الله عليه وسلم وكل من كان يؤمن بالله وآياته ويدعون مع ذلك إلى ترك الطرق وما فيها من خرافات وأضاليل تناقض الدين.

وأن السيد الطرقي العليوي لا يعتقد أن الطرق خرافات وأضاليل تناقض الدين بل يعتقد أنها الحق وأن الذين ابتدعوها رجال أختيار أتقياء فإنه لا يستطيع أن ينكر أن سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم خير منهم وأتقى وأنه هو الرسول الذي أرسله الله بالهدى ودين الحق لا أولئك الطرقيون المتصوفون وأن ما جاء به سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم هو الحق من عند الله.

وإذا كان هؤلاء المتصوفون قداماء وأولين فذلك لا يوجب علينا أن نتبعهم على غير هدى فإن قدم العهد لا يجعل الباطل حقا ولا البدعة دينا ولا يبدل السيئات حسنات على أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أقدم من هؤلاء المتصوفين وإذا كانوا مكرمين عند الله فإن أعناقهم تنقطع دون ما للرسول والأنبياء من الدرجة الرفيعة والمقام المحمود.

وإذا كانوا أولياء صادقين كما يزعمون فإن الله تعالى يقول: {...اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء قليلا ما تذكرون} ومن أصدق من الله حديثا.

وأحسب أن السيد الطريقي العليوي لا ينكر أن إقبال المسلمين على الذكر الحكيم "القرآن" وتفهمهم لمعانيه، وتدبرهم لآياته هو خير لهم من الإقبال على شطحات المتصوفين والعكوف على أورادهم التي سموها "ذكرا" وما هي بذكر.

وأحسبه لا ينكر أن حفظ كتاب الله ودراسته أحسن وأولى للمسلمين من أن يصرفوا أوقاتهم في حفظ "خمرات" المحبين وفي تأويل كلام ذوي الألسن الأعجمية.

وأحسبه لا ينكر أن المسلمين لا يفلحون إلا إذا تخلقوا بالقرآن وتأدبوا بآدابه لا بأخلاق المتصوفين ولا بآدابهم، فإن العرب - قبل القرآن - كانوا في جاهلية عمياء وفي ضلال مبين وفي توحش كثير فلما نزل القرآن وتأدبوا بآدابه وتربوا بتربيته وأصبحوا في لمحة بصر كأنهم ملائكة وتفوقوا على سائر البشر في أيامهم. فبالقرآن وبما فيه من خلق وفضيلة بلغ المسلمون الأولون ما بلغوا من العزة والسلطان.

بلغوا ما بلغوا في الحياة وبعد الممات بالقرآن لا بالتصوف وما فيه من "خمرات" وأوراد وخوارق!..

وأحسبه لا ينكر أن هذا القرآن مازال حيا وكلام الحي حي لا يموت وما زال عربيا مبينا، وأن المسلمين اليوم يمكنهم أن يتربوا بتربية القرآن ويتأدبوا بآدابه

ويقبلوا على دراسته حتى يبلغوا به الدرجة الرفيعة التي بلغها أسلافنا الكرام في الدنيا والآخرة.

وكيف لا يمكن المسلمين أن يتربوا بخلق القرآن وهم مكلفون به ومسؤولون عنه، والقرآن حجة لك أو عليك.

ولا ينكر السيد الطريقي العليوي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أعظم من كل عظيم وأتقى من كل تقي وأنه هو أولى بالإقتداء به من كل إنسان آخر كائنا من كان صوفيا أو غير صوفي وأن الإقتداء به ما زال ولن يزال حتما مفروضا على كل مسلم لأن الله عز وجل يقول: { لقد كان لكم في رسول الله إسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر }. وهو رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول "لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به".

إن كان السيد "الطريقي العليوي" لا ينكر هذا فلماذا لا يكون مع المصلحين يدعو الناس إلى الله ورسوله وإلى دراسة كتاب الله ودراسة سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم وإدخال محبته "صلى الله عليه وسلم" في قلوب المؤمنين بدلا من دراسة "القوم" وبدلا من سير "القوم" وبدلا من إدخال محبة "القوم" في قلوب المؤمنين لأن المصلحين إنما يدعون إلى كتاب الله الذي شغلهم عنه كتب "القوم" وإلى الإقتداء برسول الله وخاتم النبيين الذي يشغلهم عنه اقتداؤهم بأشياخ الطرق والمتصوفين وإلى التغلغل في حب المصطفى صلى الله عليه وسلم بدراسة دينه الحق واستقصاء سيرته التي شغل المسلمين عنها اشتغالهم بما ابتدعه "القوم" من أورااد وأدعية!

وإنك لتجد الطرقي يعرف من أخبار المتصوفين ما لا يعرفه من سيرة النبي صلى الله عليه وسلم ولا من أصحابه الكرام والسلف الصالح رضي الله عنهم وبهذا أحسبني قد أوضحت للسيد "الطرقي العليوي" حقيقة "الإصلاح" ومهمة هؤلاء المصلحين وما هي إلا دعايتهم الناس إلى الله وحده ورسوله "صلى الله عليه وسلم" ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إنني من المسلمين.

وأني عمل صالح خير من الدعاية إلى الله ورسوله بالقول والعمل، وقد دعا هؤلاء المصلحون إلى الله ورسوله وقد عملوا بذلك عملاً صالحاً وما زالوا ولن يزالوا يعملون الصالحات وقد لاقوا في سبيل الله ما لا يتحملة إلا عباد الله المخلصون فهلا يعدهم "الطرقي العليوي" بعد هذا كله مصلحين صالحين..؟

...أظنه لا يعدهم مصلحين ولا صالحين لأن الإصلاح والصلاح عنده هما خير الدعاية إلى الله ورسوله وهداية الخلق... ولأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من عبادة ألف سنة، بل الإصلاح والصلاح عنده هما العكوف على الأوراد والاستغاثة بالأشياخ فيما لا يغاث فيه إلا بالله وحده ولذلك يقول بعدما تقدم: "ولقد شاهدنا وجميع المسلمين! جماعة الإصلاح يلهون بغير ذكر الله".

وما هو ذكر الله يا هذا؟ لعلك تريد بذكر الله الذي يلهو بغيره المصلحون تلك الأوراد التي أحدثها أشياخ الطرق في دين الله وتلك الأدعية والأحزاب التي شغلوا بها عباد الله المؤمنين عن ذكر الله وعن الصلاة. إن كان هذا مرادك بذكر الله فإن ذكر الله وإن ذكر الرحمان وإن الذكر الحكيم إنما هو القرآن الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه قال تعالى: ﴿أَوْ عَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرُ

من ريكم على رجل منكم لينذركم} وإن ذكر الله هو الدعاية إلى الله ورسوله من البيئات والهدى قال تعالى: "ولا تنيا في ذكرى...". وهذا هو ما يهتم به المصلحون وكيف تلوم المصلحين على أن لم يشتغلوا بتلاوة الأوراد المملوءة بالوثنية والضلال.

والمصلحون إنما هم دعاة يدعون المسلمين إلى الرجوع إلى القرآن الكريم ليخرجهم من الظلمات إلى النور ويسعون في نسخ تلك الأوراد بالقرآن والنبى صلى الله عليه وسلم لبث طول حياته في قومه يدعو إلى الله على بصيرة ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة فهل يستطيع "الطرقى العليوي" أن لا يصفه بأنه صلى الله عليه وسلم أول الذاكرين لأنه كان يتعبد بالدعاية إلى الله وبتزكية المؤمنين وبتعليمهم الكتاب والحكمة ولم يشرع لنا أوراد الطريقين لا ولا أنكارهم ثم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم - وهم السلف الطاهر - فإن أعمالهم لم تكن هي الانقطاع إلى تلاوة الأوراد بل كانوا يدعون إلى الله ورسوله ويجاهدون بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله فنفروا في البلاد لنشر دعوة الإسلام ولولا ما كانوا يتحملونه في سبيل نشر الدعوة لما بقينا نحن اليوم بعدهم مسلمين. فهل يستطيع "الطرقى العليوي" أن لا يعد هؤلاء الصحابة رضي الله عنهم من الذاكرين الله كثيرا وهم لا يشتغلون قط بتلاوة هذه الأوراد التي يسميها ذكرا وما هي بذكر؟؟..

إن ذكر الله يا هذا هو تلاوة القرآن وتدبر ما فيه من حكمة بالغة وموعظة وذكرى، والدعاية إلى الله ورسوله. والمصلحون يذكرون الله هذا الذكر بقدر ما يستطيعون.

وأما الأوراد الطرقية فليست من الذكر في قراح ولا مغوى وما نهض
المصلحون إلا ليميتها وليحلوا محلها آيات الذكر الحكيم والقرآن. لعل "السيد
الطريقي... " يعترف بهذا ولا يحوجنا إلى زيادة البيان.

النقوض والردود

"النشر الحر"*

ولعله يظن الإسلام مقصوراً عن المحارِب لا يخرج من المساجد كالمسيحية التي لا تكون إلا في الأديرة والكنائس فإنه يحط من المصلحين بقوله: "شأن المصلحين أن يعمرُوا مساجد الله ويذكر (!) فيها اسمه ولكن مصلحي اليوم يعمرُوا (!) المقاهي الإفرنجية خصوصاً في أوقات الصلوات!..."

إنَّ هذا السيد قد جعل الطريقة وما فيها من مناسك مأخوذة عن المسيحية هي أصل الإسلام وجعل يزن الصالحين بميزانها لا بميزان الدين الحنيف. فإنَّ النَّبي صلى الله عليه وسلم لم يجئنا بالرهبانية ولا بالمسيحية بل كان يغشى مجامع المشركين من كفار قريش ليبلغهم ما أنزل الله عليه من الكتاب. وعلى المصلحين أن يقتدوا به وأن يفسحوا مجامع المسلمين ليهدوهم إلى دين الله ليرجعوا بهم إلى كتاب الله. على أن المصلحين يريدون أن يعمرُوا مساجد الله بدراسة كتابة الله وبما عندهم من العلم والإصلاح وليطهروا المساجد مما فيها من بدع الطرق ذات الشهيق والنهيق التي ما أنزل الله بها من سلطان ولكن المساجد - كما ترى - مغلقة الأبواب في وجوه المصلحين لا يستطيع المصلح أن يتطوع بتعليم المسلمين أمراً من أمور دينهم في مسجد من المساجد، لأن المساجد - كما تعلم - وقف الموظفين الرسميين وأنت تعلم من هم الموظفون الرسميون في المساجد.

* محمد السعيد، الزاهري: (النشر الحر)، الشهاب، السنة الثانية، العدد 155، 24 محرم، 1347هـ، من

على أن شيخ المصلحين الأستاذ باديس قد استطاع - بعد صعوبات - أن يعمر الجامع الأخضر وكثيرا من المساجد بالتعليم والتدريس وبال دعوة والإرشاد حتى يخرج عليه علماء وحملة أقلام في هذه البلاد عدا ما يستفيدة العامة كل ليلة من دروس التفسير ودروس الحديث التي كان ولا يزال يقوم بها فضيلة شيخ المصلحين وإذا استثنيت الأستاذ باديس فإنك لا تكاد تجد في قسنطينة من يعمر مساجد الله.

وهذا الزعيم المصلح الكبير الأستاذ (العقبي) يقوم منذ أمد بمحاضرات أو بدروس كبرى في الدين والاجتماع: هي تلك التي يلقيها في تفسير كتاب الله في جامع بكار ببسكرة ذلك الجامع الذي ليس فيه موظف رسمي والذي يعمره كبير من كبراء المصلحين.

وبالجملة فإن المصلحين (أينما كانوا) يعمرن مساجد الله بكل ما في وسعهم ولكن كثيرا منهم ساقهم سوء البخت إلى البلدان التي مساجدها لا تفتح لغير الموظفين الرسميين وهي أكثر بلدان الجزائر فإن مكن الله هؤلاء المسلمين مساجدهم فإن المصلحين أول من يعمر مساجد الله ويعلمون فيها أمور دينهم لا يريدون منهم جزاء ولا شكورا. وليكن في علم السيد الطرقي العليوي أن أول من سعى في خراب مساجد الله من المسلمين هم السادة الطرقيون الذين أحدثوا زواياهم ضررا وأرصادا لمن حارب الله ورسوله، فشغلوا بها المسلمين عن المساجد ولا يستطيع السيد الطرقي العليوي ولا غيره أن يسمي زوايا الطرق مساجد لله لأن كل طائفة تخص بزوايتها وتملكها ملكا لا تتركها معه مفاضة شائعة بين سائر المسلمين ولا تبيح لعالم من العلماء أن يدخلها أو أن يعمرها بدراسة كتاب الله وسيرة

الرسول صلى الله عليه وسلم إلا من يتلو على تلك الطائفة "مناقب" مؤسس طريقته، ويقص عليهم من الحكايات ما يملأ قلوبهم بمحبة الطريقة وبمحبة رجالها وعمدها. وفي ذلك من وسائل الكسب ما لا يخفى على "الطريقي العليوي" وفيه ما فيه من الضرر بالدين والصد عن سبيل الله.

وبعد فإن المصلحين لا يعمرن عوض المساجد المقاهي الإفرنجية بل الذين يعمرونها هم سادتنا! أشياخ الطرق وإنّي أحيل الطريقي العليوي على أن يسافر إلى قسنطينة أو الجزائر أو وهران أو تونس أو باريس أو غيرها من المدن الكبرى وليراقب هناك أشياخ الزوايا الذين يؤمنون تلك المدن فإنه يرى منهم في مجالسهم وفي مضاجعهم وفي غدواتهم وروحاتهم وسهرتهم ما لا شرف فيه ولا عفاف. لأنهم هناك لا يخشون وازعا ولا رقيبا وما الرقيب الذي يخافونه عند عامة الناس الذين يعيشون على حسابهم. وهذا هو المانع الذي يمنع بعضهم من الجلوس في المقاهي الإفرنجية في البلدان والقرى التي يسكنونها ومع ذلك فإن كثيرا منهم قد اتخذوا في ديارهم وزواياهم مقاهي إفرنجية لأنفسهم ولضيوفهم الإفرنج الأجانب ولأهل الخصوصية من الأتباع المقربين. وإذا شككت يا حضرة الطريقي... فهيا بنا رجلي برجلك لندنومن بعض الزوايا فهناك ترى من مصرع الدين والفضيلة ما يدمي فؤاد كل من يؤمن بالله واليوم الآخر...

يا ابن الكرام ألا تدنو فتبصر ما قد حدثوك فما رأى كمن سمعا

إني لا أستطيع أنا أكتب إليك في مجلة عمومية كل ما شهدته بنفسي في بعض الزوايا من المناكر والكبائر ولكني ألفت نظرك وأحيلك على أن تتبع الواقع بنفسك فإنه ليس كالعيان بيان.

وأما ما ترمي به المصلحين - كغيرك من الطرفين - من أنهم لا يقيمون الصلاة... فإنه قذف نستغفر الله لك منه، ولعلك أردت أن تصف بترك الصلاة جماعة الطرفين فغلطت بوصفك بها جماعة المصلحين. فارجع إلى عقلك وقل استغفر الله. فإن المصلحين يؤمنون بالقرآن الذي يقول: { حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى و قوموا لله قانتين }، ويقول: { إن الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا }، وفيه آيات كثيرة أخرى تأمر المؤمنين بإقامة الصلاة وأن الطرفين يؤمنون بسطان الصالحين الذي يقول:

وقالوا لي يا هذا تركت صلاتك ولم يعلموا أنني أصلي بمكة

وكذلك يروى عن كثير من الأغواث والأقطاب أنهم لا يقيمون الصلاة فإذا قيل لهم في ذلك أجابوا بأنهم يصلون بمكة أو بأنهم يصلون بقلوبهم أو بأنهم أولياء الله وأحبائه يحبهم ويحبونه وإذا استوى الحب سقط الأدب، والأدب هنا عندهم هو الصلاة وسائر الفروض الدينية وهذا أمر شائع عند سائر الطرفين وفي كتبهم. فالمصلحون لا يمكن أن يتهاونوا بالصلاة المفروضة ما لم يكونوا "أغواثا" أو "أقطابا" أو "مقربين" أو "عارفين" أو "محبين".

وأما ما ذكرته من مسألة الأستاذ (العقبي) المصلح الكبير ومخاصمته لذلك "النصح" الذي أكل أموال (العقبي) المهاجر وكل أموال أبناء عمه المهاجرين

ودخل السجن من جراء أكله مال المهاجرين بالباطل وأثبتت المحكمة فيه نيفا وثمانين ألفا من الفرنكات للعقبي ولبني عمه إلى آخر المسألة. فهي مسألة خاصة لا دخل لها في الإصلاح وما يكون لك أن تذكرها - والحق ظاهر - إلا أن تتصر فيها (العقبي) المظلوم الذي اعتدى "نصوحك" على ماله وأكله بغير حق. وما تريد من العقبي فهل تريد منه أن يأكل "النصوح" أمواله ويسكت! سبحان الله! ومن هو النصوح؟ فهل هو الذي أكل مال العقبي وأكل معه مال اليتامى و {الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما إنما يأكلون في بطونهم نارا وسيصلون سعيرا}.

2- هنا ذكر "الطريقي العليوي" ثلاثة أشياء عن الزاهري: الأول تقديم الشهاب للزاهري على غيره من الكتاب. الثاني أن كتابات الزاهري مملوءة همزا ولمزا. الثالث أنه لا يصدق الزاهري فيما ادعاه من أن ابن عليوة فسّر سورة والنجم بنصوص الإنجيل.

فأمّا قوله: إن الشّهاب ينشر لـ (لزاهري) ويقدمه على غيره... فأجيبه بأن (الشهاب) لسان الشباب الناهض بالقطر الجزائري و(الزاهري) واحد من الشباب الناهض الجزائري و(الشهاب) مع ذلك يرحب بكل كاتب لا يكون من الشباب الناهض مثل "الطريقي العليوي" والسيد "الصدقاوي" وغيرهما من الطرفين وإذا كان الشهاب لا يضيق عن الكتاب الطرقيين وهولسان الشباب الناهض أحد جماعة الإصلاح؟...

إن جريدة (البلاغ) الطرقية خالصة لك أيها "الطرقي" من دون المصلحين فهل ضاقت عنك بما رحبت حتى جئت تفرق بين الشباب الناهض وبين لسانه جريدة الشهاب؟..

إن الرابطة بين (الزاهري) وبين (الشهاب) هي رابطة التعاون على خدمة الإسلام وعلى خدمة الجزائر، فإن دام هذا فذلك وإلا فللشهاب كتاب غير الزاهري، وأن أمام الزاهري جرائد أخرى غير الشهاب. والشهاب يقدم الزاهري تارة ويؤخر مقالاته مرة أخرى على مقتضى الحال وإذا كان "الطرقي العليوي" لا يرضيه إلا سكوت الزاهري فإن الزاهري لا يهمله إلا أن يرضي دينه ووطنه وضميره ثم لا يعنيه بعد ذلك أرضي الناس أم كانوا غير راضين وإن كان يريد أن يسكت كل صوت إلا أن يكون طريقيا فما إلى ذلك من سبيل ففضى ذلك الزمان الذي كان فيه العلماء يخافون - إذا هم قالوا الحق - من العامة والمتفقيين أن يفرطوا عليهم بالقتل والاعتقال أو أن ينزفهم - على الأقل - بالمروق والاعتزال والإفك والبهتان وأما ما تدعيه من أن مقالات الزاهري مملوءة همزا ولمزا في أعراض (العليويين) فهو كلام باطل يكذبه العيان إلا ما يكون من الأجوبة التي فيها صرامة المحق المظلوم والتي أوجهها البلاغ العليوية خصوصية تبيح لها أن ترتكب فاحشة القذف الذي تستوجب له إقامة الحد عليها ولا ترى للزاهري حقا أن يدافع عما له من الكرم والدين.

ولعلك لا ترى للزاهري عرضا يجب أن يحترم كما يجب أن تحترم سائر أعراض المؤمنين إنك إذا لمن الظالمين. وأما شكك في صحة ما ادعاه الزاهري من أن العليوي يفسر سورة النجم على مقتضى الإنجيل فإني أجيبك: عن هذا جوابا

بسيطا وهو راجع بنفسك ذلك التفسير المطبوع باسم (بن عليوة) فإنك بلا شك تجده يكاد يكون نسخة من نسخ الإنجيل، وإذا لم تجده فإنني أتشرف بأن أهدي نسخة منه إليك.

3- "الطريقي العليوي" يبيح لشيخه بن عليوة أن يؤذي رسول الله صلى الله عليه وسلم وأن يسيء معه الأدب ويعذره بأن فلانا وفلانا من الذاكرين الأولين قد آذوا الله ورسوله صلى الله عليه وسلم وانتهكوا حرمة الإسلام قبل بن عليوة وذكر قصيدة مملوءة بالكفر يقول فيها قائلها:

وأعلم علم الله أحصي حروفه وأعلم رمل الأرض كم هو رملة

أنا الواحد الفرد الكبير بذاته أنا الواصف الموصوف شيخ الطريقة

ونسب "الطريقي العليوي" هذه القصيدة إلى الشيخ عبد القادر الجيلاني وما هي للجيلاني لأن من الطريقيين من يدعيها لنفسه ومنهم من يدعيها لمرييه ومنهم من يدعيها لعبد الكريم الجيلاني... وفي الحق أن قائلها "حشاش" قالها وهو "يتكيف" وسواء كان قائلها قديما أم جديدا صوفيا أم غير صوفي فهي كفر ضلال لا يرضى الله بها ورسوله "صلى الله عليه وسلم" ومن شك فليعرضها على القرآن الكريم وإذا كان الذين يؤذون الله ورسوله يسمون أولياء عارفين فإن إذابة الله ورسوله لا يقدر عليها إلا الذين لا إيمان لهم ولا هم ينتهون. وليس من الدين أن نفتح باب التأويل لهؤلاء الذين يؤذون الله ورسوله "صلى الله عليه وسلم" ويعبثون بتعاليم الإسلام لأننا إذا فتحناه لم يبق أمامنا حد بين الكفر والإيمان ولا فرق نفرق به الحق من الباطل ففي الإمكان أن تؤول لنا أقوال اليهود والنصارى على

مقتضى الإسلام تأويلا لا يكون أبعد من تأويل كلام المتصوفين العارفين وإنما يجب علينا أن نؤول من كلام الله ما نضطر فيه إلى التأويل لأنه هو الكتاب الذي يجب فيه أن نكون له مؤمنين.

وكتاب الله يجب أن يكون فوق أعناق جميع المسلمين نحكمه في القدماء منهم والمعاصرين لا نفرق بين أحد منهم فإن قدم المرء لا يحق باطله وجدته لا تبطل حقه فابن عليوة وغيره من الذين يوفون الله ورسوله ويسيتون إلى النبي "صلى الله عليه وسلم" سواسية في نظر القرآن العظيم {إن الذين يؤذون الله ورسوله لعنهم الله في الدنيا والآخرة وأعد لهم عذابا مهينا}.

4- هنا تعرض "الطريقي العليوي" لما كتبه فضيلة الأستاذ المرشد (محمد تقي الهاللي) المدرس بالحرم النبوي الشريف حول الطرق والطرقين وتسميته لهم (بحق): غم الشيطان، فلم يرد "الطريقي..." على أن وصمة بغير حق بأنه ضال مضل ولم يذكر دليلا على ذلك - وبإليته تأمل - وعجبت لهذا الطريقي الذي أورد في الموضوع الثالث المتقدم أبياتا في غاية الكفر والضلال، وعدّها من كلام أهل الولاية والصلاح ثم عمد هنا في هذا الموضوع على مقالة من مقالات الأستاذ الهاللي المدعمة بآيات الله وبحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فعدها ضلالا وتضلّلا... أو لست أدري بماذا يفرق "الطريقي" الحق من الباطل والهدى من الضلال فإن كان بالقرآن فإله يشهد ويشهد الملائكة والناس أجمعين أن الهاللي في مقاله على هدى من الله، وإن كان بأهواء الطريقيين فلا يضر الهاللي أن لا يتبع أهواءهم بعدما اتخذ سبيل الرشد سبيلا.

5- لا أريد أن أجيبه عما توعد به الشهاب هنا من نشر كل ما يرد على البلاغ ضد المصلحين لأن الشهاب قد كان كفانا المؤونة في جواب له في هذا المعنى أجاب به البلاغ ومع ذلك فلا يفوتني أن أعرض عوض ذلك ألفاظا على الصورة التي ذكرها في مقاله "بعض الطرقيين" وجميع المسلمين ويؤذي به الطرقيين والعلويين وعجيب من الجزائريين والوهرانيين وإن لم يكن في هذه الكلمات وأمثالها تحريف مطبعي فإني أجيبه عنها بأن جمع المذكر السالم ينصب ويخفض بالياء والنون لا بالواو والنون. هذا ما أردت أن أقوله الآن لحضرة "الطريقي" راجيا منه أن لا يستعظم من المسلمين أن يراهم يرفضون الطرق ويعتصمون بحبل الله ويهتدون بما أنزل الله على رسوله من البيئات والهدى فإن الهدى هدى الله.

كيف يؤذوننا*

لو أن المغربيين كانوا كلهم مثل (مسيو لوي بيرتران)، خصيم الشرقيين الألد، وعدو المسلمين الأزرق، لما خفنا على شبابنا. ولو على واحد منهم - أن يتهافتوا على التفريج والاندماج المشرق، وما في هذه الخصومة من مكابرة وعناد، وأعدائه المسلمون، وتعصبه للمسيحية على الإسلام، وما في ذلك من تحامل واسراف: كل ذلك فيه مزدجر بليغ لشباننا المسلمين الذين يتعلمون في المدارس الأجنبية، وفيه ما يثير فيهم الغيرة على الإسلام، والغضب للكرامة، وفيه ما يهيج في رؤوسهم النخوة والاعتزاز. ولكن الغربيين لبوا سواء: منهم من « قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر» ومنهم من يدس السم في الدسم، ويدعو شبابنا الذين يقرأون لغاتهم.... والاندماج، دعاية هي غاية ما يمكن أن تكون لطفا واحتيالا، دعاية يزينون لهم فيها الغواية والضلال، ويلبسون عليهم فيها الحق بالباطل، وأن فريقا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون.

نشر (لوي بيرتران) هذا، كتابا سماه « لدى الإسلام »، شتم فيه الإسلام ما شاءت له تربيته أن يشتم وكابر في إنكار المآثر الإسلامية الخالدة في إسبانيا وفي غيرها ما شاء له تعصبه أن يكابر، وأثنى فيه على المسيحية ثناء كثيرا، حتى أشبع غرضه وهواه. وزعم فيه: أن إسبانيا اليوم هي الأمة الراقية المتمدنة في أوروبا كلها لما فيها من تعصب مسيحي، وبغض للإسلام. وذكر فيه مصر وجهادها في سبيل الاستقلال. فشتمها، وشوه نهضتها وجهادها كما شاء له التعصب منظر البوليس اليوم، وقال: « إنه ذو شوارب طويلة مستقبحة لا جمال فيها... كأن

* محمد السعيد الزاهري: (كيف يؤذوننا)، الشهاب، عدد 165، 13 ربيع الثاني 1347هـ، ص7.

الإستقلال لا ينال إلا بحلق الشوارب! إلى غير ذلك مما قال. ويقراً شبابنا مثل هذا الكتاب، فينتفعون بهذه الشتائم المقذعة، فتثير كل ما فيهم من غيرة ونخوة، فيكرهون التفرنج، وينفرون من الاندماج. ولكن الذي نخافه على أبنائنا، هؤلاء الفرنجة الذين يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم يحبون ألى أبنائنا الكفر والإلحاد، ويكرهون إليهم الهدى ودين الحق.

في السنة الماضية كان ورد الجزائر من فرنسا رجلان اثنان أتيا متعاقبين (أحدهما تلو الآخر). أما أولهما، فهو مندوب من بعض جمعيات الحشمة والتقيد. فطاف في بلاد الجزائر، وخطب في مسارحها (الفرنسوية طبعاً) ودعا الناس إلى التدين، والنساء إلى الإحتشام وحذر من الكتب والصحف والمجلات والروايات المستهترة الخليعة.

وأما الثاني، فهو مندوب من بعض جمعيات الإلحاد، ومناوأة الأديان. ولعل المقصد الأهم هو مناوأة الإسلام وحده، فطاف في الجزائر، وخطب في مسارحها، ودعا الناس إلى الكفر والإلحاد. وكل محاضرة يلقيها في أي بلد من الجزائر، كان شباب المسلمين يحضرونها، ويستمعون لها، ويسمعون بأذانهم ما يقوله المحاضر فيها من طعن على الإسلام واعتداء عليه، فيسوءهم ذلك، ويحنقون ويكادون يتميزون من الغيظ، ولكن الرجل كان من أشد الناس خبثاً ودعاءً، وكان سرعان ما يلحظ على وجوه هؤلاء الشبان حنقا وانفعالا، فيصمد إلى إرضاءهم ويقول: «...» لست أريد هذه الشبيبة المسلمة المستنيرة التي تعلمت في مدارسنا، وتمدنت بمدينةنتنا، وترت بأدينا، واصبحت منا على قلب قوسين أوادنى. وما منهم هؤلاء الشبان المسلمين أن يكونوا منا إلا هذه الطرابيش الحمراء التي تغطي أدمغة

صالحة لأن تبنى فيها وتنمو أفكار الفلاسفة المفكرين الذين يعقلون، ولا مؤمنون بخرافة الأديان... هؤلاء الشبان، قبل أن تمطر الشوارع وينبذوا معها كثيرا من الأفكار البالية العتيقة! (كذا)، وسوف لا يتخرجون أن ينبذوا الطربوش، وينبذوا معه آخر ما بقي عندهم من العقائد والخرافات. وأنه ليسرنا أن نرى اليوم رجال الشرق الإسلامي يخرجون من الإسلام، ويرقون إلى مصاف الملاحدة الذين هم الطبقة المستنيرة المفكرة في كل عصور التاريخ.

وبذكر الصلوات، فيستبشر بأن عدد المسلمين الذين يقيمون الصلاة، يقال يوما فيوما، ويقول: إن مدارسنا الأوروبية في الشرق، لها الفضل الكبير في « تحرير » كثير من شبان الإسلام، وفك رقابهم من تكاليف الصلوات. ويذكر الصوم فيأتي على المسلمين الذين لا يصومون، ويصفهم بالعقل والحكمة. وهنا يسرد حكاية مهندس جزائري يقطن اليوم في فرنسا كان تخرج من كلية « الرياضيات » بمدينة ليون. ويثني على هذا المهندس الجزائري المسلم، ويفضله في العلم والحكمة والذكاء والنشاط، ثم يقول: «... ولكني أتأسف كثيرا له، لأنه ما يزال إلى هذا اليوم يقيم الصلاة، ويصوم رمضان!... » ويذكر الحج ويستقبه، ويستثقله، ويزعم أن كل مسلم يحج، يندم لما يلاقيه في حجه من نصب وعناء، مع أن الحج هو أقصى ما يتمناه هؤلاء المسلمون: من حج منهم، ومن لم يحج. ومع أن حكومة الجزائر هي من تسبب للحجاج الجزائريين كل ما يصيبهم من تعب وأذى. بما تضعه في سبيلهم من العراقيل والصعوبات ومنها إلزامهم بأن يحجوا على باخرة تعينها الحكومة، وقد يشحنون فيها شحن البضائع. إلى غير ذلك من القيود والتضييقات.

ثم كتب مقال في مجلة « الفكر الحر » الفرنسية وصف فيه طوافه ببلاد الجزائر وتونس، وما ألقاه من المحاضرات، واعترف فيه بأنه كان يستعمل الحيلة والمكر في دعاية شباب الإسلام إلى الكفر والالحاد. فقال ما معناه: كنت أجد من شباب الجزائر مقاومة، وأرى على وجوههم كراهية لما أدعوهم إليه، غير أنهم كانوا أحداثا أغرارا غير مجربين، فاستطعت أن أتقي غضبهم وأن أجلب بعضهم بما كنت أستعمله من الدعاء والخداع. فإن كرهوا انتقادي أو طعني على الإسلام حولت الكلام في الحال إلى دين المسيحيين أو إلى دين اليهود. ومع أن..... مزودين بالمعلومات الدينية (الإسلامية) التي تكفيهم للمناضلة والدفاع عن دينهم...

وبعد ما أغرا دعاة الالحاد الغربيين بشباب الإسلام في بلاد المغرب بحجة أن هؤلاء الشبان المسلمين هم الآن عزل غير متسلحين بالعلوم الدينية الإسلامية، قال: « وجاءني مقدم طريقة صوفية في الجزائر ليهديني وليجعل في عنقي (سبحة) أذكر بها (الله) فهديته أنا، وبكل سهولة رمى بسبحته، وعاد من الذين (لا يسبحون) ولا يؤمنون بالدين!... » وقد ذكر هذه الواقعة كدليل على أن كثيرا من المتدينين المسلمين هم يتدينون من غير بينة ولا علم. وهم ليسوا بأكثر تمسكا بدينهم من الشبان الأحداث.

وعلى أثر ما نشرت في (الفتح) خبر ذلك الشاب المسلم الفاسي الذي تنصر؛ مع أنه ابن أسرة مشهورة بالدين والصلاح و (التصوف)، وذكرت أن سبب تنصره أنهم دخلوا عليه من باب « أن روح الإسلام هي التصوف، وأن هذا التصوف إنما هو نفسه المسيحية... » فكرت في هذا الخطر المسيحي الذي قد

يهجم على المسلمين من هذه الناحية، والتمست لهذه الفكرة شواهدا واقعية فعلت أن « أن المجلة الأهلية» التي تصدر بالفرنسية في باريس قالت في عدد نوفمبر وديسمبر سنة 1927م: إن بعض هذه الأشياخ الصوفية في بلاد المغرب (شمال إفريقية) لهم اتصال ببعض الرهبان النصارى الذين يدارسونهم تعاليم يسوع المسيح.

فكشفت بهذا الأمر صديقي الفاضل السيد (جلول قارة مصطفى الكتبي) في تلمسان فقال: إنه رأى عند بعض الشيوخ منشورا نشر المبشرون المسيحيون على أشياخ التصوف المسلمين يقولون لهم فيه إنهم إخوانهم في الدين (يريدون أن التصوف والمسيحية دين واحد) ويزعمون فيه أن جميع الصوفية المسلمين، ولا سيما كبارهم، كانوا يبشرون بالمسيح وذكروا فيه لهم أمثلة وشواهد، قالوا إنها من التاريخ، وهي زائفة مكنوبة.

ثم ذكر لي أن التبشير المسيحي قد أصبح خطره شديدا على الإسلام في المغرب الأقصى، وقال إنه رأى بعينه زهاء أربعين محتجبات، يرقصن رقصا دينيا مسيحيا، ويرتلن آيات الإنجيل، وأناشيد الكنيسة، فسأل عنهن: فقيل له: « إنهن تلميذات مسلمات في مدرسة للمبشرين الكاثوليك¹، وعلى فرض أن بعضهن مسلمات لا جميعهن فإنها مصيبة كبرى تجعل الشبان المسلمين ورجال الإصلاح الإسلامي يقفون موقفا حرجا رهيبا أمام المبشرين الكاثوليك الذين يستمدون العون والقوة من حكومة الإستعمار، حتى أن المسلمين في المغرب الأقصى لا يستطيعون أن يقوموا بأدنى حركة إسلامية ضد التبشير المسيحي هناك.

¹ - والمدرسة تحت إشراف الراهبات المبشرات.

وكانت مجلة (الفتح) تعاون المصلحين في المغرب الأقصى على نشر الدعوة والإرشاد، وتدافع التبشير المسيحي عن الإسلام في كل مكان، فیسوء ذلك التبشير المسيحي هناك، ويفتضح أمره. أما وقد منع «الفتح» من دخول المغرب، فسوف... المبشرون الكاثوليك، وسيرى المصلحون هناك أنهم فقدوا في «الفتح» أحسن وسيلة لنشر الدعوة والإصلاح.

والأمر الواقع الذي لا ريب فيه أن المبشرين بدأوا يهاجمون الإسلام من واجهة جديدة مستفيدين من جهالة بعض جهلائنا الذين يقولون في القرآن: «صوابه خطأ، وخطأه كفر!»، وأنه عسير لا يفهم، مع أن الله تعالى يقول: «ولقد يسرنا القرآن للذكر، فهل من مذكر» ويقول: «أفلا يتدبرون القرآن، أم على قلوبهم أقالها...» فالمبشرون يستغلون بعد المسلمين هذا عن القرآن. والواقع الذي لا ريب فيه أن ملاحدة المغرب وغيرهم من أعداد الإسلام يغري بعضهم بعضا بشباننا المسلمين بحجة أنهم مازالوا أحداثا غير مجربين، ولا مسلحين بالمعارف الدينية الكافية. (يريدون: ولذلك يجب تكفيرهم!) بل يمد الملحدون أعينهم بعد ذلك إلى غير الشبان الاحداث فيطمعون فيهم بحجة أنهم لا يتدينون عن بيعة ولا علم.

والأمر الثالث الذي لا ريب فيه أيضا أن الاستعمار يعين الملحدين على نشر الاحاد بين المسلمين..... المسلمين. ثم هذا الاستعمار نفسه يمشط من جهة أخرى أصحاب الشعوذة والأباطيل التي ألصقت بالدين، للصد عن سبيل الله... في حين يمنع الجزائريين من أن ينشروا بينهم لغة العروبة والإسلام.

الأمر جد، وليس بالهزل. والإسلام يهاجم اليوم من كل جهة. وعلماء الدين في بلاد المغرب كلها لا يزال أكثرهم غافلين. لا يزودون الناس بالهداية الإسلامية الحقة، ولا بتعاليم القرآن الكريم. إنه يجب عليهم أن يتذكروا دائما قوله تعالى: «إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس في الكتاب، أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون...».

ب - الشريعة النبوية المحمدية**الاجتماع العام .. لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين^{1*}**

كان هذا الأسبوع الماضي سارا يدعوالى الغبطة والرضى، فقد أظهرت فيه أمتنا هذه الأمة العربية المسلمة أنبل العواطف، وأشرف الإحساسات نحو جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، فلم تكد جريدة (السنة) الشهيدة تؤذن في الناس بالدعوة إلى الاجتماع العام لهذه الجمعية حتى استجابوا لها، وأتوها من كل فج عميق، أتوها رجالا وعلى القطار والسيارات، من أعماق الصحراء ومن قنن الجبال، ومن حدود تونس إلى حدود المغرب الأقصى.

وكان موعد الاجتماع يوم الاثنين، ويوم الثلاثاء (3 . 4 ربيع الأول 1352هـ). ولكن ما جاء يوم الأحد حتى امتلأت الجزائر العاصمة بوفود العلماء والوجهاء والأعيان من أعضاء الجمعية العاملين والمؤيدين، وما كنا نطمح أن يحضر هذا الاجتماع كل هؤلاء الفضلاء والعلماء في جموعهم الغفيرة هذه، وفي عددهم الكثير هذا الذي لا يكاد يحصى.

لقد وضعت في سبيل هذه الجمعية وأعضائها كل العراقيل والصعوبات واستعملت كل الوسائل لمنع الناس من أن يحضروا هذا الاجتماع، وسمعنا وسمعوا كل وعد ووعيد، وكل ترغيب وترهيب ولقينا كل تضيق، وذقنا كل بلاء وأذى،

* محمد السعيد، الزاهري: (الاجتماع العام .. لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين)، الشريعة النبوية

المحمدية، العدد الأول، 1933م، ص2).

وهذه الأزمة لا تزال خانقة شديدة على الناس، وقد أصبح هؤلاء الناس في وفرة الأشغال لأن الفصل فصل حصاد، وإدارة السكك الحديدية هي الأخرى قد منعنا حقا من حقوقنا، وامتنعت أن تحفظ لهذه الوفود الكريمة أدنى شيء من أجره الركوب... ومع هذه العراقيل كلها ومع عراقيل أخرى غيرها فإن هذا الاجتماع العام قد نجح نجاحا عظيما ما رأينا له من نظير في هذه البلاد.

ولقد ورد على هذا الاجتماع العام لجمعية العلماء باسم الأستاذ الرئيس عدد كثير من برقيات التأييد. منها برقية وردت من تبسة أمضاها مئتان (200) من التجار والشبان، ووردت مئات من رسائل الاعتذار أرسل بها من كل أنحاء القطر الجزائري أنصار الجمعية من أعيان البلاد وعلمائها الذين تخلفوا عن هذا الاجتماع لموانع شرعية، وأعدار مقبولة.

كان موعد المحاضرة الأسبوعية التي يلقيها الأستاذ (العقبي) في نادي الترقى الساعة الخامسة من مساء الأحد من كل أسبوع. وجلس هذا الأستاذ كالعادة على المنصة التي رفعت له مساء هذا الأحد الأخير (2 ربيع الأول 1352هـ). وقام فحمد الله وأثنى عليه، وألقى محاضرة موجزة في حياة النبي الأعظم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، ولكنها جمعت كل ما عرف به الأستاذ من الفصاحة وسحر البيان. وقام بعده الأستاذ (بلقاسم الأوجاني) (الزاهري) فتكلم كلاما طيبا مباركا فيه، وقام خطيب الشباب الأستاذ (محمد الهادي السنوسي) (الزاهري) فألقى خطابا جاء غاية في الفن والأدب والجمال، وقام بعد هذا صاحب الفضيلة الأستاذ الشيخ عبد الحميد بن باديس فألقى درسا يفيض حكمة وعلما، وكان نادي الترقى بردهته الواسعة الفسيحة الكبرى، وبغرفة ومعابره

ومماشيه الكثيرة الأخرى قد غصّ بالحاضرين وأطّ بهم أطا، فكان كالرمانة تراصت فيها حباتها وركب بعضها بعضا. وهنا لا بد أن نشير إلى أن هؤلاء الحاضرين كانوا كلهم من الضيوف الذين جاءوا من بعيد ليحضروا هذا الاجتماع، أمّا الذين يسكنون الجزائر وضواحيها، والبليدة وما قرب منها، وما بين ذلك فإنهم قد تركوا أمكنتهم للضيوف، ونعم ما فعلوا.

وفي صبيحة الاثنين (3 ربيع الأول 1352هـ) كانت بطحاء الحكومة (بلاصة العود) وما حواليتها من الشوارع والطرقات تموج موجا بأهل العلم والدين وبأنصار العلم والدين، قد ضاق عنهم نادي الترقى بردهاته ومدرجاته وغرفته ومعابره ومعارجه فلم يتسع لهم على أنه هو أرحب النوادي وأوسعها. وكانت وجوه هؤلاء الوفود ضاحكة مستبشرة، وكانت ملابسهم بيضاء نقية تدل على أن لهم نفوسا طاهرة زكية عليهم علائم العلم والدين، وعلى وجوههم ملامح الخير والصلاح، وكان هؤلاء الحاضرون كلهم أو جلهم من أهل العمائم واللحي، ليس فيهم إلاّ قليل من المتطريشين. ولما جاءت الساعة المعينة من هذا الصباح جلس أعضاء المجلس الإداري لجمعية العلماء على المنصة التي نصبت لهم في المدرجة الكبرى من هذا النادي، ولما استوى بهم المجلس أذن الأستاذ رئيس الجمعية للأستاذ العقبي فافتتح الجلسة بتجويد آيات من القرآن العظيم، فاقشعرت الجلود لذكر الله، وخشعت الأصوات للرحمن واطمأنت القلوب، وفاضت الأعين بالدمع اتعاظا واعتبارا، وقام الأستاذ رئيس الجمعية فعرض على الحاضرين الحالة الأدبية للجمعية عن السنة الماضية، فأبان لهم أن الجمعية قد أحرزت على الثقة التامة من هذا الشعب الكريم، وأن لها عند الله الأجر الموفور والثواب الجزيل،

وعند الناس الأحدثوة الحسنة، والسمعة الطيبة، والذكر الجميل، ثم قام الأستاذ الميلي أمين مالية الجمعية فقال: إنّه لا يستطيع أن يعرض في هذه الساعة الحالة المالية للجمعية لأن بعض رؤساء الشعب لم يدفعوا إليه ما تحصل لديهم من مال الجمعية الآن في هذا الصباح، وطلب أن يؤخر عرض الحالة المالية إلى صبيحة الثلاثاء ريثما يتمكن إتمام الحساب.

وقام الأستاذ (العمودي) الكاتب العام (أمين السر) للجمعية فتلا قائمة طويلة بأسماء السادة الذين كانوا عزموا على حضور هذا الاجتماع. ولأسباب قاهرة تخلفوا مضطرين وأرسلوا ببرقيات التأييد ورسائل الاعتذار، وكان عدد هؤلاء المعتذرين عددا كثيرا.

ثم قام الأستاذ الرئيس مرة أخرى وقرأ على الناس برقية احتجاج وتظلم وشكوى أرسلها الرئيس باسم الجمعية إلى رئيس الوزراء، وإلى وزير الداخلية، وإلى رئيس مجلس الشيوخ، وإلى رئيس مجلس النواب، وإلى رئيس جمعية حقوق الرجل، وإلى سمو الوالي العام على القطر الجزائري، وإلى آخرين من رجال السياسة في باريس وهذا نص البرقية:

الجزائر 26 جوان 1933م.

الجمعية العمومية لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين المنعقدة في اجتماعها السنوي العام بنادي الترقى بالعاصمة الجزائر - تكرر إعلانها بارتباطها بالجمهورية الفرنسية والتزامها للعمل التهذيبي الإصلاحى حسب قانونها الأساسى فى دائرة قوانين الجمهورية.

ثم تحتج بكل قواها على منشور بريفي الجزائر المؤرخ 16 فيفري 1933م الذي رماها فيه بوصمات منافية لدينها ومبادئها وهي منها بريئة.

وتحتج على قراره المؤرخ ب 18 فيفري 1933م القاضي بمنع العلماء غير الموظفين من القيام بالتعليم الديني في المساجد.

وتحتج على أمره المؤرخ ب 27 فيفري 1933م القاضي بحل الجمعية الدينية بالجزائر.

وتقدم شكواها بهذا كله الذي هومس لكرامة الجمعية وتدخل في أمور دينية بحثة بالحل والتحجير- إلى الرأي العام الفرنسي ورجال الدولة العظام، مستثيرة عطف فرنسا، ومستجيرة بمبادئها الجمهورية العالية واثقة بها، هاتفة باسمها بكل تعظيم واحترام.

عن الجمعية

الرئيس عبد الحميد بن باديس

وطلب الأستاذ الرئيس من السادة المجتمعين أن يقولوا كلمتهم في هذه البرقية فوافقوا عليها بالإجماع، وانتهت الجلسة على الساعة الثانية عشرة، واستأنفت على الساعة الثانية مساء، وحضرت اللجنة المعهود إليها بتقيد أسماء الأعضاء العاملين والمؤيدين وبإعطائهم أوراق العضوية، فباشرت عملها من فورها، واستمرت فيه إلى الساعة السادسة مساء حينما شرع الأستاذ رئيس الجمعية يلقي درسا في تفسير قوله تعالى: (ومن الناس من يعجبك قوله - إلى نهاية قوله

تعالى: من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله والله رؤوف بالعباد). فكان الأستاذ كما قال الأول:

عجا لكم آتيتكم ببداع ويقاس بي من لا يشق غباري

وقال الأستاذ العقبي: أنه ما ينبغي لأحد أن يتكلم بعد هذا الدرس النافع المفيد.

وعلى الساعة التاسعة من صباح الثلاثاء أخذ أعضاء المجلس الإداري مجالسهم كالعادة على المنصة التي نصبت لهم في المدرجة الكبرى من النادي، وأذن الرئيس للأستاذ العقبي فقرأ بالتجويد آيات من الذكر الحكيم افتتح بها الجلسة، ثم أذن الرئيس للأستاذ (الميلي) أمين مال الجمعية فقام فعرض الحالة المالية لجمعية العلماء عرضا دقيقا، فإذا هي قد تقدمت تقدما محسوسا بالنظر إلى الأزمة الخانقة، وإلى الظروف الحرجة التي حاقت بالجمعية وبرجالها، وألقى خطابا بليغا فيه ملح وطرائف، وفيه موعظة وذكرى. وقام الأستاذ (العمودي) الكاتب العام فقرأ قائمة أخرى طويلة بأسماء الذين تخلفوا عن هذا الاجتماع لأعذار مقبولة، واعتذروا عن ذلك بالرسائل والبرقيات، فكان عدد هؤلاء المعتذرين أيضا عددا كثيرا يربو على عدد الذين تليت أسماؤهم في الجلسة الأولى.

ثم قال الرئيس: إن مهمة المجلس الإداري القديم قد انتهت الآن، وطلب إلى الجمعية العمومية أن تنتخب من بينها لجنة تشرف على عملية الانتخاب، فكانت هذه اللجنة هكذا: (الشيخ مصطفى بوالصوف رئيسا والشيخ مصطفى بن حلوش والشيخ محمد الهادي البوعبدلي والشيخ الشريف الصائغي والسيد أحمد بن

عبد المالك الأغواطي كتابا والشيخ الطاهر الحركاتي والشيخ عبد الرحمان بن بيبي (عضوين). وشرعت هذه اللجنة في عملها في الوقت المسمى، ولما تمت عملية الانتخاب كانت الأصوات الصحيحة مائه وتسعين بعد ما طرح ثلاثة وعشرون صوتا من مجموع الأصوات، وخسرت أنا منها أربعة أصوات، وخسر (الميلي) صوتين اثنين، وخسر (خير الدين) ستة أصوات، وخسر (أبو اليقظان) ثمانية، وخسر كل من (العمودي والحلوي وبن حمودي وعلي الخيار وبن زيان) صوتا واحدا، وفاز ابن باديس والعقبي والإبراهيمي والتبسي بالإجماع ولم يخسروا من الأصوات شيئا. وتشكل المجلس الإداري الجديد في عدد، وأكثرية أعضائه على الشكل القديم وبقي ما كان على ما كان.

وعلى الساعة السادسة من مساء يوم الثلاثاء جلس المجلس الإداري الجديد على المنصة، وقام رئيس الجمعية الأستاذ (ابن باديس) فخطب خطابا بليغا كان أثره في نفوس السامعين أثرا عميقا، وشكر هذه الأمة الكريمة التي وضعت ثقتها للمرة الثالثة في هيئة إدارة جمعية العلماء، وشرح للحاضرين بعض ما يحف بالجمعية من الظروف الحرجة والأخطار الداهمة، وأخبرهم أنّ المجلس الإداري قد صبر وصابر واحتمل ما احتمل حتى كان مثالا نادرا في الصبر والاحتمال. وقال لهم إنّ هذا المجلس نفسه لا يزال مستعدا لاحتمال كل ما قد يصيبه في الاحتفاظ بالجمعية وتنفيذ قانونها الأساسي من نصب وبلاء ثم قال: وأنتم أيها الإخوان لقد استجبتم داعي الله عندما دعيتم إلى حضور هذا الاجتماع. فهل أنتم مستجيبون لنا كلما دعوناكم إلى ما تدعو اليه الجمعية من خير، وما تحتاج إليه من مؤازرة. وهل تعاهدون المجلس الإداري كما عاهدكم على الاحتفاظ

بالجمعية وتنفيذ قانونها الأساسي، ونشر دعوتها الخيرية التهذيبية الإصلاحية. وأنتم تكونون معها في الشدة والرخاء في نطاق الحق والقانون، فقالوا كلهم: نعم ومدوا أيديهم يعاهدون المجلس على أن يكونوا مع جمعية العلماء المسلمين الجزائريين يعاونونها على الهدى والخير.

وهنا كان النظر خاشعا رهيبا على غاية ما يكون رهبة وجلالا.

ثم قام نائب الرئيس الأستاذ (محمد البشير الإبراهيمي)، فحاضر الناس بمحاضرة قيمه حافلة جاءت على غاية اللذة والإمتاع، وفي منتهى الروعة والإبداع، وكان يلقيها بلهجة هادئة مطمئنة فيها عذوبة وفيها جمال، فاستولى بها على المشاعر والعواطف ولعب بالعقول والألباب. وتكلم الأستاذ (العقبي) - بطلب وإلحاح من الحاضرين - فجاد وأفاد، ولم يدع قولاً لقاتل. وألقى شاعر الشباب الأستاذ (محمد العيد) قصيدة عامرة مؤثرة قوبلت بتصفيق الاستحسان، وقام الأستاذ (خير الدين) فخطب خطابا بليغا وأنشد أبياتا حسنة للغاية. وختم الرئيس هذه الجلسة بتلاوة فاتحة الكتاب وبقراءة بعض الدعوات التي وردت في القرآن الكريم. وفي يوم الأربعاء استقبل المجلس الإداري رؤساء شعب الجمعية والوفود، وفدا وفدا، وتعرف إليهم جميعا، وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر.

وفي مساء يوم الخميس، أقام نادي الترقى مأدبة فاخرة إكراما لجمعية العلماء المسلمين حضرتها شخصيات بارزة من الطبقات الرفيعة، ولما فرغوا من تناول الطعام، قام الأخ السيد (محمد بن مرابط)، وخطب باسم النادي فأثنى على جمعية العلماء ثناء طيبا، وقام رئيس الجمعية الأستاذ (عبد الحميد بن باديس)

فارتجل خطابا قيما، وتلاه الأستاذ (العمودي) الكاتب العام للجمعية فخطب بالفرنسية، ثم بالعربية. ثم خطب الأساتذة: (الإبراهيمي وأبو يعلى الزواوي وهذا الضعيف العاجز كاتب هذه السطور وبن حمودي ومحمد الهادي السنوسي) (الزاهري) ومحمد العيد والعربي التبسي ومصطفى بن حلوش والطيب العقبي)، فأوفوا كلهم على الغاية في ميدان الفصاحة والبيان، ثم ختم رئيس الجمعية هذه الحفلة الشائقة بتلاوة فاتحة الكتاب، ودعا بآيات من الذكر الحكيم، فكانت هذه الدعوات الصالحة من أحسن وأعجب ما جرى في هذا الاحتفال، وما كنا نعلم أنّ مثل هذه المآدب والحفلات تختتم بهذه الباقيات الصالحات. وانتهت الحفلة في نحومنتصف الليل. وخرج الناس مغتبطين مسرورين.

ألف وسبعمائة مسلم .. يرتدون عن دينهم الحنيف ويعتقون

النصرانية الكاثوليكية *

كان يوم 23 ماي الأخير يوم حزن وحداد على المسلمين في عاصمة الجزائر، وكان يوما من أشد أيام هذا الوطن شوّما وسوادا، فقد رأينا فيه ما يذوب له القلب كمدا وغما إن كان يحمل مقال ذرة من الإيمان، ورأينا فيه ما يبعث في النفس الكريمة كل معاني الألم والحسرة والأسى، رأينا الآباء البيض ورجال الكاثوليكية يقيمون في هذا اليوم في عاصمة الجزائر الولائم والاحتفالات احتفاء بسبعمائة وألف من المسلمين الجزائريين قد وقعوا فيما نصبوه لهم من الأشرار والأحباب، فارتدوا عن دينهم القيم الحنيف، واعتنقوا النصرانية على المذهب الكاثوليكي طوعا أو كرها.

لقد بذل القائمون على هذه الاحتفالات أقصى ما يمكنهم أن يبذلوه من الجهود والنفقات لجعلوها شائقة فخمة تجمع كل أسباب البهجة والأبهة والجلال، ليعظموا في أعين الناس، وليغمرهم الناس بالمدح والثناء على ما عملوا من تبشير وتنصير، وليقدر المسيحيون الكاثوليك أعمالهم هذه، فيمدونهم بالمال من جديد، ويجزلون لهم الأجر والثواب.

* محمد السعيد، الزاهري: (ألف وسبعمائة مسلم .. يرتدون عن دينهم الحنيف ويعتقون النصرانية الكاثوليكية)، الشريعة النبوية المحمدية، العدد الثاني، 1933م، ص6.

ووقع استعراض هؤلاء المنتصرين في ذلك اليوم (23 ماي الأخير)¹ في ملابسهم الجزائرية كدعوة للمسلمين بأن يتركوا الإسلام، وليلتحقوا بهؤلاء المنتصرين. وكان الأجانب الأوروبيون يضحكون من هذه الملابس ويتغامزون عليها، كأنهم لم يصدقوا بعد أن هؤلاء نصارى، ولم يعودوا مسلمين. وكانت كل طائفة من الطوائف المسيحية تودّ لوانها استأثرت هي وحدها بهذه الغنيمة الباردة، وكانت خالصة لها من دون الطوائف الأخرى.

وكان منظر هؤلاء المنتصرين الذين ارتدوا عن دينهم الحنيف منظرًا مؤثرًا جدا يثير الهموم والأحزان، ويهيج البلابل والأشجان، فقد كانت تعلوا وجوههم سحب سوداء من الغمّ والاكتئاب تدل على أن لهم نفوسا يأكلها العذاب، ويلح عليها، وعلى أن بين جوانحهم قلوبا مضطربة لا يخالطها شيء من الاطمئنان أو الرضى، وليس على وجوههم ولا علامة واحدة تدل على أنهم قد رضوا لأنفسهم هذا الدين الجديد أو ارتاحوا إليه، وكان أكثرهم أطفالا صغارا قد عجز آباؤهم وأولياؤهم أن يقوتوهم أو أن يقوموا لهم على ضرورياتهم، فالتقطهم المبشرون المسيحيون، واستغلوا جوعهم وضعفهم فاستولوا عليهم واحتلوا منهم العقائد والقلوب. وكنت أنا أراهم يمرون، فقلت في نفسي: إن أولياء هؤلاء الأطفال لم يتركوا أولادهم هؤلاء إلا بعد أن بلغوا هم من الفقر والشقاء حالة ليس وراءها حالة أسوأ منها، وأن هؤلاء المبشرين المسيحيين لو راعوا الهمة والرجولة لما رضوا لأنفسهم أن يستفيدوا مما يصيب الناس من المصائب والنكبات، وأفضيت بهذا القول إلى مسلم كان واقفا إلى جانبي، فسمعني أحد المسيحيين فقال لي: يظهر أن

¹ - من عام 1933م.

هؤلاء الآباء قد أحسنوا إلى هؤلاء الأطفال وأحسنوا إليكم أنتم أيضا بذلك، فقلت له: كلا، لم يفعلوا مع هؤلاء الأطفال خيرا يريدون به وجه الله، ولكنهم أطعموهم من جوع لحاجة في نفس يعقوب على أنهم قد سلبوهم إيمانهم وإسلامهم في مقابلة ذلك، ولما تنصر هؤلاء وتركوا الإسلام فالإحسان إليهم ليس بإحسان إلى الإسلام ولكنه إحسان إلى المسيحية نفسها. ودار بيني وبينه كلام كثير في هذا الموضوع أرجئه إلى فرصة أخرى.

تُرى لماذا اعتنق هؤلاء النصرانية الكاثوليكية، ولماذا تركوا الإسلام وارتدوا عن دينهم الحنيف؟

فهل وجدوا فيه ما كره إليهم الإيمان وكره إليهم الخير والتقوى؟ وماذا أعجبهم من الكاثوليكية حتى سارعوا إلى اعتناقها؟

والجواب على هذا هو سهل يسير، لا عسر فيه ولا عناء، فالواقع الذي لا شك فيه هو أنه ليس في هؤلاء المنتصرين ولا واحد قد ترك الإسلام بملء إرادته طائعا مختارا ولكن حملتهم على التنصر عوامل أخرى غير الطوعية والاختيار، وهي ثلاثة أسباب لا رابع لها. أما السبب الأول فهو الفقر. وأما الثاني فهو الجهل. وأما الثالث فهو العجز أو الضعف أو القصور (سمه بما شئت). ومن هذه الأسباب مجتمعة جاءت كل المصائب والويلات.

هؤلاء المرتدون لم يتركوا دينهم القيم حبا بالنصرانية، ولكنهم تنصروا ضعفا وجهلا وحبا في الخبز!... وليس في هؤلاء المنتصرين ولا واحد تنصر حينما بلغ رشده وملك أمر نفسه مهما كان جاهلا مطبقا، ومهما كان فقيرا معدما.

وإنما تركوا الإسلام إلى النصرانية حينما كانوا - كما لا يزال أكثرهم - ذرية ضعافا، مالهم من أولياء يواسونهم عند الحاجة الشديدة والضرورة القصوى، أو حينما كانوا يتامى قاصرين لا يجدون لأنفسهم على نوائب الدهر مواسيا ولا معيناً، ولا وجدوا لهم بين هؤلاء المسلمين ولياً ولا نصيراً. وما أنت بواجد بين الضعاف القاصرين أو اليتامى ولا واحداً يتتصر وله ولي يحبه من هؤلاء المبشرين مهما كانت منزلته في اليتيم والضعف والقصور.

إن الأغنياء من أشياخ الطرق الصوفية الذين جمعوا من فقراء المسلمين باسم الصدقات والندور والزيارات أمولا طائلة بدعوى أنهم سيصرفونها في أوجه البر، وفي خير الإسلام والمسلمين، ثم أسرفوا على أنفسهم، وأنفقوها في الأهواء والشهوات، وبذروها هبات وهدايا إلى من لا يستحقونها، ولم ينفقوا منها في سبيل الله، هم المسئولون على الخصوص أمام الله عن هذا المصاب الذي حل بالإسلام في هذه البلاد، لأنهم - من حيث يشعرون أو من حيث لا يشعرون - يعاونون المبشرين على تنصير فقرائنا وضعفائنا، فلو أنهم آمنوا واتقوا، وأنفقوا هذه الصدقات والندور والأموال في أوجه الخير التي جمعت لها، من إنشاء الملاجئ للضعفاء والمعوزين، ومن فتح المدارس والكتاتيب يتعلم فيها الأطفال المسلمون أمور دينهم، ولم يأكلوا هذه الأموال بغير حقها، لما أمكن للمبشرين بحال من الأحوال أن يظفروا بتنصير هذا العدد الكثير من المسلمين.

ثم المسلمون جميعاً في هذا الوطن هم أيضاً مسئولون أمام الله وأمام الشعوب الأخرى عن هذه الولايات التي تحل بالإسلام، فلو أنهم قاموا بواجبهم في

هذا السبيل، وأنفقوا من أموالهم وجهودهم فيما يرضي الله والرسول صلى الله عليه وسلم لما كان للمبشرين طمع في أن ينالوا من الإسلام شيئاً مما يريدون...

والحكومة أيضاً (وهي حكومة لا تكيه) تحمل هي الأخرى على عاتقها من مسئولية هذا الأمر نصيباً موفوراً، فهي لم تقم بواجبها من كفالة الأطفال المسلمين ورعايتهم فكانوا ضحايا البؤس والحاجة، وأصبحوا فريسة للمبشرين.

يوجد من أطفالنا اليوم زهاء ثمانمائة ألف هم في سن القراءة والتعلم، يهيمنون على وجوههم في الشوارع والطرقات؛ لا يدخلون مدرسة ابتدائية يتلقون فيها أبسط المبادئ التي تؤهلهم للعراك في هذه الحياة، أو يتعلمون فيها أمراً من أمور الدين، ثم لا تبيح لنا نحن المسلمين أن نفتح لأبنائنا المدارس والكتاتيب إلا بعد الجهد والمشقة، ولا تدعنا نتولى بأنفسنا تربية هؤلاء الأطفال، بل هي قد منعت العلماء المسلمين من أن يقوموا في المساجد بواجب الوعظ والإرشاد، وهي بموقفها هذا قد مهدت السبيل - من حيث تدري أو من حيث لا تدري - للمبشرين لكي يكتسحوا الإسلام من هذه الديار.

إن فرنسا العلمانية لم تعترض على دعاة النصرانية إذ قاموا يشنون الغارة على ديننا، ويختطفون أطفالنا ويختلسون منهم ما في قلوبهم من عقيدة وإيمان. أفليس من العدالة والإنصاف أن تتركنا أحراراً في الدفاع عن ديننا، وفي حماية عقائدنا وعقائد أطفالنا من عادية المعتدين؟.

يقول خصوم الإسلام: إن أهالي الجزائر - ولا سيما أهالي زاوة¹ - كانوا نصارى قبل أن يكونوا مسلمين، ويزعمون أنهم لا يخلصون الود لفرنسا إلا إذا عادوا نصارى كما كانوا. ولهذا يطلبون من الحكومة أن تساعد الآباء البيض على تنصير من في هذه الأرض من المسلمين جميعا.

ونحن نقول: إن هذه الدعوى باطلة يردها الواقع الذي أثبت أن هؤلاء المسلمين قد قاتلوا مع فرنسا²، وأظهروا لها الإخلاص في كل المواقف ولم يمنعهم إسلامهم أن يخلصوا لها المودة، على حين أن الألمان المسيحيين قد قاتلوا فرنسا، ولم تمنعهم مسيحييتهم من أن يناصروها العداوة والبغضاء، ومع ذلك فإن هؤلاء المسلمين ما زالوا يعيشون مع فرنسا في أحوال استثنائية تحكمهم بالقرارات والمناشير، وليس بالشرائع والقوانين، ثم هم لا يطلبون من الحكومة إلا أن تكفل لهم حرياتهم وتساويهم بالفرنسيين في الحقوق كما تساووا معهم في الواجبات، أما لو فاز دعاة النصرانية ونالوا بغيتهم من تنصير جميع هؤلاء المسلمين (لا قدر الله) فإن الوضعية تتبدل، وتدخل المسألة دورا هو غاية في الخطورة، فالمتنصرون يومئذ لا يرضون من فرنسا بهذه الحقوق التي نطلبها نحن، بل هم لا محالة سيطالبونها بالجلاء عن البلاد، ولا يرضون منها بغير الاستقلال الناجز التام، وهم بلا شك سيجدون يومئذ من أمم أوروبا المسيحية وشعوبها كثيرا من الأنصار والأعوان، وأمم أوروبا وإن كانت تبيح الاستعمار فهي لا ترضى بأي وجه لأية أمة مسيحية مهما كانت جاهلة منحطة أن تستعمرها أمة أخرى أقوى منها، فشعب

¹ - ما يعرف الآن بسكان منطقة القبائل الكبرى

² - في الحرب العالمية الأولى

(البرتغال) مثلا ليس يضاهي (سوريا أو لبنان أو مصر) في التقدم والرقى، ومع ذلك فليس هناك في أوروبا كلها من تحدثه نفسه باستعمار هذا الشعب المسيحي. والأحباش هم أمة شرقية، ولأوروبا فيها مصالح وأطماع، ولكن الأمة الحبشية هي أمة مسيحية لا تطمح أية دولة أوروبية أن تمسها بسوء أو أن تعتدي على استقلالها، وهكذا ينتصر العالم المسيحي للمظلومين من المسيحيين ويبادر إلى نصرتهم وإنقاذهم لأول ما يسمع صرختهم الأولى.

إنه من الخير لفرنسا أن يبقى هذا الشعب عربيا مسلما يقاسمها السراء والضراء، وليس من الخير لها أن يترك الإسلام ويصير مسيحيا لا يرضيه منها شيء، على أن هذه الغاية المسيحية التي يسعى إليها المبشرون هي غاية بعيدة جدا لا يمكن أن تتألم أيديهم، فهذه الأمة العربية المسلمة إن لم تستيقظ اليوم، فلا بد أن تستيقظ غدا، وبومئذ تعرف ما هي الوسائل والتدابير التي تتخذها لدرء أخطار التبشير والمبشرين الذين لا يعملون إلا للاستيلاء على الضعفاء ولإغواء القاصرين.

أيها المسلمون الجزائريون إنها لكبيرة من الكبائر. وعظيمة من العظائم أن ينتصر ألف وسبعمائة مسلم هم من صميم الإسلام في وطن كالجزائر كل أهاليه مسلمون، لا يوجد بينهم ولا واحد غير مسلم، ونحن بعد ذلك ندعي أننا من أشد الناس تمسكا بالإسلام. يجب أن نعالج هذا الداء بالوسائل العادلة المشروعة قبل أن يستفحل ويعظم أمره علينا، فلا نستطيع أن نداويه أو أن نتلافاه.

إن هذا العدد من أطفالنا المتتصرين هو عدد كبير جدا، ولا يزال يتزايد كل يوم، وإن استمر هكذا فإننا نخشى على مصير الإسلام في هذه الديار.

أيها المسلمون الجزائريون، كيف نرى أطفالنا وأفلاذ أكبادنا يفتنونهم عن دينهم، ويصدونهم عن سبيل الله ثم لا نتحرك إلى إنقاذهم، ولا تذهب أنفسنا عليهم
حسرات!!

لمثل هذا يذوب القلب من كمد إن كان في القلب إسلام وإيمان

يوم 23 ماي 1932*

كان يوم 23 ماي من السنة الماضية من أشدّ الأيام على هذا الوطن شؤماً وسواداً، ففيه جمع المفسدون أمرهم وشركاءهم ثمّ تقدّموا إلى جمعية العلماء المسلمين فأثاروا عليها غارة شعواء، من الشغب والفوضى وأرادوا بها كيدا فكانوا هم الأخسرين.

في نحو الساعة السادسة من صباح هذا اليوم مضى أصحابنا إلى دار إحدى الجمعيات في الجزائر (العاصمة)، فوجد هنالك جموعاً غفيرة من الناس قد تجمهروا أمام الدار، وتجمّعوا داخلها حتى ملأوا صحنها وغرفها وحجراتها، فظنّ صاحبنا أنه أمام مكتب من المكاتب التي يفتحها المترشّحون لأحد الانتخابات لشراء الأصوات!! ودخل الدار فوجد أنّ شيخ الحلول¹ قد جلس في صدر المجلس على هيئة بارزة تستلفت إليه الأنظار، وكان مريضاً مثقلاً لا يستطيع أن يجلس طويلاً فأحيط لذلك بكثير من المساند والوسائد والمخدات، وكان إلى جانبه ثلاثة أشخاص يوزعون على الناس الأوراق والوصلات أما الوصلات فكانت زائفة مصطنعة وهي من الفئة ذات العشرة فرنكات التي تُعطيها جمعية العلماء أعضاءها العاملين الذين لهم حقّ الانتخاب، وأما الأوراق فكانت تشتمل على قائمة بأسماء الذين رشّحوا أنفسهم لكي يكونوا أعضاء المجلس الإداري لجمعية العلماء المسلمين وهم ليسوا بعلماء ولكن كانوا لأنفسهم يظلمون.

* محمد السعيد، الزاهري: (يوم 29 ماي، 1932م)، جريدة الشريعة النبوية، العدد الثالث، 1933م، ص

¹ - من شيوخ الطريقة في الجزائر

وتقدّم صاحبنا من شيخ الحلول وعاتبه على هاته الأوراق والوصلات الزائفة التي يوزعها مجاناً بلا أدنى مقابل على الذين لم تتوفر فيهم الشروط التي تأهلهم لكي يكونوا بجمعية العلماء أعضاء عاملين وقال له: إن هذا هو عمل من يسعى لهدم هذه المؤسسة المباركة التي لم يخلق مثلها في البلاد، وما ينبغي لك - وأنت في شيبتك وشيخوختك - أن تكون في يد (فلان) آلة من آلات الهدم والتخريب وبالإفساد، على أن هذه الجمعية هي جمعية علماء، وليست جمعية متصوفة ولا جمعية أشياخ طُرق، فما يكون لك - أنت المتصوف - أن تدخل فيها ! فقال شيخ الحلول: إن بيني وبين الشيخ (بن باديس) عداوة شديدة ما أنساها له أبد الدهر، وأما العلماء الآخرون فليس بيني وبينهم شيء إلا أنهم أصحاب الشيخ (بن باديس) وإخوانه، فقال صاحبنا: وماذا بينكما؟ قال شيخ الحلول: كنت نشرت كتاباً واستشهدت فيه ببعض الأحاديث النبوية التي قلت عنها أنها واردة في صحيح البخاري وصحيح مسلم، والحقيقة أنها لم ترد لا في البخاري ولا في مسلم، وإنما أنا الذي غلّطت وأخطأت، فما كان من الشيخ (باديس) إلا أن نشر في (الشهاب) انتقاداً شديداً فضحني فيه وحقّ من قيمتي بين أتباعي وأظهر أغلاطي وأخطائي أو قلّ أظهر للناس أكاذيبي، فقال له صاحبنا: لولم تكن أنت نشرت كتابك محشواً بالأغلاط والأخطاء لكان حقاً لك على الشيخ (بن باديس) أن يسترّ عليك جهلك وأن لا يفضحك أمام الناس أمّا وقد طبعت كتابك ونشرته بين الناس فمن واجب الشيخ (بن باديس) ومن واجب كلّ عالم يغار على السنة النبوية أن يصحّح أغلاطك وأخطاءك للناس حتى لا يضلّوا بها، وعلى كلّ حال فهذه مسألة شخصية لا يحسن بك أن تتخذها حجةً وذريعة لهدم هذا المشروع العمومي العظيم، فتحرك شيخ الحلول من مكانه وتحلّل، ثمّ قال في لهجة الواثق بنفسه: فات الحال! لا بدّ لنا أن نستولي على جمعية العلماء ولا بدّ أن نطرّد عنها كلّ عالم من العلماء وكلّ طالب من طلبة علم، ولا بدّ أن تكون هذه الجمعية خالصة

لنا من الناس ولا يمكن لنا بحال أن نرجع عن محاربة جمعية يرأسها الشيخ (بن باديس)، فيئس صاحبنا من تفهيم هذا الحلولي المغرور، فتركه وانصرف لسبيله.

ولقيت أنا بعد ذلك رجلاً من هؤلاء المشاغبين وكانت بيني وبينه معرفة سابقة فأخذ بيدي وانتحينا ناحية وحدنا، وقال لي: يا فلان، ما هذه اللجنة التي قرّرتم تأليفها لتقييد أسماء الناخبين ولامتحان العضو الذي تشكّون في كونه عالماً أو طالباً؟ وهذا ليس بحق، فقلت: ولماذا؟ فقال: إنّنا ما جننا إلا من أجل الانتخاب فكيف تمنعوننا منه؟ فقلت له: كلّ عضو عامل له حقّ الانتخاب ولكنّ العضو العامل هو العالم أو طالب العلم لا غير، أمّا الذين ليسوا بعلماء ولا بطلبة علم فليسوا أعضاء عاملين ولا حقّ لهم في الانتخاب، وهذا هو نصّ القانون الأساسي للجمعية ولا تمكن مخالفته بأيّ وجه، فقال: إذن قد غرّني فلان وفلان وفلان... وذكر جماعة من المشاغبين، قلت: وكيف ذلك؟ قال: إنّهم قد أرسلوا في الشوارع حاشرين يجمعون لهم الناس من المقاهي والحانات، ويوزعون عليهم الأوراق والوصلات مجاناً بل ويزيدونهم على ذلك فيدفعون إليهم ثمن التصويت!!

وأنا نفسي كلّفوني بذلك وقد جمعت من الحانات خمسة وأربعين رجلاً ووزعت عليهم مجاناً وصلوات الاشتراك من غير أن يدفعوا لي من قيمتها شيئاً، بل قد أعطيت كلّ واحد منهم عشرة فرنكات لكي يشرب بها (البيريتيف)¹ إلاّ لشيء سوى أن يُعطي صوته في الانتخاب ضدّ الشيخ (بن باديس) وضدّ أصحابه العلماء؟ قلت: وما هو ذنب الشيخ (بن باديس)؟ وما هي ذنوب أصحابه العلماء؟ قال: لا ذنب لهم، ولكننا لم نقبض منكم ولا درهما واحداً وخصومكم قد أعطونا دراهم كثيرة (! ! !) فقلت له: سواء أخذتم الدراهم أم لم تأخذوا وأكلتم الرشوة أم لم تأكلوا فلا يكون ناخباً إلا من كان عالماً أو طالباً للعلم، قال: إنّ الخمسة والأربعين

¹ - الخمرة

الذين أكلوا الدراهم على يدي ليس فيهم ولا واحد يعرف الألف أو الباء، ولكن أخبرني عن الدراهم التي دفعتها إليهم هل أستردها منهم وما هم براديتها إلي أم ما ذا أصنع؟ فقلت له: أنت لم تستفتيني فيها أولاً، فأرجوك أن لا تستفتيني الآن فيها، فقال: يجب أن أستردها من الذين كلّفوني بإنفاقها، فقلت له: ذلك إليك.

ودقّت الساعة التاسعة من صباح ذلك اليوم وافتتح الأستاذ (بن باديس) رئيس جمعية العلماء الجلسة الأولى من جلسات الاجتماع العمومي لجمعية العلماء بخطاب كان آية من آيات البلاغة وجاء جامعا لكل معاني الموعظة والذكرى، فخشعت له القلوب وفاضت له الأعين من الدمع ولكن الذين طبع الله علة قلوبهم فلا تنفع فيها الذكرى، وجعل في آذانهم وقرا فهم لا يسمعون قد كرهوا هذا الخطاب وقالوا لا تسمعوا له والغوا فيه لعلمكم تغلبون، فهجوا وماجوا، وأكثروا من اللّغظ والضوضاء، وكانوا مأجورين على أن يحدثوا في هذا اليوم الفتنه والشغب والفوضى وانتصب الجاهل الأمي كزعيم لهؤلاء المشاغبيين وجعل يروث من فمه ويسيء الأدب بحقّ هذا الاجتماع الحافل بالعلماء والأعيان، وكان الأستاذ (باديس) يخاطبه قائلاً: يا سيدي فلان بكلّ هذا اللّطف والأدب، ولكنه هو كان يقول للرئيس: يا ابن باديس (أي بضمّ نون ابن) فكان العلماء يضحكون من جهل هذا المخلوق، ويعجبون من وقاحته وقلة حياثه، وكان كلّ واحد إذا أراد أن يتكلّم رفع يده وطلب من الرئيس أن يأذن له بالكلام إلاّ هذا المخلوق فإنه كان يتكلّم بلا استأذن ونصب نفسه للردّ على كلّ أحد وللجواب عن كلّ كلام، وكان يقول الكلمات الجارحة حتى اضطره الرئيس مرارا عديدة إلى أن يسحب كلامه وأن يُبادر بالاعتذار، وذات مرّة أراد أن يكون نظامياً متأدباً لا يخرق سياج الأدب والنظام فرفع يده وقال للرئيس: أطلب الكلام (بضمّ الهمزة وكسر اللام الممدودة) فلجّ الحاضرون في الضحك وقضوا من العجب.

وكان القوم قد تواصلوا بالشرّ، وتواصلوا بالمكر، واتّفقوا فيما بينهم على أن يُشاغبوا ويغلطوا إذا تكلم الأستاذ بن باديس أو غيره من العلماء، وأن يتظاهروا بالقبول والرضى إذا تكلم واحد من خمسة من أصحابهم قد عينوهم للكلام في هذا الاجتماع، وقد لقّنتهم بعض الناس أن يقولوا: صواب، صواب لكلّ متكلّم من هؤلاء الخمسة، ولكنّ واحدا من هؤلاء الخمسة قد تأثر من هذا الموقف وتبيّن له أنّ الحقّ كلّ الحقّ مع العلماء وأنّ القوم لا يريدون الخير، وإنّما هم يحملون في صدورهم لجمعية العلماء أسوء المقاصد، وأخبث النوايا، فتاب وأصلح، وأذن له الرّئيس في الكلام فقام وجعل يُثني على الأستاذ باديس وعلى إخوانه العلماء ثناء عاطرا ويصفهم بالصدق والأمانة والأناة ونبل المقصد، ثمّ التفت إلى المشاغبين فأنحى عليهم بالآمة المرّة وبالتوبيخ العنيف ولكنهم لجهلهم كانوا لا يزالون يظنون أنّ الرّجل ما زال معهم، فجعلوا يصيحون بالموافقة على كلامه، ويقولون: صواب! صواب! صواب! والتفت إليّ أحدهم وقال لي: رأيت كيف غلبكم صاحبنا فلان فوافقتم على كلامه، ولم تقدروا على مجابته! فقلت له: كلاً بل هو الذي رجع إلى الحقّ والصّواب، ولم يدع كلمة تجول في أنفسنا إلّا قالها لكم فسكت الرّجل، وبُهِت الذي كفر.

وكان القوم يريدون أن يستولوا على جمعية العلماء وإلّا فإنّهم عزموا على إحداث فتنة عمياء تسيل فيها الدماء، وحينئذ يُمكنون للحكومة أن تحلّ الجمعية وأن تغلق نادي التّرقى، ولكنهم خابوا في كلتا الأمنيتين (وردّ الله الذين كفروا بغيضهم لم ينالوا خيرا وكفى الله المؤمنين القتال)

لا أريد أن أصف هنا كلّ ما جرى في ذلك اليوم، ولكنّي أريد أن أقول إنّ احتفالات المبشرين بالألف والسبعمئة من المسلمين الذين ارتدّوا عن دينهم الحنيف واعتنقوا النصرانية كانت في 23 ماي الأخير (وقد ذكرت ذلك في المقال

السابق) وأن هؤلاء المشاغبين قد ارتكبوا ما ارتكبوا بحق جمعية العلماء في مثل هذا اليوم من السنة التي قبلها، فهل كان ذلك عن تواطؤ وتدبير سابق أم وقع مصادفة واتفاقاً؟ فإن كانت الأولى فلا نستغربها من قوم يسعون علانية لإغلاق المساجد وإغلاق كتاتيب القرآن من غير أن يدركهم الخجل والحياء وإن كانت الثانية فهي من أعجب الاتفاقات وأدعاها إلى الدهشة والاستغراب!!!

* في مجلس حجاج .. *

أخبرني وجيه من الوجهاء في صحراء وهران، وكان لي صديقا حميما قد رزقه الله بسطة في الفهم والجسم وآتاه سعة من المال، أنه سافر إلى الأماكن المقدسة فأدى فريضة الحج فيمن حج من الجزائريين هذا العام. فلما قضاوا مناسكهم ورجعوا إلى أهليهم رجع هومنشرح الصدر وقلبه مطمئن بالإيمان، وجاءه الناس يهنئونه ويسلمون عليه ويطلبون دعاءه الصالح ويلتمسون منه البركة والخير. قال: وسهر عندي كثير من الناس ذات ليلة أحييتها لهم بمناسبة مقامي من الحجاز، وكان أكثرهم حجاجا قداما وجددا حجوا هذا العام. وطفقوا يتحدثون ويتسامرون، فقال أحد الحجاج القداماء: ليس ينفع الإنسان شيء كعمله الصالح. ففلان هذا (وأشار إلى صاحب الدار) كان لا يساوي أن يقال له سي فلان، أما اليوم وقد عمل صالحا وحج إلى البيت العتيق فقد أصبح يقال له سيدي الحاج فلان. فرد عليه رجل غير حاج من الحاضرين وقال: من حج فإنما حج لنفسه لا للناس، فلا ينبغي أن نمدحه على ذلك وما دمنا لا نقول للذي يحافظ على الصلوات يا سيدي المصلي، فإنه ينبغي لنا أن لا نقول لمن حج يا سيدي الحاج. وأنا سمعت الشيخ (عبد الحميد بن باديس) عندما زارنا في الصيف الماضي رئيسا لوفد جمعية العلماء المسلمين الجزائريين يقول لأصحابه ولتلامذته: لا تقولوا لي يا سيدي الحاج عبد الحميد، فتلك فريضة مكتوبة قد أديناها ولا مزية لنا فيها. فقال

* محمد السعيد، الزاهري: (في مجلس حجاج)، الشريعة النبوية المحمدية، العدد الخامس، 1933م،

الحاج: أما أن الحاج يحجّ لنفسه فهذا حق، وأما أننا لا ينبغي لنا أن نقول للحاج يا سيدي الحاج كما لا نقول للمصلي يا سيدي المصلي، فهذا غير حق بل الواجب أن ننثي على الحاج ونقول له يا سيدي الحاج، ونثي على المصلي ونشيد بذكره ونحترمه في غيبته ومشهده، كما أن من الواجب أيضا أن ننكر على تارك الصلاة وننهاه عن المنكر ونأمره بالمعروف، وأي منكر أشنع من ترك الصلاة. وأي معروف أحسن من المحافظة على الصلوات. ينبغي أن نذكر التقى الصالح بصلاحه وتقواه عسى أن يقتدي به المسلمون، وأن نذكر الضال الفاجر بضلاله وفجوره حتى لا يغتر به الناس. وأما أنك سمعت الشيخ (عبد الحميد بن باديس) ينهي أصحابه أن ينادوه ياسيدي الحاج فهو من تواضعه ومروءته وكمال أخلاقه، على أننا سمعنا جميعا (الزاهري)¹ يذكر - أمام (الشيخ بن باديس) - حكاية تاجر قد دهن دكانه بدهن فاخر، وكتب فوق الباب اسمه وعنوانه بالحرف العريض. وما هي إلا أيام حتى سافر حاجا مع الحاج، فلما رجع قام إلى هذا الدكان فدهنه مرة أخرى بدهن فاخر أفضل من الدهن الأول الذي لا يزال لامعا مشرقا بعد، لا لشيء إلا أنه زاد في اسمه كلمة الحاج! وقد استعذب (الزاهري) حكاية هذا الرجل ووافق على استحسانها الشيخ (باديس). وما دمنا لا نأمر بالمعروف، ولا ننهي عن المنكر ولا نعمل الخير وندعو إليه ولا نترك الشر ونحذر منه ولا نقول للمحق أنت محق وللمبطل أنت مبطل وللمحسن أحسنت وللمسيء أسأت، فإنه لا يستقيم لنا أمر ولا يصلح لنا حال، على أن الرجل قد يريد الحج ليقال له الحاج فلان

¹ - محمد السعيد الزاهري

فيكون ذلك له سبب التوبة والإنابة. وقديما قيل: طلبنا العلم لغير الله فأبى أن يكون إلا لله.

وانتقلوا في الحديث إلى من يحج مرتين أو ثلاث مرات هل يستحق لقبا أشرف من لقب الحاج الذي يحرز عليه من يحج مرة واحدة، فانتفقوا على أن لقب الحاج هو لقب شريف يستوي فيه من حج مرة واحدة ومن حج مرارا عديدة. ولكن رجلا من الحاضرين فاجأهم بقوله: ماذا تقولون فيمن حج الحج الصغير هل يجوز أن يقال له يا سيدي الحاج كالذي يحج الحج الكبير أم لا يحق له أن يحرز على هذا اللقب؟ فسأل سائل: وما هو الحج الصغير؟ قال هوان تحج إلى قبر من قبور الأولياء الصالحين، مثل قبر سيدي (أبي مدين)¹ الغوث في تلمسان. قال السائل: وهل يحج الناس إلى قبر سيدي (بومدين) هذا؟ قال: رأيت كثيرا من حجاج تلمسان متى قدموا من الحج ذهبوا توا من محطة القطار إلى ضريح سيدي (أبي مدين) الغوث، فظلوا فيه نهارهم، وباتوا فيه ليلتهم، ومضوا إلى ضريح سيدي الداودي فزاروه وتبركوا به. كل ذلك قبل أن يدخلوا بيوتهم. ويعتقدون أن هذا هو الحج الأصغر. فقال قائل: ليس هذا هو الحج الأصغر، بل هومن مناسك الحج فقط. ولهذا فإن الحاج الذي يصل المحطة فيذهب منها توا إلى داره دون أن يزور ضريح سيدي بومدين ولا ضريح سيدي (الداودي)² فإن حجه صحيح غير باطل. وله الحق في أن يقال له سيدي الحاج. وقد سألت أنا بعض العلماء عن هذه المسألة فأجابني بهذا الجواب. فتكلم أحد الحاضرين وقال: على كل حال فالحاج

¹ - من أولياء الله الصالحين المشهورين في الغرب الجزائري

² - من الأولياء كذلك وبالمنطقة نفسها

الذي لا يزور سيدي بومدين الغوث، هو كمن أخل ببعض المناسك والأركان. وتكلم أحد الطريقين فقال: روي عن سيدي أبي مدين الغوث أنه قال: من زار قبري فقد حج الحج الصغير. فأجابه طريقي آخر من أتباع طريقة أخرى وقال: شيخنا سيدي فلان مؤسس طريقتنا هو الذي قال: من زار ضريحي وزاويتي فكأنما حج واعتمر وزار ضريح المصطفى صلى الله عليه وسلم. فجأوبه الطريقي الأول، بل هذه من خصائص شيخنا نحن أتباع الطريقة الفلانية قد اختصنا الله بها. فجأوبه الطريقي الثاني بقوله: كلا، هي من مناقب شيخنا نحن، وهي موجودة في كتب الشيخ فقال الأول: وأنا نفسي قرأتها في كتب طريقتنا. وهنا وقع بينهما تشاد عنيف وتنازب بالألقاب، فكل واحد يزعم أن زيارة شيخهم حيا أوميتا هي التي تقوم مقام الحج والعمرة وزيارة ضريح الرسول صلى الله عليه وسلم. وكل واحد يزعم أن شيخه هو الذي ضمن الجنة لأتباعه ومريديه دون حساب ولا عقاب، ويزعم أن شيخه قال: من مات على محبتي وطريقتي غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر(!) ولو كانت ذنوبه مثل زبد البحر. وكان بين الحاضرين طريقي يدعي المعرفة والعلم قد هبط القرية متسولا شحاتا يجمع الصدقات والندور والزيارات، وحضر هذا المجلس طمعا في قبض الصدقات. فتداخل في الأمر وقال: هو أن من زار قبرا من قبور الأولياء الصالحين كان له من الأجر مثل من أحرم بعمرة فقط. وتجاوز أن تكون زيارة قبر الولي بمثابة الحج في الأجر والثواب، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء. فرد عليه أحد الحاضرين وقال: يا فقيه، هذا قول باطل غير صحيح. فظهرت على الفقيه كل علائم التأثر والانفعال، ثم قال: ولماذا؟ فقال الرجل: لو صح هذا القول لزار كل أهل بلد قبور أوليائهم وصلحائهم ولتركوا الحج بالمرة.

والأولياء مهما كانت منزلتهم عند الله فلن يكونوا أفضل من رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولن يساويه في الدرجة عند الله فهو سيد ولد آدم، وأفضل المخلوقات على الإطلاق، ومحال أن تكون زيارة الأولياء كزيارة ضريحه الشريف صلى الله عليه وسلم، فاتق الله يا فقيه، ولا تقف ما ليس لك به علم. فقال له الفقيه: أنت وهابي¹، أنت تسب الأولياء. فسأله الرجل ما معنى وهابي؟ ويحك يا فقيه! أما سمعت قوله تعالى: (ولا تتابزوا بالألقاب)، أليس قولك لي أنت وهابي هو من باب التنازب بالألقاب؟ أنا مسلم قبل كل شيء وبعد كل شيء، وأما ما زعمته من أنني أسب الأولياء، فهذا يا فقيه محض افتراء منك علي. فأنا لم أسبك أنت، وأنت لست وليا فكيف تزعم أنني أسب الأولياء. حاشا لله أن أسب أحدا من الناس كائنا من كان. ولكنك أنت يا فقيه تعتبرني سببت الأولياء وتنقصتهم إذا أنا قلت أن رسول الله خير منهم، وأن زيارة قبره الشريف أفضل من زيارة قبورهم. فهل هذا هو سب الأولياء في نظرك؟ وأنت أيها الفقيه إذا كنت تعتقد حقيقة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم هو في درجة واحدة مع الأولياء فأنت من الذين يؤذون النبي صلى الله عليه وسلم، وما قدروا الله حق قدره. ويحك أيها الفقيه! أهذه منزلة الرسول الأعظم عندك؟ لماذا - ويحك! - لا يرضيك أن يكون سيد الوجود خيرا من أوليائك، وأفضل منهم؟ ولا تنس يا فقيه أنني أنا أحترم الأولياء وأحبهم خيرا مما تحبهم أنت، فقال الفقيه: ولماذا؟ قال الرجل: لأنني أحب جميع الذين سبقونا بالإيمان، ولكني لا أتغالي فيهم، فلا أعتقد فيهم الألوهية، ولا أعتقد أنهم جميعا يبوؤون بشسع نعل رسول الله صلى الله عليه وسلم. وأما أنت يا حضرة الفقيه فلا تحب جميع

¹ - نسبة إلى مذهب الإمام محمد بن عبد الوهاب

الأولياء، بل تؤمن ببعض وتكفر ببعض؛ فالذين تؤمن بهم تتعالى فيهم إلى درجة بعيدة جداً، وربما تغالبت فيهم إلى حدّ التآليه. وهؤلاء الأولياء الذين تخصصهم بإيمانك وغلوك هم أشياخ الطريقة التي تعتقها. وأما سواهم من الأولياء والأشياخ فلا يعنك من أمرهم شيء، ودليل ذلك أنّ هؤلاء الطلبة الفقهاء الذين ينتسبون إلى الطرق الصوفية لا ينافح كل واحد منهم إلاّ عن الطريقة التي ينتسب إليها. ولا يؤلف الكتب إلا في مناقب أشياخها، قل لي بريك: هل تستطيع أن تجد فقيها واحدا من أتباع الطريقة القادرية يؤلف كتابا في مناقب الشيخ التجاني، أو تجد فقيها تجانيا واحدا يؤلف كتابا في فضائل الشيخ (عبد القادر الجيلاني)، أو نحو ذلك. بل كل واحد ينصر طريقته ويدعوا إليها، وهذا دليل قاطع على أن الأولياء ليسوا عندكم سواء، على أن هؤلاء الذين ينسبون إلى سيدي فلان المناقب والكرامات، ويزعمون أنّه قطب الأقطاب وغوث الأغواث، ويتظاهرون بالدفاع عنه وبالغيرة عليه لا يفعلون ذلك محبة في هذا (الولي) ولا غيره عليه، ولكنهم يفعلون ذلك طلبا للخبز والمعاش، قد اتخذوا لأنفسهم اسم هذا (الولي) علامة خصوصية لكسبهم وجعلوه (مارك دي بوزي)¹!!

وقد رأيت بعيني، وسمعت بأذني متسوِّلاً في بعض قرى الصحراء يقف على هذا الباب، فيسأل أهل الدار ويستعطفهم باسم الشيخ التجاني، ثم يقف على باب آخر ويسأل باسم الشيخ الجيلاني، ويقف على باب ثالث فيسأل باسم الشيخ بن عبد الرحمان، ويقف على الباب الرابع فيسأل باسم شيخ طريقة أخرى. وربما وقف على باب آخر فلم يذكر في السؤال إلا اسم الله واسم الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ

¹ - كلمة فرنسية mark déposé

وسلم، وقد عجبت منه لأول مرة، ولكن ما لبثت أن عرفت السبب، وذلك أن هذا المتسول كان يسأل كل أهل منزل باسم صاحب طريقتهم، وكان قد بحث عن كل دار فعرف الطريقة التي تنتسب إليها. أما اسم الله واسم الرسول فلا يذكرهما إلا عندما يقف على باب أحد المصلحين. ولكن من يدري؟ فعمل جميع أشياخ الطرق المعاصرين وسائل مقاديمهم لا يثبتون على طرقهم إلا ما دام لهم فيها رزق ومعاش، ولا يعدو شأنهم فيها أن يكون كشأن هذا السائل. قال الرجل: وقد رأينا كثيرا من المقاديم كانوا على طريقة ثم تركوها إلى طريقة أخرى غيرها لا لأنهم عرفوا أن الأولى على ضلال وأن هذه الثانية هي على هدى من الله. ولا فعلوا ذلك ابتغاء مرضاة الله. ولكن لأنهم وجدوا أن الأولى لا فائدة لهم منها ولا خير فيها فتركوها إلى أخرى عسى أن يجدوا لهم فيها رزقا ومتاعا، أو عسى أن يجدوا لهم في هذه الثانية خبزا ومعاشا. فهم طلاب خبز ومعاش لا يهتمهم ما عند الله من الأجر والثواب.

إنني أريد يا حضرة الفقيه أو يا حضرة المقدم أن أسألك سؤالا أرجو أن تجيبني عنه بما أراك الله من الحق والصواب. فقال الفقيه: سل عما تريد. فقال الرجل: ماذا تقول في الشيخ سيدي فلان صاحب الطريقة الفلانية هل هو (ولي صالح) كما يعتقد فيه أصحابه ومريدوه، أم هو دجال خبيث كما يعتقد فيه بعض الناس؟ فقال الفقيه: بل هو طريقي دجال لا يشم رائحة للولاية والصلاح، فقال الرجل: ولكن أتباعه ومريدوه يعتقدون أن (شيخهم) قد بلغ منتهى الكمال في الولاية والتقوى، فقال الفقيه: هم ضالون مخطئون، قال الرجل: ولماذا؟ قال الفقيه: لأنني عرفت شيخهم هذا، فعرفت فيه خبث السيرة، وسوء السلوك. وذكر حكايات تدل

على هذا المعنى، قال الرجل: وماذا تقول في الشيخ سيدي فلان مؤسس طريقتكم التي أنت مقدم فيها؟ فقال الفقيه: هو من أولياء الله ومن أكابر الصالحين ما يكون عندك في ذلك من شك ولا ريب. وكل من مات وهو غير محب لشيخنا هذا مات ولا محالة على سوء الخاتمة. فقال الرجل: والذين ماتوا قبل أن يوجد شيخكم من الصحابة والتابعين وتابعي التابعين وهم بلا شك لم يعرفوه حتى يحبوه، هل هم أيضا جميعا ماتوا على سوء الخاتمة؟! فبهت الفقيه ولم يجد ما يقول. فقال الرجل: ولكن هل يسلم لكم هذا القول جميع أهل الطرق الأخرى قال: لا، قال: وماذا يعتقدون فيكم؟ قال الفقيه: يعتقدون فينا أننا ضالون مخطئون، فقال الرجل: أنتم تقولون أنهم مخطئون ضالون، وهم يقولون أنكم مخطئون ضالون، وأنا أصدق قولهم فيكم وقولكم فيهم كما أصدق بقول اليهود في النصارى وبقول هؤلاء في اليهود، فيما حكاه الله عنهما في كتابه العزيز إذ قال: (وقالت اليهود ليست النصارى على شيء وقالت النصارى ليست اليهود على شيء)، ومن يدري لعلمكم لستم على شيء كما يعتقد فيكم أبناء الطوائف الأخرى، ولعلمهم ليسوا على شيء كما تعتقدون أنتم فيهم! ومن يدري لعل أصحاب الطرق جميعا هم في ضلال؛ وليسوا على شيء. فأنكر بعض الحاضرين على الرجل هذا الكلام قائلا له: لا تعم كلامك يا هذا على الطرق كلها، ففي الطرق ما هو خير وفيها ما هو شر، وفيها ما هو حق وفيها ما هو باطل، ومن أصحابها من هو برّ تقي، ومنهم من هو فاجر دجال. ومن الطرق ما هو سنة، ومنها ما هو بدعة، فلا تجعل السنين كالمبتدعين، ولا المتقين كالفجار، فقال الرجل: ولا تنس يا سيدي أن الطرق من حيث هي في أصلها بدعة وضلالة؛ وقد يكون بعض الطريقين أخيارا بررة يتبعون

السنة الثابتة ولكنهم ما داموا طريقيين فهم مبتدعون من هذه الناحية، فالشرط الأساسي للمؤمن السني هو أن لا يؤمن بخرافة ولا طريق، والدليل على أن هذه الطرق هي كلها من البدع والمحدثات هو أنها لم تكن موجودة على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا على عهد خلفائه الراشدين، وإن لم تصدقوا بهذا فأروني ماهي طريقة سيدنا أبي بكر، وما هي طريقة سيدنا عمر، وما هي طريقة سيدنا عثمان، وما هي طريقة سيدنا علي. وأين هي زواياهم إن كنتم تزعمون أنهم كانوا أصحاب طرق وزوايا. فقال أحد الحاضرين: في هذه الطرق زيادة خير على كل حال، فقال له الرجل: ويحك يا هذا! ألا يكفيك ما كان يكفي الخلفاء الراشدين؟ أما وسعك ما وسع رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ وهل تستطيع أن تكون أكثر فعل للخير من رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومن أصحابه المطهرين؟ ويحك ما هذا الكلام الذي تقول؟! والتفت الرجل إلى الحاضرين وجعل يقول لهم: يا إخواني! لماذا نرضى لأنفسنا أن نكون من الذين قال الله تعالى فيهم: (ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا يحبونهم كحب الله) ولا نكون من الذين أثنى عليهم تعالى بقوله: (والذين آمنوا أشد حبا لله)؟ ندعي أننا مؤمنون بالله ولا نشرك به شيئا ولكننا من الذين إذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة؛ وإذا ذكر الذين يدعون من دونه إذا هم يستبشرون. وهكذا جعل يعظم بآيات الله حتى وجلت قلوبهم وفاضت بالدمع أعينهم. والتفت إلى الحجاج خاصة وقال لهم يا حجاج بيت الله الحرام اتقوا الله في الأرض المقدسة ولا تفتروا عليها الكذب، ولا تنفروا الناس منها وحدثوا عنها بأحسن ما رأيتم فيها، فإنه ما من حاج جاء يفترى على حكومة الإسلام في الحجاز وينتقصها ويتهمها ظلما بغير حق إلا كان ذلك

دليلا على أن الله رفض حجته ولم يتقبلها منه. وما من حاج جاء يلهج بذكر الحكومة الإسلامية في الأرض المقدسة ويتحدث عنها بأحسن ما شاهد وبخير ما رأى إلا كان ذلك دليلا على أن الله قد قبل حجته قبولا حسنا. وقد رأيت رجلا حج عدة مرّات، ولكن نفسه ما زالت مظلمة خبيثة يفوح ننتها، ويطلق لسانه في دولة القرآن التي تقيم حدود الله، وهو يفترى عليها الأكاذيب والأقاويل لا يقول عنها ما هو حق وهو في الحقيقة بعمله هذا ينفر الناس من الحج ويدعوهم إلى ترك هذا الركن من أركان الإسلام. ولا فرق عندي بينه وبين من يدعو جهرة إلى ترك الصلاة، على أنه كلما أراد الحج إلا وطاف في البلدان يتكفف ما في أيدي الناس ويسألهم المعونة على الحج فيحج ببعض ما يتصدقون به عليه، وينفق على نفسه ما بقي فهو يريد الاكتساب وجمع المال ولا يريد الحج... وجعل الرجل ينصح الحجاج بهذه النصائح الغالية، ثم طلب منهم أن يدعو له الله أن يسهل عليه طريقه هو الآخر إلى بيت الله الحرام.

قال الحاج صاحب الدار: فأثر كلام هذا الرجل في نفسي تأثيرا عظيما وقلت له: أما أنا فالله يعلم أن قلبي قد طفح بالفرح والسرور عندما رأيت بنفسى أنه لا حكم في الحجاز إلا حكم الله، وأن القائمين على تنفيذ هذا الحكم الإسلامي إنما هم عرب مسلمون إخواني، هم مني وإلي وأنا منهم وإليهم. ولا أظن أنه يوجد مسلم على وجه الأرض لا يتمنى من صميم فؤاده أن يملأ حكم الله الدنيا كلها، وأن يشمل من في الأرض جميعا كما هو قد ملأ الحجاز وشمل أهل الحجاز. وأما القباب المهدومة فإن الحكومة العربية الإسلامية السعودية قد أحسنت كثيرا إلينا معشر الحجاج، فإنها بذلك قد وجهت وجهتنا كلها إلى الله وحده فأقبلنا عليه تعالى

بأفئدتنا وقلوبنا وبأسماعنا وأبصارنا، وكان حجنا إليه خالصا وكنا نقضي مناسكنا مخلصين له الدين، ولولا ذلك لتوزعت نياتنا ولكان لنا في حجنا من هذا القباب شركاء مع الله على أننا ذهبنا بنية أن نحج إلى بيت الله الحرام ونزور قبر سيد الوجود صلى الله عليه وسلم ولم تكن نيتنا أن نحج إلى تلك القباب المنصوبة أو المهدومة، ولو لم يكن ذلك مرادنا لما حملنا أنفسنا مشقة السفر إلى الحجاز ولاكتفينا بزيارة هذه القباب التي ملأت علينا بلادنا سهولها وجبالها، فمن منا يصعد جبلا أو يهبط أرضا أو يقطع واديا دون أن يجد كثيرا من القباب والمزارات؟

وإني أعتقد أن بعض المطوفين في الحجاز هم أيضا يهولون من أمر هذه القباب المهدومة، وبيالغون في تعظيمها ويكثرون من التأسف عليها ويصفونها بعبارات مؤثرة تبعث في أنفس الحجاج الحسرة والأسى، وتستثير حزنهم على ذهابها وحنقهم على هادمها (!!)

يقول المطوف للحاج مثلا: هنا كانت قبة سيدنا فلان صفتها كيت وكيت، وهدمها الملك! وهنالك في موضع كذا كانت قبة سيدتنا فلانة، ويصف هذه القبة بأروع الصفات وأجمل النعوت، ثم يقول له: وقد هدمها الملك أيضا! فيظن الحاج المسكين أنه بذهاب هذه القباب قد فاته خير كثير.

ولو أن الحكومة العربية السعودية قد نظرت في أمر هؤلاء المطوفين الذين يشوهون سمعتها عند الحجاج فوضعت لهم نظاما كالنظام الذي وضعت كثير من حكومات أوروبا للأدلاء والمترجمين الذين يرافقون السواحين الذين يزورون بلادها لحسنت سمعتها، ولقضت على هذا النكير الذي يثيره عليها الجامدون من

المسلمين، ولسلمت من هذه التهم والأقاويل التي تشاع عنها في كثير من بلاد الإسلام، ولعلّها فاعلة إن شاء الله.

قال الراوي صاحب الدار: فقال لي الرجل هكذا تكون النفوس الطيبة الطاهرة يزكيها الحج والعمل الصالح فتزداد طيبا على طيب وطهرا على طهر، ويعبق عطرها وعبيرها، وإنما لنعتمد أن الله قد تقبل حجتك قبولا حسنا، وآية ذلك أننا نرى محياك يشرق هدى ونورا. قال: فسألت الله أن يحقق لي ما يقول هذا الرجل الصالح.

من الزاهري .. إلى سائر الأصدقاء والإخوان*

مضى اليوم على حادث الاعتداء علي¹ خمسة عشر يوما ولا يزال الحادث كما هو جديدا في أذهان الناس هنا في وهران يستذكرونه ويستفزعونه ويلعنون المعتدين الآثمين لعنا كثيرا.

لقد كان الجاني الحقيقي الذي أغرى على هذه الجناية بعض أتباعه الأخلاف شيخا من أشياخ السوء في وهران وكان كثير العيال، لا يكاد يحصى عدتهم إلا بعداد(!) وكان هو وعياله جميعا يعيشون عائلة على المسلمين (الغافلين). يتظاهر بالولاية والصلاح ليحتال بذلك على ما في أيدي الناس، ولا نصيب له من الولاية والصلاح إلا سب العلماء والوقوع في أعراضهم والافتراء عليهم وأكل لحوم الناس، وكان في رغد من العيش بما كان يتناول من صدقات الناس. وكان الناس يحسنون إليه، ولكنه اليوم أصبح يعاني العسر والضيق، وانفض عنه أكثر من كان حوله من المتصدقين. ورأى أن الناس أصبحوا يلهجون بذكر جمعية العلماء المسلمين ويتعلقون بها، ويذكرون رئيسها الأستاذ (ابن باديس) كما يذكرون أكبر إمام من أئمة هذا الدين، فوقع في نفسه أنه من هنا جاءه البلاء(!) وأنه من هنا انقطعت عنه الصدقات والنذور التي كانت

* محمد السعيد الزاهري: (من الزاهري .. إلى سائر الأصدقاء والإخوان)، الشريعة النبوية المحمدية، العدد 6، 23 أكتوبر 1933م، ص2.

¹ - وقع الاعتداء على الزاهري عام 1933م، في مكان بوهران اسمه الطحطاحة، على الساعة الثامنة وإحدى عشر دقيقة مساء، من طرف ثلاثة أشخاص. وقد كتبت جريدة الشريعة النبوية المحمدية عن هذا الحدث. أكثر تفصيل في العديدين 3،4.

تجبي إليه. فجعل دأبه أن يسب جمعية العلماء، وأن يختص بالسب والقذف رئيسها الأستاذ (عبد الحميد بن باديس) وهذا الضعيف العاجز (الزاهري) الذي يمثل الجمعية في وهران. وكان سبق لهذا التيس أن أغرى جروا له (ابنه) فشتمني في الطريق العام، لولا أن الشاب المفضل المهذب السيد (بلقاسم بن الشراب) عطف عليه - وكان من رفقائي - فأدبه وجازاه بما يستحق. وثار الرأي العام الإسلامي في وهران يومئذ على هذا الجرو وعلى والده الذي أغراه.

كانت قبضة الشرطة السرية على شخص من أتباع شيخ السوء هذا ومن مريديه بتهمة أنه هو الجاني، ولكن بعدما حققوا معه لم يجدوا بينة على إدانته. ولكنه لا يزال مسجوناً بتهمة أنه هرب من منفاه قبل أن يستكمل المدة المحكوم عليه بها. ولما ترك سبيله من تهمة الاعتداء فإن الأعوان لم يقبضوا على شخص آخر بدعوى أنهم لا يجدون بينة على أحد تخول لهم أن يقبضوا عليه. ويظهر أن التحقيق في هذا الاعتداء بينما كان جارياً بغاية الجد والاجتهاد وقف فجأة ولم يتقدم قيد شعرة. وهنا سر يجب أن يفهمه القارئ وحده(!!).

أما الرأي العام فلا يزال هائجا منفلا ضد المعتدي الأثيم، والناس يعلمون كل شيء عن هذا الحادث ويعلمون أن أصل الجناية إنما هو شيخ السوء، ويعلمون أن هذه الجناية قد دبرت في مسجد بناه الله أحد المحسنين.

لقد كانت الجناية يوم الاثنين 1 ربيع الثاني 1352هـ، وظللت متأثرا بالضربة وأجد ألمها عشرة أيام كاملة، أما اليوم فأنا على ما يمكن أن أكون صحة، وعافية

ج - الصراط السوي

اعترافات طريقي قديم *

إنّ ما اعترف به هذا الطريقي كله حقائق واقعة يعرفها كل من عرف هذه الطرق من أهلها ومن غير أهلها، ونحن إنّما ننشرها لتحذير سواد كثير من الناس حفظهم الله من الوقوع في هذه البلايا لئلا يقعوا فيها، ولتنبيه الواقعين فيها على قبحها عساهم ينفكون عنها، لا للتشهير ولا للتشنيع والله يهدي من يشاء إلى سواء السبيل.

كنا جماعة من الناس يوفى عددها على العشرين، وكنت أنا أتحدث إليهم عن رجل كنت عرفته منذ ثلاث عشرة سنة في بلدة.... من بلاد.... كان طريقيا متعصبا ثم تاب وأصلح ولم يعد يؤمن بخرافة ولا طريق، وكانت بيني وبينه معرفة وصحبة. وهو حينما كان طريقيا كان لا يفرح بانتشار الإسلام كما يفرح بانتشار الطريقة التي ينتسب إليها، فإذا سمع برجل دخل دين الله سأل عنه هل اعتنق طريقته أم لا، فإذا لم يعتنقها تتأقل وتصامم، وإذا سمع أن مسلما اعتنق الطريقة التي يعتنقها هو اهتز طريبا، وكاد يطير من شدة الفرح والسرور، وإذا نزل بالإسلام أي مكروه تصامم صاحبنا كأنّ الأمر لا يعنيه ولا يعني دينه، أما إذا أصابت طريقته مصيبة ما، اغتمّ لها واهتم.

* محمد السعيد الزاهري: (اعترافات طريقي قديم)، الصراط السوي، العدد 1، 11 سبتمبر 1933م، ص

وقلت لهم إن هذا الرجل كان مضى ذات يوم إلى بلدة... لبعض شأنه - وهولا يزال يومئذ طريقا - فاجتمع عند قائدها بطالب من طلبة العلم وكان القائد لا ينتسب إلى الطريقة التي ينتسب إليها صاحبنا، بل كان رجلا مصلحا لا تشوب عقيدته شائبة من شوائب الشرك والضلال، وظنّ الرجل بالطالب سوء الظنّ فكرهه واجتواه واحتقره وازدراه، لا لشيء سوى أنّه (فيما ظنّ) يخالفه في الطريق وليس أخاه من الشيخ، ولما رجع إلى بلده جعل ينتقد الطالب وينكر عليه ويقول عنه أنّه ليس من أصحاب التحصيل، وأنّ نصيبه في العلم تافه قليل وأنّه مدمن على شرب الدخان، وكنت أنا أنهاء عن هذا الغلو في الإنكار فلم يكن يحفل بما أقول، وما هي إلا أن مضى علينا شهر واحد حتى كان عيد الأضحى، فزار صاحبنا الزاوية التي ينتسب إليها بمناسبة هذا العيد فيمن زارها من الأتباع والمريدين، فلقي فيها ذلك (الطالب) بعينه وقد صار أستاذا يعلم أبناء الزاوية، ويلقي فيها على الناس بعض الدروس. فرجع الرجل يمدح هذا الطالب ويطربه ويبالغ في المدح والإطراء وقال لي: لقد حضرت أنا نفسي على هذا (الشيخ) درسا في التوحيد يلقيه على (أسيادنا) فظننت أن الإمام الأشعري هو الذي يلقي هذا الدرس علينا، فقلت لقد أصبح الطالب في نظرك شيئا نظير الإمام الأشعري، ولكن في أي مسألة من مسائل التوحيد كان درس هذا الشيخ؟ قال كان في مسألة (كرامات الأولياء)، وقد ذكر من كرامات شيخنا أكثر من مائة وخمسين كرامة، فقلت له: يا فلان هل نسيت ما كنت تقوله يوم لقيت هذا الطالب في... من أنه قليل العلم مدمن على التدخين فقال: أمّا ما قلته عنه من قلة العلم فقد كنت مخطئا فيه، واليوم تبين لي أنه غزير العلم، وحسبك أنه أستاذ لأسيادنا، وأمّا أنه مدمن على شرب الدخان فهذا

أمر لا بأس به، لأن أسيادنا هم أنفسهم يدخنون ويدمنون على التدخين ويدمنون على ما هو أكثر من الدخان أيضا من غير أن يقدح ذلك في مروءتهم أو في دينهم. فقلت: إن المدمنين على هذه الآفات هم ممن لا مروءة لهم ولا دين. قال: لا يقول كلامك هذا إلا من كان مسلوبا من الإيمان. قلت: ويحك، فهل تعتقد أن تعاطي هذه الآفات هو أمر مباح؟ قال: لا، ولكني أعتقد أن الإنكار على أسيادنا لا يجوز مهما ارتكبوا من الكبائر والموبقات. قلت: وهل أسيادك هم فوق الشرع الشريف حتى لا تتألم أحكامه؟ قال: دعنا من هذا الكلام.

ونكرت لهم أن هذا الرجل قد تاب وأصلح، وأصبح لا يؤمن بسيادة هؤلاء، بل يسمي محسنهم محسنا ومسيئهم مسيئا. وأصبح لا يشرك بالله شيئا لا ملكا مقربا ولا نبيا مرسلا ولا وليا صالحا، وقد لقيته أخيرا فإذا هو من المصلحين. وقد حدثني عن نفسه كثيرا، وكان إذا ذكر الأيام التي كان فيها طريقيا وصفها بأنها أيام (جاهلية). فيقول عن نفسه: كنت في (جاهليتي) أعتقد كذا وكذا.. وأفعل كذا وكذا..).

وكان في الحاضرين طريقي قديم قد انظم إلى المصلحين أخيرا فقال: وأنا الآخر كنت طريقيا، وكنت متعصبا عنيدا، لا أحب إلا طريقي وإخواني فيها، وكنت أحمل كراهية شديدة لأتباع الطرق الأخرى الذين ليسوا (إخواني في الشيخ)! وكل إخواني في الطريق يبغضون من لا يكون على طريقتهم ويستدلون لهذه البغضاء التي يحملونها لإخوانهم المسلمين بقوله تعالى: (... ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم...) ويعتقدون أن هذه الآية الكريمة إنما تحتك على أن تحب أخاك في الطريق، وتحتك على أن تقاطع المقاطعة التامة كل من لا يكون معك على دينك،

أي على محبة الشيخ! وأنا نفسي ما فهمت هذه الآية على وجهها إلا بعد أن حضرت درسا لعالم من هؤلاء العلماء المصلحين، فقد سمعته ينهي عن بغض الغير ومن كراهيته لمجرد أنه يخالفك في الدين أو العقيدة، واستدلّ على ذلك بقوله تعالى: (وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره لعلهم يرجعون، ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم...) وهنا فقط عرفت أن إخواني في الطريق قد حرفوا هذه الآية الكريمة عن موضعها، وأن طائفة من أهل الكتاب هم الذين يتواصلون بكراهية الغير وببغض من لا يتبع دينهم، فيما حكى الله عنهم بقوله (ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم) وقد ردّ عليهم الله تعالى هذا القول، فقال: (قل إن الهدى هدى الله أن يوتى أحد مثل ما أوتيتم) وهكذا كثير من الآيات تكون في الحث على الخير ولكننا نفهمها على عكس المراد، وكان من كراهيتنا لأتباع الطرق الأخرى أننا لا ننزل ضيوفا إلا على من تبع ديننا (طريقتنا) ولا نكرم ضيوفا لا يكونون على طريقتنا ولا نجتمع معهم في حلقة ذكر، وأذكر أن رجلا كان أخانا من الشيخ له مكانة بيننا وكنا نحبه ونحترمه، وما هي إلا أن أخبرنا أحدنا بأنه رآه في بلدة أخرى في حلقة ذكر لطائفة أخرى حتى كرهناه وهجرناه، وأخبرنا سيدنا به وبما فعلناه، فقال: نعم ما فعلتم لا تتساهلوا فيمن يخل بشيء من آداب الطريق، ولا تخالطوا من يفسد عليكم نيتكم في الشيخ، ولا تصلّوا وراءهم، وكل من صلّى منكم وراء إمام ليس على طريقتنا ولا يجتمع معنا على محبة الشيخ فصلاته باطلة تجب عليه إعادتها. وسأل رجل وقال: يا سيدنا إنني أريد أن أستشيرك في أمر يهمني، قال: وما هو؟ قال إن ابني قد كبر وأردنا أن نزوجه، وخطبنا له كريمة فلان إلى أبيها فوعدنا خيرا ولكنها من

بنات طريقة أخرى لا من بنات طريقتنا، وهي فتاة من الفتيات الصالحات، فقال له سيده: وكيف تكون صالحة وهي ليست من بنات طريقتنا؟ ولم تدخل زاويتنا قط! فقال الرجل: عسى الله أن يهديها فتعتق طريقتنا وتزور زاوية سيدنا! فقال له سيده: اشترطوا عليها أن تترك طريقتها إلى طريقتنا، فإذا رضيت بهذا الشرط فذلك ما كنا نبغي، وإلا فلا تعزموا عقدة النكاح. وتكلم له رجل وقال: يا سيدي، إن الأنسة فلانة التي توفي عنها أبوها أخيرا وكانت من بنات طريقتنا قد أعجب بها فتى ليس منّا، فأبت أن تقبله لها بعلا حتى يترك طريقته إلى طريقتنا، وقد تزوجها على هذا الشرط وأصبح أبا لنا في الشيخ. فقال سيدنا: أحسنت هذه الأنسة وهي محبة في الشيخ، وإن عملها هذا هو من الصالحات ومن أفضل ما يقربها إلى الله زلفى، ففرحنا نحن بها وصرنا نسميها سكينه تشبيها لها بسيدتنا) سكينه بنت زين العابدين) رضي الله عنا.

قال الراوي: ولا أكتمكم أنه قد يكون بيني وبين الرجل صلة القربى، وقد تجمعني به كل الروابط والصلات، وقد يكون مهذبا ولكنني لم أكن أثق به ولا أطمئن إليه، لا لشيء سوى أنه لا يوافقني في الطريق! وقد يكون الرجل لا قرابة بيني وبينه وليس بيننا أية صلة أخرى ولكنني أثق به وأطمئن إليه، وأشعر نحوه بحب شديد لا لشيء سوى أنه أخي من الشيخ، وهذا هو ما كان يوصينا به أسيادنا ورؤساء طريقتنا جميعا. وكان اليهود في بعض نواحي الصحراء قد دخلوا هم أيضا في الطرق الصوفية من غير أن يدخلوا في الإسلام، وكان قد اعتنق طريقتنا منهم عدد غير قليل، فجعل سيدنا عليهم مقدما يهوديا منهم.

قال الراوي: ولا أكتمكم أننا كنا نحب هذا المقدم اليهودي ونحب هؤلاء اليهود الذين هم إخواننا من الشيخ أكثر مما نحب أي مسلم من المسلمين الذين يتبعون الطرق الأخرى، وكما أن اليهود يسمون غيرهم - الكويسيم - فإننا نحن أيضا نسمي غيرنا من المسلمين باسم القراميط.

وبالجملة فلم نكن نعرف الحب في الله، والبغض في الله وإنما كنا نعرف الحب في الشيخ والبغض في الشيخ، على أن الطرق الأخرى يحمل أتباعها لنا من الضغينة والحقد أكبر مما يحمل لهم أتباع طريقتنا، فقد جربت ذات يوم أن أتودد إلى أهل طريقة فرفضوا ودادي؛ وذلك أنني جلست معهم في حلقة لهم عقدها لتلاوة أورادهم، وكان من عادتهم أن يغمضوا أعينهم عند تلاوة هذه الأوراد، وكان من عادتنا نحن أن نفتح أعيننا وأن لا نغمضها عند قراءة الأوراد، وما هي إلا أن عرفوا أنني لا أغمض عيني حتى طردوني وقالوا لي: أنت لست من طريقتنا. وكنت أعتقد أن الرجل منا إذا بسط الله له في الرزق، فريحت تجارته أو صلحت ذريته أو بارك الله له في عمل من أعماله فليس معنى ذلك أن العناية الربانية قد حفت به، بل معنى ذلك أن معه همة الشيخ. ولا نطلب من أحدنا أن يحسن ظنه بالله بل نطلب منه أن يحسن ظنه بالشيخ! ولا نقول من مات وآخر كلمة قالها لا إله إلا الله دخل الجنة بل نقول: من مات وهو يلهج باسم الشيخ دخل الجنة دون حساب ولا عقاب. وقد مات رجل منا فجاء أقاربه إلى سيدنا رئيس الزاوية المركزية وقالوا له: لقد بقي اسم الشيخ سيدي فلان جدك في فم المرحوم إلى النفس الأخير من حياته. فقال سيدنا: مات شهيدا، وهو اليوم في أعلى عليين!

وكان لطريقتنا مقدم في إحدى النواحي قد توفي إلى رحمة الله، وأراد شيخنا صاحب الزاوية أن يسمي لطريقتنا مقداً آخر في تلك الناحية ودعانا إليه نحن خواصه يستشيرنا فيمن يصلح أن يخلف (المقدم) المرحوم في مهمته، فدللته أنا على طالب علم فقيه من أهل تلك الناحية كلمته عندهم مسموعة وله عليهم نفوذ. فقال سيدنا: إياكم من الفقهاء وإياكم من طلبة الوقت، فإنهم زنادقة المقت لا نية لهم، وهل رأيتم تيسا يدر ويحلب؟ قلنا: اللهم لا. قال: كذلك الطالب لا يزور ولا خير فيه... وتكلم آخر فدلّه على رجل هو من عباد الله الصالحين المتقين لم يعرف أهل ناحيته أمتن منه ديناً، ولا أصلح منه حالاً. فقال لنا سيدنا: وهذا الرجل أيضاً لا يصلح لنا. قلنا: ولماذا؟ قال لأنه من الذين لا يجدون ما ينفقون، ونحن في حاجة إلى صاحب ثروة ويسار، إذا نزلنا في ضيافته أكرمنا وأطعمنا وسقانا مما تشتهيهِ الأنفس وتلذ الأعين، وقد تكون معنا حاشية وخدم وننزل عنده على الرحب والسعة، وإذا كنا نريد الزيارة أجزل لنا الهبة والعطاء... فقلت في نفسي: إن سيدنا في الحقيقة يريد صاحب فندق (هوتيل) يقيم فيه مجاناً لا يدفع أجره الخدمة والمبيت ولا ثمن الطعام والشراب، وما أظنه يريد مقداً للطريق. وأرسلنا سيدنا إلى رجل صاحب ثروة عظيمة في تلك الناحية، وأخبرناه أن سيدنا قد أنعم عليه فجعله مقداً، وكان رجلاً قتل الدهر تجربة وخبراً. فأبى وامتنع من القبول، فطلبنا منه أن يقبلها لابنه، فقال: ويحكم يا هؤلاء! وكيف أرضى لابني ما لا أرضاه لنفسي؟ ودعا بابنه وقال له ونحن نسمع: يا بني هل تريد أن تكون خادماً؟ قال: لا. قال: إذا أنا أفضيت إلى عملي فأياك أن تكون مقداً لأية طريقة من هذه الطرق، فإنك إذا فعلت نزل عليك الشيخ بخيله ورجله، فإذا دارك فندق مجاني،

وإذا أنت وعيالك وأولادك تقومون على خدمته وخدمة حاشيته، ثم إذا رحبت وأفلحت قال الناس لقد أفلح ببركة الشيخ وإذا أصابك مكروه قالوا: دقه الشيخ، وظنوا بك الظنون، وإذا أنت رضيت أن تكون مقدما فاعلم أن الشيخ لا يكفيه منك يومئذ قليل ولا كثير. فخير لك أن تترك هذا الأمر للذين قد يتعايشون عليه. ورجعنا إلى الزاوية لنخبر سيدنا بما جرى وكنا في مساء الجمعة فلم يقابلنا لسفره إلى مكة، وهو يسافر إليها يوم الجمعة من كل أسبوع ولا يراه الزوار إلا يوم السبت، فانتظرنا إلى صباح السبت وأخبرناه بما وقع فتأسف واغتم كثيرا، وبعد ذلك عرفت السبب في أنه لا يرى الزوار إلا يوم السبت، وذلك لأن يوم السبت هو يوم يتقاضى فيه العملة الأجراء أجورهم من مخدوميهم الإفرنج. أما يوم الجمعة فهو آخر الأسبوع يكون فيه الزائر خالي الوفاض بادي الأنفاض لا يقدر أن يزور الزاوية فيه بشيء.

قال الراوي: وكنا ذات يوم عند سيدنا فجعل يذاكرنا في مناقب الشيخ مؤسس طريقتنا فذكر لنا عنه كثيرا من الفضائل والمعجزات، وذكر لنا أن مريده لا يشقى أبدا، وأنه حرام على النار، لا يدخلها مهما كان مذنبا عاصيا. وحثنا على الزيارة وقال: - زوروا تنوروا - وقال: من زارنا بفرنك كتب له عند الله عشرة فرنكات، واستدلّ على ذلك بقوله تعالى: (من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها) وقال: الحسنة هي ما تدفعه (زيارة). وهكذا يحرف كثيرا من الآيات الكريمة. واستأذنه رجل في الكلام فقال أنه رأى النبي صلى الله عليه وسلم، وقصّ علينا رؤياه. قال: ثم رأيت الشيخ وأنت إلى يمينه. وقال لي: خذ العهد عن ابني هذا، ففرحوا جميعا بهذه الرؤيا، ونسوا رؤياه رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم

يذكروها. وتزى الواحد منهم يخطر بباله الشيخ مائة مرة في اليوم ولا يخطر بباله النبي صلى الله عليه وسلم ولا مرة واحدة. وهم حينما يصلون عليه صلى الله عليه وسلم إنما يطيعون الشيخ في تلاوة صيغة الصلاة التي اختارها. ودليل ذلك أن كل طائفة تتلوا صيغة شيخها ولا تتلوا الصلاة الإبراهيمية التي ورد بها الحديث الصحيح. وتجذ الواحد منهم يحفظ كل ما ينتسب إلى شيخه من الفضائل والمناقب والمعجزات ويعتني بسيرته العناية كلها، ولكنه لا يعتني بشيء من سيرة الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم.

قال الراوي: وبالجملة فتعاليم الطريقة التي كنت أعتقها - ولا أظن غيرها إلا مثلها - إنما ترمي إلى إسقاط التكاليف الشرعية فهي تدعو المرید أن يحسن النية في الشيخ، وأن (يعبده مخلصا له الدين)، وله أن يتكل على هذا الشيخ لكي يغفر له جميع السيئات والآثام وأن يجادل الله عنه يوم القيامة. وهذه العقيدة ربما أغرت المرید باقتراف الفحشاء والمنكر اتكالا على (الشيخ)، مع أن الله تعالى يقول: (ولا تزر وازرة وزر أخرى).

قال الراوي: وأنا أشهد على نفسي التي اقترفت كثيرا من الكبائر والموبقات اتكالا على أن الشيخ سيجادل الله يوم القيامة، وأنه سيكون لي هناك محاميا ووكيلا. أشهد على نفسي أنني فعلت ذلك حينما كنت طريقيا، أما اليوم وقد أصبحت مصلحا لا أتكل على الشيخ بل أتكل على الله. فأشهد أنني كنت ذات يوم هممت بخطيئة من الخطيئات، وكدت أنغمس فيها فأجرى الله على لساني قوله تعالى: (ألم يعلم بأن الله يرى؟!) فما تلوتها حتى جمد الدم في عروقي، وأدركني من الخشية والخوف ما الله به عليم. وقد حفظني الله بعد ذلك اليوم فلم أقترف

بعدها خطيئة ولا إثمًا. وهنا أمسك محدثنا الظريف وأبى أن يمضي في حديثه،
ونحن أشوق ما نكون إلى سماع مثل هذه الاعترافات.

الدكتور طه حسين شعوبي ماكر*

قرأنا في جريدة النداء البيروتية الغراء أن الأستاذ الدكتور طه حسين كتب في جريدة كوكب الشرق المصرية فصلا جاء فيه: ... لقد خضع المصريون لضروب من البغي والعدوان جاءتهم من الفرس واليونان وجاءتهم من العرب (كذا!) والفرنسيين وجاءتهم من الإنكليز أخيرا... فحشر الدكتور طه العرب في جملة الظالمين الذين ظلموا مصر، وحكموها بالبغي والعدوان، ولم يكذب ينشر طعنه هذا على العرب حتى قام شباب العرب في سوريا (لبنانها وفلسطينها) وفي العراق وفي سائر بلاد العرب يستنكرون على طه ويدعون إلى تحريق كتبه وتظاهروا ضده في الأسواق والطرق، وكان لهذه الحوادث رد فعل في مصر، فقام بعض الأحداث من الذين يدينون بالوثنية الفرعونية يدافعون عن طه حسين بحجة أنه من دعاة وثنية الفراعنة أيضا. ونشرت جريدة النداء لواحد من هؤلاء الشبان مقالا يدافع فيه عن طه وعن الوثنية الفرعونية ويزعم أن هذه الفرعونية هي خير لمصر من إسلامها وعروبيتها. ونسي هذا الشاب المحامي أن شباب العرب قاموا على طه لا لأنه من دعاة الفرعونية فقط، بل لأنه أيضا تنقص العرب وحط من كرامتهم وادعى أنهم اضطهدوا مصر، وأذاقوها الخسف والعذاب لا أنهم جاؤوا بالرحمة والهدى.

* محمد السعيد، الزاهري: (الدكتور طه حسين شعوبي ماكر)، الصراط السوي، العدد 4، 9 أكتوبر

ولو كنا معشر العرب كما كان آباؤنا أباة ضيم نغضب للكرامة ولا نرضى بالهوان، لقمنا بهذا العمل الواجب قبل اليوم، ولعلمنا هؤلاء الشعبيين كيف يقفون عند أقدارهم ولا يتجاوزونها، وكيف يحترمونها.

للأستاذ طه حسين غاية واحدة يسعى إليها من يوم ظهر على المسرح إلى هذا اليوم، وهي محاربة العروبة والإسلام، لا يفتأ يعمل لها، ولا يفتقر في طلبها، فهو شعوبي ماكر يعرف كيف يستر (شعوبيته) ويعرف كيف يخفي غرضه وهواه عن كثير من شبابنا الأغرار الذين لا يكادون يدركون مراميهِ البعيدة إلا ما كان منها مثل هذا الطعن الصريح المكشوف.

لقد أوتي طه حسين كل وسيلة من وسائل الفتنة والإغواء، فأسلوبه سهل جذاب، وموضوعاته التي يكتب فيها هي الحب والهوى وما إلى الحب والهوى مما يشوق الشاب ويستهويه، وهو يدخل على الشبان لا من باب العقل والإدراك ولكن من باب العواطف والشهوات، يقودهم من أهوائهم وشهواتهم إلى حيث يريد لهم من الهلاك والردى، إلى حيث يسلبهم دينهم وإيمانهم ويستل منهم النخوة والاعتزاز بالعروبة كما تستل الشعرة من العجين، ثم يملأ نفوسهم ظلمة وكراهية لآبائهم ولعروبهم، ويجعلهم يهيمنون حباً وGRAMA بالغرب وبكل شيء غربي وينفرون من العرب والإسلام ومن كل ما هو عربي إسلامي، وبالجملة فالأستاذ طه حسين من أكبر أعوان الاستعمار على احتلال عقول أبناء العرب، وهو من أقدّر العاملين على توجيه شبابنا في الاتجاهات التي يريدها لهم غلاة المستعمرين.

لقد درس الأستاذ طه حسين كثيرا وخطب وحاضر كثيرا، وكتب كثيرا، ولكن هل تجدون له كلمة واحدة أثنى بها على العرب أو هل اعترف لهم يوما من الأيام بمكرمة من المكارم ومنقبة من المناقب؟؟

الاستعمار اليوم يعتقد أنّ الإسلام والعرب جزآن لا يمكن انفصال أحدهما عن الأخرى. يعتقد المستعمرون أنّ العرب لا تقوم لهم قائمة إلاّ إذا بُعث دين الإسلام من جديد، وأنّ الإسلام لا يبعثه من جديد إلاّ العرب أنفسهم، ولذلك فهم يسعون جهدهم لمحوالعروبة والإسلام معا، يعاونون المبشرين المسيحيين بالأموال والنّفوذ على تكفير أطفال المسلمين وتتصيرهم واخترعوا القوميات المحليّة في بعض بلدان الإسلام مناهضة للعروبة ومُحاربة لها. ومن المؤسف حقا أنّ كثيرا من العرب لم يتفطنوا لهذا المعنى، فهم حينما أصدر طه حسين كتابه في الشّعْر الجاهلي، وطعن فيه على القرآن ونسب فيه إلى الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ التّحْيَل ونحو ذلك سكتوا ولم يقولوا شيئا ظناّ منهم أنّ الأمر لا يعني إلاّ المسلمين الجامدين بل كثير من شبّان العرب وصحافة العرب نصرّوا طه ودافعوا عنه باسم حُرّيّة الفكر ولم يعلموا أنّ كتاب في الشّعْر الجاهلي، إنّما هو طعنة نجلاء في صميم العروبة لما هو تكذيب بآيات الله. ورسالة (قادة الفكر)¹ إذا أنت قرأتها علمت كيف يتجاهل طه حسين العرب ويحذفهم جملة واحدة من قائمة المُفكرّين، ويهمّهم إهمالا تاما كأن لم يكونوا (قادة الفكر) في الدّنيا قرونا طوالا. وكتاب (المُجمل) في الأدب العربي قد اشترك طه في تأليفه، وقد ملئ هذا الكتاب شكّا وريباً بدعوى أنّه يعلم الطّالب كيف (يفكّر) وكيف (يبحث) وليس لهذا الكتاب

¹ - من مؤلفات طه حسين

إلا نتيجة واحدة يحصل عليها الطالب عندما يفرغ من قراءته وهي أنه لا قيمة لهذا الأدب العربي وليس هو شيئا مذكورا، وأنه لا ثقة بالأدباء العرب في كل ما لهم من الروايات والأسانيد ومعلوم أن كتابا كهذا (المجمل) أقل ما فيه أنه يفقد الطالب أهم ركن من أركان الأدب الرفيع وهو الذوق الصحيح، والذوق لا يُنال بالشك والريب ولكن بالمحاذاة والتقليد، وإذا كان أكبر شرط لطالب العلم أن يتمرن على البحث والتفكير فإن أعظم واجب على طالب الأدب أن يتلقى الأدب من طريق الإيحاء والتلقين وتلك هي سبيل الذوق الصحيح السليم لا غيرها. وهذان الكتابان الأخيران قد قررتهما وزارة المعارف في مصر وفرضتهما على طلاب المدارس الثانوية، وليت شعري كيف يتفق ما في هذين الكتابين مع ما تريده الحكومة المصرية في دروس (التربية الوطنية) من الطلبة أن يشربوا في قلوبهم حب الوطن واحترام الآباء والأجداد.

لقد أحسن (صدقي باشا) إذ عزل الدكتور طه حسين من منصب عميد كلية الآداب بالجامعة المصرية، لأنه بهذا العزل قد استراح العرب واستراح المسلمون من شر كثير، وسوف يحتفظ العرب والمسلمون لدولة صدقي باشا بهذه اليد البيضاء أبد الدهر، ولكننا نتمنى على حكومة مصر أن تحذف جميع كتب طه من جميع مناهج التعليم. وكتب طه كلها شعوبية ومقت، فكتابه (في الصيف) فيه دعاية كبرى إلى التوراة وإلى تلاوتها ودراستها، وزعم أنها مورد عميق من موارد الأدب الرفيع العالي، ولكنه لم يقل كلمة واحدة يدعو بها إلى تلاوة القرآن وإلى دراسته كمعجزة للفصاحة وسحر البيان، على أن رأيه هذا هو رأي باطل غير صحيح. فأدباء لبنان مثلا الذين توافروا على دراسة التوراة وتفهمها وتذوقها لم

يكونوا هم المبرزين في حلبة الأدب العربي في هذا العصر الحديث، بل إن عيبيهم الوحيد هوانهم يحتنون أسلوب الترجمة الركيك الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التّوراة والإنجيل.

سمعت كثيرا بالأستاذ ميخائيل نعيمة وهومن الأدباء العرب المشهورين ومن الذين تذوقوا كلّ ما يراه طه حسين من الفنّ والجمال في التّوراة والإنجيل، وأردت ذات يوم أن أقرأ له فصلا نُشر في مجلة المُقتطف، فإذا هو يقول: وكان صباح، وكان مساء... ومضى في عبارات على غاية الرّكاكة والنّقل، فوالله ما استطعت أن أقرأ ولا صفحة واحدة من المقال، ولم أدر من أين جاء بهذه (التّعبيرات) التي أنكرها ولا أعرفها، ثمّ أخذت أطلع التّوراة ذات يوم فإذا هو يقتبس من نورها ومن جمالها! ولا شكّ أن كثيرين من أمثالي لا يستطيعون أن يتذوقوا هذا الجمال الذي يقول طه إنه في التّوراة. والأستاذ إلياس أبو شبكة هومن الأدباء المعدودين ومن الذين تذوقوا جمال التّوراة ومع ذلك فهولا عيب فيه إلاّ هذه العُجمة النّابذة التي تشيع في أسلوبه والتي هي كلّ ما أفاد من التّوراة.

وما أريد هنا أن أتتبع هفوات طه حسين فهي أكثر من أن تعدّ، وإنما أريد أن أنبه إلى شذوذه ونزقه على أنّ ما في طبع طه من نزق وطيش يطغى به من حين إلى حين هو الذي جعل العرب يفتنون لشعوبيته ولعصبيته على الإسلام. وهنا ينبغي أن نقول أنّ طه لا يكتب إلاّ في الموضوعات التي يريدها الاستعمار وبالأسلوب الذي يريده الاستعمار فهولم يزد على أنّه ناشر للأراء والأفكار الوبيئة التي يحبّ الاستعمار أن تشيع في الذين آمنوا، فالذين اخترعوا الدّعوة إلى الفرعونية إنّما هم غلاة المستعمرين، وكيف يدّعي الوطنية مصريّ يدعو إلى

الفرعونية التي خلقها الاستعمار وروج لها؟ ومتى كانت الوطنية هي اعتناق الفكرة التي يدعوا اليها المستعمرون؟

إن جمعية العلماء المسلمين الجزائريين كانت أنشأت لجنة للآداب وأسندت أمرها إلى هذا العاجز الضعيف، فعزمتنا أن نصدر بيانا دوريا بالكتب التي ينبغي أن يقرأها أبناء هذه البلاد العربية، وبيانا آخر دوريا بالكتب التي ينبغي أن يحذرها أبناءنا. وربما نشرنا ذلك قريبا غير بعيد، ولكن هل للصحافة العربية وللمعلمين العرب أن يدعوا إلى العروبة ومكارمها وإلى الكتب التي تدعوا إلى العروبة ومكارمها. وهل لنا أن نكف عن التتويه بالشعوبيين. وهل لنا أن نحترم أنفسنا فلا نقرأ كتابا يطعن على العرب؟

إن العرب هم الذين أغروا طه حسين بتقصهم، فقد أشادت به صحفهم وصفقوا له تصفيق الاستحسان فأمعن هو في امتهانهم والطعن عليهم.

إن اليهود لا يقرأون كتابا فيه طعن عليهم ولو على طريق التلويح البعيد، فلماذا نحن لا نعامل بالرّفْض والإهمال كل كاتب أوكل كتاب فيه شعوبية علينا. إن لم نعمل ذلك احتفاظا بكرامتنا واحتراما لأنفسنا، أفلا نعمل ذلك على الأقل اقتداء باليهود؟

الوهابيون سنيون حنابلة .. إيضاح وتعليق*

نشرنا في العدد الثالث من هذه الصحيفة فصلا قيما بالعنوان أعلاه لصاحب السعادة الأستاذ الفقيه سيدي (محمد الحجوي) وزير المعارف بالمغرب الأقصى، وقلنا إن لنا كلمة نعلق بها على بعض النقط من كلام الوزير نرجئها إلى عدد قابل، ووفاء بهذا الوعد الذي قطعناه للقراء نقول:

في كلام الوزير من الحقائق الثابتة ما لا يخفى على أي منصف لم يعمه الغرض والهوى، فهو يقرر كما هو الواقع أن الإمام (أبا عبد الله محمد بن عبد الوهاب) الزعيم الأكبر قد برع في علوم الدين واللسان وفاق الأقران، واشتهر بالتقوى وصدق التدين، عقيدته السنة الخالصة على مذهب السلف المتمسكين بمحض القرآن والسنة، لا يخوض التأويل والفلسفة، ولا يدخلهما في عقيدته، وفي الفروع مذهبه حنبلي غير جامد... ويقرر أيضا - كما هو الواقع - أن مبادئ الوهابية التمسك بالسنة والزام الناس بصلاة الجماعة وترك الخمر وإقامة الحد على متعاطيها ومنعها منعا كلياً من مملكتهم بل منع شرب الدخان ونحوه مما هو من المشبهات... وغير ذلك من التشديدات التي لا يراها المتساهلون المترخصون (!!!) وكل هذا لا يخالف السنة.

* محمد السعيد الزاهري: (الوهابيون سنيون حنابلة .. إيضاح وتعليق)، الصراط السوي، عدد 5، 16

أكتوبر 1933م، ص 4.

ولكنه مع إثباته لهذه الحقائق قال: ... وأعظم خلاف بينهم وبين أهل السنة هو مسألة التوسل، وتكفيرهم من يتوسل بالمخلوق... وهذا وهم وهمه سعادة الوزير، فإنه لا يوجد في نفس الأمر أدنى خلاف بين الوهابيين وبين أهل السنة إلا ما هو موجود بين أهل السنة أنفسهم. فالوهابيون حنابلة سنيون بأتم معنى الكلمة، وحسبك أنه ليس لهم كتب مذهبية للمذهب الوهابي مثلا، بل كتبهم هي كتب الحنابلة نفسها وهم حينما نظّموا القضاء الإسلامي في الحجاز لم يجعلوا في محاكمه الشرعية قضاة وهابيين ولكنهم نصبوا فيها قضاة حنابلة وشوافع وحنفية ومالكية وإذا كان هناك خلاف فهو بين المتمسكين بالكتاب والسنة من أهل السنة وبين الجامدين منهم والمتساهلين المترخصين الذين يتبعون أهواءهم، وهنا مسألة جوهرية لا بأس بالإشارة إليها، وهي أن كتب الحنابلة التي يقرؤها الوهابيون وغيرهم هي كتب سنة وحديث أكثر مما هي كتب فقهية حنبلية، وهم لا يزالون يؤلفونها على طريقة السلف الصالح وأئمة هذا الدين الحنيف، بخلاف كتبنا نحن المالكية التي يؤلفها فقهاؤنا المتأخرون في المذهب المالكي مثلا فهي خالية من السنة والحديث، حتى إنك لتقرأ كتابا ذا أجزاء من كتب المتأخرين من أوله إلى آخره فلا تكاد تعثر فيه على حديث شريف ولا على أثر من آثار الصحابة رضي الله عنهم، وبعبارة أخرى أن كتب الحنابلة المتأخرين لا تزال كتب سنة وحديث ككتب المتقدمين، أما كتب المتأخرين من المالكية والحنفية مثلا فقد خلت كلها أو جلها من السنة والحديث، بل يسوق لك مؤلفها الأحكام مجردة عن كل نظر واستدلال، ولا يخفى أن كتب السنة والحديث تجعل قارئها سنيا سلفيا شديد الاتصال بالرسول صلى الله عليه وسلم وشديد الاتصال بالسلف الصالح وبعيدا

كلّ البعد عن التقليد والجمود وبعيدا عن البدع ومحدثات الأمور، ومن هنا جاء الخلاف بين الوهابية من أهل السنة الآخرين إن كان هناك خلاف... والوهابيون أو حنابلة نجد لا يقولون بكفر من يتوسّل التوسّل الشرعي، بل يقولون بكفر من يدعو مع الله إليها آخر، ومن معاني التوسّل عند الجامدين (من أهل السنة) أنهم يدعون من دون الله ما لا ينفعهم ولا يضرهم! وأحسب أن من يطالع كتاب التوسّل والوسيلة لشيخ الإسلام ابن تيمية يرى صدق ما نقول، وهذه العقيدة ليست عقيدة حنابلة نجدٍ وحدهم بل هي عقيدة السلف الصالح وعقيدة أهل السنة جميعا (ماعدا الجامدين منهم والمتساهلين).

وحسبنا أن مولانا سليمان سلطان المغرب الأقصى قد قبل الدعوة الوهابية وارتضاها - وهو صوفي تجاني - ولم يقبلها إلا بعد أن أرسل نجله المولى إبراهيم في وفد من العلماء الأعلام إلى الحرمين الشريفين وتباحث الوفد المغربي مع بعض علماء نجد الوهابيين فلما تحقّق علماء المغاربة أن الوهابية ما هي إلا التمسك بالقرآن الكريم وبالسنة النبوية الصحيحة وافقوا عليها ووافق عليها كلّها المولى سليمان، وإذا أنت تتبعت أخبار هذا الوفد الذي أرسله مولانا سليمان إلى الحجاز وما جرى بينه وبين علماء نجد من المحاورّة ظهر لك أنه لا محلّ لهذا الاستثناء الذي استثناءه سعادة الوزير إذ قال: إلا ما كان من تكفيرهم من يتوسّل بالمخلوق، ولا داعي له مطلقا.

ولقد صدق الأستاذ (الحجوي) إذ قال: إن المسألة سياسية لا دينية وأن أهل الدين في الحقيقة متفقون وأن الأتراك العثمانيين هم الذين أثاروا هذا النكير وهم الذين نشروا هذه الدعاية الكاذبة ضدّ ابن سعود الأول الذي كان افتكّ منهم

الحرمين الشريفين منذ مائة عام، وهم الذين استتجدوا بأمير مصر محمد علي باشا الكبير فعاونهم هذا على طرد الوهابية من الحرمين وعلى أسر ابن سعود. نعم الأتراك هم الذين سمو حنابلة نجد باسم الوهابية وهم الذين نشروا عنهم التهم والأكاذيب في العالم الإسلامي واستأجروا الفقهاء في جميع الأقطار ليؤلفوا ويكتبوا ويكذبوا على حنابلة نجد وهم الذين ألفوا كتابا ضد الوهابية ونسبوه إلى الشيخ سليمان بن عبد الوهاب شقيق الإمام محمد بن عبد الوهاب وهم الذين أخذوا ابن سعود أسيرا إلى الإستانة ولكنهم نكثوا العهد الذي عاهدوه فقتلوه غيلة وغدرا، وأنا أعتقد أن للأجانب يدا في هذه الحرب التي أثارها الأتراك العثمانيون على ابن سعود فإنه يسوءهم أن يستولي ابن سعود على الحجاز ويسوءهم أن ينشر فيه الأمن والعدل والرحمة وأن يحكم فيه بما أنزل الله، وكان الحجاز على عهد الأتراك مباءة فوضى وقطع طرق فلما جاءه الوهابية آمنوا سبله ونشروا فيه الطمأنينة والعدل، وكان الأتراك في حرب مستمرة مع الأمير (محمد علي) صاحب مصر، ووقعت بينهم وبينه وقائع مؤلمة ذهب ضحيتها آلاف من المسلمين: الأتراك والمصريين، واتسع الخرق ما بينهما حتى استعدى (محمد علي باشا) بعض الدول الغربية على الأتراك، واستعدى الأتراك عليه بالإنكليز، وقد تنازل الترك للإنكليز عن عدن وعن قبرص لقاء المعونة التي يبذلها الإنكليز للأتراك (على محمد علي)، ولكن الإنكليز قد أخذوا عدن وقبرص وأخذوا مصر أيضا!! ومعنى هذا أن العداوة كانت مستحكمة بين (محمد علي) وبين الأتراك إلى درجة أنه لا يمكن معها إصلاح ذات البين ما بينهما، ولكن لماذا اتفق الأتراك و(محمد علي) على حرب الوهابيين وعلى طردهم من الحجاز؟ والجواب عن ذلك: أن الأجانب هم

الذين وحدوا بين الأتراك وبين محمد علي باشا ضدّ (ابن سعود)، وهم الذين جعلوا من جنود (محمد علي) ومن جنود الأتراك جيشاً واحداً يُحارب حكومة القرآن ويطردها من الحجاز، لأن سياسة مصر وسياسة تركيا كانت يومئذ في أيدي الأجانب يفعلون بها ما يشاءون.

* * *

بقي شيء واحد وهو قول الوزير: إن مؤسس هذا المذهب هو شيخ الإسلام (ابن تيمية)، واشتهر به (ابن عبد الوهاب). والواقع أن مؤسس هذا المذهب ليس هو (ابن تيمية) ولا (ابن عبد الوهاب) ولا الإمام (أحمد) ولا غيرهم من الأئمة والعلماء، وإنما مؤسسه خاتم النبيين سيدنا محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم، على أنه في الحقيقة ليس مذهباً، بل هو دعوة إلى الرجوع إلى السنة النبوية الشريفة وإلى التمسك بالقرآن الكريم، وليس يهمننا شيء آخر غير هذا.

حاشية: عندما وقع هذا الخلاف القائم اليوم بين الإمام (يحيى) صاحب اليمن والملك (ابن سعود) جعلت الجرائد العربية في كل قطر تُعبر عنه بقولها: الخلاف بين أهل السنة وبين الشيعة، والمراد بأهل السنة أهل نجد والحجاز وبالشيعة أهل اليمن، ويحتج بعض الناس لابن سعود بأن أهل عسير هم سنيون شوافع فهو أحقّ بحكمهم. ويحتج آخرون لإمام اليمن بأن عسير هي أرض يمانية.

إلى زيارة سيدي عابد!*

أحاديثنا في القطار

كنا في عربة واحدة من القطار الذي يقلنا إلى (سيدي عابد) وكانوا في الحظيرة التي وراءنا يتحادثون ويتحاورون، ولكني لم أكن أسمع ما يدور بينهم في المحاورة والحديث، فقد كانت عربات القطار ودواليبه تُحدث ضجيجا هائلا شديدا يحول بين السامع وبين محدثه الذي يليه، ولقد تضايقوا بهذا الضجيج وضجروا منه إذ منعهم أن يسمع بعضهم بعضا فجعل المتكلمون منهم يرفعون أصواتهم، ويُعيدون الجمل والعبارات، وجعل السامعون يستعيدونها منهم المرة والمرة والثلاث مرات، فاسترعوا بذلك أسماع المسافرين الذين يركبون هذه العربة التي نحن نركبها فتركوا حظائرهم وأقبلوا على أصحابنا يستمعون لهم ويشتركون معهم في المحاورة والحديث، ووثب رفقائي أيضا إلى هؤلاء فلم أجد بدا من أن أقترب منهم أنا الآخر كي أستمع لما يقولون، وأطلت عليهم برأسي فإذا فتى فوق الخامسة والعشرين من عمره ولكنه لا يزال دون الثلاثين، قد نشر على ركبتيه نسخة من جريدة يومية كبرى تصدر بالفرنسوية في مدينه وهران ، وهو ينكت بسبابته اليمنى على صورة شمسية فيها لامرأة فانية عجوز، قد أكل الدهر عليها وشرب، وكان متأثرا مُنفعلا، وكان يقول لهم بصوت فيه شيء كثير من الحزم والقنوط ما معناه: ... إنها لم تكن شيئا مذكورا، فقد كانت خادمة بفندق من فنادق مدينة بوردو (فرنسا) وكان أبوها دركيا بسيطا عون (جندرمة)¹ وهناك في ردهة من ردهات الفندق رآها سيدي... شيخ الطريقة... فأعجب بها ووقعت من نفسه

* محمد السعيد، الزاهري: (زيارة سيدي عابد)، الصراط السوي، العدد 6، 23 أكتوبر 1933م، ص6.

¹ - كلمة فرنسية، ويعني بها عون الدرك

موقعا حسنا فتعرّف إليها، ثمّ رجع بها إلى الجزائر وأراد أن يتزوَّج بها فلم يُوافق الوالي العام للجزائر يومئذ على هذا الزواج، ولكن الكاردينال لافيغري رأى أن هذا الزواج من مصلحة المسيح، ومما يجعل من مسألة تنصير المسلمين في الجزائر من أسهل الأمور وأيسرها، ولا سيما في بلاد الصحراء حيث يعظم نفوذ هذه الزاوية التي ستتزوَّج هذه الفتاة من رئيسها، ثمّ عقد لشيخ الطريقة على هذه الفرنسية عقدة النكاح في الكنيسة الكبرى، وبارك على العروسين بعد إجراء ما يجب إجراؤه من الطقوس والتقاليد، وكان ذلك في سنة 1870م، ولعلّ هذا الشيخ كان أول عربي مسلم (في الجزائر) تزوّج بأجنبية وهي بعدما كانت خادمة في فندق صارت - بفضل هذا الزوج ويمنه - تدعى أميرة الرمال ولقد قضت منذ زواجها إلى الآن ثلاثا وستين سنة بين العرب المسلمين يحوطنونها بكلّ تجلّة واحترام، ومع ذلك فقد بقيت إلى آخر لحظة من حياتها مسيحية على مذهب الكاثوليك أشدّ ما تكون تمسّكا بدينها ونصرانيتها ، وكانت تعطف العطف كلّه على المضلّين المسيحيين فمدّت لهم يد المساعدة وكتبت باسم زوجها شيخ الطريقة كثيرا من الرسائل إلى (مقاديم) هذه الطريقة وأعيانها توصيهم خيرا بهؤلاء المضلّين، وتأمّرهم أن يكونوا لهم أعوانا وأنصارا على كلّ ما يريدون، فاستطاع المضلّون - لذلك - أن يشيّدوا في كلّ ناحية من أنحاء هذه البلاد (ولا سيما في الصحراء) كنائس كثيرة ، ومراكز كبرى للتضليل والتنصير، ولعلّك تعجب إذا قلت لك أنّ أكثر هذه الكنائس والمراكز التي بناها المضلّون لتنصير أطفال المسلمين وضعفاءهم إنّما بناها المسلمون أتباع هذه الطريقة بأموالهم وبعرق جبينهم، فقد كانت هذه المرأة تأمر (باسم زوجها) القبيلة الفلانية مثلا بأن تقدّم إلى الأب الأبيض الفلاني كذا وكذا من المال يكتبون بها فيما بينهم على المعسر قدره وعلى المقتر قدره فريضة من الزاوية لا فريضة من الله، ثمّ تأمر هذه القبيلة باسم زوجها أيضا بأن ترسل إلى هذا الأب نفسه من شبّانها وفتيانها كذا وكذا عاملا يعملون له ما يشاء ، وكذا وكذا بغلة أو

حمارا لتحويل الحجر ومواد البناء وتشتترط على هؤلاء العملة أن يتزودوا بما يكفيهم من الزاد والقوت ، وبما يكفي دوابهم من العلف حتى يرجعوا إلى أهليهم، وكثيرا ما تعاون هذه السيدة بمبلغ ضخم من مال الزاوية نفسها، وإذا أنت طالعت كتابها الذي اسمه: أميرة الرمال وهي تعني بهذا اللقب نفسها، علمت أنها قد استغلت لفائدة التّضليل والتّصير نفوذ هذه الزاوية إلى أقصى ما يمكن من الاستغلال، وعلمت أنها قد قامت خير قيام بالمهمة التبشيرية التي ناطها بعهدتها الكاردينال لا فيجري مؤسس إرساليات الآباء البيض في هذه البلاد، ولقد توفي زوج هذه السيدة ومضى إلى رحمة الله، فخلفه عليها وعلى رئاسة الزاوية أخوه وولي العهد من بعده، فبقيت هذه المرأة المسيحية مهيمنة على هذه الطريقة الصوفية الكبرى تدير شؤونها، ومتصرفة بها تأمر وتنهاي، وتفعل ما تشاء وتختار، ولقد سيطرت فيها حتى على الأمور الإسلامية الدينية البحتة، فهي التي كانت تتسلم كل ما يرد إلى الزاوية في البريد، ولا تطلع زوجها رئيس الزاوية من رسائله إلا على ما يبدولها أن تطلع عليه، ولقد اتخذت لنفسها قصرا بعيدا يبعد عن الزاوية مقر زوجها بضعة أميال واتخذت لنفسها في هذا القصر كل ما يلزمها، ولها كاتب خاص يقرأ لها، وتُملّي هي عليه أجوبة الرسائل التي تستحق في نظرها الردّ والجواب، وهي التي تُتصّب على أتباع هذه الطريقة المقاديم: تُؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء، وكم عزلت من مقدّم إماماً لأنه لا يتعصّب للطريقة تعصبا أعمى أولأنه لا يعاون المضللين على حركة التّضليل والتّصير وكم من مرید ومن مقدّم قد وصلته رسالة أواجزة مختومة بختم الشيخ، فهو يحتفظ بها احتفاظا شديدا ويبخرها في كل يوم جمعة بالبخور ويطيبها بالطيب اعتقادا منه أنها جاءت من سيده الشيخ، وما هي من سيده الشيخ، ولكنها من المدام... وليت شعري ماذا يصنع هؤلاء المقاديم بالإجازات التي يحملونها، والمريدون بالرسائل التي يحتفظون بها إذا علموا أنها زائفة، ولم تجئهم من الشيخ؟ فهل يستمرّون على تطيبها وتبخيرها؟! أم يبادرون

إلى تمزيقها أو تحريقها، على أنني ما أظنهم إلا مُحْتَفِظِينَ بها كما يحتفظون بالنفائس والأعلاق.

ومنذ بضعة أشهر كان أحد الصحفيين الفرنسيين زار هذه السيدة المسيحية في زاويتها وجرى بينه وبينها حديث طويل نشره تباعا في هذه الصحيفة نفسها) وأشار إلى الجريدة المنشورة على رُكْبَتَيْهِ) ومما قال فيه: ولما هممت بالانصراف من عندها طلبت إليها أن تقف لي لحظة قليلة لكي ألتقط صورتها، فاعتذرت لي بأنها في لباس مُبْتَذَل لا يُناسب التّصوير، فقلت لها يكفي أن تستري رأسك وعُنُقَكَ ببخناق أو بجلباب، فأساءت فهم كلامي، وقالت لي في شيء من الغضب والكبرياء: لماذا؟ إنني فرنسيّة مسيحيّة قبل كلّ شيء، ولم أكن مُسلمة، ولا عربيّة في يوم من أيام حياتي، فكيف تطلب مني أن أسدل النّقاب على وجهي، وأحتجب كما تحتجب العربيات المسلمات الجاهلات... وأغرب ما في هذا الحديث الذي رواه عنها هذا الصحفي الفرنسي هو قولها له: إنني لا آسف إلاّ على شيء واحد فقط وهوائي لم أستطع أن أجعل اللّغة الفرنسيّة هي اللّسان الرّسمي لهذه الطّريقة الصّوفيّة الكُبرى فكم تمنيت أن أكتب بالفرنسيّة كلّ ما يصدر عن الزّاوية من رسائل وإجازات التّقديم. بل وددت فوق ذلك أن أترجم إلى الفرنسيّة كلّ ما يقرأه أتباع هذه الطّريقة من الأدعية والصلّوات ومن الأوراد والأذكار!... فكأنّها لم تكتف بمطاردة العربيّة من هذه الزّاوية حتّى طمعت أن تترجمها إلى الفرنسيّة، وكأنّها لم يكفها أن استغلّت نفوذ هذه الطّريقة لفائدة الآباء البيض حتّى طمعت أن تحقّق هذه الأحلام والأمانى... قال الفتى: والأمر العجيب هنا هوانّ هذه السيدة لما أفضت إلى عملها وانتقلت إلى الدّار الباقية في هذا الأسبوع قد أوصت بأن يدفنوها إلى جنب المرحوم زوجها الأوّل، فسأله أحد الحاضرين وقال: وهل عملوا بوصيّتها؟ قال: نعم، قد دفنوها حيث تُريد، فقال السّائل: وإذا جاء أتباع هذه الطّريقة يزورون قبر هذا الشّيخ، فهل يزورونها هي أيضا؟ وهي امرأة مسيحيّة

على مذهب الكاثوليك ؟؟؟ فقال له: نعم لقد كانوا يستبقون إلى زيارتها في حياتها، ويلتمسون منها البركة والخير فماذا يمنعهم اليوم أن يزوروا قبرها بعد مماتها؟

وانتقلوا إلى الحديث عن الوعدة فقال قائل إنها واجبة لا بدّ منها، وقال آخر إنها حرام لما فيها من كثرة التكاليف والنّفقات وقال ثالث هي لا بأس بها، وأكثروا من الكلام فيها، ولكن أعجبنى ما قاله الفتى في هذا الموضوع، فقد سمعته يقول لهم: إنّ الوعدة عندنا اليوم هي أن تخبر العشيرة منّا العشائر الأخرى أنّ وعدتها تبتدئ من يوم كذا إلى يوم كذا فإذا جاء اليوم الموعود خرجت العشيرة كلّها نساء ورجالا إلى سهل من السّهول الفسيحة، وتلحق بها العشائر الأخرى، فينصبون الأخبية والخيام في صفين مُتقابلين بينهما ميدان واسع يركضون فيه الخيول ، ويلعبون بالبارود ، ترى صاحب مزارم وصاحب قلال هذا يُزمر والآخر يضرب على قلاله كما يضربون على الدّفوف وهما يطوفان على أبواب الأخبية والخيام: من خيمة إلى خيمة، ومن خباء إلى خباء، فيُنفتحها أهل المروءة بما يطيّبون عنه نفسا، وربما تنافس الناس في بذل العطاء إلى هذين ولكنهم كثيرون جدا في كلّ وعدة، فلا يكاد ينصرف هذان عن هذا الخباء حتّى يقف على بابه هذان الآخران، وهكذا يجيء آخران وآخران و....

وإذا جنّ عليهم الليل اجتمعوا حول الأخبية وتحت القباب المنصوبة جماعات جماعات، وقد تصدر كلّ جماعة أحد المغنّين وهم يُسمونه الشيخ يُشَنفُ أسماعهم بألحان بدويّة هي غاية في السّدّاجة والبساطة يُحاكي بها سير الحمار أو خبب الجواد، ولكنّي أشهد أنّ هذا الشّعْر الملحون الذي يتغنّى به الشيخ في هذه

الألحان البسيطة هو وإن كان في لغة ملحونة فهو موزون بنفس البحور التي يوزن بها الشعر الفصيح.

وكلّما جاء وقت الغداء أو العشاء تقدّموا إلى هذه الجموع الغفيرة من الناس بجفان كالجوابي من الكسكسي، وهم يُسمّونه الطّعام قد علتها طبقة من التمر والحلوى، ومع كلّ جفنة سلّة عنب وقفّة لحم وإناء كبير فيه سمن كثير، وإذا همّوا بالانصراف لعبوا الرّحبة وهي نوع من البراز وذلك بأن يتجرّد الرّحاحبي من ثيابه إلاّ من فوطة يشدّها في وسطه ثمّ يقول هل من مبارز؟ فإن برزه له أحد تجرّد هو الآخر من ثيابه ثمّ يتجاولان ساعة من نهار ثمّ يركل أحدهما الآخر برجله فيتركه طريحا على الأرض أو يحجز بينهما المتفرّجون، وهما لا يتبارزان إلاّ بالأرجل والأقدام.

والغالب أنّ النساء لا يرقصن في الوعدة سافرات، ولا يختلطن فيها بالرجال ما عدا وعدة وهران ووعدة أخرى يختلط فيها الحابل بالنابل، ويركب فيها حال على حال.

وقد كثرت (الوعديات) كثرة فاحشة فكلّ عشيرة (وعدة) ولكلّ حيّ (وعدة) ولكلّ ربوة أو جبل (وعدة) ولكلّ واد (وعدة) ولكلّ وليّ (وعدة) ولشيخ الحلول (وعدة). والناس يحترمون هذه (الوعديات) احتراما كثيرا ومنهم من لا يقيمون الصلّاة ولا يأتون الزكاة ولا يُحرّمون ما حرّم الله ولكنهم يحرصون على إقامة (الوعدة) كما يحرص المؤمنون المتّقون على أركان هذا الدين الحنيف.

وهم إذا أقاموا وعدة ارتاحت ضمائرهم واطمأنت نفوسهم وظنّوا أنّهم قد أدوا كلّ ما هو الله عليهم من الحقوق والواجبات.

وأصل الوعدة في التاريخ أنّ فتيان العرب كانوا إذا خرجوا إلى الصيد جعلوا فيما بينهم موعدا مكانا سوى يجتمعون إليه في يوم معين، ثمّ انتشروا يطلبون الصيد في بطون الأودية والشعاب وفي المغاور والكهوف وعلى رؤوس الجبال وفي كلّ مكان يكون فيه الوحوش والطير فإذا كان اليوم الموعود اجتمعوا في المكان المعين، ووجدوا أنّ عشيرتهم كلّها نساء ورجالا قد سبقتهم إلى الموعد وضربوا القباب ونصبوا الخيام وصنعوا الطّعام وطبخوا من لحوم الصيد، فأكلوا وشربوا ثمّ ركبوا الصّافنات الجياد، فلعبوا ما شاءوا وأتوا من أعمال الفروسية والشّهامة ما أرادوا وربما أثاروا غزالا نافرا وأغروا به سلوقيا أو عقابا أو غلاما حديث عهد بركوب الخيل حتّى قضوا هنالك يوما وليلة أو قضوا ليالي وأياما رجعوا إلى ديارهم. وتلك هي الوعدة في الزمن القديم ولكنها تطوّرت بتطوّر الزمن وتوسّيتي الصيد، وصارت إلى ما ترون، وما كانت الوعدة لتقام باسم الولي الفلاني أو تقرّبا إليه، كما تُقام كثير من (الوعديات) في هذا العهد الأخير، ولكن ربما مات أحد الصيادين أو الفرسان في اليوم الموعود فدفنوه حيث مات، ثمّ بنوا عليه قبرا يُزار، ثمّ صاروا يُقيمون الوعدة باسمه وتقرّبا إليه.

وما انتهى من حديثه إلى هنا حتّى استولى على سائر الحاضرين الإعجاب الشديد بهذا الفتى، وبما وهبه الله من الرّأي الصائب، والقول السديد.

هل كان الشيخ التجاني وهابيا؟؟*

حقائق من التاريخ لا يعلمهن كثير من الناس

أردت أن أطلع على الكتاب الذي أرسله (الأمير عبد الله بن سعود) صاحب الحجاز ونجد إلى المولى سليمان سلطان المغرب الأقصى، وأردت أن أطلع أيضا على نص جواب السلطان عن هذا الكتاب، فطلبتهما في مظانهما، والتمستهما في كتب التاريخ، فلم أظفر بنص الكتاب ولا بنص الجواب ولكنني حصلت على ما أذكر لك خلاصته فيما يلي:

في سنة 1226هـ أرسل المولى (سليمان) صاحب المغرب الأقصى نجله الأمير عبد الله بن سعود صاحب الحجاز ونجد، وكان في معية المولى إبراهيم كثير من العلماء والأعيان، فلما حجوا البيت الحرام، وقضوا مناسكهم وزاروا الروضة النبوية المشرفة، اجتمعوا بالأمير بن سعود فقابلهم بالحفاوة والبشر، ووجوده كواحد من الناس لا يتميز بزي ولا مركوب ولا ملبوس، وتباحثوا معه فقال لهم: إن الناس يزعمون أننا مخالفون للسنة المحمدية، فهل رأيتمونا خالفنا السنة في شيء، فقال له القاضي في ذلك العهد: بلغنا أنكم تقولون بالاستواء الذاتي، فقال ابن سعود: بل نقول كما قال الإمام مالك رحمه الله: الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والسؤال عنه بدعة، فهل في هذا مخالفة؟ قالوا: لا، ونحن أيضا نقول بمثل هذا، ثم قال القاضي: وبلغنا أنكم تقولون بعدم حياة النبي صلى الله عليه وسلم في قبره، فلما سمع ابن سعود ذكر النبي رفع صوته بالصلاة عليه وقال:

* محمد السعيد، الزاهري: (هل كان الشيخ التجاني وهابيا؟؟ حقائق من التاريخ لا يعلمهن كثير من الناس)، الصراط السوي العدد 7، 1933م، ص 4.

إنما نقول أنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَيٌّ فِي قَبْرِهِ حَيَاةً فَوْقَ حَيَاةِ الشَّهَدَاءِ، وَقَالَ الْقَاضِي: وَبَلَّغْنَا أَنْكُمْ تَمْنَعُونَ زِيَارَتَهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَزِيَارَةَ سَائِرِ الْأَمْوَاتِ، وَهِيَ ثَابِتَةٌ فِي الصَّحَاحِ. فَقَالَ الْأَمِيرُ ابْنُ سَعُودٍ: مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نُنْكِرَ مَا ثَبَتَ فِي شَرْعِنَا، وَهَلْ مَنَعْنَاكُمْ أَنْتُمْ مِنَ الزِّيَارَةِ؟ وَإِنَّمَا نَمْنَعُ الْعَامَّةَ الَّذِينَ يُشْرِكُونَ الْعِبَادَةَ بِالرَّبُّوبِيَّةِ، وَسَبِيلُ الزَّائِرِ أَنْ يَعْتَبِرَ بِحَالِ الْمَوْتَى، وَأَنْ يَدْعُو لَهُمْ وَيَسْتَغْفِرَ لَهُمْ، وَيَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى الْمُنْفَرِدَ بِالْمَنْعِ وَالْإِعْطَاءِ بِجَاهِ ذَلِكَ الْمَيِّتِ إِنْ كَانَ مِمَّنْ يَلِيْقُ أَنْ يُسْتَشْفَعَ بِهِ، هَذَا قَوْلُ إِمَامِنَا (أَحْمَدَ بْنَ حَنْبَلٍ) رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ثُمَّ إِنَّ الْعُلَمَاءَ الْمَغَارِبَةَ لَمْ يُشَاهِدُوا مِنَ الْأَمِيرِ (ابْنِ سَعُودٍ) أَدْنَى شَيْءٍ يُخَالِفُ الشَّرِيعَةَ، وَإِنَّمَا شَاهَدُوا مِنْهُ وَأَتْبَاعَهُ غَايَةَ الْإِسْتِقَامَةِ، وَالْقِيَامَ بِشَعَائِرِ الْإِسْلَامِ... وَنَهَى عَنِ الْمُنْكَرِ الْحَرَامِ، وَتَطْهِيرِ الْحَرَمَيْنِ الشَّرِيفَيْنِ مِمَّا كَانَ يُرْتَكَبُ فِيهِمَا مِنَ الْقَاذُورَاتِ وَالْآثَامِ جَهَارًا مِنْ غَيْرِ نَكِيرٍ!

وَلَمَّا رَجَعَ الْوَفْدُ الْمَغْرِبِيُّ إِلَى الْمَغْرِبِ الْأَقْصَى وَقَصُّوا عَلَى الْمَوْلَى (سُلَيْمَانَ) مَا شَاهَدُوهُ فِي الْحِجَازِ مِنَ الْأَمْنِ الشَّامِلِ وَالْعَمَلِ بِالْقُرْآنِ الْكَرِيمِ وَالسُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ فِي الْعِبَادَاتِ وَالْمُعَامَلَاتِ أَثَرَ ذَلِكَ فِيهِ أَحْسَنُ تَأْثِيرٍ حَتَّى أَنَّهُ أَلَّفَ كِتَابًا (كَمَا قَالَ صَاحِبُ الْإِسْتِقْصَاءِ) فِي الرَّدِّ عَلَى مُتَصَوِّفَةِ وَقْتِهِ، حَثَّ فِيهِ عَلَى التَّمَسُّكِ بِالسُّنَّةِ وَتَرْكِ وَعَلَى تَرْكِ الْبِدْعَةِ، وَشَنَعَ الْمُبْتَدِعِينَ مِنْ مُتَفَقِّرَةِ زَمَانِهِ وَتَكَلَّمَ عَنِ الزِّيَارَةِ وَعَنِ دُعَاءِ غَيْرِ اللَّهِ بِمَا يُوَافِقُ الْوَهَابِيِّينَ أَوْ حُنَابِلَةَ نَجْدٍ فِي رَأْيِهِمْ، وَلَا يُخَالِفُهُمْ، وَأُورِدَ صَاحِبُ الْإِسْتِقْصَاءِ رَأْيَ حُنَابِلَةَ نَجْدٍ فِي الزِّيَارَةِ وَدُعَاءِ غَيْرِ اللَّهِ ثُمَّ أَرَدَفَهُ بِتَفْصِيلٍ مِنْ عِنْدِهِ فِي زِيَارَةِ الْأَنْبِيَاءِ، ثُمَّ قَالَ مَا نَصَّه: وَأَمَّا الْأَوْلِيَاءُ فَالْقَوْلُ بِمَنْعِ زِيَارَتِهِمْ مَعَ بَيَانِ عِلَّتِهَا... هُوَ قَوْلٌ وَجِيهٌ، تَقْتَضِيهِ قَوَاعِدُ الشَّرِيعَةِ الْمَطْهَرَةِ، وَهَذَا الْقَوْلُ هُوَ الَّذِي رَأَاهُ الشَّيْخُ الْفَقِيهَ الصَّوْفِيَّ أَبُو الْعَبَّاسِ أَحْمَدُ التَّجَانِي رَحِمَهُ اللَّهُ حَتَّى نَهَى أَصْحَابَهُ عَنِ زِيَارَةِ الْأَوْلِيَاءِ (رَاجِعِ الْإِسْتِقْصَاءَ ج 4 ص 146).

ومقتضى عبارة الاستقصاء أنّ الشيخ رحمه الله لم يقل بمنع زيارة الأولياء من تلقاء نفسه وإنما كان في هذه المسألة تابعا للوهابيين. وفي كتب الطريقة التيجانية كثير من الحوادث والوقائع التي نهى فيها الشيخ أصحابه عن زيارة الأولياء، ومع أنهم قد نفوا أن يكون الشيخ قد منعهم من الزيارة أنانية واستأثارا، فقد جاء بتأويل كثير، ولكنه لا يوافق المنطق والتاريخ، وزعم زاعم أنّ الشيخ التجاني أنّما منع من زيارة الأولياء خوفا على أتباعه ومريديه من معاصره ومنافسه القوي الشيخ الفقيه الصوفي أبي عبد الله محمد العربي الدرقاوي الذي كان يجذب إليه قلوب الذين يستمعون إلى وعظه وإرشاده، وأنا أعتقد أنّ هذا الزعم غير صحيح فالشيخ التجاني ليس في حاجة إلى أن يمسك عليه أتباعه ومريديه بمثل هذا الأمر فأحابه لا يؤثر فيهم لا الشيخ الدرقاوي ولا غير الدرقاوي، على أنّ أتباع كل شيخ طريقة لا يزورون من عند أنفسهم أيّ شيخ طريقة أخرى من غير أن يحثهم على ذلك أحد من الناس.

ولقد كانت المنافسة بين التجاني وبين الدرقاوي منافسة شديدة حقا على أتمّ ما تكون قوة وعنفا، وجرت بينهما ذات يوم في مسجد جامع مناقشة حادة وخصا طويل ربما نشره مرة أخرى، ولكن ذلك كله لا يحمل التجاني على التملق والتفلسف والسخافات، وهو الذي عرف منه الهمة التي لا تتعلق إلاّ بمعالي الأمور.

إنّ الخصومة التي كانت بين هذين الشخصين كانت في صميمها سياسية محضة، وإن كانت تلبس لباس الدين. وذلك أنّ المولى سليمان كان يرى في الطريقة الدرقاوية والطريقة الطيبية وغيرهما أحزابا سياسية وتشكلات مناهضة تعمل لإسقاط وسحق سلطانته، ولقلب نظام الحكم في المغرب الأقصى، وبعبارة أخرى أنّ هذه الطرق الصوفية في نظره كانت تعمل لفائدة الأدارسة الذين لا

يزالون يتطلعون إلى عرش المغرب الأقصى، ويتوثّبون عليه من حين لآخر، والمولى سليمان مُحق في رأيه هذا، فالشيخ الدرقاوي مثلا كان تأمر مع أهل فاس على خلع المولى سليمان وعلى مبايعة المولى إبراهيم بن يزيد، وسجن الشيخ الدرقاوي من أجل ذلك، وقد جاء عياله وذراريه إلى السلطان يتضرعون إليه أن يُطلق سراح كاسبهم فرفض شفاعتهم ولم يقبلها، وتركه ممتحنا مسجوننا ولبت كذلك حتى توفي السلطان إلى رحمة الله. وكم من فتن وثورات قامت في المغرب الأقصى على المولى سليمان وعلى غيره من السلاطين، وكانت كلها مكن المتشوّفين إلى العرش والطامعين في الملك من أشياخ الطرق وأرباب الزوايا.

وقد جرب المولى سليمان أن يكون هو نفسه شيخ طريقة صوفية (أو رئيس حزب سياسي) ليكثر من حوله الأشياخ والأنصار، ولكن ما يتطلّبه العرش من أبهة وجلال، ومن رسميات وتقاليد حالت بينه وبين ما يُريد، وليس من السهل أن يؤسس المولى سليمان طريقة صوفية يخضع بها شوكة الطرق الصوفية الأخرى، فإنه إن نصب عليها قريبا من أقاربه الشرفاء خاف من هذا القريب نفسه أن يثور عليه، وأن يطلب الملك لنفسه متى كثر حوله الأتباع والأنصار والمريدون، فلما انتقل الشيخ التجاني إلى فاس وجد فيه السلطان ضالته المنشودة فالشيخ صوفي مشهور، وله أتباع غير قليلين، وهو جزائري الأصل والفصل لا يخاف السلطان منه أن يدعي الملك لنفسه وهو في ديار الغربية، فاقتبله السلطان وآواه وأكرم نزله ومثواه، وأعطاه دارا من دوره كان قد أنفق في بنائها وتأسيسها مالا كثيرا، وكانت هذه الحظوة التي حظها الشيخ عند السلطان سببا في انتشار الطريقة التجانية بين رجال الدولة والمقربين إلى السلطان من موظفين وغير موظفين وتتابع الناس يعتنقون هذه الطريقة والناس على دين ملوكهم كما قيل حتى كادت تصبح هي الطريقة الرسمية لدولة المغرب الأقصى ونحن لا نعلم يقينا أن المولى سليمان قد فرض على الناس فرضا أن يكونوا (تجانيين) ولكننا نعلم أنه قد أعجب

بالشيخ التجاني (واعتقده)، ونعلم أنه قد أظهر هذا الإعجاب وهذا الاعتقاد، على أننا نعلم أيضا أنه كان ساخطا على كثير من أشياخ الطرق الأخرى، ويحدثك التاريخ أن الرجل المغربي قد يكون ذا مال كثير، وقد يبیت بين أهله ناعم البال آمنا سربه، وما هي إلا أن يشتد الظلام حتى ينقض عليه زبانية السلطان أو زبانية عامل من عمال السلطان فلم يدعوا له مالا إلا نهبوه ولا جارية إلا سحبوها ولا عيالا إلا شردوه ولكنه إذا كان (تجانيا) فهو (محرر) لا يمسونه بسوء، ولا ينالونه بأدنى أذى. ومن هنا شاع بين العامة أن من اعتنق الطريقة التجانية ضمنت له الثروة والغنى!. ولقد تبارى في مدح الشيخ التجاني وفي إظهار كراماته وفضائله ومُعجزاته كل أولئك الذين يبتغون عند السلطان (التقرب والرفق) وكان يرتاح لذلك ويتقبله قبولا حسنا.

غير أن الشيخ التجاني رحمه الله بعد أن غادر بلاده (الجزائر) مكرها، وبعد أن ترك فيها أشياعه وأنصاره، وبعد أن ضاعت فيها آماله ومطامحه وأمانيه لم يعد يعنيه أن يجتمع عليه الناس أو أن ينفض من حوله (الأحباب) والمريدون فكان رضي الله عنه لا يبالي بهذه الحظوة التي حظيها عند السلطان، كأنه كان يعلم أن وراء الأكمة ما وراءها).

ولقد قرأت أن هذا الشيخ نهي أتباعه عن زيارة الأولياء ونهاهم عن (التمشيش) قائلا: إن دعوى المشيخة من سوء الابتداء، وترك هو المشيخة فعلا وأغلق بابه دون أحبابه ومريديه فيما رواه عنه بعض التجانيين فظننت أنه قد عرف من السلطان أنه إنما اتخذ آلة لمقاومة الطرق الأخرى، وهذا ما لا يريده الشيخ لنفسه، ولا يرضاه لها فترك المشيخة - لذلك - وكان من أمره ما كان، ولكنني اليوم أصبحت أعتقد أن الشيخ إنما ترك المشيخة ونهى عن الزيارة اقتداء بابن عبد الوهاب، ورجوعا منه إلى الكتاب والسنة.

كان الشيخ التجاني معاصراً للأمير عبد الله ابن سعود الذي استولى على الحجاز، وطرد منه الأتراك العثمانيين، وبلا شك أن الشيخ قد بلغه وقد سمع أن الأمير بن سعود هذا قد أحيى السنة النبوية وعمل بالقرآن وأنه طهر الحرمين الشريفين مما كان يرتكب فيهما من الموبقات والآثام في النهار المبصر دون نهي ولا نكير فسر بهذه الأخبار، وكان الشيخ نفسه قد حج إلى بيت الله الحرام فلا يبعد أن يكون قد لقي في حجه بعض علماء نجد الحنابلة فأخذ عنهم آراءهم في (الزيارة) و (المشيخة)، والشيخ عندما كان يطلب (علم القوم) لم يكن يطلبه لذاته، بل كان يطلب فيه الخير والهدى فلما وجد أن الخير كله في سنة الرسول صلى الله عليه وسلم وأن الهدى هدى الله، ترك المشيخة وعلم القوم وتمسك بالسنة والكتاب.

وكان الشيخ قد أرسل بعض أصحابه إلى الحجاز في مهمة لا نعلمها، وهي ما تزال إلى هذا اليوم سرا مكتوما، لأن هذا الرسول قد أفضى إلى عمله ومات في طريقه، ولم يرجع إلى شيخه، ولكن من يدري؟ فلعل هذه المهمة كانت كتابا أرسل به الشيخ إلى الأمير بن سعود ليتفق معه على نشر الكتاب والسنة، وعلى الدعوة إليهما في هذه الديار، وبين الأمير بن سعود وبين الشيخ التجاني رابطة قوية أخرى تربط ما بينهما فكلاهما ناقد تائر على الأتراك، أما ابن سعود فأمره مع الترك معلوم، وأما التجاني فقد كان ناقما على أتراك الجزائر، وحاول غير مرة أن يثور عليهم وأن يردعهم بحد السنان، وعزم ذات يوم على الثورة وأعد لها عدتها وسعى لها سعيها، والتقى في جمع من أنصاره حوالي مدينة (معسكر) مع جنود الأتراك، ولكن ثورته هذه كانت فاشلة، وانسحب من الميدان قبل الشروع في القتال، فكان ذلك سببا في حقن كثير من دماء المسلمين، ثم اضطره الأتراك إلى مغادرة البلاد، ولكن ابنه سيدي (محمد) دخل الجزائر بعد وفاة أبيه خائفا يترقب، وجمع الجموع وأعلن الثورة على الترك حوالي (معسكر) أيضا فجرّدوا حملة

عليه عسكريّة هزمته وقتلته ومثّلت به تمثيلاً شنيعاً، ومن هذا تعرف أنّ الشيخ رحمه الله كان ناقماً على الأتراك النّعمة كلّها، وهذا ممّا يجعله يعطف على (ابن سعود) ويرتضي الدّعوة الوهابيّة كثورة على الظّلم والفساد وكدعوة إلى الدّين الخالص القيمّ الحنيف.

وبعد فهذه أفكار وآراء ما أريد أن أفرضها فرضاً على القارئ الكريم، ولكنّي رأيتها صالحة لتعليل منع الشيخ التّجاني لأحبابه من زيارة الأولياء ولتعليل تركه المشيخة وقوله عنها أنّها من سوء الابتداع، ولم تقم عندي الشّواهد والبيّنات القاطعة حتّى أجزم بأنّ الشيخ التّجاني وهّابياً بأنّ معنى الكلمة، غير أنّي لا أتردّد أن أقول - بكلّ جزم ويقين - أنّ الشيخ التّجاني هذا كان يُحبّد الدّعوة الوهابيّة ويوافق عليها، وأنّه كان ينظر إليها بعين الغبطة والرّضى.

إلى زيارة سيدي عابد! 2

أحاديثنا في القطار*

فانتني أن أسمع منه أول الكلام، ولكني سمعته يقول لهم:

وكان الشيخ البرعي رحمه الله يجتمع بالنبي صلى الله عليه وسلم يقظة لا مناما وهو حينما خاطبه صلى الله عليه وسلم بقوله: ... فامدد يمينك كي تحظى بها شفتي أخرج صلى الله عليه وسلم من القبر يده الشريفه، وناوله إياها، فتهافت البرعي عليها لثما وتقبيلا، كل ذلك والحجاج ينظرون (!). والشيخ البوصيري رحمه الله كان عزم ذات يوم أن يزور القبر النبوي الشريف، فجاءه الرسول صلى الله عليه وسلم يقظة لا مناما، وقال له: يا حبيبي يا بوصيري اترك عنك زيارتي فإنك إن جئتني زائرا لم يسعني إلا أن أخرج من قبري جهارا نهارا لاستقبالك وللترحيب بقدمك، ويومئذ تبدل الأرض غير الأرض والسماوات... قال: فعدل الشيخ البوصيري عن زيارة القبر الشريف أخذا بخاطره عليه الصلاة والسلام، وسيدي فلان قال: وقوله الحق (!): لو فارقتني حبيبي رسول الله طرفة عين لما عددت نفسي مؤمنا، وقال: وكنت في شبابي وكهولتي قد أقمت بين أهلي في قصر الشلالة فكان حبيبي رسول الله يزورني فيها المرة بعد المرة، (ويختلف) إلي من حين إلى حين، وقد بلغ من عنايته عليه الصلاة والسلام بسيدي فلان (وذكر اسم أحد الأثيخ الصوفية المشهورين) أنه كان لما أراد أن يتوضأ للصلاة أو هم بدخول الحمام جاءه رسول الله صلى الله عليه وسلم يقظة لا مناما، وناوله بيده الشريفه الماء والقباب!...

* محمد السعيد الزاهري: (زيارة سيدي عابد2) الصراط السوي، العدد8، 6 نوفمبر 1933م، ص4.

وهنا انبرى له من الحاضرين رجل على وجهه علامات العلم والدين، فقال له - وهو يكاد يتميز من الغيظ -: يا هذا، أليس فيك بقية من الخجل والحياء؟.. إنك تزعم أن الحجاج قد شاهدوا عيانا أنه صلى الله عليه وسلم قد مدّ يده الشريفية من القبر إلى الشيخ البرعي الذي تهافت عليها - وحده! - يلثمها ويقبلها، وهم (الحجاج) ينظرون دون أن يتسابقوا هم أيضا إلى لثمها وتقيلها، كأن هؤلاء الحجاج الذين جاءوا من أقاصي البلاد يزورون قبر المصطفى ليس عندهم من الحب لرسول الله والوجد به، وكأنهم لا يحملون بين جوانبهم من الشوق إليه مثل ما هو عند الشيخ البرعي حتى لا يزاحموه على اليد الكريمة يلثمونها ويقبلونها.

ثم زعمت لنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد نهى الشيخ البوصيري يقظة لا مناما عن زيارته وكيف تظن أنه صلى الله عليه وسلم ينهى أحدا أن يزور قبره الشريف؟

ثم زعمت لنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يزور سيدي فلان في الشلالة المرة بعد المرة، فجعلت أن رسول الله هو الزائر وأن سيدي فلان هو المزور، ولو عكست لأصبت شاكلة الصواب.

وبعد هذا كله جئتنا بداهية الدواهي فزعمت أن سيد ولد آدم - بطمه وطميمه - كان يقوم بخدمة سيدي فلان ويأوله بيده الشريفية الماء والقباب كلما أراد أن يتوضأ أو هم بدخول الحمام فلم تزد على أن جعلت منزلة رسول الله صلى الله عليه وسلم كمنزلة، متشو، من، متشوات، الحمام !!!

ويحك يا هذا الرجل! هل تدري ما تقول؟ وهل هذا هو كل ما عندك من المكانة والمنزلة لخاتم النبيين، ولسيد هذا الوجود؟؟

لك أن تُعظّم الأولياء والصالحين بما يبذلوك من أوجه التعظيم ولكن بشرط أن لا تؤذي الله، وأن لا تؤذي الرسول صلى الله عليه وسلم، فلا تجعل الأولياء شركاء مع الله ولا تجعل لواحد من الأولياء مقاما أو منزلة فوق منازل الأنبياء والمرسلين.

إن كان صحيحا ما يُقال من أن فريقا من الأولياء والصالحين قد رأوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بأبصارهم يقظة لا مناما فلا بد أن يكون ذلك على ضرب من التأويل فيقال أنهم تعلقوا برسول الله، ومُنّت قلوبهم حبا له وأفندتهم وجدا به ، وجوانحهم شوقا إليه، فلا يزالون يستحضرونه في أذهانهم ومُخيلاتهم، ولا تزال ألسنتهم تلهج باسمه الكريم، فربما زهل الواحد منهم عن نفسه ذهولا عميقا، وربما غشيته غيبوبة لا يعي معها مما حوله شيئا، وهُنالك قد يرى رسول الله صلى الله عليه وسلم أو يُخيل إليه أنه يراه حتى إذا انجلت عنه غيبوبته، وسكت عنه ذهوله، ورجع إلى نفسه وثاب إليه وعيه، ظن أنه رأى بعينه رسول الله صلى الله عليه وسلم، في اليقظة لا في المنام، وقام ذلك في نفسه حتى لا تستطيع أن تناقشه فيه، إن المسألة ليست من الحقيقة في شيء ولكنها كلها خيال في خيال.

لقد كان الصحابة رضي الله عنهم أشدّ الناس حبا لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وأكثرهم به إيمانا وتصديقا، ومع ذلك فلم يؤثر عن أحدهم أنه كان يرى في يقظته رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وسيدتنا فاطمة الزهراء البتول كانت لوعتها وفجعنها بوفاة أبيها أشدّ مصابا وأعظم رزعا مما يصف الواصفون، ولقد أقامت على تربته الطيبة الزكية ستة أشهر كاملة وهي تبكي وتقول:

ماذا على من شمّ تربة أحمد أن لا يشمّ مدى الزمان غواليا

صبت عليّ مصائب لوانها صبت على الأيام عدن لياليا

ومع هذا كله فليس في الناس من أحد يزعم أنها كانت، رضي الله تعالى عنها، ترى أباها رسول الله صلى الله عليه وسلم في يقظتها لا في منامها.

ويحك يا هذا الرجل ! فهل تستطيع أن تحكم أن سيدي فلانا وسيدي فلانا وغيرهما من الأولياء والصالحين هم خير وأفضل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأعظم منهم درجة عند الله؟ أم تقولون على الله ما لا تعلمون!! مالكم كيف تحكمون!!

فغضب الرجل الأول، وأجاب بلهجة المغيظ المحنق، وقال: هذه عقيدة الشيخ ابن باديس وإخوانه أعضاء جمعية العلماء المسلمين وأنت فيما أرى قد أخذت عنهم هذا الكلام، فردّ عليه صاحبه وقال: هذا هو الحق، وقد بينه لنا علماءنا المسلمون جازاهم الله بأفضل ما يجزي به عباده المتقين، ولقد احتملوا في بيان الحق كثيرا من المكروه والأذى ومن جملة ذلك ما قلته أنت بحقهم الآن، وما كان ينبغي لك أن تذكر العلماء إلا بالخير لو أنك كنت من الذين يعقلون وأنت تلومني على الاقتداء بالشيخ بن باديس وإخوانه من العلماء العاملين، وأنا ما زال لم يسعدني الحظ لأكون لهم تابعا، وبهم مقتديا، ولكن على فرض أنني لا أقتدي بهؤلاء العلماء الصالحين المصلحين، أفتراي أقتدي بأولئك الجاهلين المخرفين وبأولئك الدجالين النصابين الذين يأكلون أموال الناس بالباطل ويدلون بها إلى الحكام! ناشدتك الله أما تراهم في هذه الضائقة الخائفة والأزمة الشديدة لا يفتنون يستخلصون منا الضرائب والندور، ولا يفتنون يسألوننا أن نعطيهم الصدقات والزيارات وهم يقفلون راحتنا ويحلفون في السؤال؟؟ ثم يحسبون أن لهم أن يسألونا وأن علينا أن نؤدي إليهم ما طلبوا، فريضة من الله، بدعوى أنهم متصوفة متدينون، ونحن نعتقد أن التصوف والدين يبران إلى الله من مثل هؤلاء المتسولين الشحاتين.

من تصوّف فإنّما يتصوّف لنفسه، وليس واجبا علينا نحن أن نطعم المتصوّفين ولا أن نقوم لهم بتسديد ما هم فيه حاجة إليه من أرزاق ونفقات، وإنّي أعتقد أنّ لُقمة واحدة أعطيها جائعا خير عند الله وأعظم أجرا من الصدقات التي يتصدقّ الناس بها على هؤلاء المتصوّفين، وكيف يكونون متصوّفين وهم قد أهملوا أهمّ ركن من أركان التّصوّف وهو الزهد في حطام الدّنيا، وإنّك لتراهم في كلّ ناحية من نواحي هذه البلاد، يتكفّفون ما في أيدي الناس، ولتجدنهم أحرص الناس على حياة... هم يطلبون الناس المال ويتلهّفون عليه، ولكنهم لا يطلبون الرّزق الحلال من وجهه الشّريف بل ينصبون الأشرار والأحابيل ويأكلون كلّ ما وقع إليهم فيها سواء كان رزقا حلالا أم سُحتا حراما.

أمّا العلماء المصلحون الصّالحون فهم يدعوننا إلى الله ويدعوننا إلى الهدى ودين الحقّ، ويهدوننا إلى التي هي أقوم ويهدوننا إلى صراط الله المستقيم وهم إنّما يعملون ذلك ابتغاء مرضات الله لا يريدون منّا جزاء ولا شكورا، فقال له الرّجل: غير أنّ هؤلاء العلماء يبخلون علينا بما عندهم من العلم ولا يشتغلون بنشر العلم بين الناس ولوانهم اقتصروا على هذا الأمر لكان خيرا لهم ولهذا الشعب من هذه الضّجة التي أثاروها حول الضّالين المضلّين من أصحاب البدع والخرافات، فقال له صاحبه: إنهم قد فعلوا، قال: وكيف ذلك؟ قال: أليس هذا الذي تسمّيه ضجة حول الضّالين المضلّين هومن مقاومة المبتدعة ومن محاربة الأمراض الخُلقية ومن محاربة آفات الاجتماع؟ قال بلى صدقت هو كذلك، قال: ومقاومة البدع والآفات أليست هي من الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر؟ قال بلى صدقت هي كذلك، قال: والأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر أليس هومن أركان هذا الدّين الإسلامي؟ قال: بلى، قال: فاشهد إنّ أنّ علماءنا إنّما قاموا بواجبهم الدّيني وإنّي أضرب لك مثلا تفهم به ما نقول، قال: وما هو؟ قال: لنفرض أنّك تملك قصرا بديعا مؤثّنا على أحدث طراز بأفخر الأثاث والرياش وبينما أنت تتهيا

لكي تبني إلى جانبه قصرا آخر بديعا وتعدّ له اللوازم والمعدّات إذ شبتّ النار في قصرك البديع وبدأت تأكله وتأكل ما فيه من ريش وأثاث، لنفرض أنك كنت في مثل هذه الحال وفي مثل هذه الظروف فما هو واجبك؟ وماذا تصنع؟ هل تشرع في البناء والتشييد أم تشرع من فورك في إطفاء الحريق؟ قال: بل أبادر إلى إطفاء الحريق، قال: ذلك مثل علمائنا المصلحين قد بادروا إلى إزالة هذه المنكرات والمحدثات التي بدأت تأكل هذا الدين القيم الحنيف وهم بذلك ينشرون العلم الصحيح بين الناس ويدعونهم إلى البيّنات والهدى ولا تظنّ أنّ هذه المهمّة العظيمة التي يقوم بها علماءنا هي ليست من باب نشر العلم بل هي من باب نشر العلم، وقد كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يدعو إلى الله على بصيرة ويقاوم الشرك والضلال وينشر العلم والحق، وكان من طريقته صلّى الله عليه وسلّم في الإرشاد تسفيه أحلام المشركين وبيان ما هم عليه من الضلالة والغي وهو صلّى الله عليه وسلّم خير من نشر العلم بين الناس، ولنشر العلم أساليب كثيرة وطرق شتى وإذا كان علماءنا قد بدأوا بنشر العلم بين الكبار بالخطب والمحاضرات والدروس أو بما نشروا في الصحف والمجلاّت من المقالات والفصول فإنّ لهم في ذلك أسوة برسول الله صلّى الله عليه وسلّم على أنّ علماءنا مُشْتَغِلُونَ الآن وقبل الآن بنشر العلم على الطّريقة التي أنت تريدها، وإذا أنت قد استعبت هؤلاء المصلحين فما أنت بواجد أحدا سواهم ينشر العلم في هذه البلاد، وهذا الأستاذ الشيخ عبد الحميد بن باديس مثلا وهو من أبناء الثروة والنّعيم، وفي مُتناول يده أن يمضي حياته في غاية الرّفاهية والعيش الرّخيم، قد زهد في ذلك كلّه، وتصدّى لنشر المعارف والعلوم في هذه البلاد، ولقد مضى عليه اثنتان وعشرون سنة قضاها كلّها في إعلاء كلمة الله وحسبك أنّه قد حرم نفسه طائعا مُختارا كلّ ما تتطلّبه الفتوة والشّباب من زهرة الحياة الدّنيا، كلّ ذلك قد تركه لله،

وفي سبيل الله، وهذه النهضة العلميّة التي قد شملت الجزائر كلّها إنّما يرجع أكبر الفضل فيها إليه، ثمّ إلى تلامذته ومريديه.

ثمّ سرد بعض أسماء المصلحين الذين يشتغلون اليوم بنشر العلم بين الناس في هذه البلاد، ثمّ قال: وكثير غير هؤلاء من رجال العلم والإصلاح قد منعتهم الحكومة من التدريس والتّعليم، بسبب وشايات ذميمة، وسعايات دنيئة قام بها الخونة المخذولون، ومن المؤسف حقا أنّ هؤلاء (المخذولين) لا يستطيعون أن يعملوا عملا صالحا ينفع البلاد، وينافسون به المصلحين، وإنّما هم يفسدون في الأرض ولا يصلحون.

فقال له الرّجل: بقيت لي مسألة واحدة، قال وما هي؟ قال: قد سلّمنا أنّ للمصلحين ألف حقّ فيما يدعون إليه وفيما قاموا به من محاربة البدع ومُحدثات الأمور... ولكن ما بالنا نراهم قد انضمّ إليهم بعض الذين يُدخّنون وبعض الذين يتعاطون الخمر والمسكرات، وبعض الذين لا عمائم لهم ولا لحي... قال له صاحبه وهو يُحاوره: بل إنّ المصلحين أكثر الناس لحي وعمائم، وقد قال شاعرهم يُخاطب خصوم العلم والإصلاح:

سبقناكم علما ودينا وإنّا لنا السبق حتى في اللّحي والعمائم

واستعرض أسماء كثير من المصلحين وقال هؤلاء كلّهم لهم عمائم ولهم لحي، واستعرض أسماء كثير من أعداء العلم والدين، وقال: هؤلاء كلّهم ليس لهم عمائم وليس لهم لحي، على أنّ ميزان الرّجال هنا إنّما هو العلم والعمل الصّالح، ليس هو العمائم واللّحي.

إن كان بعض الذين يُدخّنون ويتعاطون الخمر قد انضمّوا إلى حزب المصلحين وليس معنى هذا أنّ هؤلاء قد تعلّموا (التدخين والسكر) منذ اعتنقوا فكرة

الإصلاح، بل هم كانوا مُدمنين على الدخان والخمر فلما انضموا إلى المُصلحين تابوا وأصلحوا وحسنت أحوالهم، على أن (المخزولين) أعداء العلم والإصلاح هم أكثر عريضة وسُكرا، وهنا تكلم رجل آخر وشهد على نفسه وقال: وأنا شخصا لم أكن أعرف للخمر مذاقا حتى اتصّلت بزاوية سيدي فلان فشربت، وشربت كثيرا مع أبناء سادتنا، فلما فرّق الدهر ما بيني وبين تلك الزاوية لذت بالمتاب وأصلح الله حالي...

واستمرّ صاحبنا في الحديث فقال: أردت ذات يوم أن أتناول العشاء في أحد مطاعم الجزائر العاصمة، فجلسنا إلى مائدة كان قد جلس إلى طرفها أحد المسلمين، فتعارفنا وجعلنا نتحدث عن الوظائف الدينيّة الإسلاميّة، فاستنكر الرجل كلّ الاستنكار أن يُسمّى في وظيف ديني - بغير امتحان - من لا كفاءة فيه، واستشهد على هذا العبث بالمساجد فقال: في المدينة الفلانيّة نصبوا في وظيف الإفتاء رجلا سكيّرا وكيف يقتدي المسلمون في أمور دينهم بمن ليس له دين، وكانت أمامه على المائدة قنينة (قرعة) خمر، فمدّ يده إليها وملاً كأسه فأترعها، ثمّ عبّها عبّا كلّها في نفس واحد وملاًها مرّة ثانية حتى طفحت، وأدناها من فمه وكأنّه قد تفتّن إلى - الخلف بين ما يعمل وبين ما يقول، فنحّأها بعيدا عن شفّتيه وقال: أنا وإن شربت الخمر قليلا فإنّي لا أطلب من المسلمين أن يصلّوا ورائي وما أريد أن أكون لهم (مفتيا) ولا (إماما) ومتى خرجت من هنا توضّأت وقضيت ما فاتني من الصلّوات، وإنّي متوسّل بسيدي فلان ثمّ ضرب بيده في جيبه وأخرج منه (سبحة) غليظة فأمسك بقمعتها وأسدلها أمامنا وقال: هذه هي البيّنة القاطعة على أنّي من أهل الله الذاكرين! وكان معي رفيق فتبسّم ضاحكا من غلظها!

ثمّ قال صاحبنا: وبيوت الدّعارة والخنى هذه التي بُليت بها بلادنا إنّما يتّجر بالشرف والعفاف فيها أولئك المريدات اللّائي ينتسبن إلى الطّرق الصّوفيّة

ويعتقدون بصحة ما في هذه الطرق من خرافة وضلال، وربما أن (أشياخهن) سيغفرون لهن كل ما ارتكبن من الكبائر والخطيئات.

وهذه (الزيارة) التي نحن قادمون عليها، هل رأيتموها؟ قال الرجل: نعم رأيناها ورأينا ما فيها من انتهاك الأعراض والحرمات، واقتراف الكبائر والمحرمات... قال باسم من تقام هذه (الزيارة)؟ هل يُقيمها علماءنا المصلحون أم يُقيمها الدجاجلة الذين ينتحلون لأنفسهم (الولاية والصلاح)؟ قال الرجل: بل يُقيمها الدجاجلة الذين ينتحلون لأنفسهم (الولاية والصلاح). قال فاحمد الله على عمل المصلحين، وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين.

ما العلاج؟*

جاءني من الأخ الفاضل صاحب الإمضاء هذا الكتاب الآتي:

إلى حضرة الأستاذ الشيخ الزاهري السلام عليكم ورحمة الله.

في هذه الأيام تحادثت مع بعض المتتورين أصحاب العقول السليمة والمعلومات التامة من الذين أثق بهم وبإخلاصهم، فتفاوضنا في أحولنا السيئة، فيما يجب أن نتخذه من علاج لأمراضنا، فقالوا لي: يجب على علمائنا أعضاء جمعية العلماء المسلمين الذين يشتغلون بالإصلاح الإسلامي أن يتركوا الاشتغال بالعقائد وبالأمور الدينية بالمرّة، وينبغي لهم بدل ذلك أن يفعلوا ما فعلت مصر من ترجمة الكتب الأوروبية ونقلها إلى لغتنا العربية، ووضع القواميس... قالوا: فهذا لا بغيره نرقى وننهض، أما الخوض في العقائد لإصلاحها أو لتبديلها فهو امر لا جدوى منه، ولا خير فيه، ولقد أقنعوني بصحة هذه الفكرة فأصبحت أعتقد أن أمتنا المسلمة العربية لا تنهض ولا ترقى إلا إذا اشتغل علماءنا المصلحون (أي جماعة العلماء المسلمين الجزائريين) بالترجمة والتعريب عن اللغات الأجنبية الحية، وبوضع القواميس.

وإني أرجو من حضرتكم أن تقولوا لنا كلمتكم في هذا الموضوع، وقد عرفنا منكم الرأي الصائب، والنظر السديد، وأن تنشروا جوابكم في جريدة الصراط السوي، فهل أنتم متفضلون بالجواب؟

* محمد السعيد، الزاهري: (ما هو العلاج؟)، جريدة الصراط السوي، العدد الحادي عشر، 1933م، ص6.

وتفضلوا في الختام بقبول أطيب تحياتنا وأزكاها من المخلص: الطاهر العفيفي.

في عين تموشنت من عمالة وهران (الجزائر)

وأنا أشكر لهذا الأخ الفاضل ثقته بي، وأشكره على ما أولانيه من الظن الجميل، فاخترني بالسؤال دون سائر الأدباء والعلماء المصلحين، وإننا نطلب من جميع قرائنا الكرام أن يوافقونا بما يكون عندهم من أسئلة وأفكار أو ملاحظات لنكون بهم على اتصال متين، كما فعل الأخ السيد العفيفي هذا.

ولقد قرأت هذا الكتاب وأعدت قراءته فإذا مضمونه أن هؤلاء الذين يسميهم السائل منتورين أصحاب عقول سليمة ومعلومات تامة، يطلبون منا نحن معشر جماعة الإصلاح الإسلامي أن ندع أشياء وأن نأتي أشياء أخرى، يطلبون منا أن ندع ما نحن فيه، وما أمضينا فيه عهدا طويلا وجهودا جمّة وبالحرى يطلبون منا أن ندع هذا الإصلاح الإسلامي فلا نعنتي بعقيدة من العقائد ولا بأمر من أمور الدين، ويطلبون منا أن نعنتي - بدلا من ذلك - بكتب الأجانب نترجمها إلى لغتنا، ونضع القواميس العربية الفرنجية، وما إلى هذا لأن مصر فيما يرى هؤلاء المنتورون... قد نهضت بمثل هذه الترجمة لا بإصلاح العقائد ولا بأمر الدين.

لقد صدق من قال: إن الانتقاد سهل، ولكن العمل صعب. وإلا فلماذا لا يكون لهؤلاء المنتورين... عمل غير انتقاد العاملين، ولوان هذا الانتقاد كان من رجل عمل لإصلاح هذه الأمة وسعى في خيرها مع هؤلاء المصلحين العاملين ثم تبين له بالتجربة أن السعي لإصلاح العقائد وأن نشر الفضيلة والخلق الكريم لا ينفع هذه الأمة ولا يجديها لقلنا: هذا رجل مجرب يجب أن نعطي رأيه كثيرا من العناية والاعتبار، أما هؤلاء المنتورون... لم يعملوا أدنى عمل لهذه الأمة، ولم

ينزلوا قطّ إلى ميدان الأعمال العموميّة ولا إلى معترك الحياة، فإنّ آراءهم فيما لا يعلمون لا ينبغي أن نهتمّ لها كثيرا.

يعتقد هؤلاء المنتورون أنّ خير علاج لهذه الأمة هوان يشتغل علماءها المصلحون بترجمة الكتب الفرنجية وبوضع القواميس، وهذا العلاج على فرض أنّه صحيح فلا يقدر عليه غير هؤلاء المنتورين أنفسهم فهم الذين عرفوا بعض اللغات الأجنبية، أمّا العلماء فمهمّتهم دينية اجتماعية وليست مهمّتهم الترجمة والتعريب، على أنّ هذه الفكرة هي باطلة غير صحيحة لأننا لو اشتغلنا بالترجمة والتعريب وبوضع القواميس العربية الفرنجية فماذا ينفع ذلك في أمة كأمتنا لا تزال في حاجة إلى تعلّم حروف الهجاء؟

لقد اشتغلت تركيا الحديثة بترجمة كتب الإفرنج، وأشرف القائمون بالترجمة من أبنائها فيما يُترجمون، وألحوا على أمّتهم بذلك حتى كانت النتيجة هي أنّهم ترجموا أمّتهم المسلمة الشريفة إلى أمة غريبة كادوا يسلخونها طوعا أو كرها عن دينها الإسلام.

ولقد اشتغلت مصر بالترجمة وأسرفت فيها فوقعت اليوم في حيرة شديدة لا تعرف لنفسها معها مخلصا ولا مصيرا، وأنت إذا نظرت إلى هذه الكتب التي عربوها لحدّ الآن وجدت فيها من السّافس شيئا كثيرا، نحن في حاجة شديدة إلى العلوم والصناعات التي نهضت بها أوروبا، وكان واجبا على الذين يُحسنون اللغات الأوروبية من أبنائنا أن ينقلوا لنا من كتب الفرنجة كتب الصناعة والعلم، ويُترجموها إلى لغتنا، ولكنهم بكلّ أسف قد قصّروا من هذه الناحية فلم يُترجموا لنا من كتب العلم والصناعة إلّا قليلا ولكنهم من جهة أخرى أسرفوا في ترجمة الروايات الخليعة التي هي آفة على الأخلاق، وخذ مثلا لك الأستاذ الدكتور طه حسين وهو مشهور قد ترجم عن الفرنسية ولكنه لم يُترجم إلّا أفجر الروايات وأشدّها

خلاعة واستهتارا، وهو حينما أنكر إعجاز القرآن الكريم عرب رواية نشرها في مجلة الهلال قال في أولها: إن هذه الرواية هي أروع آية من آيات الأدب الحي وأنها قد بلغت أعلى درجة من درجات الإعجاز، وقرأت أنا هذه الرواية فإذا هي تافهة. موضوعها أن راقصة إيطالية قد أحبها شيخ كبير من الأمريكان، ووصلته ذات يوم فكان بينهما من الخطيئة والإثم ما يخجل منه حتى الخجل والحياء، غير أن الدكتور طه وصف ذلك كله وصفا يشوق القارئ ويغريه، والكلام هنا طويل مترامي الأطراف لا تتسع له هذه الصفحة وقد نعود إلى هذا الموضوع ولكن رحم الله مالكا فقد كان يقول: لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها.

زيارة سيدي عابد!...3*

جعل القطار يسير الهويناء، ويمشي بنا مشيا وثيدا لأننا في رخو خضخاض من الأرض لا يحسن عليه السير السريع، فكلما بلغ القطار هذه المرحلة غاديا أو رائحا إلاّ وخفض السائق من سرعته وكبح من جماعه وأحسّ الركاب بأنّ سرعة القطار قد انخفضت كثيرا، فقال قائل منهم: هذه الكرامة، حتىّ القطار قد أدركته الخشية، فجعل يسير هذا السير الخاشع احتراما لسيدي عابد، واعترافا بولايته وصلاحه (!) فقال قائل آخر: وليست هذه هي الكرامة الوحيدة لهذا الولي الصالح فمن كراماته المشهورة أنك لا تسمع مدة هذه الزيارة نهيق حمار، ولا سهيل جواد، ومنها أن من سرق شيئا صار في يده ثعبانا مهينا أو حية تسعى ومن كراماته أننا معشر الرجال نستمتع في أيام الزيارة بالأوانس والنساء الجميلات من ربّات الحجال المقصورات في الخيام نشاهد فيهنّ الجمال البديع سافرا مجردا دون برقع أو حجاب ونتحدّث إليهنّ في مختلف الأحاديث دون كلفة ولا احتشام، ونخلو بهنّ في غير ريبة ولا اشتباه على أن أحدا لا يمدّ يده إلى امرأة بسوء، وإذا تلاقيا على خطيبة أو اثم تلاصقا إلى الأبد!

فقال قائل: ولكنني أنا قد أجريت بنفسني عدة تجارب من هذا النوع فوجدت أنّ هذا الاعتقاد باطل غير صحيح وأنّ الحقيقة على خلاف ما يزعمون وما لي حاجة في هذه (الزيارة) إلاّ اغتنام الفرصة لإتمام هذه التجارب! فقال آخر: وأنا أيضا لا أشهد هذه الزيارة إلاّ طلبا للصيد! ولعلّ جميع هؤلاء الزوار نساء ورجالا إنّما يجيئون هذه الزيارة حبا في الاضطهاد! فقال له أحد الحاضرين: اتق الله يا هذا، ولا تجعل المصلحين كالمفسدين، ولا المتقين كالفجار، ففي هؤلاء الزوار من

* محمد السعيد، الزاهري: (زيارة سيدي عابد3)، الصراط السوي، العدد12، 4 ديسمبر1933م، ص 4.

يحملون بين جوانبهم أحسن النيات وأطيبها وفيهم العلماء الأعلام الذين قد أتوا زائرين، فقال له صاحبه: ومن هو العالم الذي جاء زائرا؟ قال: قد رأيت الشيخ الزاهري ركب معنا هذه العربة، وعلمت أنه جاء زائرا وهذه حجة على جواز الزيارة فالشيخ الزاهري عالم مشهور ينبغي أن نقلده ونقلد إخوانه من العلماء في أمور ديننا (وهوأنما يعتبر التقليد في الزيارة) وقديما قيل: (من قلّد عالما لقي الله سالما) وما نظن أن الزاهري قد جاء بنية أخرى إلا أن يزور. فقال له صاحبه: الزاهري ليس حجة في هذا الباب، لأنه من الذين يُنكرون الزيارة ولا يبيحونها، وما هو هنا إلا بنية أن يطلع على ما يجري وما يكون ثم يكتب عن هذه الزيارة ما لا يسر الزائرين ولا الزائرات، وبعد فماذا عسى أن يكون الشيخ؟ إنه لم يكن ملكا كريما ولا نبيا معصوما، فلماذا لا يجوز أن يكون هو الآخر مثلنا من الهواة المغرمين بالصيد؟! فقال له الرجل: لا ينبغي أن نقول مثل هذا القول في رجل ما علمنا عليه إلا خيرا، وما علمنا عليه من سوء، وهنا دارت بين الرجل وصاحبه محاوراة شديدة عنيفة، فيها فكاها لاذعة، وتهكم مرير، وفيها حلوة وظرف كثير، ولكن هذا المقام يضطرنا أن نطويها وأن لا نذكرها هنا.

وأطلّ أحد الركاب من نافذة القطار، ونادانا: تعالوا فانظروا، فتزاحمنا نحن جميعا على النوافذ نطلّ منها برؤوسنا، فإذا الأرض تسيل بالسيارات والعربات المختلفة والدراجات والكاميونات والكارويات وبالخيل والبغال والحمير تحمل إلى مكان الزيارة النساء والرجال والأطفال من الزائرين والزائرات، فقلت أي مكان يتسع لهذه الخلقة مهما كان واسعا فسيحا، فقال لي رجل كان بجانبني: ما هؤلاء إلا شيء قليل جدا بالنسبة للذين هم الآن في مكان الزيارة، ففي كل ربع ساعة يصل إلى عين كرمان قطار مشحون بالزوار، فقلت: كم يبلغ عدد هؤلاء الزوار جميعا؟

قال: إنهم يبلغون ثلاثمائة ألف أو يزيدون، فقلت: وكم نسبة النساء بينهم؟ قال: إنهن سبعون بالمائة أو أكثر من ذلك بقليل، قلت: وما لي أراهن سافرات غير مُحجَّبات؟ قال: لأنهن زائرات، قلت: إنهن ما زلن لم يصلن مكان الزيارة بعد؟ قال: قد اعتبرن أنفسهن زائرات منذ خرجن من بيوتهن.

ونزلنا بمحطة عين كرمان، ويسمونها وادي ارهيو ومع أن بينها وبين مكان الزيارة بضعة أميال فإن كثيرا من الزوار - لما علموا أن مكان الزيارة قد ضاق بالزائرين - قد اتخذوا من عين كرمان مكانا للزيارة، ونصبوا بها الأخبية والخيام، وكانت شوارعها وميادينها تموج موجا بالنساء والرجال، وكانوا مُختلطين اختلاطا فاحشا، وقد رأينا حلقا كثيرة كحلق الذكر، فلما دنونا منها رأينا النساء وهن سافرات قد جلسن بين الرجال وربما ترامت امرأة في أحضان رجل أجنبي عنها تلاعبه ويلاعبها وتغازله ويغازلها على مرأى ومسمع من الناس... وفي كل حلقة راقصة تثب وتميس، وتخطر وتمشي، وربما كن أكثر من راقصة واحدة وهذه الراقصة هي محور هذه الحلقة فإذا هي قد قضت لبانتها من هذه الحلقة ووثبت منها كالغزال النافر إلى حلقة أخرى تبعها أصحاب الحلقة جميعا.

وأردنا أن نصلي الظهر فقلت لرفيقي وهو الأخ الفاضل السيد علي سعد الهاشمي (بوشقور) هلم بنا إلى المسجد، وقمنا نسأل عنه الغادي والرائح فلم نجد من يدلنا عليه بل قال لنا أحد الناس متهكما: إنكم تركتم المسجد وراءكم في وهران! وسألنا عنه رجلا من أهل القرية فاستغرب منا هذا السؤال.

وكانت السيارات التي نقل الزوار إلى مكان الزيارة كثيرة لا تكاد تحصى، ومع ذلك فإننا اضطررنا أن ننتظر قليلا من كثرة الازدحام على السيارات، والتمسنا مراحا نستريح إليه فلم نجد، لأن المقاهي العربية كانت غاصة ملأى

بالزائرين والزائرات، حتى لا ترى فيها موضع قدم خاليا، وقصدنا إلى أحد المقاهي الفرنجية الكبرى ظنا منا أن الزوار لا يقصدون إلى مثلها، فإذا هي كثير الردهات والأبهاء ولكنها كانت كلها مكتظة بالزائرين والزائرات، وبعد لأي شديد وجهد جهيد، انتبذنا مكانا قصيا إلى مائدة صغيرة في زاوية ضيقة من زوايا المقهى فجلس صاحبي على شيء يشبه الكرسي، وما هو به، وجلست أنا على كرسي متحطم قديم قد بلغ من الكبر عتيا وقام على ثلاث قوائم فقط، أما القائمة الرابعة فقد ذهبت بها الأيام، وكان الدخان دخان السجائر قد نشر في جوال المقهى سحبا كثيفة متراكما بعضها فوق بعض، ونادينا صاحب المقهى أن انتنا بعصير الليمون، فهز كتفيه استخفافا بما طلبنا، وكان يظن أننا نشرب جرة كبيرة من جرار الجعة (البيرة)¹ كسائر الزوار فيتمتع هو بثمنها، ولم يكديصل إلى المصطبة (الكونتوار) حتى غاب عن أبصارنا في ضباب الدخان المتصاعد من سائر الأفواه، وبعد عشرين دقيقة جاءنا بعصير الليمون وقال لنا أي نوع من أنواع الدخان تريدون؟ قلنا إننا لا نتعاطى التدخين، فزاد استخفافه بنا، وكان قد جلس إلى كل مائدة جماعة من الزوار ذكورا وإناثا يتبارون في شرب الخمر ويتنافسون، وكانت المرأة تغني والرجل ينفخ قصبته أو زمماره والباقي يصيحون ويصفقون ويمعنون في العريضة والعبث، وربما رأينا بأعيننا رجلا قد تهافت على امرأة وسط الجماعة يغازلها ويغمرها عضا وتقبيلا، وقمت أنا إلى حديقة المقهى لعلي أرى مكانا نجلس إليه فإذا الحديقة أكثر امتلاء بالشاربين والشاربات وإذا الحالة فيها على غرار الحالة في المقهى.

¹ - كلمة فرنسية تعني الخمر

زيارة سيدي عابد4*

(معرض عظيم للخزي والفضيحة إباحية تامة في الأعراس والحرمات كل ذلك تقرباً إلى الله وطاعة للأولياء . مليار من الفرنكات يذهب كل عام في الدعوات هباء منثوراً)

... وركبنا إلى، الزيارة إحدى السيارات العمومية الكبرى، ولم تكد تتحرك بنا حتى استوقفنا جنديان اثنان من رجال الدرك (الجندرية) فدفع إليهما صاحبهما خمسين فرنكا، ودفعا إليه هما بدورهما وصلا بهذا المبلغ، وكل سيارة تقل الركاب من عين كرمان إلى مكان الزيارة لا بد لها أن تؤدي خمسين فرنكا ضريبة لبلدية عين كرمان، ومع هذا فأهالي هذه البلدة لا يزالون يعانون من جباة الضرائب كل عنت وإرهاق.

وتراءى أمامنا سهل فسيح مترامي الأطراف، ولكنه كان كالبحر العجاج يتلاطم بالمضارب والقباب، وبالأخبية والخيام وبالخيل والبغال والحمير، وبهذه الخلائق التي يموج بعضها في بعض، والتي لا يأتي عليها عد، ولا يأخذها إحصاء، ذلك هو مكان الزيارة، وأولئك هم الزائرون والزائرات.

وعندما نزلنا في مكان الزيارة أحاط بنا وبسيارتنا عدد وافر من النساء، وهن سافرات غير محتجبات على نفس الهيئة التي تراهن عليها في بيوتهن وأخذت طائفة منهن بأيدي طائفة من الرجال الذين كانوا معنا في السيارة، وتغلغت كل واحدة بصاحبها في ذلك البحر الزاجر من الخلائق، وكان من نصيبي أنا أن تقدمت مني فتاة ذات حسن وجمال، وقد واعتدال، في عينيها حلاوة وسحر، وفي

* محمد السعيد: الزاهري: (زيارة سيدي عابد4)، الصراط السوي، العدد 13، 11 ديسمبر 1933م، ص4.

حديثها عذوبة وسمر ،وفي ملامحها دهاء ومكر، وقالت لي: ألا تحبون أن يغفر الله لكم؟! قلت: بلى، ومن ذا الذي لا يحب أن يغفر الله له؟! قالت: هلم بي إذن إلى هذه الأرجوحة ولتركب معي هذه الطيارة وادفع عني أنت ثمن الطيران، وكان أصحاب الأراجيح قد انهالوا على سيدي عابد بأكثر من مائة وخمسين أرجوحة، وكانت كلها لا تفتر عن العمل لحظة واحدة كل أيام الزيارة ليلا ولا نهارا. وواصلت كلامها وقالت: نظير خمس دقائق كاملة، ولا يكلفك ذلك غير فرنكين فقط، قلت: وإذا سقطت بنا هذه الطيارة إلى الأرض، أفلا يكلفنا ذلك حياتنا، ويكلفنا على الأقل علاجا كثيرا، وعناء طويلا؟ قالت: لا تخف، إنها ليست طيارة حقيقية بل هي لعبة من الألعاب قد ربطت ربطا محكما على هذا القطب الذي تدور حوله هي وأخواتها، فقلت لها: خذي هذا المبلغ، وهو يكفيك ثمنا لهذا الطيران بضع مرات ، ودعيني أنا وشأني واتركي سبيلي، ثم نفحتها بضعه فرنكات بقبضتها، وقالت: ولكنني أنا في حاجة إلى من يركب معي كي يحميني من السقوط، ويساعدني إن اقتضي الحال وانظر إلى هؤلاء الأوانس والفتيات اللاتي لا يأخذهن إحصاء قد ملأن هذه الأراجح كلها، وامتطين كل ما فيها من طيارات وسيارات وعربات وزوارق ومراكب ومقاعد وما من واحدة منهن إلا وقد ركب إلى جانبها صاحبها وخليتها من الشبان، قلت: ولكنني أنا لا أصلح أن أكون لك صاحبا ولا خليلا، قالت: ولماذا؟ قلت: لأنني لست من هؤلاء الشبان، قالت: ومن تكون أنت إذن؟ قلت: أنا من الشيوخ، قالت: بلهجة الاستتكار أنت من الشيوخ وليس في لحينك شعرة بيضاء؟ إن هذا لعجب عجاب، واستتجبتُ أنا بأحد معارفي فقال لها دعيه إنه عالم، قالت: وهل العالم خير من المرابطين؟ قال: لا، قالت: كم من ليلة لهوتها مع المرابطين! قال لها ولكن هذا عالم لا يرغب في ريبة ولا لهو، قالت: يجب عليه إذن أن يقعد في بيته وأن لا يحضر هذه الزيارة التي هي كلها ريبة ولهو وهنا عجزنا هن مجاوبتها فتركناها ومضينا نشق طريقنا بين الأخبية والخيام

وبين هذه الأمواج المتلاطمة من النساء والرجال المختلطين اختلاطا فاضحا متزاحمين متزاحمين! وانتهينا إلى خباء كبير قالوا إنه مقهى، فإذا هو يتراص رجلا وامرأة كتراصّ علب السردين قد جلسوا على الكراسي وعلى الأخشاب وعلى الأرض، ووقفوا على سائر جهات الخباء يستمعون إلى الغناء والطبول والمزامير، ويتفرجون على النساء الرقصات، وكان في هذا الخباء أربع راقصات يرقصن وسط الخباء في مساحة عرضها نحو ذراعين وطولها نحو عشر أذرع، يمشينها جيئة وذهابا، وليس هؤلاء الرقصات هنّ من اللاتي يحترفن الرقص ويتعاشن عليه، بل هنّ من المحصنات المؤمنات غالبا، ومن المؤمنات قليلا، ووقفنا ننظر، وعيبت امرأة بالرقص وهمت بالجلوس فتلقّاها رجل بذراعيه فاستسلمت إليه هي الأخرى وكان بعض الفضوليين السفهاء - وياما أكثر أهل السفه والفضول في هذه الزيارة - يتوسّم أوجه النساء وكلّما وقعت عينه على امرأة عليها مسحة من الجمال إلا وقام إليها أو تقدّم منها يطلب إليها أن ترقص قائلا لها: هذا دورك يا زعرورة وكلّما تُمانع امرأة في هذا الطلب أو ترفض هذا الاقتراح، ولقد وقفت إلى جانبها ثلاث نسوة ثالثتهنّ سمراء في مقلتيها السحر مُستتر كأجمل ما ترى، وراها أحد الفضوليين فقفز إليها يتخطى رقاب النساء والرجال ويتعسف هذه ويمسك بتلك حتّى بلغها فأخذ بيدها ونثرها إليه يطلب منها أن ترقص، فاعتذرت بأنها لا تحسن الرقص وبأنها لم ترقص قطّ ولا مرة في حياتها فألحّ عليها الرجل فأبت وامتنعت ، فقام في وجهها كثير من النساء والرجال يلومونها ويقولون لها: ويحك أيتها المرأة أما تتفضّلين علينا برقصة،، زيارة لسيدي عابد وصدقة عليه!! فهمست أنا في أذن أحد الرفقاء وقلت له: لقد صار هذا الرقص الخليع صدقة يُتقرب بها إلى الله ويُهدى ثوابها إلى الأولياء، وقالت لها امرأة أنهم يريدون أن يمتعوا أبصارهم بالنظر إلى محياك الجميل وثرغك اللامع الألمعي وعينيك الساحرتين وأنت طول عمرك مُخبّأة مدسوسة فلما جاءت هذه الزيارة المباركة حرمت نفسك من ثمرتها ثم جعلت

تقول لها بلهجة حازمة: هذا يوم الحرية، هذا يوم النزاهة، هذا يوم اللهو واللعب هذا يوم التمتع والتلذذ فهل فهمت أيتها الفتاة المهبولة الحمقاء، وجاءوها بشيخ كبير في عنقه سبحة باكورة وقالوا لها هذا هوالمقدم، وجعلوا يصيحون: قل لها يا مقدم ترقص لنا، فتقدم المقدم منها وقال لها: لماذا لا ترقصين يا بنيتي؟ ألسنت جئت بنية الزيارة؟ فقالت له الفتاة متوسلة ضارعة: ما نعرفش نرقص يا سيدي المقدم... فقال لها: قومي وقفي في مكان الرقص باش يشوفوك الوغش وما ترقصيش!... أي أنه يأمرها أن تقوم وتقف حيث ترقص الراقصات ليتفرج عليها (الوغش) أي الشبان، فأدركها الخجل والحياء ولم تستطع أن تلبّي ولا هذا الاقتراح، ووجمت وجوما تاماً إزاء هذا الانتقاد على سلوكها هذا من الزائرين والزائرات حتى كأنها قد ارتكبت خطيئة أوثماً، ومضت لسبيلها وهي مرتبكة حيرى، فتذكرت أنا قول الشاعر:

وأشدّ النساء حلاوة حال تريك تحير العذراء

ولم نكد ننصرف إلى مكان آخر حتى أحسست يدا ورائي تُجاذبني ردائي فالتفت فإذا الفتاة بعينها ومينها وبادرتني بقولها: عزمك بسيدي عابد ألا أعطتني برنوسك هذا لأتكرّ فيه وأتفرّج على هذه المرأة فقد أعجبتني رقصها... قلت: ولماذا تتنكرين؟ قالت: أما رأيت ما عملوا بي الآن؟... قلت: وأين حائكك الذي تحتجبن به وتتلفعين فيه؟ فرممتي بنظرة حزراء نكراء، وقالت بلهجة الاستنكار: بوه!... تبغي لي العمى والجدي؟!... قلت لها: حاشا لله، نعيدك بالله من كلّ سوء وكيف ذلك؟ قالت: كلّ امرأة تحتجب في سيدي عابد فإنها لا بدّ أن يشوه الجدي وجهها، ولا بدّ أن يُصيبها العمى، فقلت لها: يكذبون عليك يا بنيتي، قالت: لا تقل بُنيتي، قلت: وماذا أقول؟ قالت: قل لي يا أختي! وأنت بعد لم تبلغ من العمر أن تكون أبا لفتاة في مثل سني، بل أنا وإياك في العمر سواء فأنا أختك ولست بنتك،

قلت: لقد تجاوزت أنا عهد الشباب، ودخلت في عهد الأبوة وأنا لم أكن أبا لأحد بعدُ وأما أنت فلا تزالين في ميعة الصبى وفي مثل عمر الوردة العبقرة العطرة أو الزهرة المفتحة الزاهية، فقلت هذا كلام جميل، ولكنني لا أريد أن أسمع من أحد هنا أن يقول لي: يا بُنيّ بل أحبّ أن تتاديني: يا أختي أننا في أيام الزيارة وهي لنا معشر الفتيات المحتجبات أيام مرح وسلوى نرى فيها الضوء ونرتاح فيها من التقيّد بالأوضاع والتقاليد فأنا أريد أن أجد لي في هذه الزيارة أبا يشاركني في (خلوتي) المرح والطرب الزهو والانشرح ويطارحني - إن اقتضى الحال - أحاديث الحب والهوى، وما أنا بمريضة حتى أحتاج إلى أب يشملني بعطفه ومواساته!.. فعجبت أنا من هذه الفلسفة العميقة، ثمّ قالت أما تعطيني (برنوسك) للتبرّك؟ فقلت لها للتبرّك بمن؟ بي أنا أم ببرنوسي أم بك أنت أم بسيدي عابد؟ قال: بل يتبرّك برنوسك بي وأتبرّك به أنا، ولا دخل لسيدي عابد في هذا، وهنا تداخل فتى كان يستمع لما نقول ورمى إليها ببرنوسه وقال لها: خذيه ودعي هذا الرجل فإنه طالب ولقد قالت العرب: (أعطي بنتك لطالب حتى تلقى لها رجلاً!...) ثمّ دنا منها وجعل يده في يدها وقال لها: هيا بنا إلى الأرجوحة ثمّ غابا عن أبصارنا، ومضينا نحن نمشي على القبور، وكان الناس قد نصبوا أخبيتهم ومضارهم فوق هذه القبور، ولا سيما جماعة القصابين (الجزارين) فقد اتخذوا هذه المقبرة مسلخاً (بطوار)، وانتهينا إلى قبة عالية منصوبة فوق المقبرة هي أيضاً، وعليها زحام شديد، وسمعت امرأة تقول لزوجها: يا قدور أمسك عليك طفلك ودعني أنا أدخل هذه القبة فأرقص فيها زيارة سيدي عابد!... فتناول الرجل ولده الرضيع من يدي أمّه، ودخلت هي ترقص ولاحظ أهل هذه القبة العظيمة أنّ راقصة ترقص في موضع واحد وتتجه إلى جهة واحدة فطلبوا منها أن تذهب وتجيء في رقصها، وأن تلتفت إلى سائر الجهات ليتمتع الرجال برؤيتها فأبت، وقام لها رجل وأدار وجهها إلى جهة أخرى وقال لها حاجتنا بوجهك وصدرك، لا

بظهرك ولا بققاك، ولكنها رجعت كما كانت، فقال رجل آخر وأدارها أيضا وعاتبها واستتكر الناس منها هذا السلوك فاعتذرت عنها امرأة وقالت: دعوها فهي (مُحتشمة) من زوجها وإخوتها وأبناء عمومتها، لا تلتفت في رقصها إليهم خجلا منهم وحياء، فعجبتُ أنا لهذه المرأة وعجبت لزوجها وذويها، عجبت لها كيف ترقص في حانة بها نحو ثلاثة آلاف من المتفرجين والمتفرجات وهي سافرة مكشوفة، ومع ذلك فهي تتظاهر بأنها (حشمانة)، وعجبت لزوجها وذويها كيف انتزع الله من صدورهم الغيرة العربية والغيرة الزوجية والغيرة الإنسانية وأيضا الغيرة الحيوانية التي تراها في الحيوان الذكر على أنثاه.

على هامش الحوادث: نقل الأستاذ العمودي إلى آفلو*

نُبلغ حضرة الأستاذ الجليل الشيخ محمد الأمين العمودي أمين السر العام لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين، والمحامي الشرعي بالجزائر العاصمة بلاغا من حضرة رئيس النيابة العمومية (وكيل الحق العام) يُخبره فيه بأنه قد نقله كرها من الجزائر العاصمة إلى قرية آفلومن عمالة وهران، وهذا هو الحكم الذي حُكم به على الأستاذ العمودي بعدما قاضته السلطة لدى مجلس التأديب بتهمة أنه تغيب عن مقرّ وظيفته من غير أن يستأذن رئيسه كموظّف (والوكلاء الشرعيون في الجزائر يُعتبرون من الموظفين من حيث الواجبات والتكاليف لا من حيث المنح والحقوق).

والأستاذ العمودي إنّما كان سافر إلى تونس، لأنّه كان مطلوبا لوكيل النيابة بها لكي يُؤدّي لديه شهادته في إحدى القضايا، وكان مضطرا إلى السفر مرغما عليه، وكان الوقت ضيقا لا يكفيه لانتظار الإذن من الرئيس وكانت القضية كلّها عملا باليد قد حيكّت فيها الدسائس من كلّ جانب لإيقاع العمودي في هذا المحذور من السفر بالاستئذان، ليكون للسلطة عليه سبيل إلى مقاضاته أمام مجلس التأديب، وليُحكم عليه بأن ينتقل إلى آفلو كارها غير طائع ولا مختار، وهذا النّقل هو في حقيقته بمثابة النّفي الإداري أو بمثابة الحكم بالحبس، وأقلّ ما فيه أنّه وُضع تحت المراقبة الإدارية. والسبب الحقيقي لهذه المسألة كلّها هو سفر

* محمد السعيد الزاهري: (على هامش الحوادث نقل الأستاذ العمودي إلى آفلو)، الصّراط السّوي العدد

العمودي إلى تونس من غير استئذان، فكم وكلاء شرعيين غيره رأيناهم ورآهم الناس قد (تغيّبوا) أو سافروا سفرات بعيدة دون أن يستأذنوا، ومنهم من سافر إلى باريس، وساح في فرنسا وما حواليتها من البلاد الأجنبية ولم يكن قد استأذن رئيسه، والوكلاء الشرعيون الذين كانوا جاءوا الجزائر من أطراف القطر لتشجيع سمولوالي العام حينما سافر إلى فرنسا في المرة الأخيرة، ثم جاءوها مرة ثانية يستقبلون سموه عندما عاد من السفر، ثم جاءوها للمرة الثالثة فحضرُوا حفلة التكريم التي أقيمت فيها أخيرا للسيد مدير الأمور الأهلية بمناسبة ترسيمه بوسام الكوماندور، وجاءوا قبل ذلك وبعده عدة مرات لم يستأذنوا رؤساءهم في هذه السفرات، فهل ساقط السلطة ولو واحدا من هؤلاء إلى محكمة التأديب بتهمة أنه تغيّب عن مقرّ وظيفته بلا استئذان؟ ونحن لم نسمع منذ أنشأت الوكالة الشرعية في هذه البلاد أنّ وكيفا شرعيا (تغيّب) عن مقره فحوكم من أجل ذلك أمام محكمة التأديب وغاية ما كان أنّ الوكيل إذا ارتكب هذه المخالفة فإنه قد يتبلغ من رئيسه (ملامة) على ذلك.

إنّ السبب الحقيقي لمقاضاة الأستاذ العمودي إنّما هو انتسابه لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين ولأنّه كاتبها العام وعضدها المتين، ولأنّه قد أبلى في سبيل الله دون هذه الجمعية بلاءا حسنا ودافع بقلمه أشرف دفاع دون هذه الأمة، ودون دينها القيم الحنيف، فهو اليوم يذوق من الاضطهاد والأذى مثل ما قدّم لهذه الأمة ولهذا الدين الحنيف من خدمات جلّي، وأعمال صالحات.

كانت مؤامرة محبوكة وأمر دبر بليل تلك الحملة الآثمة التي شنّوها على العروبة والإسلام وعلى جمعية العلماء المسلمين الجزائريين باعتبارها هيئة منظمة

تمثل العروبة والإسلام في هذه البلاد ولكن الكاتب العام لجمعية العلماء الأستاذ العمودي قد استطاع أن يردّ هذه الهجمات كلّها، فقد تصدّى للأحمق الذي شتم الإسلام ودعا إلى اعتناق النصرانية، وتصدّى للشعوبي ميلاج الذي طعن على أئمة الإسلام ووصفهم بالتأخر والجماد، وتصدّى بعد ذلك لتزييف ما نُشر بإمضاء (بحر الغزال) طعنا على سائر طبقات المسلمين، فكان في ذلك كله مثالا نادرا للغيرة الإسلامية والشّهامة العربية ومثالا نادرا للحجّة والمنطق وللصراحة وحسن البيان.

إنّ هذه المواقف المشرفة - وأمثالها - التي وقفها الأستاذ العمودي دفاعا عن الإسلام، هي التي أحفظت عليه بعض (المقامات) وأوغرت عليه بعض الصدور، وهي التي جلبت إليه هذا النّقل الذي سوف يُضطرّ معه إلى الاستعفاء دون أن يرضاه.

إنّك أيّها الأخ الكريم باحتمالك لهذا الاضطهاد ولهذا الأذى في سبيل الله قد كتبت اسمك بحروف ذهبية في الأسماء الخالدة من قائمة المجاهدين الصادقين، وأنت أيتها السلّطة القائمة، لك أن تفعلي بنا ما تشائين من (نقل) ونفي وتعذيب، وفي قبضتك أن تنتزعي أرواحنا من أجسامنا، ولكن لا تطمعي في انتزاع إيماننا من صدورنا فهذا أمر ما لك إليه من سبيل.

لقد كنا نشرنا في جريدة السنة المرحومة كلمة عنوانها: الغيث النافع، ذكرنا فيها أنه زارنا جماعة من اليمانيين الكرام، منهم السيد فارغ نعمان الرياضي، ومنهم السيد سيف علي الشرجبي. واحتجوا على ما نشرته البلاغ الجزائري

بإمضاء سعيد سيف الذبحاني من الأخبار الزائفة التي يراد منها تشويه كرامة اليمن كبلد إسلامي، ومدح شيخ الحلول بما ليس له بحق. فما كان من الورقة الضالة إلا أن تهجمت علينا تسبنا وتقذفنا وتسميني أنا مسيلمة الكذاب. وكان من حقها أن تأتي بدليل على كذب ما رويناها كأن تنشر مثلا تكذيبا من السيدين فارح نعمان، وسيف علي لما رويناها عنهما. ولكن شيخ الحلول صاحب الورقة الضالة يريد أن يغتصب الشهرة اغتصابا بسب الناس، وبالاقتراء على عباد الله. وبعد، فهذا تكذيب نشرته مجلة الفتح فهل يسبها أيضا شيخ الحلول في ورقته الضالة كما سبنا وافترى علينا؟ وصاحب الفتح يصرح بأن ما نشرته البلاغ بحق اليمن هو مخالف للحقيقة، ويعترف بأنه مما يضر بالوحدة الإسلامية، ويقول عن الذبحاني: وكان خيرا له أن لا يقول هذا الكلام.. والذي نعتقه هوان الذي قال هذا الكلام الذي لا ينبغي أن يقال إنما هو شيخ الحلول نفسه، وإن كان بإمضاء الذبحاني. وأخيرا فليحكم ساداتنا القراء من هو الكذاب الأشر. أهذا الزاهري أم شيخ الحلول والضلال؟؟؟.

حينما نشرنا كلمة الغيث النافع في جريدة السنة المرحومة كان في نيتنا أن نكتفي بها عن نشر ما جاءنا من الردود والتكذيبات التي أرسل بها إلينا، أو دفعها إلينا بعض اليمانيين الكرام ردا على شيخ الحلول وتكذيبا لورقته الضالة فيما نشره فيها من تعظيم نفسه وتشويه سمعة اليمن ظلما بغير حق. ولكننا رأينا أن شيخ الحلول لا يرعوي، وأن ورقته الضالة لا تزال في غيها وعنادها فكان من الحق الواجب علينا لإخواننا أبناء العربية السعيدة (اليمن) أن نفسح لهم المجال في هذه الجريدة الإسلامية ليدافعوا عن أنفسهم وعن أعراضهم وعن دينهم. وليردوا

تهجمات شيخ الحلول، وليردوا ما تنشره عنهم ورقته الضالة من الأكاذيب والمفتريات، ونحن سننشر كل ما يرد علينا من أهل اليمن في هذا الموضوع لأن شيخ الحلول قد رماه في دينهم وهي تهمة كبيرة جدا.

لقد ورد أن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: الإيمان يمانى، والحكمة يمانية. ولكن شيخ الحلول يزعم في ورقته الضالة، أن أهل اليمن كانوا بعيدين عما تتطلبه منهم الديانة الإسلامية، حتى جاءت طائفة الحلول فعلمتهم من دينهم ما لم يكونوا يعلمون...

وبعد، فيا شيخ الحلول، هل لك أن تخبرنا من هومسيلة الكذاب؟؟؟.

المُستشرق فنسك*

في الصّحف العربيّة التي تصدر في مصر وفي غير مصر ضجّة قائمة على المُستشرق (فنسك) الذي سُمّي عضواً في مجمع اللّغة العربيّة الملكي بمصر، وتقول هذه الصّحف أنّ هذا المُستشرق كان نشر طعنا قبيحا وكذبا مُفترى على الإسلام وعلى القرآن وعلى سيّدنا محمد صلّى الله عليه وسلّم، ولذلك فهي تستنكر على حكومة مصر التي يجلس على عرشها ملك مسلم والتي دينها الرّسمي إنّما هو الإسلام، أن تُعيّن عدواً للإسلام مثل (فنسك) عضواً في مجمعها اللّغوي.

ونحن كعرب مسلمين، نظمّ صوتنا إلى أصوات المسلمين الذين احتجّوا واستنكروا من وزارة مصر أن تُصرّ على تعيين فنسك هذا في مجمعها اللّغوي رغم سُخط المسلمين ورغم ما أبدته الصّحافة العربيّة من احتجاج واستنكار.

إنّ أعداء العرب والإسلام من أمثال فنسك يزعمون أنّ الشّرقين بما فيهم الشّعب المصري لئام لا كرامة لهم ولا يُصلحهم إلّا الحكومات المُتسلّطة القاهرة التي تُمعن في إهانتهم وإذلالهم، وتُذيقهم الوبال والهوان وتسومهم سوء العذاب وبكلمة واحدة يزعمون أنّ الشّرقين لئام لا يقبلون إلّا اليد التي تصفعهم!...، والحكومة المصريّة إذا أصرت على إقرار فنسك في عضويّة المجمع اللّغوي فإنّها بذلك تُقدّم برهاناً عملياً على صحّة هذا الذي يزعمون.

* محمد السعيد، الزاهري: (المستشرق فنسك)، الصّراط السّوي، العدد 14

لا يوجد بين أعضاء المجمع اللغوي الفرنسي إلاّ الأعضاء الفرنسيين، ولا في مجمع اللّغة الإنكليزيّة غير الإنكليز، ولا في مجمع لغة أخرى إلاّ أعضاءهم من أبنائها، وهذا المجمع الذي تُنشئه الحكومة المصريّة هو مجمع للّغة العربيّة فلماذا يكون فيه أعضاء غير عرب؟

لقد طبع المُستشرقون كتباً عربيّة كثيرة وعلّقوا عليها ووضعوا لها الفهارس ونشروا عنها كثيراً من المعلومات كلّ ذلك بترتيب وتدقيق، ومع ذلك فما أنت بواجد ولا واحداً من هؤلاء المُستشرقين ينفذ إلى أسرار هذه اللّغة العربيّة العجيبة أو يتذوّق ما فيها من روعة وجمال، وأهون عربيّ يشتغل باللّغة أو الأدب هوانفَع وأجدى على هذه اللّغة من أكبر هؤلاء المُستشرقين، وفي مصر وفي غير مصر من بلاد العرب رجال قد خدموا اللّغة العربيّة والأدب العربيّ أجلّ الخدمات وأعظمها فماذا يمنع الحكومة المصريّة من أن تُعيّن منهم أعضاء لهذا المجمع اللّغوي؟ وماذا يمنعها أن تستفيد من جهودهم وخدماتهم وأذواقهم السليمة؟

وبعدُ فهل الحكومة المصريّة التي جرت فنسك بأحسن الجزاء على ما طعن في العرب والإسلام تعتبر أنّ الطّعن في القرآن وفي الرّسول صلّى الله عليه وسلّم هومن خدمة اللّغة العربيّة، وأنّ سبّ العرب والإسلام والكذب عليهما من الصّالحات التي يستحقُّ مرتكبها حسن المثوبة وخير الجزاء؟؟؟.

شؤون وشجون: رسالة طائشة*

كان عنوانها هكذا جريدة مُعتدلة تسعى لإدماج العرب في الفرنسيين هذا بالفرنسية وأما بالعربية فقد كتب عليها اسم أحد المخدولين بالعاصمة ولكن ساعي البريد جهل صاحب هذه الرسالة فسلمها إلى صديق من أصدقائنا في العاصمة وهذا أرسلها هو بدوره إلى هذا العاجز الضعيف، وأسرعت إليها فقرأتها فإذا هي تسوء صاحبها المخدول لو هوطلع عليها، فهي ليس فيها دراهم ولا فلوس، ولا ما يُبشّره بالدرهم أو الفلوس، بل يقول له فيها: ... أنا لا أقدر أن أرسل إليكم بثمن الاشتراك لأنني عاجز فقير... ولكن جريدتكم (يعني الورقة الخائنة المخدولة) لم تصلني منذ شهر وقد فتشت كثيرا عنها فلم أجد لها أثرا في هذه النواحي، مع أن جريدة الصراط لسان جمعية العلماء منتشرة موجودة في كل مكان من هذه القرى والدواوير وكل الناس في هذه الجهات يقرأون الصراط ويتحدثون بما فيها من ويلهجون بها، وإذا تأخرت عنهم قليلا جزعوا وقلقوا عليها... ثم قال: وأنا أطلب جريدتكم (يعني الورقة الخائنة المخدولة) لكي أرى هل نشرتم فيها مقالي الذي كنت أرسلته إليكم مع الشيخ المكي سابقا (!) وهو مقال لا نظير له، جمع فأوعى، وها أنا ذا منذ أربعة أسابيع مكبّ على تلخيصه واختصاره، وعندما يتم أرسل إليكم بنسخة منه لتنتشروه أيضا، واعلموا أنه لا يُفيدكم شيء مع هؤلاء العلماء: باديس وجماعته إلا أن تنتشروا لهم مقالي المطول ثم مقالي المختصر لأنهم لا يقبلون في

* محمد السعيد، الزاهري: (شؤون وشجون: رسالة طائشة)، الصراط السوي، العدد 15، 25 ديسمبر

الاحتجاج إلا الآيات القرآنية والأحاديث الصحيحة وهم قد احتجوا علينا بالآيات الكريمة وبالأحاديث الشريفة وقد أحموكم بذلك فلم تقدرُوا على تنفيذ الآيات والأحاديث التي احتجوا بها، أما مقالي المطول ومقالي المختصر فقد كانا عبارة عن تنفيذ تلك الآيات القرآنية والأحاديث النبوية (كذا، كذا) فلماذا لم تنشروا مقالي المطول الذي عندكم ولماذا لم تُفندوا به القرآن والحديث اللذين هما حجة هؤلاء العلماء؟ وتحققوا من الآن أن مقالي المختصر الذي سأرسله إليكم سينسف كل الآيات القرآنية وكل الأحاديث النبوية الصحيحة التي احتجوا بها!!.

والرسالة كلها من هذا الطراز في الكفر والهديان، ونحن مع هؤلاء الناس لا يسعنا إلا أن ننشد قول الأول:

ولواني بليت بهاشمي خؤولته بنو عبد المدان

لهان علي ما ألقى ولكن تعالوا فانظروا بمن ابتلاني

جمعة ثانية*^١

كتب إلينا حضرة الفاضل المحترم الأديب السيد بلقاسم عبادة من مدينة سكيكدة يقول إن مدينة سكيكدة مدينة إصلاحية تسعى لما فيه خيرها وصلاح دينها، وقد حدث أخيرا بها أن فئة قليلة أرادت أن تحدث صلاة جمعة ثانية في زاوية صغيرة هنالك من الزوايا، وقال إن المسجد الجامع العتيق في سكيكدة لا يزال يسع أكثر من مائة من المصلين من جديد، وهو يطلب منا أن نفتيه في هذه الجمعة الثانية هل هي صحيحة أم باطلة؟.

تعليق للزاهري:

الذي في علمنا أن هذه الجمعة الثانية لا تصح في هذه الزاوية، أما أولا فليس هنالك ضرورة لها، وأما ثانيا: فإن هذه الزاوية ليست مسجدا لله بل هي محل خاص، يملكه مالك خاص، وقد كان بلغنا أن ديونا كثيرة أثقلت هذه الزاوية التي كانت مرهونة بفائض وافر، وقرأنا أن هذه الزاوية المرهونة قد طُرحت في باتنة للبيع في المزاد العلني، ثم قرأنا أن أحد مالكيها قد اشتراها لنفسه ولكنه لم يسدد إلى الآن ثمنها، وقد علمنا أيضا أنها ستطرح للبيع مرة ثانية في المزاد العلني بأمر من المحكمة المدنية (تريبينال سيفيل) في باتنة، لأنها لا تزال مرهونة بأثقل الديون، ومحل هذه حالته لا يمكن أن يسمى جامعا ولا تصح الجمعة إلا في المسجد الجامع.

* محمد السعيد، الزاهري: (جمعة ثانية)، الصراط السوي، العدد 15، 25 ديسمبر 1933م، ص6.

زيارة سيدي عابد -5.*

(معرض عظيم للخزي والفضيحة - إباحية تامة في الأعراض والحرمات - كل ذلك تقرباً لله وطاعة للأولياء - مليار من الفرنكات يذهب كل عام في الوعدات هباء منثوراً)

ورفضنا طبعاً أن نجلس إلى مائدة عليها خمر مع هؤلاء الحلوليين ورفضنا أن نشاركهم فيما هم فيه من لهو وعبث وقصف وشراب، ورجعنا أدرجاناً، فعثر أحد رُفقاءنا في طنّب من الأطناب الممدودة، فقال: تعس شيخ الحُلُول! فقلت له: لقد ظلمت الشيخ، قال: ومتى كنت أنت عنه مُحامياً؟ قلت: ولكني لا أحب الظلم والعدوان، قال: أو بلغت إلى هذا الحدّ من الإنصاف؟ قلت: وما ذا يمنعني من ذلك؟ قال وهو يضحك: هذا شيء كثير يا شيخ! وأردت أن أجابه لولا أن ربة الحانة أو صاحبة القبة قد عاجلتنا بقولها: كان الشيخ سيدي كتب لي حرزاً ولكني لم أنتفع به إلى الآن، فقال لها صاحبي: من هو الشيخ سيدي؟ فقلت له أنا: هو شيخ الحُلُول وذلك لقبه المعروف به بين سائر فقراءه ومريديه، حتى أنهم لا يُسمونه باسمه الصريح، فقال: هذا أمر لا ينبغي أن يكون، لأنه من بعض الوجوه في معنى قول الصحابة رضي الله عنهم: يا رسول الله مكان يا محمد، قلت: ولماذا لا يجوز أن يكون ذلك جرياً على العادة المألوفة عندنا نحن الجزائريين من أن المرأة لا تدعو زوجها باسمه الصريح (!) فقال: هذا أسرف، فتركته وأقبلت على المرأة أسألها، لماذا هذا الحرز؟ قالت: قال لي الشيخ سيدي أنه يقبلك من التّابعة ويحفظك من العين ويجلب لك البُخت والقبول! وما دُمت تحمّلين هذا الحرز فأنت في أحسن ما تكونين صحّة وعافية، فقال لها صاحبي: لعلّ حرز

* محمد السعيد: الزاهري: (زيارة سيدي عابد4)، الصراط السوي، العدد16، 1جانفي 1934م، ص2.

مرجانة، فاستكرت المرأة منه ذلك وقالت: حرز مرجانة يباع فرنك واحد فقط، فقال لها: وهل دفعت أنت أجرة هذا الحرز أم لم تدفعي شيئاً؟ قالت: بوه! حرز بلا أجرة، كما تعلق حجرة، أنا دفعت مائة فرنك أجرة لهذا الحرز وقلقت أنا لهذه المحاورة وضقت بها ذرعا، لأنني كنت أتلهف إلى هذا الحرز وإلى الاطلاع على ما يشتمل عليه، ولقد صممت على قراءته مهما كلفني ذلك، وسألتها هل نفعها أو جلب لها البخت والقبول؟ فقالت: كلا، منذ علقت ما ربحت ولا رأيت خيرا، فجعلنا نشككها في أمره، ونفسد عليها نيتها فيه، وقلنا لها: لعل حرز سواقي ولم يكتب لك خصيصا، قالت: بل طلب مني الشيخ سيدي، أن أذكر له اسمي أنا واسم أمي فذكرتهما له، قلنا: ومن يدري لعل الشيخ غلط فأعطاك حرزا آخر قد كتبه لامرأة أخرى، ولعل حاسدة من النساء اللاتي يحسدنك قد أرشت الشيخ فكتب لك هذا الحرز لكي يبرزأك به في صحتك، وليجلب عليك التمس والكساد، وهنا تطرق إليها الشك، وارتابت في أمر هذا الحرز ووقع في نفسها أن زليخا منافستها وصاحبة صنعتها قد تكون دسّت لها بعض الدسائس، وكادتها لدى شيخ الحلول، وكانت زليخا هذه فقيرة حلولية هي الأخرى، ولم نزل بها نتلطف معها ونحتال عليها، حتى سلّمت إلينا هذا الحرز واختطفته أنا من يدها وفضضته بخفة مدهشة، فوجدته حرزا عصريا بآتم معنى الكلمة كما كاتبه شيخ الحلول هو طريقي عصري بآتم معنى الكلمة أيضا، فقد كان مكتوبا بالمداد، لا بالودخ، وكان مكتوبا بقلم الريشة (الشوكة) لا باليراع (القصبة) كما هي العادة في كتابة الحروز ولم يكن خاليا من الإعجام (النقط)، بل كان فوق ذلك مزيّنا بكلّ علامات الترقيم التي أدخلت على الخط العربي في هذا العصر الحديث، فكانت الفواصل والقواطع وعلامات التعجب ولا استفهام تتخلّل الجمل والعبارات المكتوبة في هذا الحرز، وكانت الآيات القرآنية مكتوبة بين مزدوجين اثنين كدليل على الاقتباس، وكان الورق جيّدا صقيلا، وكانت الكتابة مستوية محرّرة، لا ترى فيها عوجا ولا أمّتا،

غير أن هذا الحرز قد كتبه شيخ الحلول لنفسه يستجلب به النفع والخير، ولم يكتبه للمرأة التي تحمله ليحلب لها خيرا أو يدفع عنها ضيرا، وقد جاء في هذا الحرز ما نصه: ... اللهم إنا نسألك باسمك الأعظم (الذي إذا دُعيت به أُجبت) أن تجعل هذه المرأة حاملة كتابنا هذا (مريدة) لنا (فقيرة من فقيرتنا) صادقة في (فقرها) إلينا، اللهم واجعلها تُجزل لنا (الزيارة) والعطاء، اللهم إن كانت مُحسنة إلينا فزد في إحسانها، وإن كانت بخيلة كزة فيسر علينا رزقنا من مالها، اللهم إنا نسألك أن تجعلها لنا بقرة حلوبا!!... وتلونا عليها هذا (الحرز) وشرحنا لها ما فيه من المعاني، فغضبت غضبا شديدا، وتناولته فمزقته تمزيقا شنيعا، وهي تكاد تتميز من الغيظ، وكان في نيّتي أنا أن آخذه منها وأن أحتفظ به لوقت الحاجة، ولذلك فإني تأسفت على تمزيقه كثيرا.

وجعلت تُحدّثنا وتقول: أنا ما عندي بُخت (أنا ما عندي زهر) في الأولياء، في ليلة الاثنين من كلّ أسبوع أجعل (وعدة) لوليّ ولا أزال (أزور) الأولياء وأطيعهم حتى أنه لا تكاد تُوجد امرأة في الدنيا كلّها أكثر منّي طاعة للأولياء، فقلت لها أنا: ولماذا لا تطيعين الله؟ قال: هو شيء واحد، وقال الله في كتابه العزيز: (من أطاع الأولياء فقد أطاع الله)! فقلت لها: ليس هذا كلام الله، وليست هذه آية من القرآن العظيم، قالت: بل هو من كلام الله وهي آية من القرآن وإني سمعتها من الفقراء وبعد جدال طويل حول هذا الكلام هل هو قرآن أوليس بقرآن سألتنا قائلة: إن ما قال الله في القرآن: فقلنا لها: قال: (من يطع الرسول فقد أطاع الله) فقالت: هذا هو نفس ما تلوته أنا عليكم لأن طاعة الأولياء هي طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم وطاعة الرسول هي طاعة الله، فعجبنا لمنطقها هذا وسألناها عن الفرق بين النبي والولي فقالت: أن النبي خالقنا، فسألناها ما معنى خالقنا؟ فإذا هي لا تفهم لهذه الكلمة معنى، وسألناها كيف تطيعين الأولياء؟ قالت: أزورهم وأجعل لهم الوعدات وأقدم إليهم النذور وأسلم إليهم تسليمًا كليًا حتى إنني لا

أفعل شيئاً ولا أترك شيئاً آخر إلا بعد ما أستشير الأولياء وهم يحبونني ولأراهم في المنام كثيرا وكان مرادي أن لا أزور سيدي عابد هذا العام لأنني نظرت في أمري فرأيت أن التكاليف والنفقات التي تجب في هذه (الزيارة) هي كثيرة باهضة لا تطاق، ورأيت أن الريح مشكوك فيه إذا لم تكن هنالك خسارة، فنويت أن لا أزور هذا العام، ولكن ما هي إلا أن نويت هذه النية حتى وقف علي في المنام رجلٌ مربع القد، شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر في نحو الأربعين من عمره، تبدو على ملامح وجهه، وفي نظرات عينيه كل دلائل الحزم والنشاط وقال لي: يا زبيدة قومي زوري سيدي عابد، ثم مضى فاستيقظت أنا على الأثر، وقلت في نفسي هذه أضغاث أحلام ووضعت رأسي على الوساد، وما هي إلا أن أغمضت عيني حتى وقف علي هذا الرجل مرة ثانية وقال لي بلهجة حازمة جازمة: يا زبيدة ألم أقل لك قومي زوري؟؟ قالت: فاستيقظت أيضا، واستعدت بالله من الشيطان الرجيم ثلاث مرات وتقلت (بصقت بصاقا خفيفا) إلى اليسار ثلاث مرات أيضا، ثم عدت إلى نومي ولم تكد تغفو عيني حتى وقف علي الرجل للمرة الثالثة وفي يمينه سيف مُصلت وكان الشرر يقدح من عينيه، وكانت نظراته كشواظ من نار، وقال: يا زبيدة لقد أمرتك مرتين بالزيارة فلم تطيعي، واستعدت بالله مني، كأني شيطان رجيم، أنا عابد، أنا عابد، أنا عابد ثلاث مرات، وإذا لم تزوري فإني أقصم ظهرك بهذا السيف، قالت: فاستيقظت خائفة مذعورة أرعد وأرتجف، وقمت إلى أمتعتي في ذلك الليل فحزمتها، وأمرت جميع النساء اللاتي هن تحت إمرتي (تصرفي) بأن يتأهبن للزيارة في صبيحة اليوم التالي، ونحن هنا منذ أسبوع أنا وثلاث نساء في هذه القبّة (الحانة) والنساء الأخريات وهن إحدى عشرة امرأة ضربت لهن قبّة خاصة بهن وجعلتُها حجرات بعددهن لكل واحدة حجرتها وادّعتنا إلى زيارة قبّتها الأخرى، وقالت: ها هي قريبة، وأشارت إلى ماخور منصوب فاعتذرنا عن ذلك وقلت لها أنا: أبعثل هذا تطيعين الأولياء يا زبيدة؟ قالت نعم، الأولياء يحبون

الزَّهْو، قلت: حاشا لله إِنَّهُمْ يُحِبُّون الصَّلَاحَ وَالتَّقْوَى وَلَا يُحِبُّونَ لَكُمْ مَا أَنْتُمْ فِيهِ مِنَ
الْمُجُونِ وَالاسْتِهْتَارِ فِي الْمَعَاصِي.

شؤون وشجون !!!..*

ترجمة القرآن

بهذا العنوان نشرت مجلة المغرب الغراء التي تصدر في الرباط (جزء جمادى الثانية 1352هـ أكتوبر 1933م) مقالة ضافية بقلم صاحب السعادة الأستاذ الفقيه سيدي محمد الحجوي وزير المعارف بالمغرب الأقصى، ذهب فيها إلى أن ترجمة القرآن الكريم إلى اللغات الأجنبية هي أمر جائز مباح شرعا لا غبار عليه، وقد استدلل على جواز ترجمة القرآن بأدلة فيها كثير من الغرابة والشذوذ، من ذلك أن اليهود كانوا يقرأون التوراة للرّسول صلّى الله عليه وسلّم باللّغة العربيّة مع أنّها (التوراة) مكتوبة باللّغة العبرانيّة، ويعني الوزير أن سكوت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم على ترجمة التوراة من العبرانيّة إلى العربيّة هو دليل على جواز ترجمة القرآن (!) وينسى الوزير أن التوراة ليس لها من الإعجاز والمنطق مثل ما هو للقرآن الكريم، وأنّها قد دخلها تحريف كثير، وتبديل لا حدّ له، بخلاف القرآن فهولا يزال عربيا كما أنزل، على أن اليهود لم يكونوا يترجمون التوراة لأجل أن يتعبّدوا بتلاوتها باللسان العربي، بل كانوا يترجمون منها بعض الأحكام في أوقات مخصوصة فقط، ومن أدلة الوزير على جواز الترجمة أن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قد أرسل إلى ملوك العجم رسلا عربيا يحملون إليهم كتبه الشريفة مكتوبة باللسان العربي، قال الوزير: وهو صلّى الله عليه وسلّم يعلم أن

* محمد السعيد، الزاهري: (شؤون وشجون !!! ترجمة القرآن)، الصراط السوي، العدد 14، 18 ديسمبر

هؤلاء الملوك لا يحسنون اللغة العربية، وأنهم لا بد أن يترجموا كتبه الشريفة إلى لغاتهم لكي يفهموها وليفهموا ما فيها من الآيات الكريمة مثل آية يا أهل الكتاب تعالوا إلينا، وهذا في نظر الوزير دليل على جواز ترجمة القرآن الكريم إلى اللغات الأجنبية، وليت شعري لماذا لا يكون هذا دليلا على عدم جواز ترجمة القرآن؟ فإن الرسول الله صلى الله عليه وسلم يعلم أن هؤلاء الملوك أو العظماء يجهلون العربية ولا يعرفونها، ومع ذلك كاتبهم بنفس العربية التي لا يعرفونها، ولم يترجم لهم كتبه الشريفة، ولا أمر بترجمتها، فماذا يقول سعادة الوزير في هذا؟

ولا تظن أيها القارئ الكريم أن الأستاذ الحجوي قد تناول هذه المسألة من ناحيتها العملية فعرض لحقائقها الراهنة فأبدى رأيه مثلا فيما هو واقع بتركيا الكمالية التي ترجمت القرآن الكريم إلى لغتها ترجمة خاطئة شوهاء مغلوبة، كلا، ثم كلا، إنه تجاهل ذلك كله ولم يقل فيه أنه حلال أو حرام، ثم هو تناول المسألة من ناحيتها البعيدة التي لا صلة بينها وبين الحياة، ولا علاقة لها بمن نحن فيه اليوم، بل هو يعترف بأن ترجمة القرآن قد تنشأ عنها أضرار جسيمة من حيث الدين والاجتماع، ولكنه إنما ينظر إلى المسألة (فيما قال) نظرا شرعيا مجردا عن كل الاعتبارات، والحق أننا لا نكاد نفهم هذا الكلام، ولا نفهم أنه يوجد في الدنيا أمر يجر إلى أضرار جسيمة من حيث الدين والاجتماع، ثم لا يكون حكم الله فيه أنه حرام، والنبى صلى الله عليه وسلم يقول: لا ضرر ولا ضرار. على أن هذه الأقوال الفقهية الكثيرة التي نقلها الأستاذ الحجوي كدليل على جواز ترجمة القرآن هي أقوال قالها أصحابها في مسألة القراءة في الصلاة خاصة: هل يجب على المصلي أن يقرأ الفاتحة بلغة أخرى، إذا كان يجهل العربية ولا يعرفها أولا يجب

ونحو ذلك من الصور والفروع الفقهية التي بسطها الفقهاء في هذا الباب، ولم يتكلم الفقهاء في ترجمة القرآن ولا خطر لأحدهم (فيما نعتقد) أن أقوالهم ستؤخذ دليلا على جواز ترجمة القرآن، إنَّ الفرق عظيم جدا بين مسألة ما يقرأه المُصَلِّي في صلاته، وبين مسألة ترجمة القرآن.

ومنذ بضع سنوات كان العلامة السيد رشيد رضا صاحب مجلة المنار الغراء نشر كتابا نفيسا عنوانه ترجمة القرآن بسط فيه هذه المسألة بسطا وافيا واستوفى الكلام عليها من جميع النواحي، فليرجع إليه من أراد أن يستوعب هذا الموضوع، إننا نرى بعض الشعوبيين يعدون عدتهم في هذه البلاد لكي يقوموا بدعاية إلى ترجمة القرآن إلى اللغة البربرية وهي لغة موات، ولكنهم قد يفعلون ذلك فتنة للمسلمين وتفريقا بين المؤمنين، واقتداء بالكمالين، وإننا لنرجوان لا يكون مقال الوزير هذا تمهيدا لهذا الأمر الذي لا يوجد في بلاد المغرب كلها من يُحبه أو يرضاه.

شؤون وشجون: .. *

منذ عدة أسابيع كان جاعني رجل ممن يحملون كتاب الله، ويحترفون تعليمه وتلقيه لصغار المسلمين وقال لي: كنت طلبت الإدارة (الحكومة) أن تأذن لي بفتح كتاب من الكتاتيب القرآنية وقدمت إلى الحكومة مع الطلب جميع الأوراق اللازمة. قال ولبثت أنتظر الإذن أو الجواب وطال انتظاري حتى ظننت أن المسألة قد أهملت بالمرّة، وهممت أن أعاود الكرة وأجدد طلبا آخر، وأنا كذلك إذ دُعيت إلى إحدى الدوائر الحكومية فلبيت مسرعا، وقال لي رئيس هذه الدائرة: لماذا تطلب الرخصة بفتح كتاب قرآني؟ فقلت له لأنني أريد أن أعيش فقال لي: وهل ضاقت بك أوجه المعيشة كلّها حتى تعيش من تلقين القرآن للأطفال؟ قال: فقلت له نعم لقد أردت أن أطلب الرزق في فرنسا فلم يؤذن لي بالسفر إليها، وأردت أن أطلبه في المغرب الأقصى فلم يؤذن لي أيضا بالسفر إليه، قال: وذكرت له عدت محاولات حاولتها طلبا للرزق وفي كلّ محاولة كانت الحكومة هي التي تحجزني وتمنعني أن أعيش، على أنني قد طلبت منكم اليوم أن تأذنوا لي بفتح كتاب قرآني وقد مضى الآن على طلبي ستة أشهر ولم أحض بجواب، ولا يخفاكم أنني أدفع ثمن كراء المحلّ الذي قدّمت إليكم تصميمه (بلان) ليكون هو الكتاب، وقد دفعت لحدّ الآن كراء سبعة أشهر كاملة، فما هذه العراقيل التي تضعونها في سبيل كتاتيب القرآن الكريم؟ ومتى تنتهي هذه المماطلة والتسويف؟ قال: فسألني رئيس هذه الدائرة وقال: ما هي طريقتك ومن هو المرابط الذي تخدمه وتطيع؟؟؟ قال: فدهشت لهذا السؤال، ولكنه كان أكثر مني دهشة واستغرابا عندما أجبتّه بأنني مسلم

* محمد السعيد الزاهري: (شؤون وشجون)، الصراط السوي، ع 17، 8 جانفي 1934م، ص 2.

وكفى، أي أنني لا أؤمن بمرابط ولا طريق، وقال لي أنت من عائلة مشهورة بالصّلاح والتّقوى، فلماذا لا تتبع أنت عادة أسلافك الذين كانوا كلّهم طُرقيين، قال: ولم يزل بي ينصّحني ويحثني على الدّخول في إحدى الطّرق الصّوفيّة أيّة كانت، حتّى ظننت أنّه هو سيمد يده إليّ ويضعها في يدي ويُعطيني الوسيلة!!!.

قال وعندما هممت بالخروج من عنده قال إياك أن تتبّع المصلّحين حزب جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريين فإنّهم ملاحدة كفار ضدّ أولياء الله الصّالحين، قال: فعجبت لهذا الحاكم المسيحي يصف العلماء المسلمين بأنهم ملاحدة كفار حتّى كأنّه هو أصبح وليا من أولياء الله! وأخيرا فإنّ هذا الرّجل لم يحظ بهذه الرّخصة التي يطلبها من الحكومة بفتح مكتب قرآني وعييه الوحيد ليس طُرقيا ولا هو من الفقراء المرّيبين!. وعلمنا بعد هذا أنّ بعض الذين يحفظون القرآن الكريم وينتمون إلى بعض الطّرق قد طلبوا من الحكومة أن ترخّص لهم بفتح بعض المكاتب القرآنيّة، وبعد المماطلة والتّسويف أذنت لهم بذلك ثمّ عادت فأوغرت إلى بعض أشياخ الطّرق بأن يُشيروا عليهم بترك هذه المهنة، مهنة تعليم القرآن وزينوا لهم التّحوّل عنها إلى مهنة أخرى غيرها، فأطاعوا وتركوا تعليم القرآن الكريم.

وبعدُ فاحمدوا الله أيّها المسلمون الجزائريون فقد أصبحت السّلطة في الجزائر صوفيّة وليّة الله تعالى وأصبح في رجال السّلطة من هم بمنزلة أشياخ الطّرق ومقاديمها، ولم يبق إلاّ أن نراهم يحملون السّبح في أعناقهم، ويحضرون حلقات الذكر في الزّوايا!!!.

* هلال رمضان

كان البرد شديدا ليلة الاثنين (مساء الأحد) وكان الظلام حالكا إذا أخرج أحد يده لم يكد يراها وكانت السحب والغيوم متراكمة يركب بعضها بعضا وكان المطر ينزل منهمرا غزيرا وكانت الرياح عاصفة هوجاء تقتلع قرمود السطوح وتكسر أطراف الشجر وزجاج النوافذ والشبابيك وكانت الثلوج تتتابنا الفينة بعد الفينة وتسفينا بأليافها ولم يكن من عادة الثلج أن ينزل بوهران، فلزم الناس منازلهم لا يبرحونها تلك الليلة ولم يتمكنوا من مشاهدة الهلال فيها، ولم يصلنا خبر من هذه البلدان القريبة لأنّ الجو فيها كان كما هو في وهران، فبتنا بنية أن نصح مَظَظرين فلما كانت الساعة السابعة صباحا وصلتني برقية من الأستاذ الجليل رئيس جمعية العلماء المسلمين ومن الشيخ قاضي قسنطينة وقد صدرت عن قسنطينة الساعة العاشرة والدقيقة الـ 55، وفي الحق أنّ إدارة البرق هنا قد فرطت، وكان عليها أن تبغني هذه البرقية فور وصولها) وقد فعلت الواجب الذي يخولني القانون بهذا الصدد) وكان مني أنا أيضا تفريط أعترف به وأتوب منه ولا أعود إليه وهوانه كان الواجب عليّ أن أتصل بإدارة الشهاب بالهاتف (التليفون)، فلوانا فعلت ذلك لكان وصلنا الخبر في الوقت اللازم، وكانت هذه البرقية تُفيد أنّ ليلة الاثنين هي الليلة الأولى من رمضان، ومن الاتفاق الحسن أنني - حينما وصلتني البرقية - لم أكن تناولت شيئا ما لا أتايا ولا سواه، فبقيت صائما، وخرجت من فوري لأبغ الخبر إلى الناس وكان يوما شاتيا مطيرا، وكان البرد شديدا وكانت الرياح لا

* محمد السعيد، الزاهري: (هلال رمضان)، الصراط السوي، العدد 17، 8 جانفي 1934م، ص3.

تزال عاصفة هوجاء ترمجر وتفتح فحيح الأفعى وجعل الناس يُمسكون عن الطعام وينوون الصيام، وأرسلنا بهذه البرقية إلى الشيخ مفتي وهران الجديد، لعله يأمر من يؤذن في الناس برمضان، فقال: إنَّ الناس قد أصبحوا مُفطرين، وإذا نحن أخبرناهم بغير ما بيئوا ونووا وقلنا لهم قد ثبت أن اليوم رمضان كان في ذلك تشويش عليهم، ونفروا لا محالة غير مُذعنين، فتعجبنا نحن من هذه الاعتذارات العامية الباردة، وكان واجبه أن يؤدي ما عليه الله ورسوله صلى الله عليه وسلم وأن يبين للناس ما يأمر به الشرع الشريف، فإذا امتثل الناس فذلك ما كنا نبغي، وإن أبوا برئت ذمته من كل تبعة، وعلى كل حال فقد أمسك كثير من الناس ونووا الصيام.

والشيء العجيب الذي نريد أن ننبه إليه هنا هو أن الشيخ مفتي تلمسان الحالي قد ظلَّ يوم الاثنين كلّه يهتف ويتلفن إلى عامله بوهران وإلى وهرانيين آخرين يأمرهم بأن لا يجعلوا رمضان بالاثنتين، ويقول لهم إنَّ الثلاثاء هو أول يوم من رمضان ويحذروهم أن يقتدوا بالعلماء أو برئيس العلماء (يعني الأستاذ ابن باديس) وأخبروه بالهاتف أن برقية وردت وهران على الزاهري من قسنطينة تُبني بثبوت رمضان يوم الاثنين فقال إنَّ برقية أخرى مثلها وردت تلمسان على الإبراهيمي، وأرسل بها إليه، ولكنه لم يعمل بها!! وتكلم بالهاتف مرة أخرى من تلمسان مع صديق لنا في وهران في هذه النزلة، وكنت أنا حاضرا، وجعلت السّماع على أذني فسمعتة يُعيد هذا الكلام، وسمعتة يطعن على العلامة الأستاذ الشيخ الإبراهيمي، ويقول: إنني أستطيع أن ألحق الضرر بالإبراهيمي لأنه جعل للناس رمضان بلا رمضان، وقد طلب مني حاكم تلمسان (سو بريفي أن أكتب

إليه (رابورا) ضدّ الإبراهيمي الذي اعتدى فأخبر الناس بأنّ اليوم رمضان، ولكنّي أنا أشفقت عليه!!! وقد خيلّ إليه (كما يظهر من كلامه) أنّ السّلطة ستحكم على الإبراهيمي بالنّفي أو بالإعدام بمجرّد ما تتسلّم الرّابور الذي يُلْفقه المفتي ضدّه!! ثمّ قال الشّيخ للمفتي من كلام طويل: إنّ العادة الجارية عندنا والموروثة من أسلافنا هي أنّنا لا نصوم إلّا إذا رأينا الهلال بأنفسنا، ولا عبرة بالرّؤية إذا كانت من غليزان فما يليها من الشّرق لأنّها بلاد بعيدة عنّا.. ثمّ تأسّف الشّيخ المفتي وتحسّر لأنّ التلمسانيين جميعا نساء ورجالا يُحبّون الشّيخ الإبراهيمي ويحبّون إخوانه من العلماء المسلمين ثمّ قال إنّ السّلطة ورجالها في تلمسان تحبّه هو ولا تحبّ الإبراهيمي... ونحن لم نكد نُصدّق ما سمعناه لأنّ هذا الشّيخ يتظاهر بالولاء لكم أيّها المصلحون وهومن الذين إذا لقوكم سلقوكم بالسنة حداد وما كنت لأعرض لكلامه هذا ولا لأجاوبه عنه لولا أنّ كلمات منه ترددها العامّة هنا وتلوّكها كثيرا.

تجري على السنة العامّة وأشباه العامّة كلمة يُنزلونها منزلة القواعد الشرعيّة الثابتة وهي قولهم: لكلّ قوم رؤيتهم وعلى هذه القاعدة التي يُسيئون فهمها لا يعملون في صيامهم وإفطارهم وأعيادهم إلّا برؤية الهلال التي يرونها هم، وهم يجعلون لكلمة قوم من قولهم: لكلّ قوم رؤيتهم، معنى ضيقا جدا فهي لا تعني عندهم الأُمَّة أو الشّعب ولكنّها تعني أهل البلدة الواحدة أو القبيلة أو العشيرة أو نحو ذلك من المعاني الضيقة المحدودة ولهذا فمدينة غليزان مثلا لا تدخل في كلمة قوم بالنسبة إلى وهران أو تلمسان أو معسكر مثلا، ونحن قرأنا في كتب الفقه المالكي فإذا بالشّيخ الدّردير رحمه الله يقول: يجب على من بلغته الرّؤية أن يعمل بها قريبا كان أو بعيدا، ثمّ إنّنا نرى أهل المغرب الأقصى يصومون كلّهم في يوم واحد

ويُفطرون كلهم في يوم واحد، ولم نسمع أن بلدة هنالك خالفت بدعوى أنها لم تر الهلال بنفسها، وكانت الدولة العلية (العثمانية) تعدّ نحو من خمسين مليوناً من المسلمين، وكان من شعوب مختلفة وأقطار متباعدة، ومع ذلك فقد كانت هذه الإمبراطورية كلها تصوم في يوم واحد وتُفطر في يوم واحد بما فيها مصر وطرابلس وبلاد العرب وأروبا العثمانية، وكانت تعمل بالرؤية مهما ثبتت، في أيّ قطر من هذه الأقطار بل في أية قرية في طرف من أطراف الإمبراطورية العثمانية، وفي المغرب الأقصى وفي مصر وفي تركيا وفي غيرها علام أعلام من جميع المذاهب المعروفة، ومع ذلك فلم نسمع أن أحدهم قد اعترض وقال لكلّ قوم رؤيتهم!! وأما مسألة الربور الذي طلبه السوبريفي من الشيخ المفتي ليكتبه ضدّ الأستاذ الإبراهيمي فإننا نتمنى لو أنّ الشيخ كتب رابورات ضدّ المومسات وضدّ رواد الحانات، على أن الأستاذ الإبراهيمي يعرف جيّداً ما هو صانع فلا يُخالف عن القوانين المشروعة ولا يأتي بأدنى مخالفة فيحتاج فيها إلى من يستر عليه ويجب أن يفهم الشيخ أن رابورات قد لفقها بعض أولي المناصب العالية الكبرى ضدّ الإبراهيمي وابن باديس والعقبي والزاهري والعمودي وإخوانهم، ومع ذلك فلم يقع شيء.

كتبنا هذه الكلمة لننبه حضرة الشيخ المفتي إلى أن من واجبه أن يتعاون مع الإبراهيمي، فذلك خير له وخير للمسلمين جميعاً، أمّا الاستمرار على هذه الخطة الجديدة التي اختطّها لنفسه، فلئن أفاده مع خصوم له قداماً فلن يفيدهُ مطلقاً بأيّ وجه مع المصلحين وله منا تماماً.

- النهضة

تزييف رد

- النهضة

اسلفت الحديث عن جريدة (النهضة التونسية) التي نشر فيها محمد السعيد الزاهري مقالاته أنني لم أحصل على أعدادها التي ضمت مقالات بعنوان: "تزييف رد" وهو مقال في النقد الأدبي، ولهذا السبب لجأت إلى رسالة الماحستير لصاحبها عبد السلام ضيف، الموسومة بـ " محمد السعيد الزاهري كاتباً" فاعتمدت هذه المقالات كما وردت في رسالة الأستاذ عبد السلام ضيف.

تزييف رد (1)*

أتيت من العدد الأخير من جريدة الأمة على فصل عريض فوقه عنوان "تفنيد مزعم" أو "أو ودُّ على زيتوني" فقرأته وأنا عار عن سائر العواطف وزدت النظر فيه بسطة، ونقدته نقد بصير فتبين أن صاحبه لم يحرره إلا بحلم طائش، وفؤاد روي من التسرع في الحكم وليس له من سبب يدعو إلى تحرير ذلك الفصل المفعم شتيمة وسبابا سوى أنه وجد نفسه من قوم يحسبون كل صيحة عليهم، فظن أنه المعني وحده بما كتبه الفاضل الزيتوني بطويه طاهرة وضمير عف وسلك الصراط السوي فيما كتبه بعنوان "دمعة على العروض".

لقد جاء الكاتب الزيتوني فيما كتبه بحقيقة الأمر ترفل في مطارف الإنصاف، وماذا بعد الإنصاف إلا الحيف والإعتساف، ولقد أنصف إذ طلب عرض القصيدة السكيرجية على محك النقد ولكن صاحب الرد عليه جاء في أساطيره بشيء في الأرض والمطلوب منه في السماء، فالبعد بين ما أجاب به وبين ما ترجاه الفاضل الزيتوني كالبعد ما بين السماء والأرض فما أجدر الزيتوني أن ينشد:

وأكبر رزه يا أمامة أنني أخاطب من دنياي من ليس يفهم

ألم تر إلى صاحب الرد كيف يسترك طبعه الرقيق اللطيف ويستثقل ذوقه السليم أن عدى الزيتوني لفظة "شوه" بالجار ولا يستثقل نظير ذلك في قوله هو (طمس

* - محمد السعيد الزاهري: (تزييف رد)، النهضة التونسية، ع 31 (1 / 11 / 1923)، نقلا عن عبد السلام ضيف، محمد السعيد الزاهري كاتبا، بحث مقدم لنيل شهادة الماجستير في الأدب الحديث، معهد اللغة والأدب العربي، جامعة باتنة، الجزائر، 1993-1994م، ص 178.

الله على بصره) و نحن نرى الجار يجر مفعول الفعل المتقدم لغرض بلاغي و قد ورد كثيرا في كتاب الله وفي الحديث الشريف وفي الكلام البلغاء من العرب ألا يسألنا صاحبنا أنورد له من ذلك شواهد... وما كنا لنعرض لمثل هذا لولا أن صاحبنا ينكر شيئا وقع هو فيه .

وبعد فضرينا الذكر صفحا عما في تراكيبه من الركاكات الباردة لأن ذلك يحط بنا من الأمور ذات البال إلى السفاسف على أننا خلينا له هذا الباب يكثر ما استطاع من الكلام فيه وبينه وبين مناط الأخذ والرد بعد المشرقين ، مثل هذه العجاجة أن الفاضل الزيتوني هزته غيرة أدبية على الأدب، إذ رأى فئة ممن ينتمون إليه تتكبوا الجادة البيضاء في الحكم على قصيدة الشيخ "سكيرج" التي نشرت بجريدة الزهرة فقال: من الناس من أخذ ينتقد قصيدة الشيخ سكيرج بعدم الاتزان الخ.

فقال صاحب الرد: فأنت ترى كيف اعترف بأن غير المتزن إنما هو مجموع القصيدة لا كل فرد من ابياتها ... الخ .

تزييف رد (2)*

زعم صاحب الرد أن الزيتوني اعترف له بمدعاه وزعم أيضا أن مدعاه من أول مرة هو ما ذكره من أن غير المتزن إنما هو المجموع الخ ...

وسواء سخط صاحب الرد أم لم يكن من الساخطين فالحق والحق أقول أن صاحبنا رمى القصيدة أول مرة بأنها ليست إلا كلاما منثورا وبعض أبياتها على فرض أن لها أبياتا فيها زيادة الحرف والحرفين وفي بعضها النقص الذي لم يكن ليغفره علماء العروض وجعل يشد عضد مزعمه بمقدمات عميقة يكفر بعضها ببعض فخذله وقتئذ من ظنه ينصره فأنشد لسان حاله يخاطب خاذله قول الفرزدق

وكنت كذئب السوء لما رأى دما بصاحبه يوما آمال على الدم

ثم ما لبث إذ أعياه الأمر وكذبه الواقع أن انتقل « وعدم الثبات على المبدأ معرفة » فجعل مدعاه أن غير المتزن إنما هو المجموع وضرب لذلك مثلا باطنه فيه خلاف الواقع وظاهره من قبله ... السفسة الكاذبة التي لا تتطلي إلا على قوم ليست لهم مسكة من فن العروض .

ضرب صاحب الرد مثلا لما يقول بالرطل من الذهب أو الفضة يعطيه الرجل لصائغ يصوغه أساور أو دمالج أو غير ذلك، فصاغه وقد نقص من كل سوار من تلك الأساور أو دملج من تلك الدمالج قدرا يسيرا لا يعد نقصا في كل سوار أو دملج غير أنه إذا ضمت الأفراد بعضها إلى بعض صارت أقل من رطل فجاء الرطل غير موزون المعنى، أن صاحب الرد أفاض فيها لم يندبه إليه الزيتوني فلغا

* المصدر السابق، ع 36 (6 / 11 / 1923)، ص 180.

ما شاء أن يلغو وما ذكرناه عنه من ضرب المثل أهم ما قال، ونحن وان كان
شأننا أن نمر باللغومن الحديث كراما لكن أنفسنا تأبى لنا ألا نمحق الأراجيف
الباطلة وان نصدع بالحق رضي من رضي وغضب من غضب .

تزييف رد (3)*

إن هذا المدعى الذي ادعاه في مطاويه أن القصيدة العربية بوصف مجموعها بعدم الوزن إذا كان بعض أبياتها منقوصا بعض السواكن نقصا لا يخرج بالبيت عن دائرة الوزن و هذا لم نجد له من مسوغ فإن القصيدة إذ كانت كذلك لا يوصف مجموعها بعدم الوزن مثل ما قال صاحب الرد لا في اللسان العربي ولا في متعارف العروضيين ولو أنه جاءنا ببينة تأخذ بيد مدعاه لسلمنا له كلما وضح الحق ولكنه أورد مزعمه عاريا عن سائر ما يشد أزره فلقي من التزييف ما لقي وما خلونا بمرقب مما يظهره بعد من الدلائل المنقذة لمزعمه من الغرق فليأتنا بكتاب مصدق لما بين يديه إن كان من الصادقين .

وبعيد ما بين الشاعر يقف على ساحل اللغة العربية فيأخذ من درر ألفاظها ما يشاء ولا يحيط بها علما إلا الله فيفرغ فيها من المعاني ما يشاء و بين الرجل يعطي رطلا مخصوصا موزونا بوزن معلوم فإن للشاعر فيما يقابل الرطل من جواهر الألفاظ ما لا يقف على آخره بشر .

ولسنا ننكر عليه تنظيره القصيدة بالعقد من الماس فهما، كما قال. ولكننا ننكر عليه زعمه أن النقص يرى في المجموع و ليس يرى كذلك عيبا في كل حبة من حباته إذ ربما كان بعكس ما قال، فإن النقص في الحبة الواحدة أقبح منه في كثير من الحبات أو في جميعها ذلك بأن العقد إذا كانت حباته جلها أوكلها ناقصة

* المصدر السابق، ع 38 (8 / 11 / 1923)، نقلا عن عبد السلام ضيف، محمد السعيد الزاهري كاتبا، بحث مقدم لنيل شهادة الماجستير في الأدب الحديث، معهد اللغة والأدب العربي، جامعة باتنة، الجزائر، 1993-1994م، ص182.

كان أقرب إلى التئام أجزائه وتتاسب بعضها مع بعض وان كانت واحدة ناقصة بين حباته السليمة كان أبعد، والواقع شاهد عدل على ما نقول .

وبعد فماذا يقول صاحب الرد بجريه قائله على سنن واحد محبوبنا أومطويا أومكفوفنا أوموصوفا بغير ذلك من الأنقاض العروضية أيحكم عليه بعدم الاتزان، وذلك شيء كثير في قصائد العرب العرياء الذين دون فن العروض من أجل أشعارهم، أم يحكم بصحة ذلك و قد حكم على قصيدة الشيخ سكيرج بأن مجموعها غير متزن أم يحكم بفساد الوزن في قصيدة الشيخ ويحكم بصحته فيما عداها ألا ساء ما يحكم .

تزييف رد (4)*

ثم قال صاحب الرد ما وقع فيه سكيرج كثيرا ما تتحى على الأدباء الجزائريين في عدم التحري من الوقوع في مثله .

طالبنا سمعنا هذا المتحامل يقول أن الجزائريين لا يتوخون الوزن في أشعارهم كأنهم لا يعرفون العروض ... و زيفنا له هذا القيل و شخصنا له خطأه حتى لمس به يده .

ولئن سألتني من أين تسرب إليه هذا الخطأ الملعون لأقولن أنه اختار لنفسه نفسه في كل بحر تام العروض والضرب من البحور التي يغلب طروق الشعراء لها نعمة من النعمات التمثيلية يقرأ القصيدة عليها فمتى ما رأى البيت سگن فيه متحرك أو نقص منه ساكن اختل نظام تلك النعمة فيحكم ساعتئذ على البيت بأنه غير موزون أو على مجموع القصيدة فيما يراه .

والجزائريون لا يرون التمثيل شيئا يؤبه له و صدهم عنه ما يلزمه غالبا من الإخلال بالعرض و قلب الأخلاق الفطرية الفاضلة فلم تجر على ألسنتهم نغماته .

من أجل ذلك مهما سمع صاحب الرد جزائريا ينشد قصيدا على نعمة لا تلتئم مع نغمته حكم على الجزائريين بأنهم لا يزنون أشعارهم واكثر من إعادة هذه الكلمة في سائر النوادي التي يجلس إليها ولم تكن له من طرفة يطرف بها

* المصدر السابق، ع 42 (18 / 11 / 1923)، نقلا عن عبد السلام ضيف، محمد السعيد الزاهري كاتبا، بحث مقدم لنيل شهادة الماجستير في الأدب الحديث، معهد اللغة والأدب العربي، جامعة باتنة، الجزائر، 1993-1994م، ص183.

السامعين سواها وما من أديب يقدر من يحملون عرش الأدب إلا يستبرد منه مثل هذه الحزازة وحسبناه لا يجهر بذلك على أعمدة الجرائد حتى تكون فضيحتة أهون شرا ولكن أبا له الحمق وسفه النفس إلا أن يبين للناس أنه الجاهل بعلم العروض وأنه لا يعرف منه إلا لفظة العروض فأبدى مكانته من الفن للعيان في انتقاده على الشيخ سكيرج بيته:

فيأخذ النغم التي توافقه ويستدل بها في وزنه الجلل

تزييف رد (5)*

إذ قال أن صدر البيت من بحر الرجز و عجزه من البسيط و هل يجهل مثل هذه الجهالة إلا بسيط وتلك إما عثرة ، واما زلة تحسب عند العروضيين شركا لا يغفر، وعندي أ تلك حجة واضحة على جهله بفن العروض يسمع الرجز والبسيط والطويل والوافر ونحو ذلك ولا يدري لها من مسميات و لدي على ما قلته برهاننا: الأول لوالم بالعروض أو ببعض العروض لعرض القصيدة السكيرجية ونقدها نقدا عروضيا عل أن الزيتوني اضطره إلى ذلك، والثاني قوله أن صدر البيت المتقدم من الرجز و لم يقطعه على تفاعليه و نحن نسأله أن يجري لنا هذا الصدر على أجزاء الرجز فلم نره إلا من البسيط .

وإن تعجب فعجب قوله بعد ذلك « الله شيء جميل و جميل جدا » ففي هذه الفقرة من ... والتخنت ما يتبرأ منه المتعففون .

ومن كانت منزلته من العروض ما ترى ، فليس بسداد أن ينتقد شيئاً يجهله فيجعل بنا أن ننشد:

يا للرجال ذوي الأبواب من نفر لا يبرح السفه المردي لهم دينا

وذكرت أنه استعمل أكياسا جمعا لكأس و ذلك فاسد وغير معروف ثبوته عن العرب فليأتنا على الصحة هذا الجمع بسطان مبين ونحن له من

* المصدر السابق، ع 49 (19 / 11 / 1923)، نقلا عن عبد السلام ضيف، محمد السعيد الزاهري كاتبا، بحث مقدم لنيل شهادة الماجستير في الأدب الحديث، معهد اللغة والأدب العربي، جامعة باتنة، الجزائر، 1993-1994م، ص185.

الشاكرين فهلا اشتغل بتتقيف أوده هو وتتقيف بني بلاده فإن في قصيدة شاعر
تونس التي تقول في مطلعها:

تزرع ما بالغرب والشرق ساطع وما لبلاد الغرب لا تترزع

من القافية المتلاعنة ومن برودة المعنى وتتافرها ما يقتل الروح وبميت
الوجدان فأولى له قصده عنا مواطن الخلل من أشباه هذه القصيدة التي يقيم لها
التونسيون وزنا وهي أثقل على السمع من رجحانه ولولا التحلك بأدباء الجزائر لكان
له من نقد الشعر التونسي فضاء مترامي الأطراف لو كان من فرسانه وانما ننصح
له أن لا يعود يمس بكرامتنا بغير حق، ننبهه إلى أن الجو لم يكن خاليا من
صقور أدباء الجزائر الكرام فليحذر أن يقع عليه صقر من تلك الصقور المحلقة
فوق رأسه كلما عاد لمثل ما أنكرناه عليه ...

ولو انتقدنا بسداد لشكرنا لصنيعه و لرأينا له فضلا ... أما وقد نقدنا نقد
مغرض جهول، فإننا نمتعض وننكر على ما كتبه عنا بالإبطال ونزيف بالحجج
الدامغة ما يلصقه بنا من كل ما يشوه بمسمعتنا بطوية أرويناها نزاهة وطهارة
وكذلك كل من حاول العبث بمسمعتنا كلنا له بصاعه ويومئذ ربما يود الذين
يتحاملون علينا أن لو كانوا لنا مسالمين، ولا يغرم سكوتنا اليوم عن مجارة ما
يهرفون فإننا خليناهم وما يهرفون أنفة وإباء.

وبعد فنطالب صاحب الرد أن لا يخرج بنا فيما يكتبه بعد أن كان عما
نكون فيه مثل ما خرج فيما رد به على الكاتب الزيتوني إلى وصف الشعر بأنه
كذا وكذا...

وجعل يذكر أشياء مساس لها بما نحن فيه، بل منزلتها من الموضوع كمنزلة الضب من النون، وترك محل البحث وراءه ظهريا.

وكنت عزمت على أن لا أغادر صغيرة ولا كبيرة مما كتبه في هذا المقال نسفتها ثم رأيت أن في ذلك طولا ربما سئمه القارئ النبيه على أنه إن عاد عدنا.

دعانا إلى كتابة هذه الكلمة الذب عن حقيقتنا، لا نبرح نتبعها طلائع السمع تتجسس كيف يكون عاقبة وقعها فإن كان الإذعان إلى الحق والى نحمل نبره، فذلك ما كنا نبغي وإن كان غير ذلك فمن يضل الله فلا هادي له.

3- صحف المشرق العربي وبعض مقالات الزاهري بها

أ - الفتح

حديث مع الشيخ راسم

بيان حديث

المغاربة في المنطقة الأسبانية يوشكو أن يمحووا من الوجود

ب - الرسالة

مكانة مصر في المغرب العربي

صورة من المجتمع الجزائري: إني أرى في المنام

ج - المقتطف

هل البربر عرب ؟

وهل لغتهم لغة الضاد أخرى ؟

الأدب والعلم في الجزائر

الدكتور محمد أبو شنب

بحث طريف في «التوارج» الملتئمين مقام المرأة السامي في

اجتماعهم وأدابهم بلادهم وطبقاتهم - أبجديتهم وأداهم - حياتهم ومعيشتهم

د - مجمع اللغة العربية بدمشق

واسطة السلوك في سياسة الملوك

هـ - المعرفة

في المغرب الأقصى

أ - الفتح

حديث مع الشيخ راسم*

كان صديقي الأستاذ الشيخ "عمر راسم"¹ (أحد رجال الإصلاح الإسلامي في الجزائر، وأحد المبرزين في فن الرسم والتصوير، وشقيق الرسام الفنان السيد محمد راسم الطائر الصيت) سافر من الجزائر إلى الرباط عاصمة جارتنا مراکش، فلبث فيها بضعة أشهر لدواع فنية تخص مهنته ثم رجع إلى الجزائر في هذه الأيام وعرج على تلمسان فأقام فيها يوماً وليلة، وكان ضيفا كريما عند الفاضل المبرور سيدي الحاج عبد القادر قاره جه أحد أهل الفضل والعلم والمروءة في تلمسان، وأقرب الأصدقاء إلينا فيها. فاجتمعنا مرارا به عند قاره جه حتى ما كنا نكاد نفترق، وتحدثنا عن الإصلاح الإسلامي فقال: إن في الرباط شبيبة مباركة تجد في نشر الإصلاح الإسلامي، ولكنها كثيرا ما تغلو وتنتطع إلى حد أن تشرف على الإلحاد والجحود، وترى في ذلك إصلاحا كثيرا. ولا ينقصها إلا إمام مصلح راشد يرد جماحها، ويهديها إلى سواء الصراط.

والشبان يفيضون نشاطا وإخلاصا، ولكنهم كذلك يفيضون بساطة وخفة ونزقا وتعوزهم الحكمة والتجريب وهنا قلت له: صدقت، فإنه إذا لم يكن لهؤلاء

* محمد السعيد، الزاهري: حديث مع الشيخ راسم، مجلة الفتح، عدد 159، 3 ربيع الأول 1348هـ، ص8.

¹ - عمر راسم بن بن علي بن سعيد بن محمد البجائي، ولد عام 1883 م، وتوفي عام 1959م، صحفي وخطاط ومصلح، له جريدة "الجزائر" و "ذوالفقار"، له اسم مستعار هو ابوالمنصور الصنهاجي، من آثاره: تراجم علماء الجزائر.

الشبان إمام يدعوهم إلى سبيل الرشاد فإنهم يلتجئون إلى الاهتداء بالكتب والمجلات، وهذه الكتب والمجلات ليست كلها هادية تهدي للتي هي أقوم، وليست كلها صالحة مفيدة ففيها المصلح والمفسد، وفيها الطيب والخبيث فيها صحيفة "الفتح" ومجلة "الزهراء" وكتاب "الحديقة" وكتب كاتب الشرق الأمير شكيب ومقالاته وكتب الأديب الإمام السيد مصطفى صادق الرافعي وفصوله، وأمثال هذا مما يهدي إلى الرشد، ويدعوا إلى سبيل المؤمنين. وفيها مع ذلك كتب أخرى ومجلات أخرى تدفع إلى الغي وتتبع غير سبيل المؤمنين، فتزين للشبان أن يتبعوا خطوات الشيطان، وأن يقترفوا الإثم والفساد. والشبان كثيرا ما يلتبس عليهم الخير بالشر، لا يكادون يميزون ما بينهما...

فقال لي الشيخ "راسم"، معك الحق فإن مجلة "الفتح" هي خير مجلة عرفت وأحقها في نظري بأن يقبل المسلمون عليها إقبالا شديدا، لافرق بين الشيوخ منهم ولا بين الشبان، بل وهي أجدر بأن يقبل عليها الشرقيون جميعا، لا فرق بين المسلمين وغير المسلمين. وهي الآن منتشرة جدا في مملكة مراكش في الرباط وغير الرباط، والمسلمون هناك ينتظرونها بلهف شديد، ويقرأونها بعناية وإمعان.

ولكن أخبرني عن الحديقة" فقلت له: الحديقة غرستها مجلة "الفتح"، وهي حديقة في الأدب العربي فيها من كل الثمرات، وفيها من كل الأزهار والورود، وفيها من كل رزق كريم. وهي كما قال عنها جامعها: "مجموعة أدب بارع، وحكمة بلينة وتهذيب قومي"، يقرأها المؤمن فيزداد إيمانا، ويقرأها الشرقي الخامل فيشعر أن في نفسه عزة وإباء. وقد اطلعت على كثير من مجموعات الأدب غير الحديقة فإذا أكثر هذه المجموعات يطفئ العاطفة الدينية في صدور الشبان المسلمين،

ويبعث في الإيمان من قلوبهم فشلا وفتورا، ثم ما يزال يلح على أفئدتهم حتى يملأها ظلمة وشكوكا. وحتى يملأها تمردا على آباءهم ومعصية وعقوقا بخلاف مجموعة "الحديقة"، فإنها تذكي العاطفة الدينية في صدور المؤمنين، وتزيدهم إيمانا مع إيمانهم، ويقروها الذين في قلوبهم مرض، فما تزال بقلوبهم تلح على ما فيها من زيغ وضلال حتى تطهرها تطهيرا، وتملأها هدى ونورا.

والأدب العربي اليوم في غاية الحاجة إلى هذا المنحى الذي نحتة "الحديقة" وإلى اجتناب هذه المناحي التي ينحوها في الأدب العربي المبشرون المسيحيون والمترجمون العجزة والملحدون الذين لا يريدون بالإسلام خيرا. وفي الحق أن الأدب العربي أدب إسلامي لا يمكن أن يجرد من الروح الإسلامي. ومن أراد أن يفصل بين الأدب العربي ودين الإسلام فإنه لا يجد هذا الأدب يومئذ إلا جثة هامدة لا روح فيها ولا حياة. ومن لا يعلم من الأدباء أن القرآن الكريم هو معجزة الفصاحة و سحر البيان وأن منطق النبي محمد صلى الله عليه وسلم هو المثل الأعلى للحكمة وفصل الخطاب وأن فحول الشعراء المتقدمين، وأئمة الأدب العربي في القديم إنما هم مسلمون متدينون، وأن الروح الإسلامي متجل واضح في آدابهم التي تركوها لنا، وما فيها من روائع وآيات. أحسبني لا أكون مخطئا إذا قلت أن كل أديب من أدباء هذا العصر مسلما كان أو غير مسلم لا يكون أسلوبه إسلاميا لذيذا فإنه لا يستحق البقاء والخلود.

ومن العجيب أننا نرى الملحدين أنفسهم لا يحسنون شيئا مما يقولون إلا إذا اقتبسوا من نور القرآن وما فيه من جمال الأسلوب. وذلك لأن اللغة العربية لغة الإسلام ولغة الذكر الحكيم، ليس لها أن تتفك عن الإسلام وكتابه المبين. فاللغة

العربية لغة مسلمة مؤمنة لا تستقيم لك إذا أردتها على الفضيلة والخلق الحسن. ولعل هذا الروح الإسلامي الذي يتفرق في كتاب "الحديقة" هو الذي جعلها خير مجموعة أدبية أخرجت للناس في هذا العصر الأخير...

فقال الشيخ راسم: هذا هو السبب بلا شك، وأن هذه الحديقة التي تصفها لأخت "الفتح" أو هي خير منها، وأن هذه الآراء التي تراها في الأدب العربي لهي آراء موفقة صائبة، وأن الأدباء المحدثين في هذا العصر يجب عليهم جميعا أن ينحوا بالأدب العربي منحى إسلاميا شريفا مثل هذا الذي تتحوه "الحديقة" وإخوانها. وإلا يفعلوا هذا فإنهم يهونون بالأدب في هوة سحيقة مالها من قرار. وتكلمنا عن المبشرين المسيحيين، فقال راسم: لقد نشر المسيحيون الكاثوليك إحصائية عن حالة الكتلة في مراكش (المغرب الأقصى)، قالوا فيها أن عدد الكاثوليك في المنطقة الفرنسية بلغ اليوم سبعين ألف نسمة. وأن القسيسين بلغوا اليوم 72 قسيسا، وكانوا في سنة 1926 يبلغون 63 قسيسا فقط. والقسيسات (الأخوات) بلغ عددهن اليوم 240، وكن في سنة 1926 بلغن 150 فقط، ومدارس الآباء البيض كان تلاميذها 650، في سنة 1926، وبلغ عددهم اليوم 1502، وكان عدد الكنائس 33 في سنة 1926 وبلغ عددهن اليوم 58 كنيسة. وارتفع التقديس من 273، إلى 316،3.

وذكر لنا راسم أن شابا مسلما (ابن شيخ طريقة) في فاس قد تنصر وعاد اليوم راهبا، واحتفل به الكاثوليك احتفالات كثيرة، وحملوه معهم إلى رومة، وعمدوه هناك وقدسوه ثم رجعوا به إلى فاس ليكون مبشرا يبشر بالمسيح بين قومه وذوي قرياه. وكانت الجرائد الفرنسية في الجزائر ومراكش قد تناولت هذه الحادثة

ووصفتها وصفا شائقا وملأت علينا بها الدنيا فرحا وسرورا. أو قل أزعجتنا بها وملأت علينا الدنيا قلقا شديدا.

ولا يفوتنا هنا أن نذكر السبب في تتصير هذا الشباب المسلم، وذلك أن الكاثوليك قد استطاعوا أن يزعموا له أن المسيحية والتصوف الإسلامي شيء واحد، فإذا خرج من دين الإسلام إلى المسيحية، فغاية ما فعل أنه انتقل من مقام المسلمين (المحجوبين) إلى مقام الصوفية العارفين. والمعرفة والتصوف إنما هما المسيحية نفسها، هذا ما قالتها بعض الجرائد الفرنسية يومئذ.

وأخبرنا راسم أن راهبين اثنين من الرهبان المسيحيين قد تركا المسيحية ودخلا في الإسلام. وقال: إنه يعرفهما شخصا وأنهما اليوم في الرباط يلبسان لباس المسلمين المراكشيين. ولكن الشيخ راسما يرتاب بصدق كثير من هؤلاء الذين يدخلون في الإسلام. ولا يرى في أفعالهم ما يشهد لهم أنهم مؤمنون حقا، وعارضته أنا بأن المسلمين أنفسهم لا تشهد حالهم بأنهم مؤمنون حقا. وهؤلاء الذين يسلمون إنما أسلموا لأنهم تأثروا بالمسلمين، فلا يعقل أن يكونوا في إسلامهم خيرا من المسلمين.

وتكلمنا في الإصلاح الإسلامي فقلت له: إنني الآن اشتغل بوضع القانون الأساسي لحزب الإصلاح الديني حتى إذا فرغت منه عرضته على جماعة الإصلاح، وعقدنا اجتماعا عموميا لبحثه وتمحيصه، ثم عرضناه على الحكومة لتوافق عليه، واطلعت الشيخ راسما على مجمل هذا القانون، فقال إنه برنامج محكم

يمكن بكل سهولة تنفيذه بتدقيق، وهو كفيل برد جميع طبقات المسلمين في الجزائر إلى القرآن الكريم، وتوحيد كلمتهم عليه (القرآن)، وأنه بغير هذا لا يمكن لنا أن نجمع أشتات هؤلاء المسلمين.

وتحدثنا أحاديث أخرى في شؤون أخرى. وحدثنا عن مراكش أحاديث كثيرة حتى **جعلنا** أنا والشيخ الموقر السيد الحاج عبد القادر قدره جه ننوي السفر إلى مراكش لنطلع بأنفسنا على ما أخبرنا به راسم، فإنه "ليس من رأى كمن سمع..". ثم ودّعنا إلى الجزائر صاحبه السّلامة.

بيان (حديث...)*

كان الأستاذ الثقة الشيخ "عمر راسم" الجزائري حدثني عن مراكش حديثاً مستويا، فنشرت أنا في مجلة الفتح شجنا من شجون هذا الحديث، واقتصرت على ما يوافق خطة الفتح الدينية، وعلى ما يهم قراءها في سائر بلاد الإسلام أن يطلعوا عليه، أو على ما يجب أن يعرفوه على مراكش المسلمة الشرقية. وكان حديثاً مخلصاً لا غرض فيه، ولا يراد منه إلا خدمة الإسلام والمسلمين، وحديثاً واضحاً لا غموض فيه ولا إبهام. ومع ذلك فإن الأديب الفاضل الأستاذ أحمد عبد السلام بلا فريج قد تذر من هذا الحديث وقال: إن فيه تناقضاً غريباً، وإن فيه غموضاً، وعلل ذلك بأن مبدأ الإصلاح الإسلامي غامض في ذهن الأستاذ الشيخ "راسم".

وفي الحق أن هذا الحديث واضح غير غامض، وأن الأستاذ الشيخ "راسم" يفهم الإصلاح الإسلامي فهماً دقيقاً، وأنه من أول من نشر في هذه البلاد كتب الأستاذ الإمام، وبقية كتب الإصلاح الديني، ولا يعقل بحال أن يغمض مبدأ الإصلاح في ذهن راسم الذي لا يمكنني أن أحصي أعماله في سبيل الإصلاح الإسلامي في هذه الكلمة الوجيزة.

ليس الشيخ "راسم" من الذين يجازفون بالكلام، بل هومن الذين يضبطون ما يقولون، فهو يريد من حديثه أن مبدأ الإصلاح الإسلامي غامض في أذهان شبان الرباط في "الجملة". فحركة الإصلاح بينهم ما تزال فوضوية مبهمة، فمنهم المصلح، ومنهم الملحد الذي يتسمى مصلحاً.

* محمد السعيد، الزاهري، (بيان حديث)، مجلة الفتح، عدد 168، 7 جمادى الأولى 1348هـ، ص 6، 7.

وهناك بينهم من يذكر عبادة القبور وألوهية الأولياء والصالحين، ولكن منهم من يتتبع ويغلو فيذكر عبادة الله ونبوة الأنبياء ورسالة المرسلين، وهناك من ينكر البدع التي زيدت على الصلوات المكتوبة، ولكن آخر يسرف فينكر الصلاة المفروضة نفسها... وهكذا اختلط الإلحاد والإصلاح تحت اسم "الإصلاح الإسلامي".

هذا مراد الشيخ "راسم" من حديثه فإن كان حقا واقعا، فكذلك عرفت الشيخ راسما ثبتا في الرواية، وعرفته دقيق الملاحظة، مخلصا فيما يقول وإن كان غير ذلك فالله يعلم أنني قد تحريت صدق الحديث. على أن غير واحد من أدباء تونس الذين زاروا مملكة مراكش، ومروا بـ "تلمسان" قد حدثوني بمثل حديث الشيخ راسم ولا يمنعني من أن أنشر أسماءهم، إلا أنني لم أستأذنهم في ذلك. وأخرى فإني سمعت هذا الحديث من بعض أهل مراكش الذين يعرفون ما يقولون، فهل يمكن أن يقال أن مبدأ الإصلاح الإسلامي غامض في أذهان كل هؤلاء أيضا؟

أنا أعتقد أن في مراكش ملحدين متزينين بزى المصلين، كما أرى في الجزائر وتونس ومصر وأكثر بلاد الإسلام ملحدين من هذا النوع. وأعتقد أن كل هؤلاء الملحدين أواكث. هم على الأقل يهتدون إلى الرشد، ويتوبون إلى الله، لو أنهم وجدوا في المصلحين الحقيقيين دعاية جدية حازمة، تدعوهم إلى سبيل المؤمنين. ولهذا يتمنى الشيخ "راسم" لو يكون بين شباب الرباط أمام مصلح راشد يؤمهم في الإصلاح ويرد جماحهم، ويهديهم إلى سواء صراط. والعلامة المصلح سيدي "ابن العربي الملوي"، والعلامة الكبير "سيدي المدني بن الحسني"، والعلامة الجليل سيدي "أبو شعيب الدوكالي"، يعرفهم "الشيخ راسم"، لأن كل الناس يعرفون هؤلاء

الأعلام ولكنه لم يذكرهم - وهم أئمة حقا- لأن وظائفهم السامية، وما فيها من كثرة الأشغال تمنعهم من الانقطاع إلى نشر الإصلاح الإسلامي بين الناس، وكيف ظنك بوزير العدالة أو رئيس مجلس الاستئناف، هل يستطيع "مع القيام بأعباء مهمته الجلل" أن يتفرغ لنشر الإصلاح الإسلامي؟ ويجد من وقته متسعا للدعوة والإرشاد؟

وراسم يريد لشباب مراکش إماما مصلحا يتصل بالشبان ويتصلون به اتصالا دائما، وهؤلاء الأئمة الأعلام ربما اقتضت مناصبهم الرفيعة أن لا يتصلوا غالبا لا بالشبان ولا بغير الشبان.

وبعد فقد بلغنا أن من أكبر رجال الإصلاح الإسلامي في مراکش فضيلة العلامة الكبير سيدي محمد الحجوي وزير المعارف، وحضرة العلامة السلفي سيدي محمد المعمرى حاجب صاحب الجلالة مولاي محمد سلطان مراکش، وحضرة الأستاذ الفاضل سيدي أبي العباس أحمد بن محمد الأغواطي رئيس الترجمة بالإدارة الشريفة. وهناك غير هؤلاء العلماء الأعلام.

وهنا أرجومن الكاتب الفاضل الأستاذ سيدي أحمد عبد السلام أن يسمح لي بأن أصارحه بأنه وهم في فهم كلمة "غلو" من كلامي، وعلى هذا الوهم في الفهم بنى أكثر ما قال. فهو يفهم أن الغلو في الشيء هو شدة التمسك به. ويستغرب من الشيخ راسم لذلك أن يصف الشبيبة بأنها تجد في نشر الإصلاح، وبأنها كثيرا ما تغلوا على تشرف على الإلحاد والجحود. وبحسب أن هذا تناقض غريب من

الشيخ راسم، ويستدل على صحة هذا الفهم فيقول: "وهل الوهابيون وهم أشد القوم غلوا في نشر الإصلاح الإسلامي ملحدون؟".

وأنا لا أوافق على أن إخواننا المؤمنين السلفيين في نجد والحجاز قد غلوا في الإصلاح الإسلامي، ولا أصفهم بالغلو، لأن الغلو في الشيء هو الخروج عنه أو عن حدوده المشروعة. وإخوتنا في نجد والحجاز إنما يدعون إلى ما دعا الله إليه، لا يغلون في ذلك ولا يخرجون في إصلاحهم عن الحدود المشروعة. قال تعالى: {يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق}. فالكذب على الله من الغلو في الدين كما تدل عليه هذه الآية الكريمة، وقال تعالى: {ومن أظلم ممن كذب على الله...}. وكما يكون الغلو في الدين كذبا على الله يكون أيضا الغلو في الدين أو الإصلاح الإسلامي إلحادا وجحودا.

وكذلك وهم في فهم فقرة أخرى وهي قول راسم: "... والشبان يفيضون نشاطا وإخلاصا ولكن فهم كذلك بساطة وخفة ونزقا...". فظن المراد منها هو شباب مراكز خاصة، مع أنها كلمة صريحة في وصف شباب العالم أجمع، في جميع الأمم والعصور، من حيث أنه شباب، لا تحتل العبارة غير هذا المعنى.

وارتاب الأستاذ سيدي أحمد عبد السلام في خبر تنصر الشاب المسلم في فاس... وهو خبر ثانيته عن راسم وعن غيره، وسمعت ضجته منذ أكثر من سنة في الجرائد الفرنسية في هذه البلاد. وأنا أعتقد صحته. وقد أخبرني راسم أن كثيرا

من حوادث مراكش لا يطلع عليها إلا في الصحف الفرنسية بالجزائر، في حين أن صحف مراكش لا تذكرها ولا تشير إليها، "أيام كان بالرباط"

هذا ما أردت أن أجيب به عن الملاحظات التي نشرها الأستاذ أحمد عبد السلام بالإفراج في العدد:121 من الفتح تعقيباً على مقال حديث الشيخ راسم المنشور بالعدد:159 من الفتح. وما نشر لي في الشهاب والفتح عن شباب مراكش وحركته الإصلاحية المباركة يدل دلالة قاطعة على أنني شديد الإعجاب بذلك الشباب الزكي الحازم، وعلى أنني أتمنى له التوفيق والسداد.

المغاربة في المنطقة الاسبانية يوشكون أن ينقرضوا ويمحوا من الوجود

أكبر جريمة ترتكبها الفاشستية الطاغية.*

ليسمع العرب والمسلمون في جميع الأقطار، ملوكا وحكومات وشعوبا وجمعيات وهيئات وأحزابا الخ..الخ

لم يبق عندنا شك في أن الجنرال فرانكو قد أمر أخيرا بوقف كل الأعمال الزراعية في جميع المزارع والحقول والبساتين في كافة أنحاء المنطقة الاسبانية من المغرب الأقصى. ثم ساق هؤلاء العملة جميعا (وكلهم من العرب المسلمين) إلى جبهة القتال، وقذف بهم إلى جهنم الحمراء وهم كارهون.

وكان (فرانكو)¹ - قبل هذه التعبئة الجديدة - قد أخذ من إخواننا المغاربة سبعين ألفا يقاتلون في سبيله، وتأكلهم هذه الحرب المجرمة التي عليه وزرها.

لا يكاد يزيد سكان هذه المنطقة الاسبانية عن نصف المليون نفس، أخذ الثوار الأسبان منها سبعين ألفا، ثم أخذوا هذه التعبئة الجديدة الأخرى فماذا عسى أن يكون قد بقي فيها من الرجال؟

* محمد السعيد، الزاهري: (المغاربة في المنطقة الاسبانية يوشكون أن ينقرضوا ويمحوا من الوجود)، الفتح، العدد 538، 14 ذي الحجة 1355هـ، ص 15، 16.

¹ - من حكام اسبانيا، وصف بأنه كان دكتاتوريا

ليس صحيحا أن هؤلاء المغاربة يبذلون أنفسهم لفرانكوا بتغاء مرضاة الله ولكن أصحاب القمصان السوداء والسمراء يدعونهم إلى خوض الحرب دفاعا، يضربون وجوههم وأدبارهم، ويرغمونهم عليها بالحديد والنار.

لقد اعتقل فرانكو - لأول ما تمرد- من في المنطقة من الزعماء والرؤساء إلا الذين اشترى منهم أنفسهم وضمائهم، وأرسل على المغاربة الجوع الكافر بوضع يده الحديدية على كل ما في أيديهم من الأموال والأقوات، وجعلهم بين اثنتين: إما أن "يتطوعوا" للحرب تحت لوائه، وإما السيف والقطع، فذهبوا معه (متطوعين) راغمين، ومع هذا فالعدد الأكبر منهم إنما ذهبوا بصفة عملية كاسبين. وكم أخذ شيخا فانيا من شيوخ الريف الذين تزيد أعمارهم على الستين سنة بحجة أنهم كانوا مع المجاهد العظيم الأمير عبد الكريم، هم المثل الأعلى في الجهاد، وحسن البلاء، ويقضون مدة وجيزة في التمرين العسكري ثم يرسلون وقودا لنيران الحرب، على أنهم يتمرنون على الأساليب العسكرية بين يدي الرهبان الكاثوليك، فيباركهم هؤلاء المضللون، وينضحونهم بالماء المعمد، ويجعلون في أعناقهم الصليبان الصغيرة، ويرغمونهم على إقامة الطقوس الدينية الكاثوليكية، وهم عرب مسلمون. وكذلك القتلى من هؤلاء المسلمين لا يدفنون على مقتضى الديانة الإسلامية، بل يشيعون بالشعائر المسيحية إلى مقرهم الأخير.

وهم من الوجهة المالية في حالة يرثى لها؛ فهم حفاة عراة يبيتون في كثير من الأوقات على الطوى لا ينال الواحد منهم في اليوم والليلة إلا كسرة من الخبز وعلبة "سردين"، أو قطعة من لحم الخنزير من فضلات ما تصدره مصانع الألمان والطلبان، وحالتهم الصحية سيئة منحة لقلة العناية والإسعافات الطبية.

وقد يتساقط المغاربة صرعى مضرجين على جوانب قلعة، أو على أسوار مدينة، أو حول قرية فينتقدم العصاة الأسبان لاحتلالها على جثث المسلمين وعلى أشلائهم، وإذا جن عليهم الليل حشروا المغاربة الباقين على قيد الحياة في الحظائر وحجرات المدارس وقد جردوهم من أسلحتهم وأقاموا عليهم العسس والحراس من غروب الشمس إلى طلوعها، وينطلق العصاة الأسبان يفسدون في الأرض وينتهكون الأعراض والحرمات، وتصدر الصحف الفاشستية من الغد هاجمة على المغاربة بكل قسوة وعنف، مليئة بسب العرب وشم المسلمين زاعمة أنهم وحوش كاسرة يعتدون على النساء الاسبانيات، فتكون نتيجة هذه المفتريات سوق المغاربة هؤلاء إلى عذاب الحريق دون أن يذوقوا طعم الراحة أو يأخذوا كفايتهم من الاستحمام.

إن اللاجئين من عرب الريف الذين نجوا من رصاص حراس الحدود الاسبانية قد حدثونا بأن المغاربة في المنطقة الاسبانية يأتون من الأهوال والفجائع والملمات والفظائع ما يجعل الولدان شييا وما يذيب الأنفس حسرة وكمداء، وما لا يصفه قلم ولا لسان مهما كان بليغا. لقد أكدوا لنا أن جنود فرانكو ورجاله من الألمان والاطليان يرهقون المغاربة ويسومونهم سوء العذاب، يستحيون نساءهم ويبعثون بأبنائهم إلى السعير. ولم يرجع مطلقا ولا شخص **واحد** من جميع المغاربة الذين عبروا البحر إلى اسبانيا ليحاربوا فرانكوواوليشغلوا له منذ بداية الحرب إلى الآن. نعم قد حصلوا ما حصل أولياؤهم على كميات من البنكتوت الألماني الذي يطل به... وأكدوا لنا أنه لم يكذب يسعى في الريف إلا النساء المغربيات من عدة

ثورات قامت في وجه فرانكو، ولكنه قمعها بلا رأفة ولا رحمة، وأن رجال فرانكو وأعدائه يعيثون في الريف ويرتكبون موبقات. وهنا يضيق صدري ويتعلق لساني

إنَّ العرب المسلمين في الريف يسرعون الخطى إلى الفناء الشامل، والعلم العربي والعالم الإسلامي كلاهما لا يحرك ساكنا، يخدع بالدعاية الفاشستية الكاذبة وبالتضليل الاستعماري حتى أن بعض الصحف العربية الكبرى قد ابتهجت باستقلال الريف المزعوم كأمر واقع، مع أنه أمر لا يمكن أن يكون. ففرانكوالذي فتك بقومه هذا الفتك الذريع ليسلب من أمته حريتها ويستعين بالأجنبي على قهرها وإذلالها وهي من دمه ولحمه لا يجوز أن يتفضل على الريف العربي بالحرية والاستقلال. لا خير لأهل الريف في هذه الحرب إلا أنهم يحتملون ما فيها من المغارم والويلات كيفما كان المصير.

لا ينبغي للعرب ولا للمسلمين أن يسكتوا وإخوانهم المغاربة ينساقون إلى الموت وهم ينظرون. إننا استقنا هذه الأخبار من إخواننا اللاجئين ومن المصادر الموثوق بها، ونحن هنا في وهران (الجزائر) على مرمى السهم من المغرب الاسباني. وليرسل العرب المسلمون إلى الريف لجنة تحقيق إن لم يؤمنوا بهذا الحديث. يجب على العرب وعلى المسلمين أن يحولوا بين إخوانهم عرب الريف وبين هذه الهوة التي مالها من قرار.

ج - الرسالة

مكانة مصر في المغرب العربي*

يشاع اليوم في الجزائر أن الآنسة أم كلثوم قد أزمعت أن تقوم بسياحة في بلاد المغرب وأن حكومة مراكش قد رفضت أن تسمح لها بدخول المغرب الأقصى قالوا لذلك هدأت الآنسة عن زيارة المغربيين الآخرين (الجزائر و تونس) وهذه هي المرة الرابعة التي نسمع فيها هذه الإشاعة تتردد في أرجاء المغرب العربي وتكون مشغلة الرأي العام فيه ويهتم لها الناس ويندفعون في شرحها والتعليق عليها بمختلف الآراء والأقوال: فهذا يقول لقد أحسنت السلطات بذلك إلى أهل مراكش ووفرت عليهم أعراضهم وأموالهم بمنع المطربة المصرية من دخول هذه البلاد، إذ لوان هذه الآنسة زارت مراكش لملكت على أهلها قلوبهم وأهواءهم، ولذهبت بعقولهم وألبابهم: واستولت على أموالهم وعلى ما كسبت أيديهم، ولكانت عليهم في الآخر نكبة مالية كبرى لا تقل في فداحتها وقسوتها عن هذه الضائقة المالية التي أهلكت الزرع والضرع وأضافت وأخذت بمخانق الدنيا كلها. وذلك يقول لقد ضيقت السلطة بذلك على المغاربة حريتهم الشخصية ومنعتهم مما تهوى إليه أنفسهم وحالت بينهم وبين ما يشتهون. وهنالك آخر يقول غير هذا.

مهما اختلف الناس في تفسير هذه الإشاعة وفي تأويلها فإنها تدل على شيء واحد وهوان هذه الآنسة قد غزت بصوتها الملائكي الطروب قلوب هؤلاء

* محمد السعيد الزاهري: (مكانة مصر في المغرب العربي) مجلة الرسالة، عدد 135، 1936م، ص6

الناس، وأن منزلتها في بلاد المغرب العربي لا تقل عنها في مصر، وأن المغاربة يتذوقون فنها وغناها كما يتذوقهما المصريون.

قالت مجلة «السلام»¹ الغراء التي كانت تصدر في مدينة "تطوان" في بعض أعدادها إن المغاربة مولعون بالموسيقى المصرية وبالتلحين المصري إلى حد الهيام، حتى أن العوائق في خدورهن ليهتفن بأم كلثوم، ويترنمن بألحانها وأغانيها. ولقد رأينا بعض المراكشيين المشهورين بالتدين والصلاح قد طرب وانشرح ونسي أنه من أهل الورع والتقوى، ولم يزل به الطرب والانشراح حتى خرج من رزاقته ووقاره إلى حالة من الخبث والطيش يشبه أن تكون جنونا، وذلك حينما سمع في «الفونوغراف» صوتا للأستاذ محمد عبد الوهاب. ولا تجد في المغرب الأقصى دارا فيها «فونوغراف» إلا وتجد كل أسطواناتها أو جلها مصرية لأم كلثوم وعبد الوهاب وسامي الشوا ومن هؤلاء. وتباع الأسطوانات المصرية هنا بثمن مرتفع قد يفوق ثمنها الأصلي أضعافا مضاعفة. ولقد مرت علينا أيام رأينا فيها أسطوانات أم كلثوم وعبد الوهاب تباع الواحدة منها بثلاثة جنيهات انكليزية قبل هبوط الإسترليني.

والواقع أن الألحان والأغاني المغربية التي كانت إلى عهد قريب منتشرة شائعة في المغرب العربي قد اختفت اليوم من الميدان، و تخلت عن مكانتها من الذوق المغربي العام لألحان مصر وأغانيها، ولا نستثنى هذا التراث الذي بقي بأيدينا من فن الأندلس وغنائها فقد ترحزح هو الآخر عن مكانه للغناء المصري وترك له المجال واسعا فسيحا. ولما أعلنت الحكومة المصرية أنها ستفتح في

¹ - مجلة تصدر في المغرب الأقصى

القاهرة محطة للإذاعة اللاسلكية تهالك الناس في الجزائر وتونس ومراكش على أجهزة المذياع (الراديو) يشترونها ويقتنونها رجاء أن يستمتعوا بسماع ما تذيعه مصر من الأغاني والمحاضرات، ولكنهم عادوا فجعلوا يبيعون أجهزتهم ببعض قيمتها عند ما تبين لهم أن المحطة المصرية لم تكن محطة عالية يمكنهم سماعها.

كل هذا دليل على أن الذوق العام في بلاد المغرب العربي هو نفس الذوق العام في مصر ليس بينهما شديد خلاف. ولعل تونس ومراكش هما أرقى من هذه الناحية، فالحياة فيهما مترفة ناعمة تؤثر الطرب والسماع، وتميل إلى الهوى والاستمتاع، بخلاف الجزائر فإنها عريقة في البداوة والأمية، لا تزال تغلب عليها حياة العشائر الأولى، تشعر القبيلة فيها بأنها قبيلة وكفى، تشعر بأنها شعبة من الجزائر فضلا عن أن تشعر بأنها قبيلة وكفى، وقلما تشعر بأنها شعبة من الجزائر فضلا عن أن تشعر بأنها من الأمة المغربية أو الأمة العربية الكبرى. ولعل مدينة وهران قد ضربت الرقم القياسي في البداوة والأمية وفي البعد عن العالم العربي دون أنحاء الجزائر كلها، ومع ذلك فكل مقهى من مقاهيها، وكل بيت عربي فيها، فيه «فونوغراف» لا يخلو من الأسطوانات المصرية، وإننا لنسمع فيها الأنغام السانجة البسيطة التي تحاكي رسيم النجائب وخبب الجياد إلى جانب الفن والإبداع في أنغام أم كلثوم و عبد الوهاب.

ولما عرض فيها للمرة الأولى الشريط المصري «أنشودة الفؤاد» أقبل عليه هذا الجمهور العربي في وهران إقبالا منقطع النظير طيلة ثلاثة أسابيع، وبعد بضعة أشهر عرض المرة الثانية واستمر عرضه ثلاثة أسابيع أخرى فكان الناس

إلى الحفلة الأخيرة يتدافعون إليه بحماسة وشوق لا نظير لها حتى أن منهم من شاهد عشر مرات!

وعندما أزمعت فرقة مصرية للتمثيل الهزلي أن تقوم برحلة في بلاد المغرب قالت عنها جريدة مصرية محترمة إنها ستبوء بالفشل الذريع، وستنقع من الغنيمة بالإياب، وأنها على الأقل ستكابد في مهمتها ألوانا من المشقة والعناء ما لم تترجم مسرحيتها من اللغة المصرية إلى اللغات المغربية، وقامت هذه الفرقة برحلتها و نجحت في مهمتها نجاحا باهرا لم يكن يخطر لها على بال، وتذوق المغاربة رواياتها وفكاهاتها. وأدركوا مغزى «النكتة» المصرية من ملهياتها من غير أن تضطر إلى ترجمة كلمة مصرية واحدة إلى اللغات المغربية، وبعبارة أخرى إن هذه الفرقة وجدت نفسها في بيئة عربية مغربية لا تختلف عن مصر إلا كما تختلف الهيئة المصرية نفسها باختلاف المديرية والأقاليم، ووجدت أن كل ما يقال من وجود لغة مصرية ولغات مغربية هومن الأوهام الباطلة التي لا أصل لها، وإنما يوجد لسان عربي واحد تتكلمه الشعوب العربية (مصر وأخواتها) بلهجات تختلف اختلافا لا يحول دون التفاهم بين الناطقين بالفساد، ولا توجد في الدنيا لغة إلا ولها لهجات تختلف فيما بينها اختلافا كثيرا أو قليلا.

وكثير من المغربيين يعتقدون أن الشعوب العربية تتكلم اليوم لغات مختلفة متباعدة فيما بينها، وبعيدة كل البعد عن اللغة العربية الفصحى التي أصبحت في نظره لغة مواتا. كما أن الشعوب اللاتينية تتكلم اليوم لغات متباعدة فيما بينها جدا حتى لا يمكن للفرنسي أن يفهم الإسبانية أو الإيطالية دون أن يتعلمها، وهذه اللغات هي الآن بعيدة عن اللغة اللاتينية التي هي أصلها.

وفي هذه الأيام نشرت صحيفة فرنسية تصدر بالجزائر مقالا من الحج إلى بيت الله الحرام عنوانه: «اللغة الفرنسية في مؤتمر مكة» زعم فيه كاتبه أن حجاج الجزائر ومراكش وتونس طرابلس ومصر وسوريا ولبنان وفلسطين والعراق سيتفاهمون في «مؤتمر مكة» لهذا العام باللغة الفرنسية، لأن لكل فئة من هؤلاء الحجاج لغة قومية لا يفهمها الآخرون، ولأن الفرنسية منتشرة بين بين جميع الطبقات في هذه الأقطار. وأبى أن يرجع إلى الصواب إلا بعد أن رأى بعينه وسمع بأذنه بحارة مصريين يتحادثون مع بعض العملة الجزائريين والمراكشيين من غير أن يكون بينهم ترجمان!

وكان عالم فرنسي من علماء المشرقيات جاء بلاد المغرب مندوبا من وزارة المعارف الفرنسية لدرس اللهجات العامية المغربية، فلبث في هذه البلاد يبحث ويدرس ويستقرئ، ثم رفع إلى الوزارة تقريرا بالنتائج التي انتهى إليها في دراسته وأبحاثه، ونشر هذا التقرير وأطلعنا عليه فإذا هو مملوء بالأغاليط والأضاحيك، فقد زعم فيه أن عربيا تونسيا تزوج فتاة عربية من بجاية (الجزائر) فلم يستطع الزوجان أن يتفاهما. لتباعد لغتيهما القوميتين - إلا بالفرنسية التي لم تكن تلم بها الزوجة إلا إماما قليلا. والحق أن هذا التقرير هو دعوة صريحة إلى إيجاد فروق بين اللهجات المغربية وإلى تجسيم ما يكون منها موجودا بالفعل.

وحدثني ذات يوم فنان فرنسي قال: «كنت أعتقد أنه لا بد أن يأتي يوم على المغاربة يصيرون فيه فرنسيسا خلصا من حيث تذوق الفن والشعور بالجمال، غير أنني رجعت الآن عن اعتقادي هذا، فقد مضى على فرنسا في الجزائر مائة وبضع سنين لم تستطع أثناءها أن تجعل العرب الجزائريين يقبلون على الأفلام

الفرنسية، أو يطربون لسماع عازف فرنسي مهما كان محسنا بارعا، أو يتذوقون غناء فرنسيا مهما كان منسجما ساحرا يستهوي القلوب ويأسر الألباب، على حين نرى المغاربة جميعا يقبلون الإقبال الذي لا نظير له على الأفلام المصرية وتستهوهم مصر بأنغامها وأغانيها، ويعجبون الإعجاب كله بالفنانين المصريين». ثم قال: «ولقد راعني إقبال هؤلاء الناس على شريط الوردة البيضاء وتهالكهم على مشاهدته، فشاهدته أنا أيضا، ولكنني لم أجد في هذا الشريط ما يعجبني على أن جميع من في المسرح كانوا يشاهدون عبد الوهاب وكأنما هو ملك كريم قد هبط إليهم من السماء، وينصتون لصوته وكأنما هو نغم إلهي ينزل عليهم من الملاء الأعلى».

وما من شيء له أثر في حياة المغرب العقلية والاجتماعية إلا و هو مصري غالبا، فمثلا كتاب «مختصر خليل» في الفقه الإسلامي على مذهب الإمام مالك ابن أنس هو كتاب مصري قد جعل أفئدة من الناس في المغرب تهوى إلى مصر، له منزلة سامية في قلوب المغاربة يخصونه بكثير من التقديس والاحترام، ومنهم من يتعبدون بتلاوته كما يتعبدون بتلاوة القرآن الكريم؛ ولم يعد خافيا أمر ذلك الفقيه المرحوم الذي كان يصلي «النافلة» بهذا الكتاب ويقوم به الليل عابدا متهجدا. ولا أذيع سرا حين أقول إن هذا «المختصر» لا يزال له إلى الآن في كلية القرويين بفاس «حزابة» كما للقرآن «حزابة»، وهم يتقاضون أجورا أوفر وأسمى مما يتقاضاه «حزابة» القرآن العظيم؛ ولتلاوته هذه الراتبه أوقاف كما لتلاوة القرآن أوقاف. وفي بلاد المغرب طبقة من المحافظين يقولون عن أنفسهم إنهم «خليليون»، وأهل المغرب جميعا هم مالكية ما عدا وادي ميزاب بالجنوب

الجزائري وجربة بالقطر التونسي، فإن أكثر أهلها أباضية، ولكنهم قليلون جدا فعددهم لا يتجاوز الخمسين ألفا، بينما تمد الجزائر وتونس ومراكش من الأنفس خمسة عشر مليونا يجلون هذا الكتاب ويرفعونه إلى أعلى مقام، حتى النساء في خدورهن لا يفصل الخصومات التي تثور بينهم إلا الحلف بهذا الكتاب!

ولا يزال المغاربة ينظرون بين الاعتبار إلى كل من طلب العلم بالأزهر الشريف، ولوانه كان قليل التحصيل، ويحترفون بالفعل لكل من أقام في مصر أو رآها.

وفي بلاد المغرب طرق صوفية منتشرة بين سائر الطبقات لها أكبر الأثر في المقاعد والأخلاق، أكثر هذه الطرق مستمد من الشيخ البكري المصري، فأتباع هذه الطرق ومريدها يحبون البكري يرون لهم فيه « الشيخ الممد » فيرفعونه فوق كل الاعتبارات.

وما أنت بواجد ولا مغربيا واحدا إلا وهو يحفظ كثيرا أو قليلا من شعر ابن الفارض الصوفي المصري المشهور.

وكل حركة دينية أوادبية في مصر لها صداها القوي في هذا المغرب العربي، فلأستاذ المرحوم الشيخ محمد عبده المصري أنصار ومريدون. وفكرة الإصلاح الإسلامي التي كان يدعوا إليها أصبحت اليوم في الجزائر مذهباً اجتماعياً تعتنقه الكثرة الكثيفة من الناس وتقوده « جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ». وكل أديب كبير في مصر له أنصار وأشباع في بلاد المغرب، فلأديب الإمام الأستاذ مصطفى صادق الرافعي أنصار ومعجبون وهو أكثر الأدباء المصريين تلامذة

وقرآن في هذه البلاد. وللمرحوم قاسم أمين أنصار يدعون المغربيات إلى السفر وترك الحجاب، غير أن دعوتهم لم تجد ملبيا ولا محببا فأخفقت إخفاقا شديدا، وللزعماء المصريين منازلهم في قلوب الناس هنا. والمطبوعات المصرية تحتل المقام الأول عندنا، سواء في ذلك الصحف والكتب والمجلات، والصحف المغربية لكثرة ما تروى عن مصر وما تنتشر من أخبارها تكاد تكون طبعات مغربية لزميلاتها المصريات. على أن هذه الصحف المصرية الكبرى لا تهتم لبلاد المغرب إلا قليلا، ولا تتكلم عنها إلا كما تتكلم عن الجهل من المجاهل التي لم تطأها إنسان، فمن خلط في أسماء المدن المشهورة بالغرب وفي أسماء الأشخاص البارزين إلى حوادث تحوكتها عن المغرب وتخبط فيها خبط عشواء.

ويقول الشبان المغاربة الذين يطلبون العلم في جامعات فرنسا أنهم تعرفوا إلى الطلبة السوريين فعرفوا فيهم العروبة والاعتزاز بها ووجدوا عنهم إخوانهم وذوي قرياهم، وتعرفوا إلى الطلبة المصريين فعرفوا فيهم رقة الشمائل ودمائة الأخلاق وما شئت من لطف وأدب، وأنكروا منهم هذه «الفرعونية» الجافية التي تجعلنا وإياهم كما قال شاعر العروبة الأستاذ إبراهيم طوقان:

أحب مصر ولكن مصر راغبة عني فتعرض من حين إلى حين

إن تاريخ هذه البلاد حافل بالشواهد والبيانات على أن المغرب يرتبط بمصر منذ العصر الحجري بكثير من روابط النسب والحضارة والدين.

وإن الذي هو ما بيننا وما بين مصر لمحض النسب

رباط العروبة يجمعنا ويجمعنا ديننا والحسب

ولكن هل يمكن أن يبعث من جديد ما كان بين المغرب ومصر من الروابط
وصلات القربى.

صورة من المجتمع الجزائري

إني أرى في المنام!*

خرج من السوق خائباً مكتئباً، ملامحه عليها غبرة ترهقها قنطرة، تدل على ما يأكل نفسه من الهمّ القاتل، والحزن العميق، يحمل في إحدى يديه (قفة) فارغة لا شيء فيها، وفي الأخرى (سبحة) غليظة جداً، وهو يقول بصوت واضح مسموع: (هذا ما يريد لي فلان، وهذا ما يريد لي فلان...) وذكر ناساً بأسمائهم من رجال الإصلاح الإسلامي في الجزائر، ومضى يردد ما يقول إلى مسافة بعيدة من السوق.

هو (شيخ) لإحدى الطرق الصوفية في هذه البلاد. قد وهن العظم منه واشتعل الرأس شيباً. تراه فترى وجهاً كالحا مسنوناً، ولحية قذرة صفراء كان دخاناً كثيفاً لا يزال يتعهدا ويغشاها من حين إلى حين. كان يعتقد طريقة صوفية، فلما لم يجد فيها معاشاً تحول عنها إلى طريقة أخرى يعيش فيها حميلة أحبابها ومعتقيها، فلا يدع وليمة ولا جنازة لأحدهم إلا هرولاً إليها متعرضاً لما قد يكون فيها من صدقات أو نفحات. ولقد مرد على هذا الأسلوب من التكسب فأقتنه وتفنن فيه، فهو بيت العيون والأرصاد يتنسمون له أخبار الأفراح والأتراح، ويرسل في المدائن حاشرين يأتونه بالزوار والمريدين يرجون مغفرته ويلتمسون منه البركة والخير! ويرتكب هؤلاء الدعاة الذين يدعون الناس إليه ضروباً من الترغيب

* محمد السعيد، الزاهري: (صورة من المجتمع الجزائري إني أرى في المنام!)، مجلة الرسالة، عدد 145،

والترهيب، فينحلونه المناقب والصالحات، والخوارق والمعجزات! فيزعمون (أن من يطيع الشيخ فقد أطاع الله) وأن الرسول (ص) لا يفارق الشيخ طرفة عين، وأن من اتبع الشيخ فجزأؤهم عند ربهم جنات عدن يدخلونها، وأن من خالفه مأواهم النار وبئس المصير.

وقفوا ذات يوم على فاكهي وقالوا له: إن شيخنا يقرئك السلام ويقول لك: يا بني، إني أرى في المنام كأنك تتخبط في ضحاح من النار وأنت تستغيث فلا تغاث حتى استغثت بي، وذكرتي باسمي فأخذت بيدك، وأنقذتك من الهلاك. وتعبير هذه الرؤيا هوانك رجل قد غرق في ذنوبه وخطاياها، ولا خلاص لك إلا بأيدينا... ثم لا يزال هؤلاء بالرجل يزينون إليه الشيخ، ويحثون على زيارته، حتى يقع في الفخ، ويزور الشيخ ويأخذ عنه (الوسيلة). وهنا يصير مريداً ممن يرزقون الشيخ، ويؤدون إليه كل ما هو في حاجة إليه من طعام وشراب ومن نقود ومتاع.

ولقد مد الشيخ أحبولته مرة أخرى فاصطاد رجلاً مخلصاً بسيطاً، طيب القلب. يقال له (علاّل)، وكان هذا عاملاً مجداً يدر عليه عمله كسباً وفيراً، وخيراً كثيراً. وكان سمحاً كريماً، فكان يرزق الشيخ ويقوت عيال الشيخ، ويجزل له العطايا والهبات. فلم يكن يشتري لنفسه شيئاً إلا اشترى مثله للشيخ، ولا قضى لنفسه حاجة إلا قضى للشيخ حاجة مثلها، فإن اشترى لنفسه رطلاً من البن أو العنب اشترى للشيخ من ذلك رطلاً أو رطلين اثنين، أو فصلّ لنفسه عباءة فصل للشيخ عباءة أحسن منها وأغلى وهلم جرا.

واتفق أن صاحباً لعلال قدم من الحج فأهدى إليه عمامة حجازية من الحرير الغالي، فأهداها بدوره إلى شيخه، وأن صاحباً له آخر قدم من فاس فأهدى إليه (جلابة) من القماش الرفيع الذي يلائم مرح الشباب، ولا يصلح للشيخ الفاني، وأراد الرجل أن يرتديها فتذكر الشيخ فاشترى له (جلابة) تتناسب الشيخوخة ووقارها بقيمة تفوق قيمة (جلابته) الأولى، وارتداها في يوم الجمعة، وما هي إلا أن رآها الشيخ عليه حتى أرسل إليه من يحثونه على أن يهديها إليه، فانتزعها لفوره من على ظهره ووهبه إياها. فأرسل الشيخ بالعمامة و(الجلابة) إلى السوق فباعهما ببعض ثمنهما؛ وشهد (علال) صفقة البيع، وظن أنهما سرقتا من الشيخ فسأل الدلال عنهما فأخبره بالواقع، فكبر عليه أن تباع (هديته) وهو يسمع ويرى، فاشترهما للمرة الثانية، وجعل يحدث نفسه ويقول: ترى أبلغ من هواني على الشيخ أن يبيع ما أهديه إليه؟ وما هو مصير هدياتي الأخرى؟ أم بلغ من هوان الشيخ علي نفسه أن يتاجر بما يهدي إليه الناس؟ وعلى أية حال فأنا لا أرضى لنفسي هذا المصير. وأحس الشيخ أن الرجل قد بدا يتتكر له ويجفوه، فخشي أن يفلت من يديه، ويولي عنه مدبراً. فعزم في نفسه أمراً، وعزم أن يلعب آخر دور في الرواية، وكان يعلم أن عقيلة علال تملك حلياً ومصوغاً ومبلغاً من المال، فدبر للاستيلاء على ذلك حيلة من عمل الشيطان، فبلغ بها ما أراد. وذلك بأن أرسل إليها نساء ماكرات من اللاتي قد أعدهن لمثل هذا الأمر، فقلن لها: إن سيدنا يقرئك السلام، ويقول لك يا بنيتي إنني أرى في المنام أنك كنت مضطجعة نائمة، فجاءت امرأة أخرى فاختطفتك منك غطاءك الذي يغطيك وكان من الحرير الأبيض بياض الثلج، فوثبت أنت من سريرك فزعة مذعورة تستغيثين وتملئين الدنيا ولولة

وصياحاً: غطائي! ستري! غطائي! ستري! فاجتمع عليك خلق كثير، فكان اجتماعهم هذا ضغناً على إبالة، وزاد في مصابك ولوعتك أن أحداً منهم لم يتقدم لإغاثتك، حتى جئت أنا وانتزعت من الغاصبة غطاءك ورددته عليك. ثم قلن لها إن تعبير هذه الرؤيا هوان امرأة أخرى ستأخذ منك زوجك ولا يرده عليك سوى سيدنا، وهو يستطيع أن يدفع عنك هذا البلاء سلفاً من الآن، بشرط أن تدفعي إليه ثلاثة آلاف فرنك مقدماً. فرجعت السيدة إلى نفسها تبحت حياتها الزوجية فلم تعثر على أدنى شيء ينبئ بصدق هذه الرؤيا فلم تطاوعها نفسها أن تتهم زوجها ظلماً بغير حق أو أن تظن به الظنون، وهي ما علمت عليه من سوء. فلم تكثر لهذه الرؤيا، وقالت إنها أضغاث أحلام. ولكن الشيخ كان جاداً غير هازل، فدسّ إلى فتاة من الفتيات اللاتي ينتمين إليه من أوهمتها أن الشيخ قد دعا الله لها أن يرزقها زوجاً كريماً، وأن الله قد استجاب له فيها، وقال: إني أرى في المنام أن فلانة قد زُفت إلى علال في احتفال رائع مهيب. وكانت هذه من الآنسات العانسات. ففرحت وأعطت الشيخ من العطاء الجزيل ما أرضاه، وجعلت منذ ذلك اليوم تعرض لعالل، وتبدي له من زينتها تفتته وتغريه حتى وقعت من نفسه، ومال إليها، وشرع الشيخ يمهد لها الطريق، فدسّ إلى علال من يهدمون عليه أسرته الهائلة السعيدة، ويملاون سمعه بما يفرقون به بين المرء وزوجه. وما هي إلا أن وقع بين الزوجين خلاف بسيط حتى أخرج علال أم ولده من دارها وأطلق سراحها. وسرعان ما التفّ به أعوان الشيخ وأحكموا الصلة بينه وبين الفتاة العانسة، وعقدوا له عليها من ليلته عقدة النكاح.

وأتى على المطلقة حين من الدهر تجرعت فيه طعاماً ذا غصة وعذاباً أليماً، وذاقت من مصائب الدهر وأرزائه ما لا يعلمه إلا الله، فلقد خسرت زوجها على حين غفلة، وهي أشد ما تكون حباً له واطمئناناً إليه، وإخلاصاً له وحداً عليه. وهي تخشى أن ينتزع وحيدها من بين أحضانها، وهي لا تطيق أن تتحطم سعادتها وهنائتها ليتم هناء عدوتها؛ ولقد فكرت في الانتحار، وهمت به مراراً لولا إبقاؤها على وحيدها، ولكنها التجأت أخيراً إلى الشيخ مدعنة طائعة، قد أسلمت له وجهها، وفوضت إليه أمرها، ترجوه أن يعيد إليها زوجها، وله بعد ذلك ما يشاء ويختار، فرفع القيمة هذه المرة، وجعلها عشرة آلاف فرنك تدفعها إليه نقداً. وبعد توصلات ومساومات رضي، فتسلم منها خمسة آلاف نقده إياها، وباعت فيها بعض ما تملك من حلي ومصوغ. وقعدت في دارها تنتظر النتيجة على أحر من الجمر.

وظفق الشيخ يتودد إلى (علال) ويلطفه حتى نسي الماضي القديم، وأحلّه من نفسه محل الثقة والرضى. وما استيقن الشيخ من الرجل حتى قال له ذات يوم - وهما على انفراد -: يا بني إني أرى في المنام أنك لست بخير في أهلك هذه التي لم تتعظ بكونها قضت زهرة أيامها عانسة بانرة، فقد حادت عن طريق الشرف والاستقامة من غير أن تحفظ لك غيباً أو تعترف لك بجميل. وأنا كما تعلم إذا رأيت الرؤيا جاءت كفلق الصبح. وكان الشيخ قد أوعز إلى بعض أعوانه فأخبروا علالاً بأن عرضه أصبح مضغة في الأفواه، تلوكه السنة السوء، وأن النساء في الحمامات وفي الولايم والمناحات يسلقن أهله بالسنة حداد. فما كذب الرجل فيما سمع، وأسرع إلى (خيرة) ففك عصمتها وأعلنها بطلاقها، وهي ما تزال

بعدُ عروساً في خدرها، ولم ينصل خضابها. وغدا عليه الشيخ في وجوه من أعوانه وشركائه يتوسل إليه أن يراجع زوجته الأولى، ويقول له: يا بني إني أرى في المنام أن جبريل عليه السلام قد زوجكها من فوق السموات العلى، فأذعن الرجل، ولم يكذب ينقضي يومه ذاك حتى كانت قد جلّيت عليه مرة أخرى.

لقد اطمأنت (خيرة) إلى الأيام، وحسبت أن زواجها هذا قد جعل حداً لوحدها وشقائها، وظنّت أنها بهذا الزواج مقبلة على حياة منزلية هائلة سعيدة لا حزن فيها ولا عناء فإذا بها تتلقى هذه الصدمة العنيفة القاسية الأليمة التي لا رحمة فيها، فتملاً نفسها حيرة واضطراباً، وتملؤها ظلمة ويأساً، فلم تطق الصبر ولا الاحتمال، فتحق وتثور انتقاماً لنفسها، فإذا هي تتقم من نفسها، وقد ضلت السبيل، واندفعت في الغي وسقطت في الهوة التي لا قرار لها.

وأراد الشيخ أن يحج إلى بيت الله الحرام لا إيماناً واحتساباً لأنه ممن يزعمون أن زيارة الضريح الفلاني تعدل عند الله ثواب حجة وعمرة معاً؛ ولكنه يريد التكسب والارتزاق، فطاف على الناس يستعينهم على الحج، فيزعم لهذا أنه سيدعوله الله تعالى عند البيت المحرم، ويزعم للآخر أنه سيستغفر له عند مقام إبراهيم، ويتناول على ذلك أجره سلفاً. أمّا الذين يستلم منهم سلفاً أثمان (الأردية) و (العائم) و (السبحات) وما إلى ذلك مما سيحمله فهم كثير جداً لا يكاد يأخذهم إحصاء. وانتهى به المطاف إلى ضحيته خيرة فدخل عليها وهي في منزلها، وقد أثرت في حياتها الجديدة الماجنة وأصبحت ذات مال فخلت لمرآه وأدركها الحياء، غير أنه أخذ يزين له اما هي فيه، ويزعم لها أن الله قد غفر لها ما اكتسبته من الخطيئة والإثم. وقال لها: يا بنيّ إني أرى في المنام أنني أن سيد الوجود(ص)

يقول لك: طوفي بالببيت العتيق وزوري قبري تخرجي من ذنوبك كيوم ولدتك أمك، فإن لم تستطيعي إلى الحج سبيلا فليج عنك هذا الرجل الصالح (يعني الشيخ نفسه). ولم يزل بها حتى آمنت له ودفعت إليه سائر النفقات ليحج عنها، فلما آب جاءها ببعض الهدايا مكتوبا عليها: إلى الحاجة خيرة.

كان الناس في بحبوحة من اليسر والخير، تملأ ايديهم الدراهم والدنانير، فكان الشيخ في نعيم وعيش رخم، يأتيه رزقه من كل مكان: هذا يعطيه رطلا من اللحم ويجعله له راتبا يوميان وذاك يعطيه شيئا من الخضر والفواكه ويجعله له عطاء غير مجذوذ، وذلك يهدي إليه قنطارا من السميد، ويجعلها له جراية شهرية وهكذا الخ الخ. فكان إذا دخل السوق خرج منها وقفته ملى - مجانا - بكل ما هو في حاجة إليه. فلما أعسر الناس وضافت عليهم الأرض بما رحبت، وضافت عليهم أنفسهم من شدة ما يعانون من ضنك وضيق نصبت موارد الشيخ، وانقطعت عنه الرواتب والعطايا، ولم يعد يملأ قفته بالمجان، ولم يعد يلتمس لنفسه صدقة جارية عند أحد الباعة إلا وجدها قد بطلت. وقطعت الأزمة دابرها، فالأزمة إذا هي السبب الأول في مصاب هذا الشيخ، وزملائه من الأشياخ، فإن كان لابد لهم أن يلوموا فليلوموا هذه الأزمة الخانقة، وليلوموا بعدها هذه الفطنة الشاملة التي شملت الدنيا كلها، ثم يأتي بعد ذلك دور هؤلاء المصلحين.

د - المقتطف

هل البربر عرب ؟

وهل لغتهم لغة الضاد أخرى؟*

قال الشيخ أبو القاسم: زارني ذات يوم مستشرق فرنسي كان ضابطا في الجيش ثم أحيل على المعاش، ولم يكد يستوي جالسا حتى قال: لقد أتيتك اليوم مستقهما سائلا. فقلت: حبا وكرامة، ولكني أرجومن فضلك أن لا تسألني عما ليس ل سبه علم. قال: سأسألك عن مسألة من مسائل التاريخ، قال فقلت: ومن قال لك أنني من المؤرخين؟ قال: أنا سأسألك عما تعلم، وما أريد أن أشق عليك. قلت: سل، قال إن المؤرخين العرب الذين بحثوا عن أصل البربر قد ذكروا كل مذهب، و نقلوا كل قول في هذا الموضوع، ثم عطفوا على ذلك كله بالنقد والتمحيص فنفوا ما نفوا واثبتوا ما أثبتوا، ولكن مذهبا واحدا قد أهملوا، فما تكلموا عنه ولا أشاروا إليه، و هو مذهب الذين يرون أن البربر هم من أصل "لاتيني" فهل تعلم لماذا أهملوه؟ و هل أهملوه متواطئين؟ قلت: لعل ذلك لأنه لا يزال حديث العهد، وليس المؤرخون العرب هم الذين أهملوه وحدهم فقد أهملهم من قبلهم المؤرخون من اليونان بل والمؤرخون من الرومان، قال: نعم، هو مذهب. كما قلت. لا يزال حديث العهد، ولا يعد من العمر إلا بضع سنوات، واذ كان هذا هو عذر المؤرخين القدماء من اليونان والرومان والعرب، فما بال هؤلاء المؤرخين من العرب المعاصرين؟ قلت: هذا الرأي أقل ما يقال فيه أنه مازال رأيا مفروضا لم يقم عليه

* محمد السعيد، الزاهري: (هل البربر عرب ؟ وهل لغتهم لغة ضاد أخرى؟)، المقتطف، مجلد 84، جزء

أدنى دليل يؤبه من العلم والتاريخ، فكل ما فعل أصحاب هذا الرأي هوانهم عمدوا إلى النقوش والصور التي لا يزال بعض البربر إلى الآن يضعونها على الأواني التي يتخذونها من الطين وهي صور ونقوش مصرية لا يشك في مصريتها أحد من أهل العلم . فقالوا عنها تشبه من بعض الوجوه نقوشا وصورا وجدت في إيطاليا. وإذا فهي "لاتينية مصرية" وإذا فهي دليل على أن البربر هم من أصل "لاتيني". ويمعنون في إثبات هذه الدعوى ، فيزعمون أن البربر حينما كانوا "لاتينا" و كانوا نصارى نبغ منهم في رجال السياسة والأدب والدين مثل سانت أوغست البربري، وانهم بعد ما صاروا عربا مسلمين انحطوا وتأخروا ثم يقولون أنه من الخير للبربر أن يعودوا "لاتينا" ونصارى، ومن الخير لهم أن لا يبقوا عربا ولا مسلمين... وكذلك بمثل هذا المنطق يحثون البربر على أن يقطعوا كل ما لهم بالعرب من صلة القربى، ويطلبون اليهم أن يخلعوا "جنسيتهم" كما يخلع الناس الملابس والثياب وهذا كلام (كما ترى) هو ترويج لأهواء السياسة ، ودعاية ضد الإسلام ،وليس مذهباً من مذاهب التاريخ ، فمن الحق الواجب على كل مؤرخ يتوخى الحقيقة والإنصاف أن يهمل مثل هذا الكلام، وأن لا يورط نفسه، ولا قراءه في خصومة سياسية أو في جدل ديني، فقال الضابط: إنهم جاؤوا بدليل آخر على هذه الدعوى، وهو كلمات وألفاظ بربرية وجدوا لها في اللاتينية ما يشابهها في اللفظ والمعنى. قال الشيخ فقلت: لقد سلك رن "RIⁿⁿ" المؤرخ الفرنسي نفس هذه الفلسفة اللفظية واعتمدها وحدها في معرفة أصول البربر، فجعلهم أوزاعا بين الأمم والشعوب وانتهى إلى أن أكثرهم هنود وآريون، حتى زعم أن عرب بني هلال الذين جاؤوا هذه البلاد هم أيضا "طورانيون وآريون"! فقال الضابط أن هذه المشابهات

اللفظية بين لغة ولغة لا يمكن أن توجد عفوا من غير أن تدل على شيء فكلمة "أروس" التي تعني في البربرية جبلا معينا قريبا من كلمة "الروس" التي هي اسم روسيا، وهذا التقارب بين اللفظين يمكن أن يدل على أن بين البلدين نوعا ما من التقارب المعنوي قلت: الكلمة البربرية (أوراس) وليست (أروس)، ومعنى ذلك فإن بين (أوراس) و (روسيا) صلة أخرى، قال: وما هي؟ قلت إن العشائر البربرية التي تسكن هذا الجبل هي عشائر زراعية تعيش من زراعة الذرة، ومن العجيب أن مزارعها وأراضيها لا تزال مشاعة بين رجالها وأبنائها يقسمونها بين من يحملون المساحي¹، ويتبعون المحاريت، وهم يتبعون في ذلك نظاما قديما توارثوه خلفا عن سلف يشبه أن يكون نظاما "شيوعيا" لأنه لا يعترف بحق التملك لأحد كائنا من كان، ومع هذا الوضع يرجع إلى عهد بعيد جدا، ومع أنه أخذ في الزوال، فإنه لا يبعد أن يكون مقتبسا من الأوضاع الشيوعية الحضرة التي تقوم اليوم في بلاد السوفييت! ثم هولا يبعد أيضا أن يكون دليلا على أن البربر هم من الروس وليسومن "اللاتين"!! فضحك الضابط، وقال: دعنا من هذا الهزل، غير أنه دهش لهذا الاتفاق الغريب! قال الشيخ: ومضيت أحدثه، وأقول: الرمان هم أول من أطلق كلمة (البربر) على هذا الجبل، يذمونهم بهذا الاسم، ويعنون به أنهم همج متوحشون، وما كانوا ليذموهم بهذا، لو أنهم كانوا يمتون إليهم بقرابة أو نسب فقال: والعرب أيضا يذمونهم بهذا الاسم الذميم، قلت: كان ذلك بعد ما اشتهروا به وصار لهم علما يعرفون به بين الشعوب، على أن عامة هؤلاء العرب الذين لن يتأثروا بهذا الرسم الروماني لا يسمونهم (البربر) بل يسمونهم (الشلح) يمدحونهم بذلك،

¹ - اسم آلة تستخدم لتجميع التراب وما شابه ذلك

ويعنون أنهم أهل نجدة وشجاعة، وأنهم أولو قوة، وأولو بأس شديد، وما كانوا ليمدحوهم بمثل هذا المدح لولم يكونوا لهم نوي رحم وأولي قربي، قال: أفتعتقد أن البربر عرب؟ قلت: يكاد يجمع المؤرخون على أن البربر يجمعهم جذمان عظيمان: البتر والبرانس، ويكادون يجمعون على أن البتر من أبناء بر بن قيس بن عيلان بن مضر، وأن قبيلتي كتامة وصنهاجة (من قبائل البرانس) هما من عرب اليمن تركهما إفريقيش (أحد تبابعة اليمن) هنا في ليبيا هذه التي سميت باسمه "إفريقية" فيما بعد، وذلك حينما رجع من غزوها، وروى ابن عبد البر عن بعض النسابة من البربر أن البتر والبرانس هما جميعا لأب واحد هو النعمان بن حمير بن سبأ، ويرى المسعودي وغيره أنهم أوزاع من اليمن وغسان ولخم وجذام وغيرها من قبائل العرب، وقيل هم من العماليق، وقيل العبر والفينيقيين وقيل من المصريين إلا أن ابن خلدون يرى أن البربر كلهم من ولد مازيغ ابن كنعان بن حام بن نوح، ولا يستثني إلا قبيلة كتامة وصنهاجة الحميريتين. على أن ابن خلدون ليس له دليل على دعواه هذه إلا ما حكاه من أن البربر لا يزالون يتسمون (الأمازيغ)، وهذا لا يكفي في إثبات هذه الدعوى، فقد تكون فئة "مازيغية" اندمجت في البربر فغلب عليهم اسمها. وقد انقرض اليوم هذا الاسم بالمرّة، إلا أن قبيلة بربرية صغيرة لا تزال إلى الآن تسمى لغتها "تمازيغت" أي المازيغية وليس من الحق أن نترك ما يراه جمهور المؤرخين من عروبة البربر، وما يقوله نسابة البربر أنفسهم عن أصلهم العربي، لكي نعتمد هذا القول الذي لا نجد عليه دليل وإن رآه ابن خلدون، وها أنت ترى أن كثيرا من المؤرخين يرون أن البربر عرب وأنهم ينزلون من العروبة في صميمها ولست أنا وحيدا أرى هذا، قال الشيخ: فقال لي

الضابط: الآن انحل المشكل، فقلت: وأي مشكل؟ قال الذي حار فيه أكثر الفرنجة الغربيين الذين كتبوا في تاريخ البربر، قلت: وما الذي حاروا فيه؟ قال: امتزاج العرب والبربر امتزاجا شديدا، حتى صاروا في مدة قليلة أمة واحدة متجانسة الأخلاق والعادات، وهذا أمر عجب له كتاب الفرنجة أشد العجب، وحاروا في تعليقه ومعرفة أسبابه، وقالوا أنه لم يوجد له مثل في التاريخ، وها أنت قد حللت المشكل، وقلت أن العرب والبربر هما من عنصر واحد يجري في عروقهما دم واحد، قال الشيخ فقلت: نعم، والعرب حينما توغلوا في هذه البلاد يفتحونها لم يضطر أحد منهم أن يتخذ لنفسه ترجمانا بينه وبين البربر وهذا معناه أن اللغة البربرية لم تكن يومئذ أكثر أسماء الأعلام عند البربر عربيا، وهذا "طارق ابن زياد" القائد المشهور، وفتح الأندلس قد قال عنه التاريخ أنه بربري وأنه هو صاحب الخطبة المشهورة، ولئن سمي "طارق" باسم عربي في أوائل الفتح الإسلامي، فقد سمي أبوه قبل ذلك "زيادا"! وأنا لا أشك في نسب طارق، ولا في نسبة الخطبة إليه، ولكن هذه الخطبة التي هي آية خالدة من آيات البيان العربي، هي أيضا تمثل النفسية العربية في أكرم صورها وأسمى معانيها، ومعنى ذلك أن "طارقا" عربي بطبعه ومزاجه، وعربية تلك النفس التي بين جنبيه، وعرب قومه: هؤلاء الذين يسمونهم "البربر" أو "الامازيغ".

على أن كل ما قيل في أصل البربر إنما ينطبق على البربر قبل الإسلام، أما هؤلاء البربر المسلمون فهم أصرح في العروبة من بربر الجاهلية الأولى، وهذه ناحية من نسب البربر غفل عنها المؤرخون فما عنوا بها، ولا بحثوها. وأنا أريد أن أعرض لها في هذه المقال، فقد ذكر بعض المؤرخين الفرنجة

أن البربر في منتصف القرن السادس للميلاد قد خسروا خمسة ملايين من الأنفس في حروبهم مع الروم البيزنطيين وذكر المؤرخون العرب أن البربر خسروا في حروبهم مع العرب . أيام الفتح الإسلامي . خلقا كثيرا، وإذا أنت أضفت إلى ذلك ما خسروه من قبل ومن بعد في الفتن والثورات أيقنت أن أكثرهم قد تلاشى، ولم يبق منهم إلا فلول وبقايا قد اعتصموا بقمم الجبال، ولاذوا بالصحاري، ثم حدثنا التاريخ أن موجات عظيمة من العرب قد غمرت بلاد البربر هذه في أوقات مختلفة، وقد أحصيت موجة واحدة من هذه الموجات العربية فإذا هي تربي على مليون نسمة، وهي موجة بني هلال وحلفائهم الذين نقلهم الفاطميون في القرن الخامس الهجري من صعيد مصر، وأرسلوهم نقمة على دولة الصنهاجيين الذين كانوا يومئذ ينصرون مذهب أهل السنة في هذه البلاد ويضطهدون مذهب الشيعة فيها، وكانت المذاهب الدينية الإسلامية يومئذ بمنزلة الأحزاب السياسية اليوم، يصطنعها أولوا الأمر لتمكين نفوذهم وتأييد ملكهم ويتخذها المتطلعون إلى العروش والتيجان وسائل ومطايا إلى انتزاع الحكم والسلطان.

وكان النزاع بين هذه المذاهب قاسيا عنيفا في منتهى القسوة والعنف لا يتورع فيه المتنازعون عن الاغتيال وسفك الدماء، وكان لكل مذهب دعاة وزعماء قد انبثوا بين قبائل البربر ينشرون دعوته، ويستعملون كل وسيلة من وسائل الإغراء والإرهاب ليحملوا الناس على أن يعتنقوه طوعا وكرها. وكان العرب من هؤلاء الدعاة والزعماء "يتبربرون" استمالة للبربر، إخفاء لأنفسهم ولغايتهم عن "الخلافة" القائمة يومئذ، و تضليلا لعيونها إرصادها و كانوا يكثرون التزوج من النساء البربريات، استكثارا للحماة والخول والأنصار. وقد أصبح أبناؤهم بعد ذلك "

بربرا" أقحاحا، وهؤلاء أهالي وادي ميزاب في جنوب الجزائر يتكلمون اليوم اللهجة البربرية كلغة منزلية، ولكنك إذا اطلعت على أنسابهم وأصولهم وجدتهم كلهم من العرب الذين "تبربروا" لسبب من مثل ما أقول، ويحدثنا التاريخ أن الأدارسة الطالبين قد فروا إلى البربر واندسوا بينهم هم ومن كانوا حولهم من الأشياع والأتباع والمريدين، ثم صاروا بالفعل "بربرا" وذلك فرارا بأنفسهم من سيف هادم « دولتهم موسى بن أبي عافية » ومن سيوف رجاله الذين أمعنوا فيهم تشريدا وقتلا، وكذلك مادالت دولة إلا و"تبربر" أكثر أشياعها وأنصارها، وكلما قامت دولة إلا واندس خصومها بين البربر، واختلفوا من الميدان، و"عملية التبربر" هذه هي عملية بسيطة جدا فما هي إلا أن يقيم العربي بين البربر مدة من الزمن حتى يصبح منهم، وقد شاهدنا عربا خلصا أفرادا وجماعات قد اضطرتهم مصالحتهم والحيوية أو الحروب الأهلية إلى الإقامة بين البربر فلم يكد يمضي عليهم زمن قليل حتى "تبربروا" عن بكرة أبيهم وأخرى تدل على عروبة البربر، وهي أنهم يحبون العروبة ويميلون إليها كل الميل، وقد قرأنا تاريخ البربر، ودرسنا حياتهم الحاضرة فما وجدنا في خاصتهم ولا في عامتهم أدنى أثر لهذه "الشعوبية" التي لم تكد تنجومن شرها أمة من أمم الإسلام الأخرى ولقد أسس البربر دولة كبرى، وأسسوا في بعض أنحائها إمارات صغرى، ولكن لم تقم ولا واحدة منها على العصبية البربرية، بل قامت كلها على دعوات دينية محضة لا أثر "للبربرية" فيها. وأكثر الأسر البربرية التي أسست هذه الدول والإمارات، قد ادعت لنفسها العروبة وادعت أن نسبها يتصل بآل البيت، فبنو عبد الواد، وبنو زيان، وبنومرين، والموحدين كلهم قد ادعوا أنهم عرب، وأنهم من السلالة الهاشمية. أما محمد بن تومرت البربري فلم

يكتف بادعاء العروبة والانتساب إلى آل البيت النبوي الكريم، بل زعم أنهم هو "المهدي المنتظر"، وألفوا كتبا كثيرة في إثبات "شرف" هذه الأسرة البربرية مثل "قلائد العقيان في شرف بني زيان" وغيره. وهذا إن لم يدل على أن هذه الأسرة البربرية هي من السلالة الهاشمية فهو يدل على منزلة البربر في العروبة وعلى مكانة العروبة في أنفسهم، وأنا لا أستبعد أن يكون هؤلاء عربا، ولا أن يكونوا "هاشميين".

ولوان ابن خلدون نظر إلى اللغة البربرية لكان له رأي آخر في أصل البربر، وإذن لوجد فيها ما يدل على عروبة البربر، أو ما يدل في الأقل على أصلهم السامي، فهذه اللغة البربرية هي عربية لا في ألفاظها ومفرداتها فقط، بل أيضا من حيث تراكيبها وحروف المعاني فيها، ولا تزال تلازمها بعض خصائص اللغة السامية الأولى، فضمير الغائب فيها مثلا هو حرف السين فهم يقولون: "كتابس" أي كتابه أو كتابها، ويقولون: "معس" أي معه أو معها ونحو ذلك. وحرف العين لا يوجد في كلمة بربرية، وكل كلمة فيها عين فهي عربية "مبريرة" أو أن هذا الحرف لا يوجد في كلمة بربرية إلا في النادر القليل. ولقد قالوا أن اللغة السامية الأولى يعبر فيها عن ضمير الغائب بحرف السين، وأنها لا "عين" في كلمة من كلماتها، ومخارج الحروف في البربرية هي عربية خالصة حتى أنك لا تجد فيها حرفا غير عربي، ومن العجب أن هذه اللغة هي ذات ضاد كالضاد العربية تماما.

فالفاعل المضارع المسند إلى المخاطب يختم فيها دائما بحرف ينطقه كثير من البربر ضادا عربية فصيحة، وهناك أسماء بربرية فيها هذه الضاد، منها: أصيل، العنب، "أحبوض": التمر في لغة، "تيجبوض" البطن في لغة أخرى،

"أفرضال" العظيم أوالكبير، "أمتشيز": التين ، "إيضارن":الأرجل أوالأقدام، قال الشيخ: وأدليت إلى الضابط بالنتائج التي كنت انتهيت إليها في هذا الموضوع بعد الدراسة المستفيضة والاستقراء الشاق الطويل، وهي أن هذه البربرية ليست لغة مستقلة بنفسها، وإنما هي العربية في أصلها، قد تحرفت بطول الزمن حتى أصبحت أكثر بعدا عن العربية الفصيحة من هذه اللهجات العامية المختلفة التي تتكلمها الشعوب الناطقة بالضاد، ويجوز مع ذلك أن تكون العربية قد غزت البربرية وأمكنت فيها حتى نسفت كيانها وأفقدتها كل الخصائص والمميزات ثم قال الشيخ: وما كنت أظن أن هذا الضابط الفرنسي سيعلم في أحد المؤتمرات هذه المعلومات ويقرر أن هذه البربرية إنما هي عربية من غير أن يشير بكلمة واحدة إلى أنه أخذ ذلك كله عن هذا الشيخ العربي ، وهنا قام الشيخ غضبان أسفا، ثم ودعنا ومضى.

الأدب والعلم في الجزائر*

الدكتور محمد أبو شنب¹

أستاذ الآداب العربية في الجامعة الفرنسية في الجزائر وعضو المجمع العلمي العربي بدمشق.

أقول الدكتور أبو شنب أم أقول الشيخ أبو شنب؟ والله ما أدري ما أقول. أما هو المرحوم فقد كان شيخا وكان دكتورا فاز في سنة 1924م بشهادة الدكتوراه برسالتين اثنتين وضعهما باللغة الفرنسية، أما أحدهما فاسمها أبو دلامة. وأما الأخرى فاسمها الألقاب الفارسية والتركية الباقية في لغة العامة بالجزائر، ولكن الناس في الجزائر خاصهم وعامهم لا يعنون بلقب دكتور، وإنما يعنون بلقب الشيخ، والفرنسيون أنفسهم يعنون بالشيخ لا بالدكتور، وحتى زملاؤه أساتذة الجامعة إذا دعوه بأحب الأسماء إليه قالوا: الشيخ أبو شنب وهو نفسه كانت كلمة الشيخ أحب إليه، وأعذب في سمعه من كلمة الدكتور.

ولعل سبب ذلك أن كلمة دكتور في لغة العامة بالجزائر لا تعظيم فيها ولا احترام. فأهل الجزائر إذا ذكروا عالما أواديبا ولو كان أقرنيا، وأرادوا أن يذكره بما يدل على الإجلال والاحترام قالوا: الشيخ فلان، وهم يقولون: الشيخ فيكتور هيكو، والشيخ لامرتين والشيخ باسطور والشيخ جان جاك روسو وغير ذلك، وتبعهم في

* محمد السعيد، الزاهري: (الأدب والعلم في الجزائر الدكتور محمد أبو شنب)، المقتطف، المجلد الخامس والسبعون، الجزء 4، 29 جمادى الأولى 1348هـ، ص 420.

¹ - هكذا في الأصل، واسمه في (معجم علماء الجزائر) لعدل نويهض هو: محمد بن العربي بن محمد أبي شنب، وهو باحث وعالم (1866م - 1929م)، ولد بالمدينة، منحه الجامعة العربية لقب دكتور في الآداب، له إمام بالعبرية والإيطالية والفرنسية والتركية والفارسية.

ذلك الأمر الفرنسيون الذين يتكلمون اللغة العربية في الجزائر، فكم مرة سمعت رجلا فرنسيا من رجال العلم أو الأدب يقول: الشيخ فلان، وهو يعني زميلا له من العلماء أو الأدباء الفرنسيين.

وكان صحفي جزائري زار مصر، فقالت جريدة الشورى الغراء أنه دخل إدارة جريدة السياسة وقال: أين الشيخ هيكل؟ وهو يعني الدكتور هيكل. وقرأها الناس في الجزائر فلم يفهموا منها ما تريد، لأنهم يحسبون الرجل قد استعمل كلمة الشيخ في موضوعها، ما تجاوزه بها ولا عداه. وكانت جريدة عربية مشهورة في تونس أثنت على شيخ من شيوخ جامع الزيتونة فوصفته بأنه دكتور من دكاترة الزيتونة ظناً منها أن كلمة دكتور وكلمة شيخ معناهما واحد. على أن كلمة دكتور بدأت تسترجع مكانها اليوم في أذهان الناس بالجزائر ولاسيما في ناحية الطب. فقد عادوا يقولون عن الطبيب الدكتور فلان إذا هم أرادوا أن يجلّوه ويحترموه، بعدما كانوا يقولون عنه الشيخ فلان متى أرادوا تعظيمه واحترامه. وعاد الأدباء في الجزائر وتونس يستعملون كلمة دكتور في موضعها، لا يخلطون بينها وبين كلمة شيخ.

هذه واحدة. وأخرى فإن هذا الأستاذ المرحوم كان شيخا قبل أن يكون دكتورا، فقد اشتغل أستاذا بالجامعة دهرا طويلا قبل أن ينال شهادة الدكتوراه، وكان في ذلك الأمد قد نال احترام الناس، فأعطوه لقب شيخ. وفي الحق أن لقب شيخ أولى بهذا المرحوم من لقب دكتور. فقد كان - رحمه الله - متّسما بسمات الشيوخ أكثر مما هو متّسم بسمات الدكاترة، فهو مسلم جزائري، وجزائري مسلم في كل شيء: في عقله وأدبه، وفي أخلاقه وعاداته، في لباسه وهندامه. تراه فتري على رأسه عمامة جزائرية (طوريانطي)، وتراه فتري على كتفيه برونسا جزائريا، وعلى صدره غلائل جزائرية،

ومعطفه معطف جزائري، وسراويله سراويل جزائرية عريضة، وحذاؤه حذاء جزائري. وبالجملة فهو بقية سلف صالح مضى في عاصمة الجزائر، ولم يبق منه اليوم إلا أناس معدودون من خيارهم هذا الشيخ المرحوم.

تواضعه: عرفتُ فيمن عرفتُ من الناس رجلين في الجزائر هما من أشدّ الناس تواضعا وزهدا فيما يرغب فيه الناس ويهاكون عليه من الشهرة والجاه وهما من أولى الناس بهما، فقد تهيأ لهما من أسباب ذلك ما لم يتهيأ لكثير سواهما من المشهورين في الجزائر. أما أحدهما فهو الدكتور محمد بن العربي الطبيب، وألشيخ ابن العربي محمد كما يصفه الناس في الجزائر لأنه موضع ثقتهم واحترامهم. وقد بلغ من احترام العلماء لمواهب الشيخ وفضله أن كان شاعر فرنسا وعالمها فيكتور هيكو وهو في أيام شيخوخته يماشي الشاب بن العربي ويجالسه وهولا يزال يومئذ طالبا في كلية الطب بباريس. وكان إذا رجع إلى الجزائر يكتبه بغير انقطاع. واجتمعنا بالدكتور بن العربي هذا مرارا، ومازلنا نرجوان نجتمع به. فكان يحدثنا عن أيام شبابه، وعن أيام طلبه للعلم. وعن اتصاله بفكتور هيكو، فيحدثنا ذلك كله حديثا سادجا بسيطا، ولكنه حديث شيق جذاب، يشوقك ويستهويك. لأنه كله صدق، وكله صراحة وإخلاص. ويشوقك ويستهويك لأنه حديث كله تواضع لا أنانية فيه. وكان إذا حدثنا عن فيكتور هيكو قال: كان الشيخ فيكتور هيكو....

وقال الشيخ هيكو....، فنعجب منه نحن بهذا الحديث المحنك البسيط ونستحليه. وأما الآخر فهو الدكتور أوالشيخ أبو شنب، وهو الذي أريد أن أتحدث عنه في هذا المقال.

والدكتور بن العربي كصاحبه الدكتور بن أبي شنب جزائري مسلم في كل شيء، ويزيد عليه أنه أكثر نقشفاً، فهولا يلبس الجوارب (التقاشير) في أغلب الأحيان. ثم هما متفقان فيما سوى ذلك، فكلاهما محافظ على القديم، وكلاهما مؤمن قوي الإيمان، وكلاهما لا يقبل في دينه مناقشة ولا جدالاً، وكلاهما متواضع إلى حدّ الخمول.

واشتغل الدكتور بن العربي بالمسألة السياسية الجزائرية زمناً طويلاً، ومع أنه قد أبلى فيها بلاءً حسناً، فقد كان في عمله وجهاده، متواضعاً لا يخاصم أحداً، ولا يبتغي رئاسة ولا وساماً، ولو خاصم في السياسة وشاتم لأصبح في الجزائر من أقطابها المشهورين. وانقطع الدكتور أبو شنب للعلم، فخدمه خدمات تجتلى، وعمل له عملاً صالحاً، وكان في عمله متواضعاً نزيهاً كما يجب أن تكون كرامة العلم.

لقيت الشيخ المرحوم في شارع من شوارع الجزائر (العاصمة) ذات يوم، فمضينا معا في حاجة. وأنا أتمشى إذ نادانا من بعيد رجل عرفته أنه يرغب إلى الأدباء أن ينضموا له منظومات يرفعها إلى الأغنياء والأعيان. وأنا أستقل هذا الرجل، ولا أطيق أن أراه، وأبيت أن ألبى نداءه، ولكن الشيخ المرحوم قد استجاب، وأقنعني بسداد ما رأى، فصحبته وسكت. وناولته كراساً قد كتبت فيه منظومات وقصائد، وطلب إليه أن يصلحها، ويقيم أوزانها. وسمعت الرجل يترنم بشيء من ذلك فوالله لكأنني أسمع أنكر صوت خلق الله، ووالله لزفير جهنم أعذب في أذني وأشهى إلى قلبي من ترنم هذا الرجل وغنائه في مثل هذه المنظومات. ولسؤال الغير، ولرؤية منكر ونكير أهون عليّ من البقاء في مجلسي هذا. ولكن الشيخ أكبّ

على تلك المنظومات يصلحها، ويقيم أوزانها. ولبث في ذلك ساعة كاملة، ما سئم في أثنائها ولا تحرج بل كان فيها يعلم الرجل ويجهد نفسه في تفهيمه وكان فيها يخالق الرجل بخلق حسن، ويتواضع له، ولا يتظاهر عليه بعلم ولا بفهم، بل جلسها إليه ساعة كما جلسها إلى فريق له في المنزلة والعلم. ولولا أنني كنت ساعتئذ أشغل نفسي بالشيخ المعجب بتواضعه وخلقه الكريم لكانت ساعة أطول علي من الدهر، وأشد من يوم الحساب.

وهكذا كان - رحمه الله - يستوقفه الصغير أو الوضيع فيقف له، ولا ينصرف حتى ينصرف السائل. وإذا أنت حادثته في مسألة من مسائل العلم، حدثك فيها بما يعلم حديثا متواضعا لا يتعالم فيه ولا يتعالى. وهو متواضع حتى في لباسه، فإذا رأيته نبا عنه طرفك، ولم تجد في ملابسه شيئا مما يتباهى بلبسه الفقهاء في الجزائر.

علمه وأدبه: وهو وإن كان أستاذا للآداب العربية في الجامعة الفرنسية بالجزائر، ونال شهادة الدكتوراه في الآداب فإنه في الواقع عالم أكثر مما هو أديب، وأبحاثه وإن كانت في موضوعات أدبية فهي أبحاث علمية على طريقة علماء المشرقيات، لا تكاد ترى عليها مسحة أدبية فهي كلها أبحاث في اللغة العربية، وفي الأدب العربي، وتاريخه وتاريخ رجاله. ولكنك إذا أنت قرأت بحثا من هذه الأبحاث فإنه لا يشوقك ولا يغريك بإدمان المطالعة ولا بالمضي فيها، ذلك بأن أسلوبها أسلوب علمي بحث لا لذاذة فيه. ولعل هذا هو السبب الذي جعل الشيخ المرحوم غير مشهور بين الأدباء - وأغلبهم من الناشئة - كما هو مشهور بين العلماء.

قرأت له ذات يوم فصلا في تاريخ عاصمة الجزائر فقال إنها كانت تسمى مزغانة أومزغان ثم جزائر مزغان... واستمر يبحث هذا الموضوع ويستقصيه، حتى قتله بحثا وتدقيقا، وحتى جاء فيه بما لم يسبقه إليه أحد من المؤرخين. وأعجبت أنا بهذا الفصل. وقابلت الشيخ المرحوم، وأظهرت له إعجابي هذا، ثم قلت له (... ولا أكتمك يا سيدي أنك كتبتَه بأسلوب غير طلي ولا لذيذ. فقال في شيء من التواضع والبساطة كثير: خذ العلم، وماذا يعنك أكان بأسلوب طلي. أم كان بأسلوب غير طلي ولا لذيذ. وحسبك أنك فهمت عني ما أريد أن أقول. وهل اللغة وأساليبها إلا أداة للفهم والتفهم؟ غير أنكم معشر الشبان تغرّم زخارف الألفاظ وتزويقاتها. حتى أن كثيرا من أدباء العربية قد وقفوا عند اللفظ وزخرفته وتحسينه لا يكادون يعدونه إلى المعنى واللّباب. فقلت: ولكني لولم يكن يهمني هذا الموضوع بوجه خاص، لما كنت قرأت فصلك هذا ليبسه وجفاهه. واللغة وأساليبها أداة للتفهم لا تعدو ذلك كما تقول يا سيدي، ولكن الناس يختلفون ولا يستون في استعمال هذه الأداة، فمنهم من يريد أن يعرب بها فيعجم، ويبين فيبهم، لا يعرف كيف يستعمل هذه الأداة فلا تفهم أنت منه ما يريد أن يقول. ومنهم من يستعمل هذه الأداة للتفهم استعمالا بارعا، وتسمعه أنت فإذا كل عضو منكم يسمع له ويصغي إليه، وإذا كل شيء فيك يفهم منه ويعقل، وإذا هو يملك عليك قلبك، ويملك سمعك وبصرك طوعا أو كرها. وهل خلّدت هذه الكتب الأدبية الخالدة إلا بجمال أسلوبها، وسحر بيانها؟ وهل هؤلاء العبقيرون إلا بشر قد امتازوا عن الناس بما رزقهم الله من الفصاحة والبيان؟ وكثير من الناس من تكون له أفكار سديدة، ونظرات صائبة في هذه الحياة، ولكنها تموت بمماته، لأنها لم تكن بأسلوب جميل فصيح تستحق به البقاء

والخلود. ومن ذا الذي ينكر أن القرآن الكريم فصيح مبين، وممعن في الفصاحة وسحر البيان إلى حد الإعجاز؟ فقال الشيخ: صدقت، ولكنك ما تزال شاباً تفتتك مظاهر الأشياء وزينتها، وتشغلك عن أن تتفد إلى لبابها وصميمها، وستعدّل الأيام رأيك هذا بعض التعديل، وستصبح تنظر إلى المعاني أكثر مما تنظر إلى الألفاظ... فقلت: إنني أريد لك ياسيدي أن تخلد بعدك آثارك في الأدب، وليس إلى ذلك من سبيل إلا أن تكتبها بأسلوب أدبي لذيذ، لا يبس فيه ولا جفاف. فقال في شيء من الدعة كثير: ... أبعث شيبي يبغي مني الأدباء؟ فاستحيت والله أن ألح عليه في البحث.

ولعل السبب في ضعف أسلوب الشيخ أن معارفه فرنسية أكثر منها عربية. فهو أستاذ الآداب العربية في جامعة الجزائر، ولكنه يلقي دروسه ومحاضراته كلها باللغة الفرنسية. ويقول الذين قرأوه في الفرنسية أن أسلوبه فيها أسلوب حسن متين. وهو مع ذلك عالم باللغة العربية غزير العلم، ومطلع عليها واسع الإطلاع. وحافظ ثقة من حفظها لا يكاد يغادر منها صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها.

كتب إليّ الأستاذ الشيخ عمر راسم الجزائري كتابا وصف فيه الشيخ المرحوم وهو من أعرف الناس به، فقال:.. لقد كان رحمه الله، معجما لغويا يمشي على وجه الأرض.. وهو وصف صادق لا مبالغة فيه ولا إغراق، فقد كان يحفظ اللغة المدونة في المعاجم. ويحفظ شيئا كثيرا من اللغة التي لم تدون بعد. وكان معنيا بجمع هذه الكلمات الكثيرة والتراكيب التي تجري على ألسنة الأدباء في القديم والحديث، ولم تدون في المعاجم، يبحث عنها بحثا مستوعبا، ويردّها إلى أصول

عربية رداً صحيحاً. وكان ينوي أن يجعلها في كتاب يعرضه على المجمع العلمي العربي بدمشق، ثم ينشره في الناس كتكملة لمعاجمنا اللغوية.

وأبحاثه في اللغة والأدب كلها أبحاث مبتكرة طريفة، آخرها محاضراته التي ألقاها في مؤتمر المستشرقين الأخير باكسفورد (بلاد الانكليز) عن ابن خاتمة أحد شعراء الأندلس في القرن الثامن الهجري. ونشر خلاصتها في مجلة الشهاب التي تصدر في قسنطينة (الجزائر) وهي محاضرة قيمة أحيى بها شاعراً عربياً، وزاد بها في تاريخ آداب العرب صفحة ماجدة ذهبية. وكان طبع كتبها كثيرة قديمة بعدما صححها وعلق عليها.

وكان مولعاً بجمع الكتب القديمة، ونفائس الآثار، فقد خلف في خزانته مجموعة قيمة عالية من الكتب اليدوية والمخطوطة.

يقول الكثير من الناس أن الحكومة الجزائرية هي التي أخذت بيد الشيخ المرحوم وأعانتها على إظهار مواهبه ونبوغه، ولوانها أخذت كذلك بأيدي غيره من العلماء والأدباء في الجزائر لكان فيهم من يدانيه ومن يفوقه. وهذا قول صحيح لاشك فيه، فإن كثيراً من أدباء الجزائر وعلمائها ماتوا كما يقول الزهاوي شاعر العراق:

ولقد يموت نبوغه من لا تساعده الظروف

ولولا الحكومة لخفي الشيخ المرحوم تواضعا وخمولاً. ولكنه خدم العلم أكثر مما خدم نفسه، وخدم الجامعة الفرنسية بالجزائر خدمات جلّياً، وهو الذي جعل للكتب العربية في مكتبة الجامعة قيمة واعتباراً. وكانت الجامعة والحكومة تنتدباناه إلى

أكثر من مهمات العلم، فقد مثلها في مؤتمرات علمية عالمية كثيرة عقدها المستشرقون وغير المستشرقين. وكان لا يقع امتحان من الامتحانات العالية في شمال إفريقيا إلا وتجد الشيخ المرحوم يرأس لجنة من لجانه تتألف من كبار العلماء والأدباء الفرنسيين. وقد اشتهر بين هؤلاء العلماء بالثقة العلمية لا يماري ولا يداري، لا يحجب ولا يحابي.

زُرته في الجامعة ذات يوم من أيام الامتحان. فرأيت في فناء الجامعة فتاة رائعة على أشد ما تكون فتنة وجمالا قد رسبت في الامتحان على يده. وهي تبكي بكاء شديدا. وقصت عليه قصتها فقال: وددت لوأنها نجحت، ولكن أسقطتها أمانة العلم. وما هي قيمة العالم إذا لم يكن ثقة ولا أمينا؟... وكان ملما باللغتين الألمانية والإنكليزية إماما حسنا مفيدا.

تمسكه بدينه: وكانت أول معرفتي بالشيخ أن كنت بتونس في سنة 1922م وأنا يومئذ لا أزال أطلب العلم في الكلية الزيتونية، وجاءتها في تلك السنة لجنة من العلماء الفرنسيين لامتحان طلبة البكالوريا في تونس. وكانت هذه اللجنة تحت إشراف المرحوم الدكتور أبي شنب، فاستغرب الناس في تونس أن يكون عالم جزائري غير متجنس بالجنسية الفرنسية رئيسا مشرفا على لجنة علماء فرنسية، يرأس جلساتها بملابسه الجزائرية، وبزيه الجزائري. وتعالّم الناس هذا الخبر. وسمعتة أنا، وفرحت به، وداخلني يومئذ شيء من النخوة والكبرياء. وجمعت نفرا من إخواني الطلبة الجزائريين، وذهبنا نزوره، وكان اليوم يوم أحد لا يعمل فيه. فلقينا لقاء حسنا، وقبلنا قبولا كريما. وبينما نحن جلوس عنده إذ حضرت صلاة العصر، فقام فصلّى النافلة أربع ركعات، ثم أقام الصلاة (المكتوبة)، ولما فرغنا من الصلاة سألته كيف

تصنع إذا أدركتك الصلاة وأنت في جلسة رسمية؟ فقال: أقف الجلسة للاستراحة، فيستريح زملاؤه بخطوات يمشونها، ودخائن يشعلونها، وأستريح بأداء المكتوبة. وأجد من الراحة في صلاتي ما لا يجدون هم في مشيهم وتدخينهم... وأراد أن يمضي في حديثه هذا فقاطعته أنا وقلت: ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا حزب المسلمين خطبٌ يلجأ إلى الصلاة، ويقول: أرحنا بها (الصلاة) يا بلال. فرح الشيخ المرحوم بهذه المقاطعة، وقال: لقد أردت أن أقولها فسبقتني بها. ثم ودعناه وانصرفنا ونحن نتمنى لشباننا المتفرنجين أن يتعضوا بهذا الشيخ الجليل. فلقد كان لهم فيه أسوة حسنة إن كانوا يريدون الخير لأنفسهم ولبلادهم.

وله رأي في هذه الألقاب الدخيلة قد لا يخلومن الغرابة والشذوذ، فهو يرى أن نجتنب الدخيل وأن نجتهد في اجتنابه ولوالى الاستعاضة عنه بغريب اللّغة المهمل الذي بطل استعماله. وإذا اضطررنا إلى الدّخيل يجب أن ننطق به كما ينطق به في لغته الأصلية، وندعه على حاله لا نمسه بأدنى تغيير، حتّى تبقى عليه دائماً سمة الدّخيل، لا يشتبه علينا بالأصيل، ولا يختلط علينا الحابل بالنّابل. وكنت ناقشته في هذا الرّأي الذي تاباه طبيعة اللّغة، فكلّ لغة لا بد لنموها وحياتها من الدّخيل، ولا بد لهذا الدّخيل أن يفقد صيغته الأصلية الأولى، لا بد له أن يخضع لمنطق اللّغة التي يدخلها، يصاغ في صيغها، وتجري عليه قواعدها. وهذه اللّغة الفرنسية مثلاً، دخلها كثير من الكلمات العربية ولكن أية كلمة عربية دخلت الفرنسية وبقيت عربية في صيغها على منطقتها العربي؟ وكلمة محمد مثلاً ينطق بها الفرنسيين على صيغ كثيرة نمو فرنسية كلها نمو فرنسية لا تجد بينها صيغة عربية. وهذا سبيل من سبل نمو اللغات وحياتها، ما للّغة منه بد.

آخر عهدي به: منذ عشرة أشهر ركبت القطار السريع من تلمسان إلى وهران، فإذا الشيخ المرحوم يركب هذا القطار نفسه، فقطعنا الطريق في محادثة وحوار، وكان يبدي جزء من أجزاء المقتطف، فتناوله الشيخ من يدي وقال: عهدي بك تحبّ الأدب، ولا تحبّ العلم، فما بال المقتطف وهو مجلة علمية؟ فقلت: كلا، يا سيدي، إنني لا أحب من العلم ما كان صلبا يابساً، ولا أحب من الأدب ما كان وهماً وخيالاً. وإنما أحبّ الحقيقة تكون في صورة رائعة من صور الأدب والجمال. والمقتطف يصف لنا حقائق الحياة، ويعلمنا العلم والحكمة، في أسلوب من الأدب ساحر لذيد. وللمقتطف عليّ يدٌ لا أنساها له أبد الدهر. قال: وماهي؟ فذكرتها له، فقال: صدقت، فقد أحببت خير المجالات.

وتكلمنا في الكتب اليدوية المخطوطة. فقال: إن تلمسان كانت دار علم، ولا بد أن تبقى فيها بقايا من آثار السلف الصالح، فإذا عثرت فيها على كتاب قديم أو اثر من الآثار العلمية فإنني أرجوان تكتب إليّ به. وهناك جمعيات من الألمان والأميركان قد أرسلت في مدائن هذه البلاد ناشرين يشترون لها الكتب العربية القديمة، ويقتنون لها نفائس آثار أجدادنا. فقلت: بلغني أن فلانا وفلانا من أشياخ الطرق الصوفية في مراكش قد قاما بسياسة واسعة في شمال إفريقيا، ظاهرها الطواف على أتباعهم بغية النذور، ولكنهما كانا يقتنيان الكتب المخطوطة، وبيدلان المبالغ الطائلة الباهظة من المال في شرائها ونسخها. حتى ظفرا منها بشيء كثير. فهل لهذين الشيخين علاقة بهؤلاء الأميركيان أو الألمان؟.. فقال: هما بلا شك من أعوانهم بعثوا بهم لجميع الكتب المتناثرة المبعثرة في أيدي عامة المسلمين الذين لا يفرطون فيها إلاّ بمثل هذه الوسيلة. فقلت: وقد سمعت أن حكومة مراكش قد

أصدرت ظهيرا يمنع إصدار الكتب المخطوطة إلى الخارج. فقال: وأنا الآخر سمعت بهذا، ولكنه غير مفيد، فلوان الحكومة اشترت هذه الكتب، واقتنت هذه النفائس وحفظتها في دار الكتب لكان ذلك خيرا وأنفع. لأن هؤلاء الذين بذلوا أموالا طائلة في سبيل الحصول على هذه الآثار والكتب والنفائس لا يعجزهم أن يجدوا حيلة لتهريبها والفوز بها. وأردت أن أتكلم لكن القطار وقف بنا على مفرق الطرق فودّعني الشيخ وودّعته، فأخذ طريقه إلى الجزائر، وأخذت طريقي إلى وهران وكان هذا فراق بيني وبينه، وكان ذلك آخر لقاء، فما التقينا بعدها، ولن نلتقي أبد الدهر.

كيف ذكرته: مات أبو شنب وأقيمت في 20 مارس الأخير له حفلة تأبين، فلم أذكره بشيء من ذلك وإنما ذكرته بسبب قد يكون غريبا، ولكن هو السبب الواقع: المقتطف هو الذي أذكرنيه، وهو الذي جعلني أكتب عنه هذه الذكرى، وأحس لفقده بآلام جسام، وذلك أنني قرأت في جزء أخير من المقتطف فصلا عنوانه: هل تندثر مدونات العصر؟ على صديقي الفاضل المبرور السيد الحاج عبد القادر قره جه في تلمسان، فذكر لي أن في خزائنه كتابا مخطوطا لا يدري ما اسمه، ولا ما موضوعه، ولا من مؤلفه، قد كتبت على الصفحة الأولى منه أحرف قال كاتبها عنها أنها إذا كتبت على أول كتاب فإنه لا يندثر ولا يبلى... فرغبت إليه أن يريني هذا الكتاب ففضل فأعارني، فسهرت عليه ليلة أطالعه فإذا الأحرف هي هذا: كب كيكج كيكج، وإذا كاتبها قد جلد الكتاب، واحتفظ به احتفاظا شديدا، فما بلي وما اندثر. وإذا الكتاب صفحة ماجدة من تاريخ الجزائر، بل من تاريخ الإسلام والشرق. وإذا موضوع الكتاب في سياسة الملوك وتدبير الممالك. وإذا مؤلفه عالم غزير العلم، مطلع واسع الإطلاع، وسياسي مجرب حكيم. وهو السلطان موسى أبو

حمواشهر بني زيان (بني عبد الواد) ملوك تلمسان في التاريخ. وهنا ذكرت الشيخ
المرحوم، وذكرت ما كنت عاهدته عليه يوم اجتمعنا في القطار من أن أكتب إليه
بكل ما أعرثر عليه في تلمسان في الكتب القديمة، والآثار النفيسة وتحمّست أن
أكتب إليه هذا الكتاب النفيس فإذا به قد توفي إلى رحمة الله. فلولا المقتطف ما
كنت لأعرثر على هذا الكتاب، ولولا هذا الكتاب ما كنت لأذكر الشيخ المرحوم هذه
الذكرى الأليمة.

سلام الله عليك يا ابن أبي شنب، لقد طببت حياً وميتاً. وكنت بعلمك
وشرقيتك حجة الشرق على هؤلاء الشرقيين الذين لا يبتغون السلم والحياة إلا من
طريق التفرنج والأندماج، وقدمتَ إلى ربك مؤمناً عالماً.. (ومن يأت ربه مؤمناً قد
عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العلى. جنات عدن تجري من تحتها الأنهار
خالدين فيها وذلك جزاء من تزكى).

بحث طريف في «التوارج» الملتمين

مقام المرأة السامي في اجتماعهم وآدابهم

بلادهم وطبقاتهم - أبجديتهم وأداهم - حياتهم ومعيشتهم*

لعل أمة «التوارج» التي تقطن جنوب الجزائر الأقصى هي من أعجب الأمم، ودعاها إلى الدهشة والاستغراب. فإن لها عادات وأخلاقا ما أحسبها تكون لأمة أخرى سواها. وهي أمة بربرية في أصلها وفصلها، ولكنها تخالف المسلمين في بعض أصول الدين.

وبينما نرى المفكرين في سائر بلاد الإسلام يتناولون قضية المرأة المسلمة ويعالجون أمر "حجابها وسفوره" إذا بنا نرى الأمر قد عكس عند "التوارج" تماما، فالمرأة عندهم سافرة طليقة، والرجل محتجب مسلم! وسنرى أنه قد يسري في تلثمه وحجابه إلا أن يتجاوز حدود ما نسميه بالأدب واللياقة. ولئن كان التوارج شعبه من الجزائر، فإنه لا يشعرون بأنهم جزائريون، أولا يعترفون بذلك. وفي الحق أنه لا تكاد تربطهم بالجزائر غير الخارطة الجغرافية. فلغتهم الشلحية بعيدة (في حالتها الحاضرة) عن لهجات اللغة البربرية إلى تتكلمها القبائل البربرية بالجزائر، ووجوههم مستطيلة سمراء تضرب إلى الزرقة ولا تشابه وجوه قبيلة بربرية أخرى، وقامتهم مستقيمة رشيقة، وليست كقامة بقية البربر....

ولقد أفاض الناس في تاريخ "التوارج" بين مخطئ ومصيب ومنذ سنوات كانت بعثة علمية أمريكانية تبحث وتنقب في تلك البلاد. فعثرت هنالك لبعض ملوكهم على آثار قيمة من حيث العلم والتاريخ. غير إنني ما رأيت أحدا وصف

* محمد السعيد الزاهري: (المقتطف)، بحث في التوارج الملتمين مقام المرأة السامي في اجتماعهم وآدابهم، ص 412.

الحالة الحاضرة " التوارج" وصفا مستوعبا دقيقا. فأحببت أن أقصر هذا الحديث في وصف تلك الحالة الحاضرة وأجتهد أن يكون هذا الوصف صادقا يصف الأمر الواقع هنالك كما هو.

سنرى في هذا الحديث

كانت عندي معلومات ضئيلة عن " التوارج" لا تسمن ولا تغني من جوع، فأردت أن أتسّم أخبارهم، وأزيد معرفة بهم فرأيت الكتاب الفرنسيين يكتبون عن ماضي تلك البلاد، ولا يكتبون عن حاضرها إلا قليلا منهم، وصفها وصفا سطحيا، وقاصرا على جهة "هجار" فقط وهي الجهة التي شملها نفوذ فرنسا. وقد يكتفي الكاتب الفرنسي من البحث بسؤال رجل أو اثنين من " التوارج" فيجيبه بغير الواقع، لأنهم يبغضون الفرنجية الأجانب، ويرون فيهم مستعمرين قساة محاربين، لا يتقون بهم. ويذكر لك (الترجي) بأنه سأله فلان وفلان من الفرنجة عن كذا وكذا... ويفخر عليك بأنه ساعده الحظ فوثقوا به، فأوقعهم كلهم في الخطأ، ولبس عليهم كلهم في الجواب تلبيسا! ثم هذا الكاتب لا يلبث هنالك إلا أمدا قليلا لا يتمكن فيها من درس حالتهم ولا من فهمها. لذلك لم أعتمد في الأكثر إلا على ماحدثني به هنا في هذا الباب حضرة صديقي الفاضل السيد يحيى (أبو ثمن)، وهو أحد الشبان الجزائريين المغرمين بالبحث والاستطلاع. فقد قضى هنالك بين التوارج خمس سنوات كاملة، عرف فيها أحوالهم. وكان قبل ذلك قد حذق لغتهم، فأختلط بهم، وتعود عاداتهم، وتلثم بلثامهم! وتزوج بفتاة منهم، فأصبح موضع ثقتهم، يحبهم ويحبونه. وهو ينوي أن يجمع ما يعرفه عنهم، ثم ينشره، بلغة الفرنسيين. وإذا كان أحد سواه قد تحدث عن الملتمين بالظن والتخمين، فهو يروي لنا هذا الحديث عن خبرة وعيان "ولا ينبئك مثل خبير"

التوارج وبلادهم

تقع بلاد التوارج التي يقطنونها اليوم في جنوب الجزائر الأقصى، وفي غرب صحراء طرابلس، وفي بلاد كثيرة النجاد والهضاب، وتتقسم من حيث المعيشة إلى بلاد "هكار" أو هجار وبلاد "أزجر"، والأولى هي التوارج الغربية، والثانية هي التوارج الشرقية وكانت بين البلدين في القديم حروب، وما زال ذلك إلى اليوم.

واسم "التوارج" مشتق من كلمة "تارجا"، وهو اسم لصحراء فزان أو غات، وعاصمتها مرزك، وهي ما تزال حرة إلى الآن، ولكن تتحفظ إيطاليا لاملاكها، وهي تقع في شرق "أزجر"، غير أن التوارج لا يتسمون بهذا الاسم، بل يسمون أنفسهم "إيمهافن" ومعناها الغزاة أو "المغبيرون"، ولعل في هذا الاسم الذي هو علم عليه ما يجعلنا نفهم نفسيتهم، وأنهم طبعوا على الغارة والنهب، وهم في الأصل شعبة من البربر الذين قدموا الجزائر من ليبيا منذ عصر قديم، كما يقول المؤرخون الين أيدوا رأيهم هذا بأدلة الجزائر علمية مقنعة ليس هذا محلها. وليسوا من الرومان، لأنه لا دليل من العلم يؤيد هذا الرأي.

حياتهم ومعيشتهم

وحياتهم على وجه العموم حياة منسجمة سعيدة، لأنه لا هم فيها ولا شقاء، أو لأنهم لا يشعرون بما فيها من الهم والشقاء. وهي حياة بسيطة مبنية في الجملة على الاختلاس والإيثار، ويتفانى الواحد منهم، وينكر ذاته في الامتثال لأوضاع جماعته (قبيلته) وهو من هذه الجهة لا يعيش لنفسه، بل يعيش لقبيلته، ويخلص لها. وهو من هذه الجهة أيضا مقيد غير حر، ولكنه يجد في نفسه من الغبطة والسعادة على قدر ما يكون له من هذا التقيد، ومعيشته ضنكة عسيرة، فيها شظف وخشونة، وليس فيها نعومة ولا لين. فالذرة (البشنة) هي أطيب ما يأكلون،

أو هي كل ما يأكلون. ويملاؤها في موقد النار ملاء، ويأكلونها رخوة لا تكاد تتماسك. وأشهى أكلة إليهم هي سويق يتخذونه من ذرة وتمر وإفط (كليلة)، ويلفونه بالماء، أو باللبن والحليب. وإذا هيا الحظ للمسافرين منهم هذه الأكلة فإنهم يأكلونها ركوبا على المهاري وهم يتغنون، ويعدون ذلك نعمة يحمدون الله عليها حمدا كثيرا. ولا يأكلون القمح اقتصادا لما يلزمه من نفقة التوابل والافاوية.

ومع هذا الشظف في العيش، فقد تصيبهم مصيبة شديدة، وينزل بهم قحط أليم، فيعوزهم القوت، ولا يجدون، ذرة ولا قمحا ولا شعيرا، ولا ما يأكل، فيضطرون إلى القطف، وبعض النباتات الأخرى، وجذور بعض الأشجار المهملة، ويحرقون النوى (نوى التمر) ويدقونه، ويأكلونه مخلوطا بالعسل والبصل ويومئذ تسوء حالتهم وتمسهم البأساء، والضراء ويقمون فيما يفتت الأكباد رحمة لهم ورتاء، ويذيب النفوس حسرة عليه وحزنا. وقد يتجملون للخصاصة ويحسنون السير عليها. وهم يتعودون في الرخاء قلة الأكل، ويديمون مطال الجوع. وفي ذلك فخرهم وتنافسهم.

وموارد رزقهم زراعة القمح والشعير والذرة وبعض الفواكه والخضر. ويزرعونها(ما عدا التمر) في أحواض صغيرة يسقونها بماء الآبار: الرجل يدلي بدلوه ويسقى، والمرأة تصرف عنه الماء من حوض إلى حوض. وفي بعض بلادهم عيون جارية، غير أنها لا تكفي لان تبسط النعمة والرخاء بين أولئك القوم على مر الأيام، وهم يعشقون الصيد ويحترفونه. ولحم المهاري يبيعهونه رطبا ويابسا بالتمر أو الذرة يوم حصادها وذلك مورد من موارد رزقهم.

والفصل الذي يفيض عليهم نعمة ورخاء وهو فصل الخرف حينما يزهر النخل، ويثمر الشعير وتبرك الذرة ويحين حصادها. ففي هذا الفصل يشبعون، وفيه تروج التجارة فتزد عليهم القوافل من السودان العربي، ومن نوات،

وهكار، تحمل إليهم الكتان والأقمشة والشاي والسكر. وفي هذا الفصل أيضا ينشط بينهم التزاوج، وتتكاثر الأفراح.

طبقاتهم

وهم ثلاث طبقات بعضها فوق بعض: "امسنوكال" وهم الملوك و"ايهكاون" وهم النبلاء الاشراف. و"ايمناد" وهم السوقة وعامة الناس.

فأما "امنوكال" فهي كلمة يستوي فيها المفرد وغير المفرد، ومعناها صاحب البلاد أو صاحب الطيل لأن شارة الملك عندهم أن يتخذ لنفسه طبلا كبيرا يحمل عند الحاجة على جملين اثنين عليها عبدان أسودان يضربانه للنفير أو لأمر جامع، والملك عندهم متوارث، وولي العهد لا بد أن يكون ابن أخت الملك، ولا يكون ابن الملك، ولو كان ابن الأخت هذا من قبيلة أخرى غير قبيلة الملك، ووراثه الملك هذه (أو رئاسة العشيرة) تابعة لمسألة أخرى في الميراث، وهي أن ابن الأخت في عرفهم هو الوارث الشرعي الذي يرث خاله فيما يتركه من العقار، ولا يرث الا الابن أباه الا فيما كان أثاثا أو حيوانا.

ويحكم بلادهم اليوم حاکمان اثنان حاکم على عشائر "هاكار" وهومن قبيلة كبرى تدعى "كيل غلا" وعاصمة ملكه تدعى "تمنغست" وهو الان تحت الحماية الفرنسية أو هي شبه الحماية، والحاكم الاخر على عشائر "أزجر" وهومن قبيلة "ايوراغن" وأوراغ: الذهب، وعاصمته "غات"، وبلاده مازالت حرة، وكانت بين (أزجر) وبين (هكار) في القديم حروب ومنافرات، وما زالت الى اليوم، وأهل (هكار) أكثر عددا وعددا، وأهل (أزجر) أصبر على الحرب النزال.

وكانت "امنوكالية" ثالثة في الجهة الغربية من (أزجر)، أسقطتها فرنسا وألحقتها بـ(أمنوكالية هكار)، لان (امنوكالها) لم يرض بالحماية الفرنسية، وهو آخر بني "ايمان" الذين حكموا هذه الأموكالية منذ ثلاثة قرون، وربما شمل

نفوذهم بلاد التوارج كلها، وهم الذين بنوا بلدة " أجانت " عاصمة الأمنوكالية، وهي بجبالها الجميلة، وواديها الأخضر البهيج، وبسائر مناظرها الطبيعية الرائعة فيها تستهوي النفوس، وتسبي العيون فتنة ورواء. وبالجملة فهي أحسن بلدة في التوارج كلها، لعك تعجب اذا قلت لك أن النخيل في " جانت " هذه كله وقف لا يباع ولا يشتري، يستغله أهل البلدة، ولا يبيعون لا أصول النخل ولا ثماره، من احتاج الى غلة نخلة أخذها مجانا، وأن أرض تلك البساتين التي فيها النخل هي اليوم في ملكية (امنوكال هاكار)، ولعامله على " جانت " النظر في أمرها، فهو يؤتيها من يشاء وينزعها ممن يشاء من أهل البلدة ولكن ليس لهذا العامل أن يستغلها هو لنفسه أو لأمنوكاله وهكذا كانت الحال على عهد بني ايمان، والمظنون أنهم هم الذين حبسوا نخيل جانت وأهريز على أحلافهم أهالي البلدين لئلا يخذلوهم، وينفضوا من حولهم، أو لأنهم يخافون عليهم (ان هم باعوا نخيلهم) أن يذهبوا ضحايا المجاعات، و(ايمان) هؤلاء لا يزال ذكرهم يجري على ألسنة الناس هنالك بكل احترام وتقديس، وأمنوكالية جانت هذه، وان طردت فرنسا ملكها، وألحقها بهكار، فإن أهلها ما زالوا يعتبرون أنفسهم من (آزر) من حيث الحلف والعصبية، ويخضعون لأمنوكال غات خضوعا روحيا، ويعدونه أمنوكالهم الشرعي بعد " ايمان " .

وأما طبقة " ايهكارن " وهم النبلاء فهي تلي الملوك في الارستقراطية، فهؤلاء النبلاء يستعبدون " ايمغان " وهي طبقة السوق وعامة الناس، ولا يرقبون فيهم الا ولا ذمة . فكل نبيل يعيش عالية على أسرة أو أكثر من السوق (ايمغان) تقوم له كرها ولا كرامة بكل ما يحتاج اليه من مال أو متاع، ولا يتورع النبيل أن يغضب ناقة لأحد السوق، ويجبر آخر أن يسافر له عليها سفرا تجاريا، وهؤلاء النبلاء لا يحترفون ولا يشتغلون في الزراعة ولا يملكون ضيعة ولا عقارا، فقد تركوا كل ذلك للسوقه تكذ فيه وتعمل، حتى اذا أثمر أخذوا منه ما يحتاجون اليه غنما باردا، وقد

ضج الناس من هذه المظالم، ولكن لا مفر لهم منها اليوم، ففرنسا التي استولت على هكار اليوم، وعلى أمنوكالية جانت من آزر لا تستطيع لسوء الحظ أن ترفع عن الناس هذا الظلم المبين، وذلك لأنها تحتفظ بما كان على ما كان، ولأنها ان استعملت الشدة والعنف مع التوارج في شيء ما، فانهم يفرون من بين يديها جميعا، ويتركون لها البلاد خاوية على عروشها .

والنبلاء كلهم يسكنون البادية، والحضر عندهم كلهم سوقة، وسوقة البادية فيهم أنبل من الحضر، وقليل من هؤلاء النبلاء من يملك بعض بهيمة الأنعام، لأن الملك والاكنتساب والاحتراف كلها في نظر هؤلاء النبلاء عار عظيم، الا حرفة واحدة يحترفونها، ولا يرون فيها أدنى غضاضة، وهي حرفة " الغارة والنهب " ويتوارثونها إنا عن أب، فاذا كان الأب مغرورا نهابا كان على ابنه أن يشابه أباه، ويحيء مغرورا نهابا، ولا يتبع أباه في صفة من الصفات المكتسبة الا في هذه، فان هذا الابن يتبع أمه لا أباه في الضعة والشرف، فمن كانت أمه نبيلة شريفة جاء شريفا نبيلًا، ولو كان أبوه عبدا اسودا (سودانيا) وضيعا.

ومن كانت أمه وضيعة جاء هو وضيع ولو كان أبوه نبيلًا أو أمنوكالا، ولا يعتبرون في حطة النسب أو رفعتة الا جهة الأم فقط، فقد ينتسوم لأمهاتهم لا لأبائهم ويفخرون بهذه الأمهات، كما يفخر الشاعر العربي ويضيع بينهم قول الفرزدق إذ يفخر بأبائه:

أولئك أبائي فجنني بمنثلهم اذا جمعتنا يا جرير المجمع

ويقول بعض العلماء الفرنسيين: إن انتساب التوارج هذا الأمهاتهم هو أثر من أثار إباحية كانت في العلاقات الجنسية بينهم لا يعرف فيها الأب على وجه التعيين ثم لم يذكر دليلا علميا واحدا على هذه الدعوى: وأحسبه لا يستطيع أن

يأتي على ذلك بدليل الا أن يضرب لذلك مثلا بالحيوانات غير الانسان التي تنسب نتائجها الى امهاتها دون آبائها .

ولكننا لا ننتظر في المستقبل أن تنتسب هذه النتائج الى ابائها لا أمهاتها . ولا رأينا في تاريخ التوارج ما أخرجه من الاباحية المزعومة بل رأيناهم في ماضيهم أحسن وأرقى منهم في حاضرهم، والحق أن هذا نتيجة لازمة لتحكم المرأة عندهم بالرجل، واستثنائها بالأمر والنهي دونه على خلاف ما عليه أمم الأرض جميعا، ولا تنتسب القبيلة من قبائلهم الى أب من آبائها ولكن الى الوطن الذي تقطنه جبلا كان أو واديا، " فكيل زواواتن " معناها: وادي زواواتن، و " كيل أميهرو " كذلك، وهكذا سائر أسماء القبائل والشعوب فيهم .

أديهم

ولهم أبجدية خصوصية يكتبون بها رسائلهم في لغتهم الشلحية، ويسمونها " تافناق " أي الفينيقية، وهي نفس الحروف الأبجدية الفينيقية إلا ما أعتراها طبعا من التغيير والزيادة والنقصان، وهم لا يعلمون هذا بل يزعمون أن امرأة منهم شاعرة وهي التي اخترعت هذه الابجدية في الزمن القديم . ولا يفهمون كلمة " تافناق " الا أنها علم لاجديتهم، ويكتبون أبجديتهم هذه من اليمين الى الشمال كما نكتب العربية من الشمال الى اليمين أو منهما معا كما يجيء بحيث تكون الرسالة سطرا واحدا يذهب في الصفيحة يمينا ويرجع شمالا . ويكتبونها أيضا كذلك من فوق الى تحت وبالعكس ومنهما معا. والنساء هن اللاتي يقرآن ويكتبن بهذه الحروف، ولا تكاد تجد بينهن امرأة الا وهي تحسن " تافقان " كما أن منهن من تتكلم العربية او تقرأها. ولا تهمن العربية أصلا، وإنما تهمن لغتهن البربرية ليس غير. وقليل من الرجال من يحسن " تافقان " . والذي يتكلم العربية أو يقرأها إنما هم الرجال الذين يقرؤون القرآن ويفقهون في الدين، وليس عندهم كتاب بلغتهم وابدجديتهم يقرأونه

ويدرسونه ولكن لهم بعض الرسائل يتناقلونها كمثل أعلى للفصاحة والبيان يحتلون أسلوبها، وينسجون على منوالها وهي رسائل خصوصية بأقلام النساء كن كتبها الى معاشقهن، يشتكين اليهم ما يجدنه بين جوانحن من الوجد بهم، وما في هذا الوجد من لوعة وعذاب. وأسلوب هذه الرسائل أسلوب فطري بسيط، يبدأ فيه باسم الكاتبة، ثم يذكرون اسم المكتوب إليه. ومن بلاغتهم أنهم يكررون الكلمة التي يراد تأكيد معناها. وكل كلمة تكررت أبلغ في التأكيد. ولمثل هذا التأكيد قد يكررون الكلمة عشر مرات أو أكثر. ولهم اعتبارات أخرى يميزون بها بها بين درجات الكلام. وشعرهم أكثر من نثرهم، وهي مقطوعات في بضعة ابیات. وقصائد مطولات وخرافات وروایات منظومة. ولعل وأحسن ما في هذا الشعر هو أنه لا يزال سادجا على فطرته، ولا صنعة فيه، فهو صورة واضحة جلية لنفوسهم، من نزعات ونزعات ومن عواطف واحساسات. وأهم أغراض الشعر عندهم: الحماسة والمدح والغزل والتشبيب. ومن العجيب أن هذا الغزل وهذا التشبيب هما غزل النساء وتشبيهن بالرجال وأن هذا المدح هو مدح النساء للنساء. ولعلي أحدثك بمغربة إذا قلت لك: إنه لا يوجد بين رجالهم رجل شاعر، وإنما النساء هن الشواعر والشاعرات، على خلاف ما هو معروف بين جميع الشعوب، والشاعرة عندهم ها منزلة سامية، ومقام عظيم. وحينما حلت، لقبت من الحفاوة والبر بعض ما أشبه أن يكون "حفلات تكريم!" ولكل شاعرة راوية من النساء أو راويتان اثنتان أو أكثر، على قدر منزلتها من الشعر، وكل قبيلة تفتخر بشاعرتها أو بشواعرها وقد يجتمع جماعة من الشواعر، وهن من قبائل مختلفة، فيتناشدن الأشعار ويتفاخرن بالفصاحة والبلاغة، ومن أسباب الفخر أن تكثر الشاعرة في شعرها من الكلمات النافرة الغربية، تريد بذلك أن تفوق زميلاتها وتبرز عليهن، وهذا وجه من وجوه البلاغة ودليل من دلائل الاعجاز عندهم، ولعل هذا هو كل ما في شعرهم من الصنعة والتهمل ويزعمون أن أول من قال الشعر بلغتهم هي

المرأة الشاعرة التي هي أيضا اول من كتب بأبجدية " تفناق " وأول من قالت شعرا اليك تعريبه: فاطمة بنت أغنيس، لا يمس أحد خصرها الا بصداق مبلغه ستة عشر قرشا، وهم يكونون بمس الخصر عن الزواج، لأن أول ما يمس الرجل في عرفهم من المرأة هو خصرها، وهذا المبلغ من الصداق لا يمكن أن يقدمه لها الزوج، الا كما يمكن أحدنا أن يقدم لزوجته في صداقها مملكة من الممالك!

واللغة التاريخية بربرية محضة، وأدبها بربري في أسلوبه وخياله، بخلاف لغة بقية العشائر البربرية في الجزائر، فقد دخلها من العربية شيء كثير ما يحصى حتى صارت عربية مشوهة وتسمعا أنت الذي لا تحسن البربرية، فتفهمها تماما لانها كلمات عربية وكلمات بربرية في تركيب عربي عام، وسوف لا يبقى لها أثر البتة على قدر ما يزيد امتزاج البربر بالعرب، وأما التاريخية فهي مستقلة عن العربية كل الاستقلال، ولا سيما من حيث التراكيب وحروف والمعاني، فأسماء الأشخاص ما يزال أكثرها بربريا، وأسماء العدد كلها بربرية من الواحد الى الألف .

وبالجملة فلا ينطقون بكلمة عربية، الا بما لا بد منه لكل مسلم من كلمة الشهادة ونحوها وينطقونها في صيغة بربرية فيقولون " سيدنا محمد " بحاء مفخمة هم يعنون " سيدنا محمد " وهكذا.

بحث طريف في " التوارج " الملتمين*

مقام المرأة العالي عندهم

المرأة التارجية تمتاز عن الرجل بالفطنة والذكاء، ولكنها حرمت كل ما في الأنوثة من وداعة وجمال، وكل ما في المرأة من فتنة وسحر، وقد امتاز الرجل عنها بالحسن ورشاقة القد، وجمال الهندام. ولعلنا نستطيع بهذا أن نعلل كثرة الشواعر من النساء، وقلة الشعراء من الرجال أعني أن المرأة رأت في الرجل من الجاذبية والإغراء ما أثار شاعريتها وملاً ما بين جوانحها عاطفة وشعورا، فظنت الشعر فيه. وأن الرجل لا يجد في المرأة التارجية ما يجب أن يكون فيها من الروعة والفتنة، فظلت عواطفه باردة، وظل هو جامدا لا ينظم الشعر فيها، وقد يكون أيضا هذا هو السبب في أن الرجل لا يتزوج أكثر من واحدة، ولا يطلقها ويستبدلها بواحدة أخرى، إلا أن هذا التعليل غير صحيح والحق أنهم لا يعددون الزوجات، ولا يطلقون، لأن المرأة هي التي تتحكم بالرجل محكما مطلقا، وتستأثر بالأمر والنهي دونه، داخل المنزل وخارجه، فأمر الزواج والطلاق وغيرهما كله بيد المرأة، وهذه لا تحجم أن تقول للرجل: " ليس لك من الأمر شيء." ومع أن المرأة هي الآمرة الناهية، لا تكاد الفتاة تمضي عقد زواجها إلا عن اضطرار أو عما يشبه الاضطرار، لأنها ترى في الزواج للرجل شبه سلطة عليها لا يدعيها هو لنفسه، ولا تعترف له هي بها، وهم يمدحون المرأة التي تعاف الزواج، وتعيش

* محمد السعيد الزاهري: (بحث طريف في " التوارج " الملتمين، مقام المرأة العالي عندهم)، المقتطف،

المجلد 76، الجزء 5، 2 ذي الحجة 1348هـ، ماي 1930م، ص 555.

عائسة عازية، وللنساء مثل أعلى في هذا الباب هو حياة " داسين" التي كدن يعبدنها من دون الله و" داسين" هذه هي أخت (أمنوكال هكار) لم تتزوج قط عمرها عزوفا عن الرجال وكبرياء، وقد مدحها النساء على ذلك بأشعار كثيرة، ووضعن لها روايات ملأها بمناقبها ومعجزاتها، حتى أصبحت اليوم موضوعا للخرافات والأساطير، وهم يعنون بالفتاة أكثر مما يعنون بالغلام، فإذا ولدت تباشروا بميلادها، وأولوا لها دون الغلام، وإذا بلغت الحلم أو غطت رأسها كما يقولون، أولوا لها أيضا واحتفلوا بها، ويومئذ تحضر مع الأوانس سهرات " أهال ". وترى الفتيان يومئذ يعرضون أنفسهن عليها عرضا وهم في زينتهم، وفي أفرج ملابسهم مثلثون منتظمون، لا ترى إلا أعينهم خلال النقاب، يريد كل واحد منهم أن ترضى عنه وتستخلصه لنفسها صاحبا أو خطيبا ولا يجرؤ أحد منهم أن يفتحها بكلمة في هذا الشأن، فتمر هي بهم سافرة مغتبطة، أو ضاحكة مستبشرة، تتصفح هذا، وتسخر من لئام هذا، تعجب برشاقة هذا حتى إذا اختارت واحدا منهم، ورضيته لها خليلا، رجع الآخرون وكأنهم خسروا الدنيا والآخرة يحملون بين جنوبهم الغم والحسرة، ويرجع صاحبها وهو يظفر مرحا ونشاطا، ويطفح زهوا وخيلا، يكاد يخرق الأرض ويبلغ الجبال طولا، ثم يقضيان معا مدة قبل الزواج يختلفان فيها بعضا إلى بعض، ويخلوان بأنفسهما، ويجتمعان في سهرات " أهال " العمومية، ليظهر لها هو أنه كفؤ لها، ولتأكد هي مما عنده من الأدب والاستقامة، وما الأدب والاستقامة في عرفهم إلا واجبات عرفية يؤديها الرجال، ولا سيما الفتيان على أتم وجه، وبغاية التدقيق، والويل كل الويل لمن فرط في واجب منها؛ كمن أكل أو شرب أو حسر عن لثامه أمام امرأة غير زوجته، فإنهم يعدون

ذلك إهانة منه للمرأة لا يغفرونها. ومن كمال المروءة والأدب عندهم أن لا يفعل الرجل شيئا من ذلك أمام المرأة مطلقا، ويود الفتى لو تسوى به الأرض دون أن تسمع عنه خطيبته أنه أساء الأدب، فأكل أمام امرأة، واني أعرف أن النساء في بعض قبائل البربر والعرب بالجزائر هي اللاتي لا يأكلن ولا يشربن أمام الرجال على خلاف الأمر عند (التوارج). ولعلك تعجب جد العجب إذا قلت أن الفتى لا يلقى خطيبته إلا متجملا أنيقا، لا تكاد هي تلقاه إلا في بذلة خدمتها! وماذا يغنيها بعدما حرمت ما في المرأة من عذوبة وروعة أن تتزين بزينة مستعارة وجمال كاذب، وإذا اجتمعا فلا يتحدثان في شيء، إلا أن يتطارحا أحاديث الحب والغرام، أو أن يشكو بعضهما إلى بعض ما يجده من حرارة الوجد به والشوق إليه. ومن الغريب أن الفتى لا يقبل خطيبته مطلقا، لا لأنه يخاف أن يآثم بالتقبيل بل لأن التقبيل عار عظيم في عرفهم، وبدلا من ذلك فإنه يشمها ويستنشقها كما تستنشق الريحانة أو يشمها ويكرفها كما تكرف!

وإذا رضت الفتاة، وأعطت الخطيب أمانة على رضاها وزوجها منها أبوها، وتضطر العروس في أيام عرسها الأولى إلى الزينة فنتزين، ولكن بماذا؟ تصبغ غدائرها بالزيت واليحموم، وتبيت في زينتها هذه، وتصبح وقد طلي بالسواد وجهها وجيدها وترائبها، وتراها أنت صبيحتنذ، فترى منظرا كريها على أشد ما يكون قبحا وبشاعة.

وحفلة العرس في باديتهم أن يخرج النساء إلى عرصة من عرصات الحي، يغنين ويضربون الطبول، ويركب نحو عشرة من الرجال نجائبهم، ويرقصون جيئة وذهابا. وغناء النساء وضربهن للطبول على حسب رسم المهوري، وعند الانتهاء

تعتمد فتاة آنسة إلى خمارها فتجعله على عصا تلوح به، فتستبق إليه المهاري، والفخر كل الفخر لمن سبق فاختطف الخمار من يد الفتاة، وفي الحضر يرقص الرجال فرادى، يأخذ الراقص منهم حريشه (رمحه) بيده، ويرقص على رجل واحدة، والذي نعلمه على بعض قبائل العرب والبربر في الجزائر وفي بعض بلدان أسبانيا (وحتى في المراقص الأوروبية اليوم) أنهم إذا كانوا في عرس فالعادة أن الرجال هم الذين يعزفون، وأن النساء هن اللاتي يرقصن، وإذا صح ما قيل من أن هذا أثر من آثار استبعاد المرأة وتحكم الرجل بها حتى لا تعدو أن تكون له ملهاة يلهو بها، كما يلهو بالآلة الصماء، فإننا نستطيع أن نعكس هذا بالنسبة إلى (التوارج)، فالرجل هنالك هو الذي يرقص للمرأة، ولا يعدو أن يكون ملهاة لها، ونستطيع أن نقول إن هذا من آثار تحكم المرأة به، حتى أنه لا يعيش إلا لها.

والمرأة في البلاد المتحضرة إذا تزوجت نسخ اسمها، واندمج في اسم الرجل، فتعرف بالزوج، وتضاف إليه، فيقال "مدام فلان" والأمر في (التوارج) على خلاف ذلك، فإن المرأة هنالك لا ترضى بأن ينسخ اسم الرجل اسمها، ولا تُعرّف هي به، أو تضاف إليه، بل هي التي قد تنسخ اسمه باسمها فيقال "زوج فلانة" و"ابن فلانة" و"أبو فلانة" أي لا يندمج اسمها باسم الرجل، ولا تضاف إليه، سواء كانت زوجة أو بنتا أو أما على غير ما هو معروف بين المتمدنين.

(آهال)

ولعل الظاهرة التي تميز حياة (التوارج) الاجتماعية، ويختلفون بها جد الاختلاف عن إخوانهم المسلمين هي هذه السهرات التي يسمونها " آهال " وهي مجامع لهو وأنس، يجتمع فيها الرجال العزاب بالأوانس والأيامى من النساء، يتسامرون ويتناجون، ويغنون ويلهون إلى ساعة مؤخرة من الليل، أو حتى مطلع الفجر، وذلك أنهم إذا فرغوا من العشاء خرج النساء غير متخذات الأخذان (الأزواج) إلى ساحة قريبة من منازلهن، وجلسن مجمعا واحدا أو أكثر كما يشتهين، وجعلت مغنيتهن تغني وتوقع على رباب يسمونه " أمزاد " وهو قارورة قرعة مجلد، وتتخذ لها أوتار من أعراف الخيل، ويحيى كل رجل ملثم الوجه منتقبا، ومتجملا أنيقا، فيرشق حريشه إلى جانب خطيبته أو صاحبتة (محظيته). واتخاذ الصاحبة بغير نية الزواج أمر معروف عندهم لا ريبة فيه ولا عيب، ثم يؤذن له، فيجلس إليها جلسة قائمة مستوية لا يكحّ فيها، ولا يتلفت ولو لحادث مهم، وقد يكون الرجل على بضعة أميال من " آهال "، فيتخذ خصيصا لهذا الأمر مهريا نجيبا، حتى إذا بلغ " المجمع " سلم، وأناخ راحلته، ولكنة لا ينزل حتى يؤذن له من كبيرة المجمع، ولا تكون هذه الكبيرة إلا امرأة، وهي التي لا ينصرف أحد من المجمع إلا بإذنها، وفي " آهال " لا يرفع الرجل صوته فوق صوت المرأة، ولا يغني إلا إذا رغب منهن، وألحن عليه وكان حسن الصوت، وأذنت له صاحبتة.

ومنتهى الأدب والوقار والحياء عندهم أن يتأدب الرجل بهذه الآداب، أو يتقيد بهذه القيود التي لا تقيد المرأة بواحدة منها، حتى أنها لا تتجمل ولا تتأنق في أكثر الأحيان. وتلقى خطيبها في " آهال " وهي في بذلتها اليومية، والمرأة عند

بعض العرب والبربر في الجزائر هي التي لا ترفع صوتها فوق صوت الرجل، وتتأدب بآداب لا يكاد الرجل يتأدب بوحدة منها، وإذا مضت دولة الليل أعلنت الكبيرة بانفضاض الجمع، وخلت حينئذ صاحبة بصاحبها، وجلست الفتاة بخليها، بعيدا عن الأنظار، وخلاء من العيون إلى مطلع الفجر أو إلى مطلع الشمس. ويقول السيد (يحيى أبو ثمن) أن هذه الخلوات لا منكر فيها، ويؤكد أنها لا تكون إلا على حب طاهر غير آثم، وعفاف تام لا شائبة للريبة فيه، مع أنني سمعت مثل هذا على بعض بادية الجزائر التي يلتقي فيها العاشقان في إغفاءة الواشي وغفلة الرقيب، فما أنا بمؤمن مثل هذا العفاف، ولئن آمنت به فيما بين العاشقين اللذين لا يلتقيان إلا اللحظة بعد اللحظة، يختلسانها اختلاسا ولا يكادان يطمئنان فيها، ولا تكاد تسعهما لأكثر من السلام ومقدمات الحديث، فلا أراني أومن به فيما بين العاشقين اللذين يلتقيان في كل يوم وليلة، وببيتان في مثل لحاف واحد، من غير أن يحذرا واشيا أو رقبيا، لأن الحب النهم الذي يريد أن يشتقي لا يبالي بالعفاف بل قد يعمي صاحبه " حتى يرى حسنا ما ليس بالحسن "

الملابس والزي

إذا كلب البرد واشتد لبس أهالي أهرير لاتقائه عبااءات وبرانس من الجلد، ولا يلبسون البرانس إلا أن تكون من الجلد، ولبس غيرهم بدل البرنس سترة كبرى من صوف تأتيهم من توات وهي خشنة مثل بعض ما نتخذه نحن في الشتاء غطاء. وملابس الرجال والنساء متماثلة في شكلها ونوعها، وهي من أقمشة خشنة بسيطة ترد عليهم من بلاد الانكليز، ويصبغونها بالنييلة الزرقاء، وأفخر عبااءة عندهم ما كانت تتميز زرقة ولمعانا، ويلبس نبلاؤهم أثوابا مفوقة مجعبة زرقاء، ولا يغسلون

ثيابهم البتة، ولا يخلع الواحد منهم ثوبه حتى يبلى على جلده، ويصبغون جلودهم أيضا بالنيلة الزرقاء، ولا يغسلون وجوههم ولا أيديهم ولا أرجلهم، ويتيممون للصلاة بالتراب ولا يتوضئون لها بالماء، وهم أصحاء غير مرضى، والماء موجود غير مفقود، ويلبسون نعالا بسيطة يتخذونها من جلد الزرافة أو من جلد المها (بقر الوحش) ويخيطون إليها طبقة من الجلد الفلالي الناعم المرقوم بنقوش يباهون بها كما يتباهون بالنقوش البديعة التي ينقشونها على برانس الجلد وجبابه.

ونعل الرجل عريضة أوسع من رجله، بخلاف المرأة فنعلها قد رجلها، وكذلك الأمر في الثياب، وقد يتخذ الرجل في عباة "جيفا" يبلغ ذراعا مربعا يتباهى بسعته، ويتخذ الرجل منهم لثاما يلثم به، وهو نوع من القماش الذي يلبسونه، ويجب أن يكون مجعبا ومصبوغا أيضا بالأزرق، ويجب أن يكون في تجعبه وزرقة لامعا زاهيا، ويلثم الرجل، ثم لا ينزع لثامه إلا إذا خلا في منزله، ومن العار عندهم أن يكتشف الرجل عن وجهه أمام امرأة، ولا سيما أمام خنتته (أم زوجته). ومن حكاياتهم أن رجلا كان ذات يوم عريانا وغير ملثم، وقد لف فوطة بوسطه فرأى (خنتته) مقبلة عليه، فسرعان ما انتزع الفوطة من وسطه وألثم بها، وقابل (خنتته) مقابلة فيها الأدب والوقار وفيها المروءة والحياء، وهم يذكرون هذا الرجل بكل تحية واحترام، ويصفونه بكمال المروءة والأدب. والسبب في أصل اللثام هو التوقي من الحر والبرد والغبار، أو الأصل فيه: التنكر من أجل النهب والغارة، وإذا طالت لحية الرجل تحت اللثام ظفرها، وإذا حجم أو حلق رأسه توارى بذلك من الناس.

عقائدهم

هم مسلمون كما رأيت، ولكنهم يعتقدون أنهم هم المسلمون حقا، وأن "جانت" بلدة مقدسة، ويزعمون أن مكة المكرمة بالبيت الحرام الذي فيها كانت عندهم في جبل قريب من "جانت" هذه، ويزعمون أن كلبا أسوداً جاء ذات يوم فحال بينها وبين طلوع الشمس فانتقلت إلى الحجاز حيث هي اليوم، ومازالوا إلى اليوم يسمون هذا الجبل "مكت"، ومهما كانت هذه الخرافة فمعناها تقديس بلدهم، وقصر الدين على أنفسهم. وعندهم خرافات حربية، يصفون فيها أبطال النهب والغارة بأوصاف الربوبية، وهم أتباع للطريقة السنوسية، ويعظمون الشيخ السنوسي تعظيما كثيرا، ومع ذلك فليسوا كبقية المسلمين الذين وضعوا خرافات كثيرة رفعوا فيها "الأولياء" إلى مقام الألوهية، واتخذوا من دون الله أندادا يحبونهم كحب الله.

ومما أخذه (التوارج) عن "كفرة" أنه إذا جاء أجنبي غير مسلم يزور مسجدا من مساجدهم كشفوا عنه، وعابنوه، فإن وجدوه رجلا نكرا، وضؤوه، وأذنوا له بأن يدخل المسجد، وإن وجدوها امرأة منعوها من الدخول، ولست أدري ما هو أصل هذه الخرافة، ولا يتساهلون في معاينة الزائر، والكشف عنه، مخافة من الزائرات اللاتي يحسبهم لابسات ملابس رجال، ويشتبهن عليهم بالزائرين الذين يخلقون لحالهم وشواربهم. وكانت زائرة انكليزية مشهورة، ولعلها (مستر فوريس) لبست لباس رجل، واحتالت على أهل "كفرة" فدخات الجامع، فسمحوا لها بالدخول ظنا منهم أنها رجل، فمنذ ذلك اليوم أوجبوا معاينة كل زائر يزور المسجد، ولعله من هنا اعتقد الغربيون اعتقادا خاطئا أن المسلمين لا يبيحون للمرأة أن تدخل المسجد.

ولقد أرسلت فرنسا إلى تلك البلاد نفرا من "مقاديم" الطريقة التجانية، ونفرا من أشياخ الطريقة القادرية، ليحملوا الناس هناك على الرضا بالاحتلال الأفرنسي، وليطفئوا ما في صدورهم من نزعة إلى المقاومة والدفاع، ثم ليقوموا في البلاد التي مازالت حرة بدعاية تمهد فرنسا طريق الاستعمار. ومع أنهم لا يدركون الغرض الحقيقي من تلك الطريق الصوفية فإنهم ينظرون إليها كما تنظر إلى بدعة منكرة، ذلك بأنها ما تزال جديدة لم يمر عليها الوقت الكافي لتكون أمرا قديما يحتفظ به الناس ويقدمونه نقديا، والعامية قد تتكر الجديد ولو كان حقا، وتتبع القديم ولو كان باطلا.

أعيادهم

واهم عيد عندهم هو عاشوراء، ويسمونها "السببية" ومدتها عشرة أيام. أولها غرة المحرم، ويأتونها من كل فج عميق. ويذكرون أن رجلا منهم كان على عشر ليال من "جانث" فجاءها ليقضي بين قومه فيها أيام هذا العيد، حتى إذا لم يبق بينه وبينها إلا ثلاث ليال أدركه وقت الرقص من يوم السببية، وعرف أنه لا يصل "جانث" قبل ثلاثة أيام، جعل يرقص وحدة فعشر بركوة ماء كانت معه فأراقها، وليس أمامه ماء سواها فمات عطشا. وهم يعدونه شهيدا ويترحمون عليه.

وفي هذا العيد يرقصون، ويتفاخرون كثيرا وتختار كل قبيلة منهم فرقة خمسة أو أربعة من أبرع شبانها الراقصين، وتزينهم بأجمل زينة، وتلثمهم بأزهي اللثامات زرقة، ويحشر الناس ضحى في صعيد واحد، ثم تتبارى الفرق الراقصة على غناء النساء، فمن حازت الاستحسان والإعجاب كان ذلك فوز لقبيلتها، وحسبت هذه

القبيلة أنها قد ظفرت بالسعادة، وأقبلت عليها الدنيا بحذافيرها، وتكون أنت أحب الناس إلى القبيلة التي يعجبك رقص فرقها، وتحكم بينهم لجنة محايدة، وكثيرا ما يكون حكم اللجنة سببا للمنافرة والخصومة.

وأما أعيادهم الإسلامية الأخرى فإنهم يعيدونها كما يعيدها المسلمون الآخرون. إلا أنهم إذا فرغ الإمام من خطبة عيد الأضحى قذفوه بالحصى وتسابقوا إليه يقبلونه! ...

وأخيرا نلفت نظر القراء الكرام إلى هذا المقام الرفيع الذي نالته المرأة التاريخية بالنسبة للرجل، وهو مقام المرأة الغربية من حيث مساواتها بالرجل. والرجل عند التوارج يتقيد أمام المرأة بقيود لا تتقيد هي بواحد منها، حتى أنه يتزين لها، ولا تتزين هي له ولا يرتفع صوته فوق صوتها، ولا يأكل ولا يشرب أمامها، ولا تراه قد حسر من لثامه، ويكاد يقف بين يديها كما يقف بين يدي الله خشية وخضوعا.

وهنا هل يحق لنا أن نسمي " حرية المرأة التاريخية" هذه، حضارة وتمدنا؟ وهل دعاة" السفور" يدعون المسلمة الشرقية إلى الرقي والتقدم، أم يدعونها إلى التأخر، ويرجعون بها إلى الوراء؟، وهل يسر المسلمة الشرقية أن تكون من الحور المقصورات في الخيام، أم يسرها أن ترتقي وتتمدن، حتى تكون كالمرأة التاريخية حرية وسفورا؟

و - مجمع اللغة العربية بدمشق

واسطة السلوك في سياسة الملوك*

هو اسم كتاب نفيس، لا يزال يدويا مخطوطا لم ينشر بعد. توجد منه نسخة في مكتبة (الإسكريال) باسبانيا، ترجمت إلى اللغة الاسبانية بقلم الأستاذ كاصبار مدريانو وطبعها (الترجمة الاسبانية) في سنة 1899م، بمدينة (سرقسطة) إلا أنه طبع منها نسخا قليلة سرعان ما نفذت وأصبحت نادرة لا تكاد توجد.

وكان المظنون أن النسخة الموجودة في (الاسكريال) هي النسخة الوحيدة من هذا الكتاب. غير إنني عثرت أخيرا على نسخة مخطوطة أخرى من هذا الكتاب، في مكتبة صديقي الفاضل الشيخ: (حاج عبد القادر قار جه) في تلمسان (الجزائر) وهي نسخة تقع في مائتين وخمس وأربعين صفحة (245)، طول الواحدة منها 82 سنتيمترا في عرض 20 سنتيمترا، وفي كل صفحة 81 سطرا، ولا تتقص كلمات كل سطر عن 21 كلمة، ولا تزيد عن 51 كلمة، وقد كتبت هذه النسخة بخط مغربي واضح، وفيها كثير من الخطأ والتحريف، بسبب أن الناسخ كان يسرع في نسخها ويمعن في هذه السرعة، فاضطرده (هكذا) ذلك أن يهمل بعض الحروف المعجمة وأن يعجم بعض الحروف المهملة، أو أن يكتب الدال راء أو واوا أو نحو ذلك، إلا أن ذلك كله لا يحول دون قراءتها بسهولة و بلا عناء كبير. ومع أن الكتاب قديم ألف فيما بين سنة 07 و بين 08 من القرن الثامن الهجري فإن هذه النسخة التي أصفها قد فرغ من نسخها في يوم السبت 3 جمادى الأولى سنة 1261هـ (ألف ومائتين و واحد وستين). و قد كتب النساخ اسمه في أسفل الصفحة الأخيرة بشكل مبهم لا يكاد يبين، فلم أقرأ منه غير كلمتين لا أدري أولاهما من

* - محمد السعيد الزاهري: واسطة السلوك في سياسة الملوك، مجمع اللغة العربية، بدمشق، مجلد 11،

جزء 1، 2، كانون الثاني 1931م، ص 97 إلى 101.

آخراهما وهما: حسن بن عمار أو هي عمار تحريف عمر كما ينطقها العامة في تلمسان اليوم. وإنى الآن أبحث عن النسخة الأصلية التي أخذت منها هذه النسخة ولعلي أجدّها قريباً.

اسم الكتاب واسم المؤلف - أما الكتاب فاسمه في هذه النسخة (واسطة السلوك في سياسة الملوك)، وقد ذكره يحيى بن خلدون صاحب (نجعة الرواد في ذكر بنى عبد الواد) باسم (نظم السلوك في سياسة الملوك). وأما اسم المؤلف، فهو السلطان (موسى أبو حمّو الثاني) أشهر بنى زيان ملوك تلمسان في التاريخ. غير أن هذه النسخة التي أصفها لم يذكر في أولها اسم المؤلف وإنما ذكرت بعض أخبار (بنى زيان)، وذكرت معها تواريخها يستطيع الباحث أن يعلم منها اسم المؤلف وأنه هو (موسى بن حمّود) ما فيه من شك. على أن قارئ هذا الكتاب لا يلبث أن يقرأ فيه هذه القصيدة التي يقول فيها ناظمها وهو مؤلف الكتاب:

وأنا موسى أبو حمّو أصلح للملك ولا يصلح لى فأننا للطفل كوالده وأسوق الشيخ على مهل

وهي قصيدة رائعة ملئت حكمة وحكما.

موضوع الكتاب - هو سياسة الملوك وتدبير الممالك، ولعل هذا الكتاب هو من خير ما ألف الناس في هذا الموضوع. وضعه (موسى أبو حمّو) هذا لابنه وهو يعظه ويوصيه ويقص عليه تجاربه واختباراته في السياسة والاجتماع. وقد أودع له في هذا الكتاب كل ما يحتاج إليه الملوك (أو الخلفاء) الذين يديرون ممالكهم بأنفسهم، ويدبرون فيها كل جليل وحقير. وفي الحق أن هذا كتاب يدل على أن مؤلفه مطلع واسع الاطلاع، وعالم غزير العلم ومجرب حكيم وسياسى داهية، كثير الحيل والأخاديع. وهو كتاب يحتاج إلى مثله (بالأخص) أولئك الذين يحكمون أممهم وشعوبهم حكماً إفرادياً ديموقراطياً. لا بل يحتاج إليه كل حاكم طاغية كان أم عادلاً. لا بل يحتاج إليه كل عالم من علماء التاريخ والاجتماع فهو

صورة واضحة لنفسية موسى أبي حمو الثاني الزياني، وما في هذه النفسية الملوكية الكبرى من وداعة وتواضع وما فيها من عظمة وجبروت. وهو أيضا صورة واضحة للمجتمع الإسلامي في الجزائر أو في المغرب كله لذلك العهد، ولما في هذا المجتمع يومئذ من رغبات ومطامح وما فيه من شهوات ومطامع.

وتشعر، وأنت تقرأ هذا الكتاب بأن مؤلفه يقطع من نفسه اقتطاعا. وتراه يضع بين يديك آراء ناضجة قوية في السياسة والاجتماع، وهي وليدة التجربة والاختبار. ولا تكاد تجد في الكتاب كله رأيا واحدا بني على الفرض والتقدير دون الخبرة والعيان. ومن هنا جاءت قيمة هذا الكتاب، ومن هنا كان كتابا علميا، وأن موضوعه في سياسة الملوك.

وليس عجيبا أن يكون هذا الكتاب مبنيا على الواقع الذي لا ريب فيه، فقد وضعه صاحبه لابنه وولى عهده واجتهد أن يكون له هذا الكتاب دستورا قويا، يقيه شر ما يكون في تدبير الملك وسياسة الأمة من أغلاط وعثرات. ولكن (أبا تاشفين الثاني) هذا كان ولدا عاقا لا خير فيه، وما كان أهلا للملك. فقد جازى أباه (أبا حمو) جزاء (سمنار) استتبأ حياة أبيه فتعجل الأمر وثار عليه فقتله، وقتل معه كثيرا من رجال الدولة وعلماء الدين. ثم لم يتمتع بالملك بعد أبيه غير أربع سنوات قضاها بين الفتن والاضطرابات.

أسلوب الكتاب - وأسلوب الكتاب في جملته هو أسلوب القرن الثامن الذي كان يعيش فيه المؤلف. وهو أسلوب كان شائعا بين الأدباء عموما وأدباء المغرب خصوصا، منذ القرن السابع إلى ما قبل هذه النهضة الأدبية الحاضرة، ولا يزال كثير من أدباء مراكش (المغرب الأقصى) يكتبون به إلى هذا اليوم.

وأصحاب هذا الأسلوب في الغالب لا يستعملون الكلمة في موضعها ولا يؤدون المعنى باللفظ الذي وضع له (لا حقيقة ولا مجازا) ويكثر من الأسجاع الباردة التي يتكلفونها ولو أفضى بهم تكلفها إلى إضاعة المعنى. وقد لا يزيدون السجعة (الفاصلة) بتمامها لشيء إلا ثرثرة وفضولا. و(أبو حمو) هذا، كذلك في هذا الكتاب لا يجيد القول ولا يضع الكلم في مواضعه إلا إذا ترك السجع وأرسل نفسه على سجيته وجاء كلامه عفوا، وحينئذ يكون كلامه « سهلا ممتعا» منسجما صادقا لا عيب فيه.

على أن (أبا حمو) هذا قد وفق في أسلوب هذا الكتاب إلى حد بعيد من التوفيق، فهولا يكتفى ببيان الرأي من آرائه التي ولدتها تجاربه واختباراته، حتى يزيد على ذلك قصة صغيرة أو يضرب لك مثلا من الأمثال يقنعك كل الإقناع من حيث تشعر أو من حيث لا تشعر بصحة الرأي الذي يراه و يذهب إليه.

تبويب الكتاب - وقد جعل المؤلف كتابه هذا ديباجة واربعة أبواب. فأما الديباجة فقد ذكر فيها السبب الذي حمله على تأليف الكتاب، فقال فيها: «...أما بعد، فإنه لما كانت الأولاد، قطع الأكباد، وعماد الظهر، وشفاء الصدور، وثمار القلوب، وجلاء الكروب، ودرّة كل زين، وقرّة كل عين، ووصلة الأنساب، وسلسلة التناسل والاعتناء(كذا بالأصل) وورثة الآباء...وسر الحياة، وحياة العظام.

استدراك*

ذكرت في وصفى لكتاب واسطة السلوك فى سياسة الملوك المنشور فى مجلة المجمع (ج 2 م 11) أنه لا يزال يدويا مخطوطا لم ينشر بعد...، والواقع أنه طبع فى تونس منذ سبعين سنة، وقد ظفرت بنسخة مطبوعة منه، فإذا هو مطبوع بحروف قديمة دقيقة رديئة جدا. ولم تطبع منه إلا كمية قليلة نفدت كلها فيما نظن وعاد الكتاب نادرا لا يكاد يوجد.

* محمد السعيد الزاهري: (استدراك)، المجمع اللغة العربية بدمشق: المجلد الحادى عشر، أيار و حزيران 1931، الجزء 5 و 6، ص 371.

ز - مجلة المعرفة

في المغرب الأقصى*

المغرب الأقصى أم مراكش ؟

أما الكتاب في مصر وفي غيرها من بلاد المشرق، فإنهم يطلقون كلمة (مراكش) على المغرب الأقصى، ثم تابعهم على ذلك حملة الأقلام في الجزائر وتونس، وأما أدباء المغرب الأقصى فإنهم يطلقون "مراكش" على المدينة لا على عموم قطر، وهم يكرهون منا أن نسمي بلادهم "مراكش" وأن نسميهم "مراكشيين"، بل يريدون منا أن نسميهم "مغاربة" وأن نسمي بلادهم باسم "المغرب الأقصى"، وقالوا إن كلمة "مراكش" بمعنى القطر في تعريب لكلمة (MAROC) الفرنسية، والحق أن هذه الكلمة الفرنسية هي التي نقلت عن العربية بلفظها ومعناها فقد كان الأدباء العرب يطلقون كلمة "مراكش" على القطر كما يتلقونها على المدينة وهناك أكثر من كتاب وضعه الأولون في أخبار الدول المراكشية وهم يعنون أخبار دول المغرب الأقصى وأنا شخصيا أستحسن أن يسمى "المغرب الأقصى" باسم "مراكش" المدينة التي كان لها على عهد دول الإسلام شأن عظيم، والتي ما تزال إلى الآن من أكثر مدن المغرب الأقصى سكنا وعمرانا، والتي هي من أجمل العواصم التاريخية لتلك البلاد الكريمة، كما سمي المغرب الأوسط "الجزائر" والمغرب الأدنى باسم "تونس" ومع ذلك، ومع أننا كلنا مغاربة فإنني

* محمد السعيد الزاهري: (في المغرب الأقصى)، المعرفة، مجلد 7، العدد 11، السنة الأولى، شوال

1350هـ، مارس 1932م، القاهرة، مصر، ص1377.

أسمى " المراكشيين " باسم " المغاربة " وأدعوهم بأحب الأسماء إليهم، وأدعو بلادهم " المغرب الأقصى " .

وهران (مراكش)!

لو أن كاتباً مغربياً (من الجزائر أو تونس أو من المغرب الأقصى) كتب وقال إن مدينة الإسكندرية في فلسطين، أو إن بيروت هي في مصر أو نحو ذلك، لأكبر الناس منه هذا الخلط وعجبوا من أمره، كذلك نحن المغاربة تعجبنا وتأسفنا جدا عندما رأينا في هذه الأيام جريدة عربية من أكبر الصحف في بيروت تزعم أن مدينة وهران في مراكش (المغرب الأقصى)، وعندما رأينا أيضا جريدة من أكبر أمهات الصحف في مصر تنشر خبرا من أخبارها قالت عنه إنه جاءها من تونس بالمغرب الأقصى؟؟ وهكذا كثيرا ما نرى الكتاب والصحفيين في مصر والشام والعراق وسائر بلاد العرب إذا تكلموا عن بلاد المغرب (الأقصى والأوسط و الأدنى) خلطوا في كلامهم خلطا فاضحا، حتى كأنهم يتكلمون عن مجهل من المجاهل التي لم تطأها قدم إنسان، فتارة يحسبون أن وهران في مراكش، وأن تونس في المغرب الأقصى، وتارة يحسبون أن الدار البيضاء هي من مدن المملكة التونسية، ومن العجب أن إخواننا في مصر والشام وغيرها يحسنون الكلام عن بلاد الإنجليز أو فرنسا أو هولندا، ويعرفون جغرافية البلاد الأوروبية وغيرها، ثم هم مع ذلك يجهلون جغرافية بلاد المغرب جهلا يكاد يكون تاما مطبقا، وليس من اللائق أن يجهلوا أو يتجاهلوا بلادا تربطها ببلادهم جميع الروابط والصلات، وليس في بلاد المغرب كلها من يجهل ما بين هذا المغرب العربي والمشرق العربي، من رابطة العروبة والإسلام، ولا ما بينهما من صلات في النسب والتاريخ وغير ذلك،

ولا من لا يعتقد أن هذه الأمة المغربية هي شعبة من الأمة العربية الكبرى بما فيها مصر، أو أن هذه البلاد المغربية هي جزء لا يتجزأ من بلاد الإسلام، وهذا هو ما يعتقدُه العامة والخاصة في الجزائر، وتونس ومراكش .

أصدق كتاب عن (فاس)

ولعل كتاب الأخوين (طارو) هو أصدق كتاب باللغة الفرنسية عن (فاس) أو هو أقرب ما كتب عنها إلى الصدق، وأدنى إلى الصواب، فقد وصف فيه كاتبه الحياة المغربية ب(فاس) وصفا صادقا عميقا تغلغل من المجتمع الفاسي إلى الدخائل والأعماق، وجليا فيه الحالة الاجتماعية هنالك جلاء واضحا مبينا، ولكن هذا الأمر لا يكون إلا بعد الدراسة الطويلة، والبحث العميق، و(المسيو جيروم طارو) لم يلبث في فاس - وهو بمفرده - إلا أياما قليلة لا تكفيه لدرس نفسية الفاسيين ولا للاطلاع على عاداتهم وأخلاقهم، وهو بعد لا يعرف اللغة العربية التي يتكلمها أهل الفأس ولا يتكلمون سواها، فكيف أمكنه أن يخرج للناس باسمه واسم أخيه (الذي لم ير فاسا فيما نعتقد) عن فاس هذا البحث الوافي، والدرس المستفيض؟ لقد كنت في حيرة شديدة من هذا الأمر الذي لم يستطيعه كاتب مهما أوتى من العبقرية والنبوغ، ثم عرفت أن رجلا عظيما مغربيا من الجزائر لبث في فأس أكثر من عشرين سنة و اصهر إلى بيت كريم من بيوتات فأس فتزوج بفتات من بنات النعيم هنالك، وهو اليوم من تجار (فأس) المشهورين، قد كتب عن (فاس) كتابا وصف فيه مشاهداته، وما رأى في (فاس) من أخلاق وعادات وصفا مستوعبا دقيقا تغلغل إلى دخائل تلك الحياة وأعماقها... ثم أحجم عن نشره باسمه، لأن فيه أمورا لا تسر أصهاره و إخوانه وأصدقاءه من الفاسيين، ولما لقيه (المسيو

جيروم طارو) في فأس - وهو كاتب فرنسي كبير - تعرف إليه، وأهدى إليه هذه المذكرات أو مسودات هذا الكتاب ليقتبس منها ما يشاء، فتناول الأخوان (طارو) ذلك بشيء غير قليل من التحوير، وكسواه من فصاحة الأسلوب وسحر البيان وأجمل الحل وأبدعها، فاستحقا بذلك أن يكون هذا الكتاب لهما لا لغيرهما، وقد قالت العرب الأولى: "من استرقه، فقد استحقه"¹.

حوار طريف

وقعت بين (المسيو جيروم طارو) وبين "شيخ الجماعة" شيخ الجماعة في فأس محاورة طريفة لم يذكرها (طارو) في كتابه عن (فأس) وهو أحوج ما يكون إليها، وقد ذكر محاورات جرت له مع وزير العدالة وغيره فيما كتب عن الرباط، وهي محاورات حول "دوران الأرض" أنكر فيها معالي الوزير المغربي، أن تكون الأرض هي التي تدور، وأتى بحجج على ذلك هي غاية في السخف والتفاهة مثل قوله: لو كانت الأرض هي التي تدور كما يقال لسقط كل من عليها من إنسان وحيوان ودور وقصور، ولهوى ذلك كله في مكان سحيق. وقوله: لو كانت تدور لتهدمت المنازل والبيوت ولشعرنا نحن بذلك، وما إلى هذا من الحجج والبراهين ...

وهذه المحاورة التي جرت بين (طارو) وبين (شيخ الجماعة) في فأس هي من هذا القبيل، ولو أن (طارو) فهمها على وجهها لطار بها فرحا وسرورا، ولوجد فيها لقلمه موضوعا خصيبا، ولكن الترجمان الذي كان بينهما لم يكن ينقل إلى

¹ - على أن لا (طارو) فيما كتب عن فأس هنات وهفوات لا تخلو من سوء نية (تعليق لصاب المقال)

الأديب الفرنسي أقوال شيخ الجماعة نقلا مطابقا بل كان يحرف الكلم عن مواضعه، وكان يرد على أسئلة (طارو) بأجوبة من عنده هو، ويهمل أجوبة الشيخ عمدا ولا يترجمها .

و " شيخ الجماعة" في فاس هو شيخ جامع " القرويين"، وقد أراد (طارو) أن يجتمع به و أن يراه، فطلب إلى ترجمان موظف هنالك أن يجمعه بشيخ الجماعة فوعده هذا الترجمان خيرا، قال الترجمان (وهو الذي نروي عنه هذا الحديث): لا أكتمك أنى فكرت في مكان الاجتماع فوجدت أن في هذا الأمر صعوبة وعسرا، فهل أجمعهما في فندق (الترازو - تلانتيك) الضخم حيث يقيم (المسيو طارو) ؟ وهذا أمر مستحيل لا يكون بحال، لأن الشيخ رئيس القرويين يرى أنه إن دخل هذا الفندق أو فندقا آخر مثله أو أي مكان من هذا النوع، فكأنما عصى الله ربه؟ أم هل أجمعهما عند الشيخ الرئيس في مكتبه الخصوصي؟ وهذا أيضا لا يكمن، لأن الرئيس ليس له مكتب بالمرّة لا خصوصي ولا عمومي؟ قال الراوي: ثم اهتديت أخيرا إلى حل المشكل، وجمعتهما في مكنتي أنا، قال: وحضر (طارو) أولا ثم جاء الشيخ الرئيس، فقام الأول إجلالا له وللسلام عليه، وحسر قبعتة من على رأسه، ومد يده يصافح الشيخ، فمد هذا بدوره إليه يده متثاقلا كارها مشمئزا كأنه يخاف أن يآثم بمصافحة هذا " النصراني". وقال (طارو) للشيخ: إننا و إن كنا مختلفين في الجنس واللغة، فإن بيني وبينك غير ذلك رابطة أخرى هي أفضل الروابط وأمتتها، وهي رابطة العلم والأدب ... قال الراوي: فكرة الشيخ الرئيس هذا الكلام وقطب في وجه الزائر لأنه يعتقد أن من لا يقرأ " مختصر خليل" في الفقه المالكي لا يكون عالما ولا أدبيا، أي أن العلم والأدب في نظر " شيخ القرويين" هما

" مختصر سيدي خليل" فقط لا غير، وسأله (طارو) عن سير التعليم في " القرويين" وهل يسير على وفق المناهج والأنظمة المتبعة الآن في الأزهر الشريف؟ قال الراوي: وكان (طارو) قد زار مصر، وحظي بمتابعة صاحب الفضيلة شيخ الأزهر، وعرف حالة التعليم هنالك، فأجاب الشيخ الرئيس بالتعليم في " القرويين" على غاية ما يرام يسير على أحدث المناهج وأفضل الأساليب، قال الراوي: والواقع أنه لا نظام في (القرويين) البتة، بل ولا يكاد يوجد فيه إلا تعليم عقيم لا فائدة منه ولا خير فيه، والشيخ لا يفهم ما هي المناهج وما هي الأساليب لا في التعليم ولا في غير التعليم، ولما قام " الشبان المسلمون" وجماعة الإصلاح الإسلامي في مراكش يطالبون بإصلاح التعليم وتنظيمه في " القرويين" كان هذا الشيخ الرئيس أول من أفتى بكفرهم... وسأله (طارو) عن أساتذة " القرويين" هل يحملون شهادات علمية من جامعات معترف بها؟ وهل يتقاضون مرتبات شهرية كافية؟ فأجابه الشيخ بأنهم يحملون شهادات علمية من نفس " القرويين"، وبأنهم يتقاضون مرتبات شهرية كافية لا يطلبون فوقها مزيدا، وقال الراوي: والحقيقة أنه ليس في " القرويين" أي نوع من أنواع الامتحان بالمرة، وليس فيه أي شهادة علمية، لا ابتدائية ولا غير ابتدائية، ولا ينقسم طلبته إلى الطبقات وأقسام، ولا إلى فرق وفصول، وانما يقرأون غالبا" مختصر خليل" يجتمع عليه الصغير المبتدئ والكبير المنتهي في آن واحد، وأما المرتبات فإن من هؤلاء الأساتذة المدرسين من يتقاضى شهريا مرتبا مبلغه خمسون فرنكا فقط، وأوفرهم جراية من يتقاضى ما مبلغه مائتان من الفرنكات شهريا، على أن هذه المبالغ لم يكن يتسلمها مستحقوها بانتظام، فربما تأخرت، وربما " هلكت" في الطريق، ومضى (طارو) يسأل الشيخ الرئيس أن يوازن له بين

" القرويين" وبين " الأزهر" وبين حالتي التعليم فيهما، فأجابه الشيخ بأن التعليم في القرويين هو خير وأفضل من التعليم في " الأزهر"، فقال طارقو: وما هو وجه هذه الأفضلية؟ فأحسد الشيخ الرئيس وكاد يتميز غضبا وغيظا، وجمع يده اليمنى بقوة وجعل يدق بها كف يسراه، ويعزقها عزقا عنيفا وهو يقول: " التدقيق، التدقيق، التدقيق". قال الراوي: ولا أكتمك أي حرفت كلمة الشيخ هذه، ولم أترجمها لـ (طارقو)، كما حرفت غيرها من أجوبة الشيخ وأقواله لما رأيت فيها من عدم اللياقة.

وهنا لابد أن نذكر أن هذه المحاورة قد وقعت منذ أعوام، وأما اليوم فقد صدر ظهير سلطاني (مرسوم ملوكي) بتنظيم التعليم في القرويين ويجعله على ثلاث درجات، وبتصنيف المدرسين والمعلمين إلى ثلاثة أصناف، يتقاضى المدرس من الصنف الأول مرتبا شهريا مبلغه ألف وخمسمائة فرنك، ويتقاضى المدرس من الرتبة الثانية ألفا ومائتان من الفرنكات، ويتقاضى الثالث ألف فرنك. وتشرفت في هذه الأيام بمقابلة صاحب المعالي وزير معارف المغرب الأقصى، وسألت معاليه عن هذا " الظهير" هل نفذ فعلا؟ وما هي النتائج التي تنتظر منه؟ فقال: " ان المراد من هذا الظهير هو تحسين مرتبات الشيوخ المدرسين في كلية القرويين، وهذا أهم ما حصل لحد الآن، وما سيحصل من سريان العمل بهذا الظهير...، وهذه غاية شريفة جدا لأنه ليس من الحق أن يكون رجال الشرطة وصغار الموظفين بالإيالة الشريفة يتقاضون مرتبات وافرة ضخمة، ثم لا يتقاضى علماء القرويين إلا مرتبات تافهة ضئيلة لا تسمن ولا تغنى من جوع، وهذا ما جعل الناس في المغرب الأقصى يقبلون على المدارس الفرنسية إقبالا كثيرا، وجعل بعضهم يعتقدون أو يزعمون أنه لا فائدة في العربية ولا تعلمها .

" مختصر خليل ": وهذا الكتاب في الفقه المالكي له قيمة عظيمة عند الناس في بلاد المغرب كلها، وربما قدسته العامة تقديسا، وجعلته بمنزلة القرآن الكريم و" العالم " أو " الأديب " الذي لا يبرز في استظهار " مختصر خليل " وفي حفظه، لا يكون له عند العامة أو أشباه العامة من طلبة الجزائر ومراكش أدنى قيمة ولا اعتبار، وقد يبلغ الرجل رتبة عالية في العلم والأدب ويعترف هؤلاء الناس بعلمه وفضله، وتكون له شهرة واسعة يتمتع بها بين مختلف طبقات الناس، ومع ذلك فإذا تمكن أحد من خصومه من أن يرميه بأنه " لا يحب مختصر " أو بأنه " لا يهتم بهذا المختصر " كان ذلك وحده كافيا بإسقاطه من قمة الشهرة والمجد إلى الحضيض الأسفل من المقت والاحتقار، ولهذا " المختصر " أنصار ومريدون في الجزائر وتونس ومراكش يسمون أنفسهم " خليليين ".

وقد بلغ من عناية الناس بهذا المختصر أنهم جعلوا له في جامع " القرويين " " حزابة " كما للقران الكريم " حزابة "، و " الحزابة " هي جماعة من حفظة القرآن الكريم أو من حفظة " مختصر سيدي خليل " يجتمعون كل يوم في وقت معين، ويتلون معا (حزبا) أو (حزبين) (جزء) من القرآن أو من (مختصر خليل) عبادة وتبركا، ثم يهدون ثواب ذلك إلى أهل الخير الذين وقفوا أوقافا خيرية ينفق ريعها على هؤلاء " الحزابة " .

ومن العجيب أن (حزابة مختصر خليل) في (القرويين) يتناولون مراتب شهرية هي أوفر وأسنى من مراتب الكثيرين من (حزابة) القرآن الكريم.

ثالثا - الفهارس

1- قائمة المصادر والمراجع

*القرآن الكريم

المصادر:

المنتقد: أسبوعية، قسنطينة، الجزائر، ع 17، 22 أكتوبر 1923م

النهضة التونسية: ع 36، تونس، 6 نوفمبر 1923م.

النهضة، العدد 38، 8 نوفمبر 1923م.

النهضة، العدد 42، 18 نوفمبر 1923م.

النهضة، العدد 49، 19 نوفمبر 1923م.

المنتقد: ع 7، 12 أوت 1925

الشهاب: مجلة، صدرت بقسنطينة، الجزائر، السنة 1، ع 6، 1925م.

محمد الهادي، الزاهري: شعراء الجزائر في العصر الحاضر، ج1، ط1، المطبعة

التونسية، تونس، 1926م.

البرق: جريدة أسبوعية، قسنطينة، الجزائر، عدد1، 10 رمضان 1345هـ،

الموافق لـ 14 مارس 1927م.

البرق: ع 2، 13، 15، 17، 18، 21، 22، 23 (عام 1927م)

الشهاب: ع 155، 1928م

الإصلاح: جريدة أسبوعية، الجزائر، عدد 6، 24/10/1929م.

الرسالة: مجلة تصدر بمصر، ع 1، 18 رمضان 1351هـ

الفتح: جريدة أسبوعية، القاهرة، مصر، ع 538، 14 ذي الحجة 1355هـ.

محمد السعيد، الزاهري: الإسلام في حاجة إلى دعاية وتبشير، ط2، دار الكتب،

الجزائر، 1933م.

الصراط السوي: أسبوعية، تصدر بقسنطينة، الجزائر، ع 4، 9 أكتوبر 1933م
السنة النبوية المحمدية: أسبوعية، تصدر بقسنطينة، الجزائر ع 12، 24 أبريل
1933م

الشرية النبوية المحمدية: أسبوعية، ع 1، تصدر بقسنطينة، الجزائر، عام 1933
الشرية النبوية المحمدية: ع 2، 24 جويلية 1933م
الشهاب: مجلة قسنطينة، ع 2، الجزائر، السنة الأولى، 1925م.
— : ع 155، 1928م

— : مجلد 10، جزء 9، أوت 1934.

البصائر الفترة الأولى: جريدة أسبوعية، الجزائر، ع 11، 20 مارس 1936م
الوفاق: أسبوعية، الجزائر، العدد الأول، 3 محرم 1357 هـ، 23 مارس 1938م.
البصائر الفترة الأولى : ع 146 السنة الثانية، (4-9-1949)
البصائر الفترة الثانية: ع 158 السنة الثانية 1951
الرسالة: ع 1052، 23 فبراير 1953م.

آمال: مجلة أدبية شاملة تصدرها وزارة الثقافة، شعر ما قبل الاستقلال، العدد
الأول، الجزائر، دت.

البصائر بصائر عهد الاستقلال: ع 408، سبتمبر 2008م

المراجع:

أحمد، توفيق المدني: هذه هي الجزائر، مكتبة النهضة المصرية، مصر، 1956م
أحمد طالب، الإبراهيمي: آثار محمد البشير الإبراهيمي، ج 3، ط 1، دار الغرب
الإسلامي، 1979م.

أحمد كمال، زكي: النقد الأدبي الحديث أصوله واتجاهاته، الهيئة المصرية العامة
للكتاب، 1983م.

- الأعرج، واسيني: اتجاهات الرواية العربية في الجزائر، بحث في الأصول التاريخية والجمالية للرواية الجزائرية، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986م.
- إبراهيم، أنيس: موسيقى الشعر، ط2، مطبعة لجنة البيان العربي، 1952م.
- _____ : بحور الشعر، ط2، مكتبة الأنجلو المصرية، مصر، 1952م.
- إبراهيم، الحاوي: حركة النقد الحديث المعاصر في الشعر العربي، ط1، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، 1984م.
- أبو إسحاق إبراهيم بن موسى الشاطبي: الاعتصام، ضبطه وصححه أحمد عبد الشافي، ج1، دار شريفة، الجزائر، د ت
- إحسان، عباس: فن الشعر، ط4، دار الشروق، عمان، الأردن، 1987م
- إميل بديع، يعقوب: علم العروض والقافية وفنون الشعر، ج3، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان،
- _____ : المعجم المفصل في علم العروض والقافية وفنون الشعر، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1991م.
- بدوي، طبانة: معجم البلاغة العربية، ط3، دار المنارة للنشر والتوزيع، جدة، الرفاعي، للنشر والطباعة والتوزيع الرياض، السعودية، 1988م.
- أبو بكر بن عبد القاهر الجرجاني: التعريفات، الدار التونسية للنشر، تونس، 1971.
- بسام، العسلي: الأمير خالد الهاشمي الجزائري، والدفاع عن جزائر الإسلام، ط2، دار النفائس، بيروت، لبنان، 1984م
- _____ ابن باديس وبناء قاعدة الثورة في الجزائر، ط2، دار النفائس، بيروت، لبنان، 1984م.

توفيق، المدني: حياة كفاح، مذكرات، ج 2، 1925م - 1945م، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1985م.

جميل صليبا: المعجم الفلسفي بالألفاظ العربية الفرنسية الانجليزية، مجلد1، دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان، 1978م.

جمال الدين محمد بن مكرم، ابن منظور: لسان العرب، ج4، مادة نص.

جمال الدين، بن الشيخ: الشعرية العربية بالتقدمة، مقالة حول خطاب نقدي، ترجمة مبارك حنون، محمد الوالي، محمد أوزاع، دار توبقال، الدار البيضاء، المغرب، 1996م.

جبران، خليل جبران: بلاغة العرب في القرن العشرين، المكتبة الثقافية، بيروت، لبنان، د ت.

جمال قنان: نصوص سياسية جزائرية في القرن التاسع عشر 1830م - 1914م، ديوان المطبوعات الجزائرية، الجزائر، 1993م.

أبو الحسن حازم بن محمد بن حازم القرطاجني: منهاج البلغاء وسراج الأدباء، ت محمد الحبيب بن الخوجة، 1966م

حسين، جمعة: المسبار في النقد . دراسات في نقد النقد للأدب القديم والتناص . منشورات اتحاد كتاب العرب، دمشق، سوريا، 2003.

حسن عباس: خصائص الحروف ومعانيها . دراسة . منشورات اتحاد كتاب العرب، 1998م.

حسين، محمود عارف، ومحمد، حسيب علي: دراسات في النص الأدبي - العصر الحديث - دار الوفاء لدنبا الطباعة والنشر، الإسكندرية مصر، د ت.

الخطيب التبريزي: كتاب الكافي في العروض والقوافي، تحقيق الحساني حسن العبد الله، ط3، مكتبة الخانجي بالقاهرة، مصر، 1994.

رمضان حمود: بذور الحياة، طبعة تونس، 1928.

سالم عبد الرزاق، سليمان المصري: شعر التصوف في الأندلس، دار المعرفة الجامعية، مصر، 2007، ص340.

سعد، مصلوح: الأسلوب دراسة لغوية إحصائية، عالم الكتب، القاهرة، مصر، د.ت.

سيف الإسلام، الزبير: تاريخ الصحافة في الجزائر، ج 4، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1971م.

صالح، خرفي: شعر المقاومة الجزائرية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، د.ت.

_____ محمد السعيد الزاهري، سلسلة في الأدب الجزائري الحديث، رقم5، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986م.

عبد المطلب، محمود: الإبداع والإتياع في أشعار فتاك العصر الأموي - دراسة - منشورات اتحاد كتاب العرب، دمشق، سوريا، 2003م.

عبد الله، الطيب: المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها، ج2، ط 3، دار الآثار الإسلامية، الكويت، د.ت.

عبد المطلب، محمود: والإبداع والإتياع في أشعار فتاك العصر الأموي - دراسة - منشورات اتحاد كتاب العرب، دمشق، سوريا، 2003.

عده، بدوي: دراسات في النص الشعري صدر الإسلام وبنو أمية، ط1، دار قباء الحديثة، 2007م.

عبد العزيز، عتيق: علم العروض والقافية، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، 1987م.

عبد العزيز، المقالح: الشعر بين الرؤيا والتشكيل. دار العودة للنشر والتوزيع، 1981م.

عبد العالي الصعيدي: بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة، ج1 مكتبة الآداب، القاهرة، مصر، 1999.

عبد الرحمن بن خلدون: المقدمة، ط1، دار الفكر، للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 2000م.

أبو عبد الله بن زكرياء بن محمد بن محمود القزويني: الإيضاح في علوم البلاغة المعاني والبيان والبديع، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2003.

عبد الله، شريط: المشكلة الأيديولوجية وقضايا التنمية، ديوان المطبوعات الجامعي، الجزائر، 1981م.

عبد الكريم، بوصفصاف: جمعية العلماء المسلمين ودورها في تطور الحركة الوطنية، 1931م-1954م، ط1، دار البعث، قسنطينة، الجزائر، 1981م.

عبد الملك مرتاض: فنون الأدب الجزائري الحديث، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1983م.

_____ فنون النثر الأدبي في الجزائر 1931-1954م، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1983م.

عبد القادر، القط: الاتجاه الوجداني في الشعر المعاصر، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، 1978م.

_____ نهضة الأدب العربي المعاصر في الجزائر، 1925م - 1954م، ط2، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1983م.

أبو علي الحسن بن رشيق: العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، ج 1، ط5، دار الجيل للنشر والتوزيع والطباعة، 1981م.

علي، الجارم. مصطفى، أمين: البلاغة الواضحة، دار المعارف، مصر، 1964م.

علي، خذري: نقد الشعر. مقارنة لأولويات النقد الجزائري الحديث . ديوان المطبوعات الجامعية، قسنطينة، الجزائر، 1998م.

عمار طالبي: آثار ابن باديس، م 2، ج 2، ط1، الشركة الجزائرية، الجزائر، 1997م.

عمر، بوقرورة: الغربية والحنين في الشعر الجزائري الحديث 1945 - 1962م، منشورات جامعة باتنة، الجزائر، د.ت.

عمر، الدقاق: الاتجاه القومي في الشعر العربي، ط3، جامعة حلب، سوريا، 1990م.

علي الجارم، أمين، مصطفى: البلاغة الواضحة مع دليلها، ديوان المطبوعات الجامعية، المطبعة الجهوية، وهران، الجزائر، د.ت.

غازي، يموت: بحور الشعر . عروض الخليل . ط 2، دار الفكر اللبناني للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، 1992.

أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري: أساس البلاغة، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 2004 م .

أبو القاسم، سعد الله: محمد العيد آل خليفة رائد الشعر الجزائري في العصر الحديث، ط2، مكتبة الدراسات الأدبية، دار المعارف، مصر، 1975م.

_____ : محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث (بداية الاحتلال) ط3، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1982م.

_____ : الحركة الوطنية الجزائرية 1900-1930، ج2، دار الغرب الإسلامي بيروت، لبنان، 1992م.

محمد، دكروب: الأدب والثورة، ط3، دار الفرابي، بيروت لبنان، 1990.

محمد، خير الدين: مذكرات، ج2، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، دت

محمد، الطمار: تاريخ الأدب الجزائري، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1981م.

ابن المحسن التنوخي: كتاب القوافي، تحقيق عوني عبد الرؤوف، ط2، مكتبة الخانجي، مصر، 1978م.

محمد علي، الشوابكة، أنور أبو سليم: معجم المصطلحات العروض والقوافي، دار البشير للنشر والتوزيع، عمان، لبنان، 1987.

محمد مصايف: فصول في النقد الأدبي الجزائري الحديث، دراسات ووثائق، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1972م.

محمد مصايف: النثر الجزائري الحديث، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1972.

مفدي، زكرياء: تاريخ الصحافة العربية في الجزائر، جمع وتحقيق أحمد حمدي، منشورات مؤسسة مفدي زكرياء، 2003م.

مرتاض، عبد الملك: نهضة الأدب العربي المعاصر في الجزائر، 1925م - 1954م، ط2، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1983م.

محمد العربي، الزبيري، تاريخ الجزائر المعاصر، دراسة، ج1، منشورات اتحاد الكتاب العربي، دمشق، سورية، 1999م.

_____ : المتقفون والثورة. منشورات المتحف الوطني للاتصال والنشر والإشهار، وحدة الطباعة بالرغاية، الجزائر 1995م.

محمد، ناصر: الصحف العربية الجزائرية من 1847 إلى 1939م. الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1980م.

_____ المقالة الصحفية، نشأتها، تطورها، أعلامها من 1903 إلى 1931م، ج1، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1979م.

_____ الشعر الجزائري الحديث اتجاهاته وخصائصه الفنية، 1925م - 1975م، ط2، دار الغرب الإسلامي، 2006.

محمد غنيمي هلال: الأدب المقارن، دار العودة، بيروت، لبنان، 1983م.

محمد البشر، الإبراهيمي: سجل مؤتمر جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، المطبعة الجزائرية، قسنطينة، الجزائر، 1935م.

محمد علي، الشوابكة، أنور أبو سليم: معجم المصطلحات العروض والقوافي، دار البشير للنشر والتوزيع، عمان، لبنان، 1987م.

مولود قاسم، نايت بلقاسم: إنية وأصالة، منشورات وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية، مطبعة البعث، قسنطينة، الجزائر، 1975م.

نازك، الملائكة: ديوان نازك الملائكة المجلد الأول، ط 2، دار العودة، بيروت، لبنان، 1979م.

نور الدين، السد: الأسلوبية تحليل الخطاب، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 1979م.

الوناس شعباني: تطور الشعر الجزائري منذ 1945 حتى 1980، ديوان المطبوعات الجامعية، بن عكنون، الجزائر، 1988م.

أبو اليقظان: الديوان، ج1، ط2، نشر جمعية التراث، العطف، غرداية، الجزائر، دت

الصحف والجرائد:

الثقافة: مجلة جزائرية، الجزائر، ع 8، 9، تموز 1972م.

جريدة المحقق، أسبوعية، الجزائر، ع 8 ماي 2006.

الفصل، عدد 109، مارس أبريل، المملكة العربية السعودية، 1986م.

أقلام العراقية، السنة الأولى، الجزء 9، وزارة الثقافة والإرشاد، بغداد، العراق، ماي 1965م.

مجلة الآداب والعلوم الاجتماعية، مجلة دورية علمية محكمة، عدد 4، كلية الآداب والعلوم الاجتماعية. جامعة فرحات عباس، سطيف، الجزائر، 2004م.

جريدة النجاح، ع 24، السنة السادسة، الثلاثاء 20 أكتوبر 1925م، الجزائر،

رسائل جامعية

إبراهيم، لقان: ملامح المقاومة في شعر محمد العيد آل خليفة دراسة فنية، رسالة ماجستير، (لم تنشر) معهد الآداب واللغات، جامعة قسنطينة، 2006م - 2007م.

عبد السلام ضيف: محمد السعيد الزاهري كاتبا، بحث مقدم لنيل شهادة الماجستير في الأدب الحديث جامعة باتنة، الجزائر، 1993م - 1994م.
حياة، معاش: الأشكال الشعرية في ديوان الششتري، دراسة أسلوبية، أطروحة مقدمة لنيل دكتوراه العلوم في الأدب العربي (لم تنشر)، كلية الآداب واللغات، قسم اللغة الأدب العربي، جامعة الحاج لخضر، باتنة، الجزائر، 2010م - 2011م.

2 - ملخصات الأطروحة

بالعربية

حاولت من خلال هذه الدراسة المتواضعة الموسومة بالإبداع الأدبي والفكر النقدي عند محمد السعيد الزاهري أن ألقى الضياء على زاوية من زوايا أدب الحركة الوطنية الجزائرية في العصر الحديث والتي لا يزال نورها - في اعتقادي - خافتا رغم جهود الباحثين في نفض الغبار عنها.

وقد تناولت فيها جانبين مهمين - في نظري - هما:

. الإبداع الأدبي بقسميه؛ الشعر والنثر عند أديب كان معرفة قبل استقلال الجزائر ثم أصبح نكرة بعده.

. الفكر النقدي الذي طبع جل كتابات هذا العلم؛ أدبا وسياسة واجتماعا.

وكانت المادة التي أبرزت من خلالها العنصرين المذكورين، نماذج من قصائد الزاهري، وكانت متنوعة الأغراض، ومقالات في شتى الفنون.

وبسبب افتقار المكتبة الأدبية الجزائرية للأعمال الكاملة لهذا الأديب فإني لجأت إلى الجرائد الجزائرية والمشرقية فانقيت أغلب أعماله.

ثم قمت بعمل إحصائي لها، وتتبع نماذج منها - رأيتها تفي بالغرض المطلوب - بالشرح والتحليل ثم استخلص ما يمكن استخلاصه من ظواهر فنية ميّزت أسلوبه.

وحتى تتوضح صورة الأدب الجزائري لتلك الفترة - من خلال قصائد ومقالات متنوعة - فقد ذكرت مجالات أدبية ونقدية قاوم هذا الأديب من خلالها ضيفا ثقيلًا احتل بلاده لعشرات السنين. وقد أبرزت من خلالها طابع صدق الشاعر في تعبيره، وجرأته في طرح الأفكار، ودقته في معالجة القضايا. ومن أجل توضيح اتجاهه الفني تكلمت عن لغته وأسلوبه ثم مصادر صورته، وقد تبين أن الأديب الزاهري من الأقطاب المجددين للنثر الجزائري الحديث رغم محافظته الشديدة، بل دفاعه المستميت عن التراث العربي الإسلامي، والتزامه بتجسيد مبادئه السامية.

وأخيرا، توجت البحث عن إبداع الزاهري شعرا ونثرا، وفكره النقدي بجملة من النتائج، أهمها أن كتابات الزاهري الفنية تجاوزت حدود المحلية، وقد استحسن أسلوبها كبار الأدباء والعلماء داخل الوطن وخارجه كابن باديس ومحب الدين الخطيب. عالجت هذه الآثار الأدبية مختلف أحداث الأمة العربية والإسلامية على حد سواء. وخصصت في النهاية ملحقا لأعمال الزاهري الشعرية منها والنثرية، جمعتها من الجرائد والمجلات الجزائرية والمشرقية التي كانت تستقبل إنتاجه من حين لآخر.

أخيرا، هذا جهد متواضع أرجو منه أن يكون أرضية صالحة لمن يأتي بعدي من الباحثين.

Résumé

Cette étude intitulée " la créativité littéraire et l'esprit critique chez **MED SAID EZAHIRI** " est un essai modeste pour illuminer l'un des piliers de la littérature de mouvement nationaliste en Algérie dont la lumière reste selon nos croyances mate et sans éclat malgré les efforts fournis par les nombreux savants pour le dépoussiérer .

J'ai traité dans cette étude deux cotés importants qui sont :

- 1- la créativité littéraire comportant ses deux parties: la prose et la poésie chez le littéraire **MED SAID EZAHIRI** qui fut connu et célébré avant l'indépendance et méconnu et marginalisé après .
- 2- l'esprit critique qui a marqué la plus part de ses écrits sur le plan littéraire, politique et social .

La matière que j'ai utilisé pour montrer les deux éléments cités se présentant sous forme de poèmes et d'articles traitant des thèmes dans divers arts et a cause de l'appauvrissement de la bibliothèque littéraire algérienne des travaux complet du grand littéraire **MED EZAHIRI** j'ai eu recours aux journaux algériens et autres qui recevaient de temps a l'autre ses productions . J'ai choisi des écrits qui traitaient les divers événements de la nation arabe et islamique et vu leur importance je leur ai réservé un volet ou une partie ou j'ai rassemblé ces œuvres en espérant les faire sortir au lecteur arabe et spécialement au lecteur algérien a l'instar de ce qu'a fait **AMAR TALBI** avec les œuvres d'**ABDELHAMID BENBADIS**

J'ai fait un travail de sélection ou un inventaire de toutes des œuvres qui puissent m'aider dans ma recherche . j'ai choisi des échantillons en les expliquant et les analysant puis j'ai pu conclure et faire ressortir les différents phénomènes artistiques qui caractérisent le style de son auteur .

Et pour montrer l'image de la littérature algérienne de l'après 1^{ere} guerre mondiale je me suis basé sur des textes de prose et des poèmes pour montrer la créativité littéraire d'**EZAHIRI** et son esprit critique. Le littéraire a combattu a travers ses écrits un colonisateur haineux et malveillant qui a envahi la terre algérienne pour des dizaines d'années . J'ai montré a travers ces textes la sincérité de ce poète dans ses expressions, son audace dans l'exposition des idées et sa précision dans le traitement des sujets.

Et pour montrer la tendance artistique de ce grand homme de littérature. J'ai parlé de sa langue, de son style et des sources de ses images. Il est démontré que le littéraire **EZAHIRI** est l'un des pôles novateurs de la prose algérienne contemporaine malgré son âpre conservation, sa dure défense du patrimoine arabe islamique et son engagement pour concrétiser et incarner ses nobles principes.

Enfin j'ai couronné ma recherche sur la créativité d'**EZAHIRI** soit en prose ou en poésie et son esprit critique par un ensemble de conclusions, la plus importante est que ses écrits artistiques ont eu un grand écho sur le plan national et international et que beaucoup de savants et hommes de littérature tel **IBENBADIS** et **MOUHIB EDDINE ELKHATIB** ont énormément apprécié son style .

A la fin, cette étude est un travail modeste, et j'espère qu'il sera une plate forme utile et bénéfique pour les futures chercheurs .

This study entitled **MOHAMED AL-SAID AL-ZAHIRI literature and criticism** a modest attempt to shed light on one of the leaders of national movement of literature in Algeria which remains high despite the efforts of researchers in the field .

I stressed two important aspects in this study

-In literature in both poetry and prose the adib was well-known before the independence of Algeria .

-critical thought that characterized most of his writings in politics and sociology .

I based myself a variety of poems and articles from various arts highlight these two aspects .

Due to of the lack **MOHAMED SAID ZAHIRI'S** full works in our literature library relied on the Algerian and estam newspapers and magazines from which I selected . To show its great importance I devoted for it a whole section where I collected records hoping to let it out to the Arab reader in general and Algerian in particular in the form of a complete work of **MOHAMED SAID ZAHIRI** like **AMAR TALBI** did with the records of **ABD ALGHAMID BEN BADIS** .

I had made some statistics following some samples with explanation and analysis and extract characteristics of this style .

To illustrate the picture of Algerian literature of this the period after w.w.I through poetic texts and critical thought of **ZAHIRI SAID** I cited some literary critical fields where he resisted to the abominable sehler that occupied the land of Algeria many years through which and I've highlighted the nature of sincerity of this poems his daring ideas and exactness different issues .

And to clarify his artistic side i've talked about his language and source of images which indicated that the writer **ZAHIRI** is one of the modern renovators of Algerian in spite of his zeal for the Arab Islamic heritage and his commitment to its principles .

Finally I culminated the research by the **ZAHIRI'S** creativity in poetry and prose and his critical thought with some results the most important one is that his artistic writings hard exceeded local limits and attracted great writers and scholars at home and abroad such as **IBEN BADIS** and **MOHIB AL-DIN AL-KHATIB**.

In conclusion this is a modest effort that I hope it would be a useful piece for future generations .

3- محتويات الأطروحة

29	19.....
	1- تمهيد..... 19
	2- مفهوم الإبداع لدى القدامى في التراث العربي 19
	3- مفهوم الإبداع لدى العرب والمعاصرين المتأثرين بالغرب خاصة 22
	4 - مفهوم الإبداع لدى محمد السعيد الزاهري 29
<hr/>	
163	30 الإبداع الأدبي عند محمد السعيد الزاهري
75	31..... : الإبداع النثري عند محمد السعيد الزاهري
	1 - تمهيد محمد السعيد الزاهري في حياته..... 33
	2- مفهوم الصحافة عند أدباء الحركة الوطنية في الجزائر 38
	3- الأصول الفكرية لصحافة الأديب محمد السعيد الزاهري..... 41
	4 الجرائد والمجلات اللاتي تضمنت كتابات الزاهري 45
	48
	65
116	75 : الإبداع الشعري عند محمد السعيد الزاهري
	1- تمهيد 77
	2- الزاهري الشاعر..... 78
	3- مضامين قصائد الزاهري 80
	القصيدة الأولى: "الجزائر تحيي الجزائر"..... 84
	ب - القصيدة الثانية: "الجزائر تحيي المتطوعين" 93
	ج - القصيدة الثالثة: "إلى الزعيم الجزائري بالإسكندرية" 100
	القصيدة الرابعة: "ليت قومي يعلمون" 105

الدراسة الفنية لشعر السعيد الزاهري (التشكيل الموسيقي) _____

(163- 117

118 1- تمهيد

118 2 - الحجم الشعري للزاهري

122..... 3- البنية الموسيقية الخارجية

الفكر النقدي عند محمد السعيد الزاهري 253 164

مضامين النصوص النقدية : _____ 211 167.....

167..... 1- تمهيد

170 2

194 3 - نقد الشخصيات

اللغة والأسلوب في فكر محمد السعيد الزاهري... 211 253 _____

213 أولا: تمهيد

214 ثانيا: الاقتباس والتضمين

226 :

248..... : الصورة الأدبية

253

257 و الفهارس

259 أولا: تمهيد

260..... ثانيا: الملاحق

262 ملحق بالقصائد الشعرية

298 ملحق بالنصوص النثرية

الفهارس : 582 564.....

564

575

581..... محتويات الأطروحة